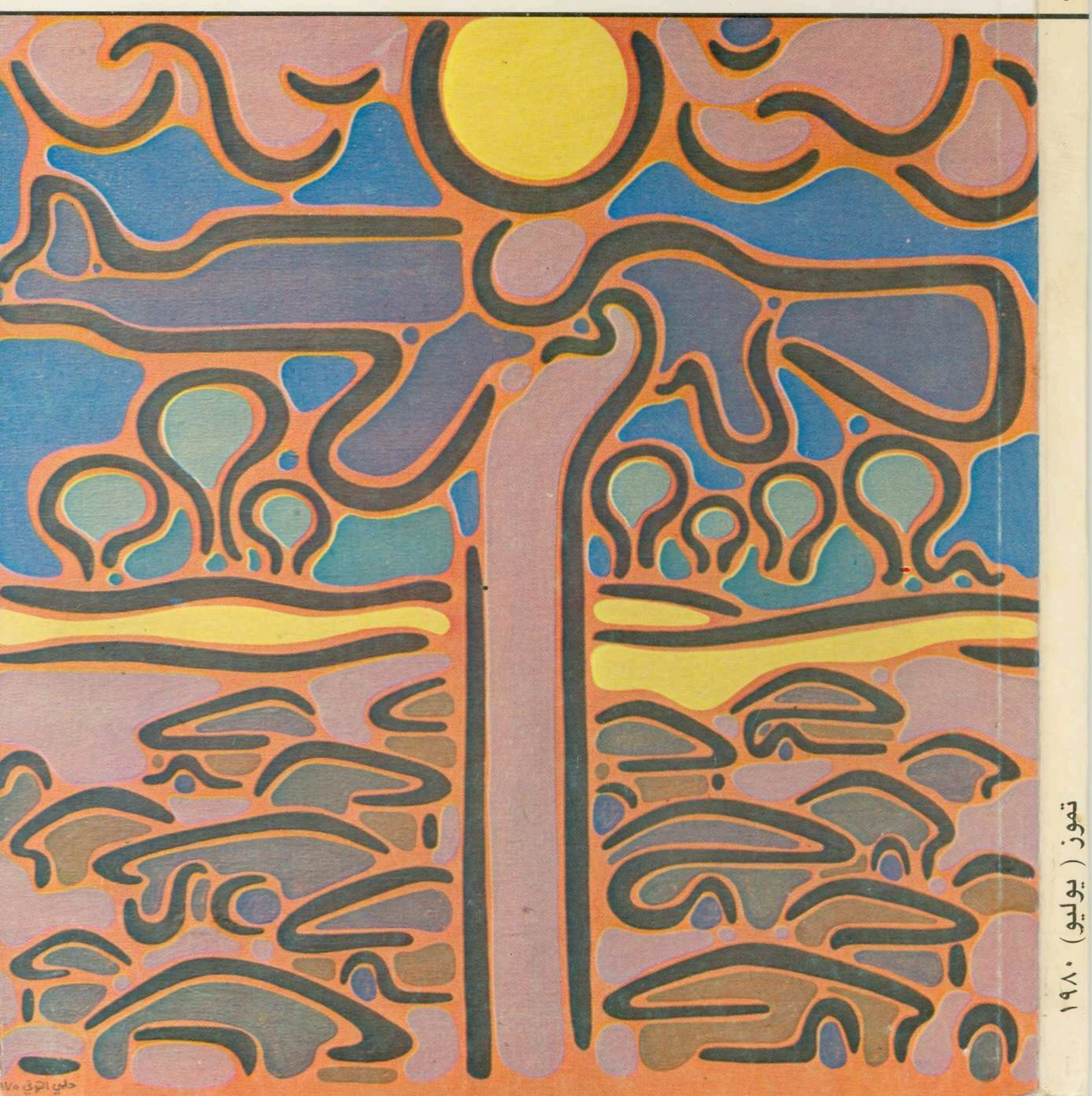
شؤون فلسطينية

١٠٤

تموز (يوليو) ١٩٨٠

شؤون فلسطينية
١٠٤
تموز (يوليو) ١٩٨٠



شؤون فلسطينية

١٠٤ — تموز (يوليو) ١٩٨٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

المحتويات

لوحة الغلاف من اختيار الاتحاد العام للفنانين التكشيليين الفلسطينيين ، للفنان حلمي التوني

المدير العام : صبري جريس ❊ **رئيس التحرير : محمود درويش**

سكرتير التحرير : فيصل حوراني

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) رأس بيروت ـ لبنان ، ص . ب ١٦٩١ ، تلفون . التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ، برقيا : مرابحاث ، بيروت .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) . ٦٠ ل .ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل .ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) . ٦٥ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

شفيق الحوت

جماهيرنا بحر وفدائيونا حيتان

كان ذلك في نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٩ ، عندما تلقيت الدعوة للتحدث في ندوة عن « الشرق الأوسط » أمام جمهرة من أساتذة وطلبة جامعة هارفرد في بوسطن . وكان الموضوع المحدد لي يتناول « المفهوم الفلسطيني للسلام » ؛ أي ، بعبارة أخرى ، شرح موقف منظمة التحرير الفلسطينية الرافض لاتفاقيتي كامب ديفيد اللتين كانت وسائل الاعلام الامبريالية قد صورتهما كأضخم إنجاز للسياسة الأميركية في التمهيد لسلام دائم في المنطقة .

وليس الهدف من هذا الحديث تسجيل ما جرى من حوار في تلك الندوة ، على أهمية ذلك ، وإنما التعرض لنقطة واحدة بالذات أثارها أستاذ بولوني الأصل ، جمعته مع بيرجينسكي وحدة النشأة وزمالة المهنة ، وفرقته عنه خلفيته السياسية وتطلعاته المستقبلية .

فبعد أن شهدت الندوة هجمة ضارية من الأسئلة والتعليقات حول عملياتنا الفدائية التي يصرون على تسميتها بـ « الارهاب » ، وقف هذا الأستاذ العميق الفهم لتجارب الشعوب النضالية ، ليشير إلى نقطته مع حرص ذكي على طرحها على شكل سؤال .

وكان آخر من تحدث قبله ، زميل له ، هو الدكتور ستانلي هوفمان ، أحد كبار المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط ، وأحد الطامحين الى منصب في الادارة الأميركية ومن خصوم هنري كيسنجر . قال هوفمان متسائلاً ، بعد مقدمة أظهر فيها بعض التعاطف مع مطالب شعب فلسطين :

« ولكن ألا تشعر معنا هنا ، بأن العمليات الحربية التي تقومون بها ، ويذهب ضحية لها عدد من الأبرياء تسـيء إلى نضالكم وتبتعد بكم عن عطف وتأييد الرأي العام لكم ؟ » .

ومما رددت به عليه :

« الحرب ، كل الحرب ، هي في حقيقتها فعل إرهاب . ومشكلتنا كشعب فقير أن وسائلنا بدائية وبسيطة . ومن المؤسف أن يبدو لنا القتال بالسكين ، مثلاً ، كعمل إرهابي بربري ، بينما قصف الناس بالقنابل المتنوعة من طائرات تكاد لا ترى ، يبدو عملاً حربياً ومقبولاً ! » .

وأضفت وأنا أشعر بأنني لم أكسب الحضور إلى جانبي بعد :

« مع ذلك ، فاني أدرك أهمية هذه الملاحظة ، وأعتقد أن علينا أن نكون أكثر دقة في اختيار أهدافنا العسكرية » .

ووقفت قليلاً قبل أن أسأله :

« ما رأيك لو ركزنا عملياتنا الداخلية ضد المستوطنات التي تقام في الأراضي المحتلة مثلاً ؟ » .

ولم أعد أذكر من بادر للرد على هذا السؤال ، ولكنني أذكر قول أحد الحضور :

« أعتقد أن المستوطنات أهداف مقبولة ، خصوصاً ان الرأي العام الدولي ، بما في ذلك الولايات المتحدة نفسها ، يدين إقامتها ويعتبرها غير شرعية » .

عند هذا الحد وصل الحوار ، عندما تقدم الأستاذ البولوني ، ليطرح وجهة نظره على شكل سؤال ، فقال :

« أظن أن من الصعب علينا ، ان لم يكن مستحيلاً ، أن نتفق في هذه الندوة أو خارجها على قاموس سياسي مشترك ، لاننا في الحقيقة مختلفون في مواقفنا حول القضايا التي نبحث فيها . وستبقى أنت ومعك كثيرون تصر على وصف نضالكم بأنه عمل ثوري ، وتجد من يصر على أنه عمل إرهابي . أنت تسمي المقاتل الفلسطيني « ثائراً » وفي المقابل نجد من ينعته بـ « الارهابي » . ولن ينحسم الموضوع ، ولن تتوحد التسميات إلا بعد أن يتقرر مصير الصراع الدائر بينكم وبين أعدائكم . وكلنا يشهد اليوم أن عدداً كبيراً ممن وصفوا ذات يوم بالارهابيين ، أصبحوا اليوم يخاطَبون كرؤساء دول وحكومات ، ويتسابق إلى ودهم ورضاهم اولئك الذين كانوا يتهمونهم بالارهاب والبربرية ؛ لذلك فاني لن أخوض في حوار عقيم ، وقناعاتي حول هذا الموضوع محددة وثابتة ولا أطمح لتغيير قناعات غيري ممن يرفضون أخذ العبرة من تجارب الشعوب عبر التاريخ . ولكني قلت ما قلت تمهيداً لسؤال أعتقد أنه ضروري » .

سكت قليلاً ، وكأنه يفكر بانتقاء كلماته ، ثم قال :

« أنا واثق بأن شعب فلسطين ، مثل أي شعب آخر فوق هذا الكوكب ، يعشق حريته وحقه في سيادة نفسه . وبالتالي فهو ضد الاحتلال الاسرائيلي ولا يمكن أن يستسلم له مهما تعرض لأنواع القمع الجماعي والارهاب المنظم الذي تقوم به إسرائيل . فمهما فعلت إسرائيل ، فانها لن تتفوق على من سبقها من قوى النازية والعنصرية وكل الايديولوجيات الاستعمارية . وفي النهاية ، لا بد للشعب من أن ينتصر وان ينتزع حقوقه الوطنية والانسانية ... من هذا المنطلق ومن هذا الفهم أريد أن أطرح سؤالاً محدداً يتعلق بما يعرف بـ « النضال الجماهيري » .

قال مستطرداً :

« مع كل تقديري لظروفكم النضالية ، فاني أشعر أحياناً بأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تعط هذا البعد النضالي ما يستحقه من عناية واهتمام . وهو في رأيي بعد لا يقل أهمية عن

النضال المسلح والنضال السياسي وكل أنواع النضالات الأخرى . أكثر من ذلك أنا من المؤمنين بأن النضال الجماهيري هو أب هذه النضالات جميعها » .

واستفاض الرجل بعمق وهو يتحدث عن هذا النضال قبل أن يختتم كلامه بالسؤال عن رأيه فيما قال .

وعلى الرغم من محاولتي الرد على سؤاله ، وتذكيره بما يجري في الضفة والقطاع ، وحتى في المثلث والجليل ، ثم الاشارة الى صعوبة الاتصال بجماهيرنا في الداخل مما يضطرنا أحياناً لركوب البحر ؛ على الرغم من هذا كنت أشعر أننا ـ هو وأنا ـ نعرف في أعماقنا أنه يمكن العمل أكثر من ذلك ، وان الجماهير لم تنزل بعد بثقلها الحقيقي الى ميدان الصراع .

وانتهى الحديث بيننا بتمنيات مشتركة ، لم نقلها باللسان جهراً ، وإنما نقلتها العيون ببريق الأمل والثقة في المستقبل .

كما قلت في البداية ، كان ذلك في نيسان (ابريل) ١٩٧٩ ، ونحن اليوم على مسافة عام من ذلك اليوم ، فأين الفارق ما بين نيسان ١٩٧٩ ومثيله من سنة ١٩٨٠ ؟

باستطاعتي اليوم ، لو التقيت بصديقي الأستاذ البولوني ، أن أكون أكثر ثقة واعتزازاً بشعبنا وبثورتنا . وأظنه سيكون أكثر سعادة واطمئناناً لأن ثورتنا أدخلت هذا البعد النضالي الهام في استراتيجيتها ، ان لم أقل بأن جماهيرنا في الوطن المحتل بادرت من تلقائها ، ودون مزيد من الانتظار لاستكمال شروط التعبئة والتحضير ، لممارسة دورها النضالي ، معتمدة على رصيدها الذاتي وقدراتها الكامنة وبالأسلحة التقليدية المتوفرة ابتداء من العصي والحجارة وما يمكن أن يصنع داخلياً من أسلحة وذخائر . ولكن أهم هذه الأسلحة وأفتكها هو وعي الجماهير دورها النضالي كجماهير واستردادها لزمام المبادرة في التحدي والتصدي لقوى الاحتلال الصهيونية .

ولا شك في أن الاخ فهد القواسمة قد لخص ثورة الجماهير القائمة في الوطن المحتل بجملة جامعة مانعة ، عندما قال : « ان حجارة أطفالنا في فلسطين ترهب العدو أكثر من مدافع الأنظمة الصامتة » . ولعل في ما اعتمدته السلطات الصهيونية من وسائل قمع وارهاب للرد على هذا النضال الجماهيري ما يؤكد مقولة الأخ القواسمة ، ويفضح من جديد حقيقة الدولة العبرية وعقيدتها أمام الرأي العام العالمي ، ويضعها في زاوية خانقة جنباً إلى جنب مع كل مثيلاتها من الكيانات العنصرية الاستعمارية ، والمحكومة تاريخياً بالزوال .

فعندما اندلعت شرارة هذا النضال الجماهيري المتصاعد بضرب هدف داخل مدينة الخليل ، لم يستطع أي مرجع دولي ، رسمي أو غير رسمي ، تسمية ذلك بـ« العمل الارهابي » دون أن يثير السخرية على نفسه ، أو أن يكشف القناع عن وجهه كصهيوني استعماري عنصري . عملية الخليل لم تعط أية فسحة لنفاق سياسي أو لتلاعب على الألفاظ . فالتواجد اليهودي في الخليل ، كما في غيرها من الضفة والقطاع ، قضية لم يستطع العالم الغربي الامبريالي الاقرار بها وتشريعها . من هنا كان الحرج : هذا اذا كان هناك ثمة ما يحرج الامبريالية أو يثير خجلها أمام افلاسها السياسي .

وكما كان الهدف موفقاً ، كذلك كانت الأداة التي نفذت ، بما في ذلك السلاح الذي استعمل . فالمقاتلون هذه المرة لم يأتوا من خارج الأرض المحتلة ؛ لم يركبوا البحر ولم يتسللوا من حدود . هم من داخل السجن الكبير ، وربما من الخليل ذاتها . إذن ، هي عملية ثورة في الداخل ، لم يورِّدها « ارهابيو منظمة التحرير الفلسطينية » من الخارج كما تركز الدعاية الصهيونية باستمرار ، لتوحي زوراً أن لا مشكلة لاسرائيل في الداخل . حتى السلاح ، وباعتراف العدو وبتصريح رسمي ، مصنوع في الداخل . وهذا يشير بكل الوضوح الى مدى وعمق التصميم الشعبي على منازلة العدو وتصفية احتلاله .

أما ما هو أعظم ويحمل كل الدلائل والمؤشرات الخطيرة ، ان الذين نفذوا العملية قد أفلتوا من قبضة « الجيش الذي لا يقهر » . افلتوا إلى أين ؟ إلى أي كهف أو مغارة ، أو أية بئر مهجورة ، أو أي واد بلا قرار ؟ لا . هذه كلها لا تكفي ولا مأمن لها . فدائيو تلك العملية اختبأوا في ضمائر جماهيرهم . وعندما تتحول الجماهير الى بحر ، يصبح الفدائيون سمك هذا البحر وحيتانه . وهذه هي البداية ؛ بداية النقلة النوعية في التنسيق بين المقاتل الثوري وجماهير شعبه ، وهي بداية الحرب الشعبية التي لا نهاية لها غير النصر .

لقد أسقط في يد « اسرائيل » الدولة ، و« اسرائيل الجيش الذي لا يقهر » وأحست ببداية النهاية فلجأت ، وبأسرع مما توقع أي مراقب ، إلى « إرهابها التقليدي » ، فبعثت الحياة في « ارغونها وشتيرنها » فيما يسمى اليوم بـ « الجيش السري الإسرائيلي » على غرار ما حدث في جيش فرنسا بالجزائر يوم تعاظمت ضربات الثوار .

أفلست « اسرائيل الدولة » بأسرع مما توقع أشد خصومها ، فكشفت القناع ، وارتكبت الجريمة البشعة ، محاولة اغتيال رموز جماهيرنا من رؤساء البلديات . ان سيقان بسام الشكعة وكريم خلف هي الشواهد المشاعل على حقيقة « اسرائيل » دولة وعقيدة وأخلاقاً .

لم تستطع « اسرائيل » طردهم أو سجنهم ، فعمدت إلى محاولة إغتيالهم . ومن لم يكن متوقعاً ذلك من « اسرائيل » فانه لا يفهمها وسيقضي عمره دون أن يفهمها . إن « أمن إسرائيل » ، بالمفهوم الصهيوني ، يعني تصفية كل فلسطيني بالوراثة أو بالإنتماء الثوري . و« وجود اسرائيل » ، بالمفهوم الصهيوني ، يعني شطب « وجود فلسطين » من الخريطة الجغرافية والتاريخية ؛ نقيضان لا يلتقيان . إذا قبلنا نحن بالتعايش فهم لن يقبلوا ، وهم أدرى منا بهذه « الحقيقة » لأنها من اختراعهم ومن بقايا الكذبة الكبرى التي تبرر وجود كيانهم .

حقاً لقد بدأت المعركة التي لا نهاية لها إلا بالحسم المصيري .

إنها معركة الجماهير التي دخلت المعركة بكل قواها ، وفي الطليعة قوة الإيمان القادرة على زحزحة الجبال وإدخال البعير الصهيوني في خرم الابرة الفلسطينية .

ولن يرهب شعبنا شيء بعد اختراقه جدار الخوف ، ولن يثني شعبنا وهم أو سراب وقد تجاوز نقطة اللارجوع ، ولن يدخر شعبنا الثمن المطلوب لتحقيق النصر وقد تساوت عنده الشهادة أو النصر .

إنها البداية ، بداية النهاية : نهاية الظلم والإستعمار والعنصرية ؛ نهاية الكيان الصهيوني العنصري .

محمود عباس (أبو مازن)

الحكم الذاتي
مباحثات لمن لا يملك الحق
وتنازلات لمن لا يستحق

الحكم الذاتي الكامل الشامل للفلسطينيين ، والحكم الاداري الذاتي ، والحكم الذاتي للافراد وليس للارض ، دوامة تعيشها المنطقة العربية وتتابعها وتتحدث عنها ، ويؤمل البعض خيراً ، ويرى البعض فيها الفشل ، تنجح يوماً وتحرز تقدماً ملموساً يوماً آخر ، وتتبعثر يوماً ثالثاً وتنتقل اللجان بين هرتسليا والاسكندرية ، وتشغل اسلاك الهاتف بالمباحثات الشفوية ، ويدور الرسل بين المدن والرؤساء والوزراء ، وتتناقض التصريحات وتثور الخلافات والتكذيبات والتصحيحات ، وتقوم الدنيا ولا تقعد ، ثم تقعد ولا تقوم . دوامة عمرها سنة ومشكلة عمرها سنتان ، واغنية الشيطان التي تبدأ ولا تنتهي . اميركا مشغولة بالفلسطينيين وحكمهم الذاتي ، واسرائيل تتحدث عن الفلسطينيين وحكمهم الذاتي الاداري ، ومصر تقول للفلسطينيين حكم ذاتي شامل . والبعيد عن هذه القضية الطويلة الفلسطينيون فقط اصحاب الحق واصحاب المشكلة واصحاب الرأي .

بعيدون لأنهم غير معنيين بهذه القصة ، من بدايتها وحتى نهايتها ؛ بعيدون لأنهم غير مؤمنين بصدق النوايا وبصحة الفحوى ؛ بعيدون لأنهم رفضوا ، منذ زمن بعيد ، مقولة الوصاية والولاية ووضع اليد ، بعد ان شبوا عن الطوق وحملوا السلاح وقالوا في قضيتهم ما قالوا ، ولم يعد لاحد ان يقول بعدهم او يتحدث بعدهم وعنهم وباسمهم .

ولكن ماذا تفعل أطراف المفاوضات ، وما هي آفاق عملها ، وما هي مخططاتها ، وهل يكفي ان نقول ان الامر لا يعنينا حتى ينتهي الأمر ، وهل في النية التوجه نحو نقاط ضعف لا نعرفها او نعرفها ونفعلها ؟ .

قبل ان نجيب على هذه الاسئلة ، لأننا لن نكتفي كالآخرين بأن نقول لا ثم ننام على حرير معتمدين على لا شيء في مقاومة هذه المشاريع ، بل لا بد من الاجابة عليها ، وقبل ذلك علينا ان نشير هنا الى مسلمتين اثنتين في السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط .

الاولى : أن اميركا تسعى نحو الامن وليس السلام في المنطقة : الامن الذي يضمن لها

مصالحها المتمثلة اساساً في البترول ، ثم في طرد النفوذ السوفياتي من المنطقة ، وكذلك الحرص على حياة دولة اسرائيل باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من أمنها ، وباعتبارها نقطة ارتكازها في محافظتها على مصالحها الحيوية في المنطقة .

الثانية : رفض اي مشروع او حل من شأنه ان يوصل الفلسطينيين الى دولة مستقلة ذات سيادة ، لان مثل هذا المشروع سيكون خطراً مزدوج الأثر في المنطقة ، سواء بالنسبة لاسرائيل ذاتها او بالنسبة لمصالح اميركا الأخرى .

هاتان الركيزتان هما اساس السياسة الاميركية في المنطقة ، ومن خلالهما تسيّر كل امورها وتوجه مباحثاتها ومندوبيها ومبعوثيها ، ولا يمكن لها ان تتنازل عن واحدة منها الا اذا تغيرت المعادلات الدولية وموازين القوى بحيث تجبرها على فعل ذلك .

ولتحقيق هذا فهي تسعى لتشمل المنطقة العربية كلها برعايتها وتضعها رهن سياستها ، وهدفها الاساسي زيادة تمزيق الصف العربي حتى لا يتمكن في اي وقت كان من ان يجيّر امكاناته الهائلة الجبارة في الضغط بشتى اشكاله نحو تحقيق حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية . نقول زيادة تمزيق الصف العربي لانه ، في وضعه الراهن ، ممزق رغم كل تعبيرات القاموس العربي عن التضامن والوحدة والتعاون والتنسيق والتفاهم وغيرها .

من هنا كان دور الدبلوماسية الاميركية تقسيم البلاد العربية الى « مناطق مشاكل » ، كل منها تشمل مجموعة من الدول لها ولمشاكلها طابع خاص يجعلها مع الزمن تتقوقع على نفسها وتتكفىء على ذاتها وتحيط نفسها بسياج وهمي بادعاء أنه حماية لها . وكل « منطقة مشكلة » تتنافر مع الاخرى وتتنافس وتتحارب وضمن كل « منطقة مشكلة » مشاكل فرعية وقضايا ثانوية ونزاعات مصلحية او شخصية ، بحيث يقوم العالم العربي على سطح فاسد من الخلافات المؤدلجة فسيتنفد بذلك كل طاقاته ، ويهدر كل امكاناته ، ويتحول بشكل نهائي عن لب المشكلة واساسها ، وينسى ، في زحمة قضاياه اليومية ، قضيته المزمنة : فلسطين .

وفي البيت الابيض جرى تقسيم البلاد العربية الى مناطق مشاكل على النحو التالي :

١ ـ **القضية الفلسطينية** : ومنطقة المشكلة هي الارض المحتلة والاردن وسورية ولبنان .

٢ ـ **قضية النفط** : ومنطقة المشكلة هي الجزيرة العربية (المملكة السعودية والكويت وقطر والبحرين والامارات) .

٣ ـ **الوجود السوفياتي**: ومنطقة المشكلة هي العراق واليمن الجنوبية وسوريا وليبيا .

٤ ـ **قضية الصحراء** : ومنطقة المشكلة هي الجزائر والمغرب وموريتانيا .

٥ ـ **ومنطقة المشكلة الأخيرة** : هي مصر والسودان والصومال .

وقد بدأ العمل في اميركا على ترسيخ طبيعة خاصة لمناطق المشاكل هذه : بحيث تصبح ، مع الزمن ، مناطق اقليمية لها طابع خاص يفصلها عن المناطق الأخرى ، كما يبعدها بشكل رئيسي عن القضية الام ، وتصبح مجمل اهتماماتها بما لديها وضمن اطارها . وتطمح اميركا

الى أن يصبح هذا الشكل من التقسيم امرا واقعا كالتقسيم الاقليمي الذي فرضه الاستعمار في مطلع هذا القرن . وبالرغم من رفض الشعوب له ومناداتها بمحاربته وشجبه ، فان الممارسات العامة لكل الحكام المتعاقبين على مراكز السلطة في هذه الدول كرسوا تلك الحدود ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من واقعهم وواقع اوطانهم ، بالرغم من حديثهم الذي لا ينقطع عن الوحدة والاتحاد .

هذا جانب من الاستراتيجية الاميركية في المنطقة : والجانب الآخر هو محاولة ضرب وحدة الشعب الفلسطيني وتسريب عناصر اليأس والملل الى نفوس ابنائه ، بحيث يمكن ان يتقبل اي حل يجمّل الاحتلال ويحسّن صورته لديهم ، وهذا يتطلب العمل ضمن خطين اثنين :

الخط الاول : الضغط المستمر الذي تمارسه إسرائيل على الشعب الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال ، ويتمثل هذا الضغط في عناصر مهمة ومتشعبة تصب كلها في خانة اضعاف صموده وزعزعة ايمانه والنيل من معنوياته ، واهم عناصر الضغط فيه هي :

١ ـ بناء المستوطنات : فمنذ الاحتلال الثاني عام ١٩٦٧ ، بدأت القيادة الصهيونية بناء مستوطنات تشكل أحزمة تحيط بالتجمعات السكانية في الضفة الغربية وقطاع غزة بحيث تعزل هذه التجمعات عن بعضها البعض ، وتمنع اي اتصال بين السكان الفلسطينيين في الوقت المناسب ، كذلك فانها تستولي على اخصب الاراضي واجودها : الامر الذي يجعل ابناء الشعب الفلسطيني ، نتيجة مصادرة اراضيهم يرحلون الى خارج الارض طلباً للرزق والحياة . وبمرور الوقت تصبح هذه المستوطنات امراً واقعاً ومقبولاً ، كما وتكون بالتالي اهم عنصر مساومة بيد الحركة الصهيونية للمستقبل . فاذا عرفنا ان الضفة الغربية تحتوي الآن على ثمانين مستوطنة من احجام مختلفة ، وان مدينة القدس العربية وحدها تحتوي على اكثر من خمسة احياء يهودية كاملة ، وان مجموع الاراضي التي سيطرت عليها حكومة اسرائيل تساوي ٢٨٪ من مجموع مساحة الضفة الغربية ، وأن الضفة الغربية لا تساوي اكثر من ١٩٪ من كل ارض فلسطين ، اذا عرفنا كل هذا نصل الى النتيجة التي تتوخاها الحركة الصهيونية من وراء موجة الاستيطان هذه . وبالرغم من ان مجموع المستوطنين في المستوطنات لا يتجاوز اثني عشر الفاً ، فان هذه المستوطنات معدة سلفاً لاستقبال أية اعداد من المهاجرين الجدد الذين تترقبهم الحركة الصهيونية نتيجة اثارتها لموجات اللاسامية التي تفتعلها بين الفينة والأخرى في البلدان والاقطار التي تعيش فيها جاليات يهودية . ان الهدف الاول ، كما اسلفنا ، من بناء هذه المستوطنات ، بالاضافة الى التهام الارض ، هو ترحيل السكان العرب تطبيقاً لنظرية بيغن باعتبار الحكم الذاتي للافراد وليس للارض . فاذا رحل الافراد تبقى الارض صهيونية وتحل المشكلة تلقائياً .

٢ ـ العمل والعمال : منذ الاحتلال الثاني عام ١٩٦٧ ، اتخذ رحيل الفلسطينيين عن الارض اتجاهين : الاول نحو الضفة الشرقية ومن ثم الى بلدان الخليج والنفط : والثاني نحو الارض المحتلة عام ١٩٤٨ بحثاً عن العمل في مصانع العدو ومعامله ومزارعه واداء الاعمال الشاقة التي تعوض الاسرائيليين غياب الشباب سواء في الاحتياط العسكري او بسبب تدني نسبة الهجرة العادية . وقد كان عدد هؤلاء لا يقل عن مئة الف شاب وطفل وفتى يعملون لدى

الاسرائيليين بأسعار زهيدة وبشروط لا انسانية ، وذلك في غياب الرعاية العامة والاهتمام الخارجي بمصير ومستقبل هؤلاء ؛ الامر الذي حقق لاسرائيل هدفين : احدهما اقتلاع الشباب من الارض وابعادهم عنها ومن ثم اهمالها وتركها عرضة للبيع او المصادرة او الاهمال : وثانيهما يأتي في وقت تمتنع فيه اسرائيل عن عرض العمل على هؤلاء مما يجبرهم على مغادرة البلاد نهائياً الى الخارج ، وبالتالي افراغها من اهلها .

٣ ـ ارتفاع الاسعار : لا يقابل ارتفاع الاسعار الجنوني في « اسرائيل » والمناطق المحتلة وانخفاض سعر العملة الاسرائيلية اية زيادة في الاجور او الدخل الخاص بالفلسطينيين ، بحيث يكون الدخل الفردي في تراجع مستمر حتى يصل الى مرحلة يصبح الانسان فيها عاجزاً عن الحصول على ضروريات الحياة ، وبالتالي لا يجد امامه منفذاً آخر ولا خياراً آخر غير الرحيل الى الخارج وقطع صلته بالأرض مضطراً .

٤ ـ الترحيل وهدم البيوت : ان العقوبات الجماعية التي تطبقها القوات الاسرائيلية على الشعب الفلسطيني ، تشمل الترحيل وفرض الغرامات وهدم البيوت ، بحيث تصبح العائلة بلا معيل يعتني بها ويهتم بشؤونها كما تصبح في العراء بسبب العقوبات الجماعية . ان آلاف البيوت التي هدمت وآلاف الاشخاص الذين رحلوا منذ الاحتلال حتى الآن تضع السياسة الاسرائيلية تجاه الارض المحتلة على المحك العملي ، الهدف الاساسي منها اصبح معروفاً ولا حاجة للتكرار .

يضاف الى كل هذا السيطرة الكاملة على مصادر المياه في الضفة والقطاع ، وحرق المزروعات والتضييق على تصديرها ، ومحاربة المزارعين واصحاب المزارع ، والحيلولة دون قيام اي نوع من الصناعة وغير ذلك : فكل هذه الاسباب والابواب تخدمُ الغرض الاسرائيلي في اخلاء الارض من سكانها او املاء الحلول التي تحقق مصلحة اسرائيل عليهم ، وذلك بما يضمن لها السيطرة الكاملة على الارض الفلسطينية والاستفادة من الفلسطينيين يداً عاملة رخيصة تؤدي لها الخدمات التي تريدها ، بحيث يصبح الفلسطينيون مع الزمن اقلية مبعثرة في شوارع المدن والمستوطنات والمستعمرات الاسرائيلية ، لا يملكون البيت ولا يملكون الارض ولا يملكون شيئاً .

هذا هو الخط الاول الذي تسير عليه السياسة الاسرائيلية الاميركية في الارض المحتلة : هذه السياسة التي بلغت ذروتها هذه الايام ، كما وصلت الى اقصى مداها الشرس .

والخط الثاني : يتلخص في بذل كل الجهد لمحاولة تنكيس البندقية الفلسطينية وانتزاعها من أيدي المقاتلين ، وتهديم المخيمات على رأس أهلها ، والسعي الحثيث لفك الارتباط بين الشعبين اللبناني والفلسطيني ،ولتسليط القوى الانعزالية لتأخذ جانباً من هذا المخطط بعمليات استنزاف يومية هدفها القضاء المبرم على رمز الكفاح الفلسطيني وتحطيم معنويات الشعب اللبناني من اجل تخليه عن موقفه النضالي البطولي والاسطوري في دعم الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية . لذلك نجد ان الهجمات المستمرة على الجنوب اللبناني لا تنقطع بحيث تبقى كل القوى الوطنية مشغولة ومنشغلة حتى يأتي الوقت المناسب والظرف الدولي المناسب الذي تهيئه اميركا ، لتنقض اسرائيل وحلفاؤها على الفلسطينيين وحلفائهم ، وتنهي « اسطورة » الكفاح الفلسطيني بشكل كامل . ولقد حاولت في عدة مناسبات ومنذ عام ١٩٦٩

وحتى هذا التاريخ القيام بجملة عمليات اكتساح ، ولكنها ، حتى هذه اللحظة ، لم تحقق اياً من اهدافها ، وبالتالي باءت كل جهودها ونشاطاتها بالفشل الذريع .

ان معادلة الكفاح الفلسطيني المرير تمثل قنطرة متينة مبنية على اساسين اثنين : اولهما صمودالشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة : وثانيهما البندقية الفلسطينية في الخارج . هذه القنطرة تنتج نضالاً سياسياً واعلامياً وعسكرياً وجماهيريا رائعا ، وتثمر باستمرار مزيدا من التأييد لقضية الشعب العادلة ، وتحقق مزيداً من الانتصارات له ، كما تنتج مزيدا من العزلة للعدو الصهيوني . ونلاحظ ان هذين الاساسين يعتمد احدهما على الآخر في بناء الجسر او القنطرة ، ولا يستطيع احدهما ان يحقق منفردا ما يحققانه مجتمعين . ولذلك ، فان ما تسعى اليه السياسة الاميركية هو تحطيم احد طرفي الجسر ليسهل التهام الآخر . وان كانت في الواقع تسعى الى تحطيم الجسر بطرفيه لتتخلص مما تراه « سرطانا » في منطقة الشرق الاوسط . ولو أعدنا قراءة ما كتبناه مرة أخرى لرأينا ان هذه السياسة تسعى لتحقيق هذا الهدف من جملة الممارسات التي مررنا عليها .

ومباحثات الحكم الذاتي والتسريبات التي تحاول الاطراف ايصالها الى مسامع الجماهير، هي جزء من عمليات تحطيم الجسر، في محاولة منها لدغدغة عواطف ضعاف النفوس في الوصول الى بعض المكاسب الوهمية والتمني بالوصول ايضا الى ما هو افضل وافضل حتى يتم ، حسبما تقول مصر ، حصول الشعب على كامل حقوقه . وحتى نعرف بالضبط ماذا يجري ضمن كواليس المفاوضات ، نورد هنا ان نقاطا اربعا يجري البحث حولها وتطرح الأفكار بشأنها ، وجميع هذه النقاط تشكك بحق الشعب الفلسطيني بالارض الفلسطينية وتعطي اسرائيل الحق ، كل الحق ، في تقرير مصيرها منفردة بحضور الطرف المصري كشاهد زور . وهذه النقاط هي :

١ ـ حق سكان القدس العرب بالانتخابات لما يسمى بالمجلس التشريعي او الاداري ، باعتبار ان موضوع القدس لم يرد في اتفاق كامب ديفيد .

٢ ـ كيف يمكن ان تدار « الارض » ، ومن هو صاحب الحق في ادارتها وملكيتها ؟

٣ ـ كيف يمكن ان تستغل « المياه » ومن هو صاحب الحق في ملكيتها ؟

٤ ـ موضوع الامن في الضفة والقطاع ، وما هو الدور الذي سيعطي لسلطة الحكم الاداري الذاتي فيه ، او بمعنى ادق ما هو الجزء الذي يمكن ان تتخلى عنه السلطة العسكرية الاسرائيلية ؟

ولقد رفضت اسرائيل ، من حيث المبدأ ، الدخول في حوار حول النقطة الرابعة باعتبارها من المقدسات التي لا يجوز المساس بها ، ولا يجوز الحديث عنها . ولكن ايا كانت نقاط البحث والاتفاق والخلاف ، فهذا امر لا يهمنا كثيراً او قليلاً لان من يتحدث عن فلسطين وارض فلسطين لا يملك الحق في ذلك ، ومن يتلقى التنازلات والتسهيلات لا يستحقها . فصاحب الحق في القول الفصل بعيد بعيد عن كل هذا ، وقد عبر عن رفضه واستنكاره وشجبه بكل وسائل التعبير ، ابتداء من القاء الحصا والتسلح بالعصا ، مروراً بالاضراب والتظاهر والاعتصام ، وانتهاء

بالمدفع والرشاش وتقديم التضحيات بشلالات الدم التي لا تنقطع ، ولكن : الى متى يمكن ان يصمد شعبنا امام كل هذه الهجمات التي لا تنتهي ، وامام الضغوط الأقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وامام القهر القومي والعنصري والعرقي الذي تمارسه الحركة الصهيونية ؟ والى متى يمكن ان يحتمل شعبنا الترحيل الجماعي وهدم البيوت الجماعي والعقوبات الجماعية ؟ والى متى يمكن ان يصبر على التجويع والانتهاك والاذلال ؟ والى متى تبقى الثورة الفلسطينية تتصدى للهجمة الصهيونية الشرسة منفردة في الميدان ؟

لا يكفي ان نكبر ونهلل لصمود شعبنا في الداخل ، ولا يكفي ان نقول كلمة خير في عملية جريئة تقوم بها قوات الثورة الفلسطينية ، ولا يكفي ان نتحدث بالاعجاب عن بطولات شعبنا وانتفاضته الرائعة ، ولا يكفي ان نردد القصص والحكايا عن الشبان الذين تصدوا بالحجارة للضباط الاسرائيليين ، ولا يكفي ان نعرض قضية المبعدين على مجلس الامن وان يقوموا بمظاهرة عند الجسر توطئة لعودتهم الى بلادهم ، ثم لا يعودون .

من قال ان بيانا يصدر هنا ونشرة تصدر هناك وتصريحاً يذاع هنا ومقالة تكتب هناك ، تكفي لتدعم صمود شعبنا وتؤدي الى ثباته وتصديه للمحتل المستعمر ؟ من قال ان توجيه التحيات الحارة والشد على الايدي والتمنيات الطيبة والاقرار بالبطولة كافية ليستمر هذا الشعب في رفضه للتسويات والحلول المطروحة ومقاومته لها ؟ من الذي يستطيع ان يدعي معرفته حقيقة ما يجري داخل الارض المحتلة ، ومن يستطيع ان يزعم انه كلّف خاطره ببحث احوال شعبنا ونتائج الهجمات الشرسة عليه ومعاناته والصعوبات التي تواجهه ؟ من الذي يملك احصاءات عن الهجرة الاجبارية التي تتم سنوياً الى الوطن العربي وخارج الوطن العربي ؟ من الذي يقول انه قدم حلولاً عملية للمشاكل اليومية التي يصادفها شعبنا ؛ كل فرد من شعبنا ؟ من الذي يعرف عدد سكان الضفة عام ١٩٦٧ وعدد سكانها الآن ، ولماذا هذا التناقص الخطر وما هي نتائجه ؟ ومن الذي يعرف عدد سكان قطاع غزة عام ١٩٦٧ وعدد سكانه الآن ، ولماذا هذا التناقص الخطر وما هي نتائجه ؟ من الذي يعرف اين يذهب الشباب واين يعملون واين يهاجرون ، وما هي نتائج تفريغ المنطقة من هذا العنصر الفعال في مقارعة الاحتلال ؟ .

هل حصل شيء من هذا ؟ ربما ! ولكن في حدود اللامبالاة التي هي اصل التفكير ونبع الممارسة ؛ حصل في حدود رفع العتب والتحلل من المسؤولية ، حصل في مجال الادعاء والمفاخرة والمظاهر ، حصل بالاسلوب الذي لا يسمن ولا يغني .. كيف كان ذلك ؟

منذ الاحتلال لم يفكر احد بأهل الاحتلال . لا نقول احتلال عام ١٩٤٨ وانما الاحتلال الثاني الذي وضع في القفص الكبير مليوناً وربعاً آخرين من الشعب الفلسطيني تحت رحمة الصهاينة . واستمرت هذه اللامبالاة عشر سنوات عجاف ، واكتفى الجميع بكلمة لا .. للاحتلال . فاستراحوا واراحوا انفسهم من عناء التفكير وصعوبة البحث ومشاكل المتابعة ، وكأن الأمر لا يعني احداً ولا يخص احداً وليس ضمن مسؤولية أحد . وكأن مصير المليونين من شعبنا لا يهم المئة والثلاثين مليوناً من امتنا ، وليسوا جزءاً من هذه الامة . ولماذا نذهب بعيداً ؟ ألم نسمع ، ولا زلنا نسمع ، ان « عرب الـ ٤٨ » اسرائيليون لحماً ودماً وجنسية ؟ الم يكن امراً مشيناً ان يذكر احد منا احداً منهم ولو بالسوء ؟

عشر سنين .. مرت ، وهؤلاء ليسوا منا ولسنا منهم.. قولاً واحداً وعملاً واحداً وفكراً واحداً.

الى ان خرجت منظمة التحرير بمشروع لدعم صمود شعبنا في الداخل ، مشروع « التوأمة » بين البلديات الفلسطينية والبلديات العربية ، بحيث تتبنى بلدية عربية غنية بلدية فلسطينية محتاجة ـ وكل بلديات فلسطين محتاجة ـ واستمر السعي لهذا المشروع سنة كاملة ، وتطلب التنقل الدائم الدائب بين مختلف الاقطار العربية البترولية منها وغير البترولية ، وكان يرافق التنقل شرح مستفيض لحاجات شعبنا ومعاناته وظروفه القاسية وضغوط الاحتلال وسطوته ومحاولاته تفريغ البلاد من السكان . وكان كل ما يقال بهذا الصدد جديداً جديداً ، حتى ليظن الانسان ان كثيرين من السامعين لا يعرفون ان هناك احتلالاً وان هناك وطناً محتلاً . وكانت الحصيلة : الالتزام بنصف البلديات فقط ، والتي تشكل احدى وثلاثين بلدية . وتجاهل المجالس القروية التي تعد اربعة وستين مجلساً قروياً . ومع ذلك فقد كان الالتزام شيئاً ، والوفاء بالالتزام شيئاً آخر . ومن هنا اختلفت مواقف الدول العربية تجاه هذا الموضوع ، فبعضها التزم ووفى ، وشعبنا يعرف بالتحديد من الذي التزم ووفى ، ولا حاجة لذكره هنا . وبعضها التزم ولم يف ، وشعبنا يعرف بالتحديد من الذي التزم ولم يف . وبعضها لم يلتزم وبالتالي لم يف ، وشعبنا يعرف ايضاً من الذي لم يلتزم ولم يف . بعض من الدول الفقيرة التزم ووفى ، وبعض من الدول الغنية لم يلتزم ولم يف .. تلك مفارقة ليست عجيبة ، ولكنها مؤلمة .

ووصلت بعض الاموال الى الارض المحتلة ، واحس شعبنا ـ رغم قلتها ، حيث انها لم تتجاوز الستين مليون دولار ـ احس بتضامن امته معه ، وان هذه الامة لم تنسه ولم تهمله ، وانها تدعم صموده وتشد من ازره وتضمد جراحه وتتألم لألمه .

ولكن ماذا تعني ستون مليون دولار بالنسبة لشعب كامل يعد مليونا وربع المليون ، وماذا تعني ستون مليون دولار بالنسبة لدول هي اغنى الدول في العالم ، حيث يبلغ دخلها مئات البلايين من الدولارات ؟ فلا هذا استفاد ولا ذاك أفاد .

وانتقلت منظمة التحرير الى مؤسسات الاحسان الاسلامية والعربية والى الصناديق الكثيرة المبعثرة هنا وهناك وباسماء مختلفة ، علها تحصل على بعض ما يسد الرمق لهذا الشعب المناضل . وكانت الحصيلة دريهمات معدودات لا تكفي شيئاً ولا تفي بشـيء . الا ان « الفائدة » الكبرى التي كنا نحصل عليها باستمرار هي البيانات المطولة والخطابات البليغة والتصريحات الطنانة ؛ ففي هذا المجال لم يقصر زعيم عربي او اسلامي على الاطلاق . ألا يكفي ان احد المؤتمرارت الاسلامية أقر ، بشكل قاطع وصريح وواضح ، أن القدس هي عاصمة فلسطين ، انه بهذا القرار « الجزئي » انقذ القدس من الاستيطان والضم والترحيل وهدم البيوت والاضطهاد ومنع التجول والتهويد !

وجاء مؤتمر بغداد لينهي ، قبل كل شيء ، مشروع « التوأمة » ويحل الدول العربية والبلديات العربية من التزاماتها تجاه البلديات الفلسطينية ، وليحل محل هذا الالتزام ، التزام حكومي من سبع دول عربية غنية بدفع مئة وخمسين مليون دولار لدعم الصمود في داخل الارض المحتلة ، وقرر وضع مئة منها تحت تصرف لجنة اردنية فلسطينية مشتركة توزعها على مشاريع الضفة والقطاع حسب الاولويات .

ولكن الحكاية نفسها تتكرر ، حكاية الالتزام والوفاء : اذ لا يعني ان من يلتزم امام اثنين

وعشرين رئيساً وملكاً وحاكماً لا بد ان يفي . فالالتزام شيء والوفاء بالالتزام شيء آخر : الالتزام قرار والوفاء مزاج ، والمزاج عندنا نحن العرب ، اهم من القرار مهما كانت الجهة التي تصدر هذا القرار .

ونحن هنا لا نريد ان نذكر بالاسم من التزم ووفى ومن التزم ولم يف . فشعبنا يعرف جيداً ، وبالتفصيل ، من هذا ومن ذاك . واسماء هؤلاء وهؤلاء مطرزة على مناديل جداتنا وامهاتنها واخواتنا لتكون تاريخاً تعرفه الاجيال القادمة .

ذلك كل ما فعله العرب من اجل العرب ، منذ الاحتلال الثاني وحتى الآن . ترى لو كان مردود صمود شعبنا مقتصراً على ما يتناسب مع دعم العرب له ، فكيف تكون نوعية هذا الصمود ؟ وماذا يكون حجمه ؟ الا ان الشعب الخلاق ، الشعب الذي تعود منذ ثلاثة ارباع القرن على التحدي والنضال والكفاح ، واستوعب المصائب والمصاعب ، لا يوقف صموده على دعم من الآخرين ولن يفعل ذلك ؛ بدليل ان العالم ، كل العالم ، يتحدث عن بطولاته الخارقة وتشبثه بارضه وبحقه وبمقارعته لأعتى استعمار استيطاني ظهر عبر التاريخ ؛ يفعل كل ذلك وحده بامكاناته الذاتية ، بكل ما يكتنزه من عزة وكرامة وطموح .

ربما قال قائل : هذا كلام اقليمي ، وهذه دعوة قطرية تتنافى مع قومية المعركة وقومية المصير . ربما ! ولكن بودي لو يثبت العكس ، بودي لو خيب العرب ظني ، بودي لو تصدى لنا اي حاكم عربي - بالفعل لا بالقول - ليبرهن لنا على ان ما نقوله دعوة اقليمية ضيقة ، وان القضية الفلسطينية هي قضية العرب الاولى وانها التزام ووفاء ،لكل انسان عربي ، بدءاً بحكام العرب وانتهاء باصغر مواطن لديهم .

ربما قال قائل : هذا كلام ذرائعي تبريري ، يبرر كل قصور يحصل وكل تنازل يقع ، ويلقي باللائمة ، كل اللائمة ، على تقصير العرب وامتناعهم عن مد يد العون لاخوانهم . والرد على هذا ان تاريخ القضية الفلسطينية يعرف تماماً ان التنازلات العربية تتم من حساب شعبنا وعلى حسابه .ودائماً وابداً كان الشعب الفلسطيني غائباً مغيباً عن قضيته . ولذلك كانت كل التنازلات من حسابه وعلى حسابه .. الى حين . الى ان انتقل الزمام الى ايدي ابناء هذا الشعب فشدوا عليه بالنواجذ ، وتمسكوا به حتى الرمق الأخير . ولذلك ، فليطمئن من هذه الناحية كل المتشككين والمشككين واصحاب النوايا السيئة وهواة توجيه اصابع الاتهام ، فليطمئنوا الى ان الشعب الذي قارع الاحتلال اربعة عشر عاماً ، بالرغم من هذه الحصيلة الهزيلة من الدعم العربي ، سيقارع هذا الاحتلال الى ما شاء الله ومهما كانت هذه الحصيلة . وما اردنا ان نقوله هنا هو ان نبين خطر هذا الاهمال العربي واثره على عجلة الكفاح الفلسطيني ودوره الايجابي الذي يمكن ان يفرد به في دفع هذه العجلةالى الامام.الا ان قصوره لن يعيد العجلة الى الوراء ولن يقلل من عزيمة شعبنا . وما دمنا نتحدث عن الدعم العربي لصمود الشعب الفلسطيني ، لا يفوتنا ان نذكر ان مؤتمرات الصمود الاربعة لم تأت بجديد اطلاقاً في هذا الصدد ، ولم تضف شيئا الى ما صدر عن مؤتمري بغداد وتونس ، في الوقت الذي كنا نؤمل منها ان تبعث الى الصمود والتصدي حياة جديدة ، وان تعطيها معاني جديدة ذات مضامين عملية ، وألا تكتفي بالبيانات المطولة والخطابات الفصيحة والشروحات والتنظيرات التي لا تعني بالنهاية شيئاً .

وعود على بدء : الحكم الذاتي ومباحثاته ، بين التعثر والتوقف والتقدم البسيط والتراجع الابسط ، وبين التأجيل والاستئناف ، امور قلنا في مضمونها رأينا ولسنا بحاجة الى المزيد . الا ان الذي لا بد ان نلفت النظر اليه هو محاولات تجزيء المشكلة الى جزئين اثنين : الضفة جزء والقطاع جزء آخر . خصوصاً ان مصر خرجت بنظرية جديدة هي انها خسرت ، من ضمن ما خسرت في حرب ١٩٦٧ ، قطاع غزة ، وترى أن من واجبها ان تبحث مصير هذا القطاع باعتباره مسؤوليتها الادبية . والواقع ان حيثيات القرار المصري ليست بهذا الشكل وانما هناك حيثيات اخرى لا يذكرونها ولكنهم يعلقون عليها آمالاً كبيرة ، وهي ان القطاع الذي كان تاريخياً قريباً من مصر ملتصقاً بها تتشابك مصالحهما معاً ، يعيش معظم اهله في مصر ، يتعلم معظم طلابه فيها ، ومصر هي النافذة الوحيدة له على العالم ، وطبقة الموظفين الصغار والكبار لا زالوا يتقاضون رواتبهم منها . هذه الحيثيات هي التي تجعل مصر تعتقد أن القطاع سيكون اسهل عليها من الضفة ، وبالتالي فهي ترى انها قادرة على اقناع اهله بما تقدمه لهم ، يضاف الى كل هذا ان مطامع اسرائيل في القطاع اقل من مطامعها في الضفة بسبب ضيق رقعـه وكثافة سكانه وندرة موارده ومصادره وقلة مياهه ، ثم عزلته عن العالم العربي ، بحيث يكون دائماً تحت رقابة الامن الاسرائيلي وحراسة الجيش الاسرائيلي ، سواء بقي الجيش فيه ام خرج منه .

هل تكون هذه الاسباب طريقاً لخروج الطرفين من المأزق ؟ الجواب : لا : لان الشعب الفلسطيني في غزة لن يقبل بما يطرحونه ولانه مرتبط مصيرياً مع الضفة ، ولان الضفة والقطاع مرتبطان مصيرياً بالمنظمة ، والكل يرى ان هذا الطريق لا يمكن قبوله ولا يمكن السير فيه .

يضاف الى هذا وذاك الدعاء العربي بالصمود والتصدي والتحدي والرفض ، ولكن : المطلوب مع الدعاء العربي قليل من القطران .

سميح سماره

المؤتمر الرابع لحركة فتح
التقدم في إطار الوحدة

حتى الآن، تراوحت ردود الفعل المحلية والعربية على انعقاد المؤتمر العام الرابع لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ، بين الصمت والانطباعات السريعة ذات الطبيعة الصحفية ، في حين ان القوى المضادة ، بدءاً من واشنطن وانتهاءبالكيان الصهيوني ، مرورا بالقوى المرتبطة بهما ،قد سارعت الى درس البرنامج السياسي وما وصلها من وثائق صادرة عن المؤتمر ، واعلنت منها موقفاً يثبّت قانون العداء الاستراتيجي بين فتح ، كقائد للنضال الوطني الفلسطيني وفصيل رئيسي من فصائل حركة التحرر العربية ،وبين القوى الامبرياليةوالصهيونية والمرتبطة .

هل هو الانتظار او التمهل او سوء الفهم او عدم الاكتراث ، ما يفسر هذا الموقف المحلي والعربي ؟ هل هو امر من هذا منع العديد من القوى عن التمعن بالمؤشرات الحقيقية التي خرج بها المؤتمر ؟ هل هو امر من هذا الذي منع البعض عن محاولة درس التوجهات الجديدة للمرحلة القادمة في الساحة الفلسطينية من خلال ارتباطها الموضوعي بالساحات العربية ؟ هل هو امر من هذا ، ام ان الوقت لم يحن بعد لطرح كل هذه التساؤلات ؟ في كل حال ، لنترك هذه المسألة جانباً ، ولنتوقف عند السؤال التالي : ماهي ماهية المفاصل الرئيسية للخط الفكري والسياسي والتنظيمي الناتج عن هذا المؤتمر ؟ ثم ، ما هي المعطيات الجديدة بشأن الخط الاستراتيجي والتكتيكي لحركة فتح في مرحلة مؤتمرها الرابع ؟

اذا كان البعض قد حاول التركيز على الاثارات والمانشيتات الحمراء ، ففصل بين الظواهر واسبابها ، وفصل بين التعارضات وحصيلتها الاجمالية ، فان المتتبعين بجدية لتطورات الساحة الفلسطينية وكذلك العربية ، لا يستطيعون الا التوقف عند ظاهرتين رئيسيتين شكلتا السمتين البارزتين لمؤتمر حركة فتح الرابع :

الظاهرة الأولى : الاضافات البالغة الاهمية التي حققها المؤتمر ، والتي تبرز في أي حال اجراء مقارنة بين نتائجه ونتائج المؤتمر الثالث ، وذلك بعد اخذ مجمل الاختلافات في الظرفين الموضوعي والذاتي للمؤتمرين بعين الاعتبار ؛ اذ جاء الاول اشبه ما يكون بالمحاولة للم شتات

الثورة بعد الكارثة التي نزلت بها على يد النظام الاردني ، في حين ان الثاني قد جاء ليكون نوعاً من المراجعة الشاملة لتسع سنوات من العمل الشاق كان النهوض على شتى الأصعدة سمتها العامة .

واذا كان المؤتمر الثالث ، بسبب ظروف انعقاده اساسا ، لم يستطع ان يكون انعطافا في البنية العامة للحركة ، فاننا نستطيع القول ان المؤتمر الرابع قد وضع الحركة على ابواب هذا الانعطاف ، ان لم تكن قد دخلته فعلاً .

لم يستطع المؤتمر الثالث ان يبلور برنامجا سياسيا يحقق التزاوج العملي بين الخط الاستراتيجي لحركة فتح والحركة الوطنية الفلسطينية بعامة ، وبين الخط السياسي المرحلي المستند الى موازين القوى الحالية ، مما خلق نوعا من الشرخ بين نقطتي التزاوج ، وهو ما عبر عن نفسه بالمفاجأة التي حدثت حين توفرت معطيات جديدة في موازين القوى العامة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، خلقت ضرورات البحث عن الصياغة السياسية لهذه المعطيات ، وذلك رغم الحيوية الفائقة التي تتمتع بها حركة فتح ، والتي تكفلت في النهاية ، وبسرعة نسبية ، بتشكيل هذه الصياغة التي جاءت على هيئة البرنامج المرحلي الذي اقر في الدورة الثالثة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني .

لم يستطع المؤتمر الثالث ان يقدم اضافات فعلية الى بنية النظام الداخلي لحركة فتح ، بحيث تستوعب التطورات التي نشأت بين مرحلتي النشوء والارتقاء ،وهي تطورات لا تقل ، من حيث قيمتها وبما تحمله من ضرورات الانعكاس على البنية العامة للحركة، عن التطورات اللاحقة بعد عام ١٩٧١ الذي انعقد فيه هذا المؤتمر . وبمعنى آخر فإن المؤتمر الثالث لم يستطع ان يقنّن المناخ الديمقراطي المفتوح الى حدوده القصوى ، والذي يشكل معلماً رئيسياً من معالم حركة فتح ؛ فاستمر هذا المناخ مشـرعاً دونما ضوابط تنظيمية محددة وملزمة . فما ان جاء المؤتمر الرابع حتى كانت الحاجة إلى هذه الضوابط تكاد تكون المطلب الرئيسي للحركة من قاعدتها الى قمتها . وقبل كل ذلك وبعده ، فإن المؤتمر الثالث للحركة لم يستطع ان يبلور القانون الرئيسي للبنية الفكرية ، الذي تستمد منه حركة فتح فاعليتها ومبررات وجودها واستمرارها .. هذا القانون الذي يستند على ان حركة فتح تشكل التعبير الارقى في المرحلة الحالية ، مرحلة التحرر الوطني ، عن نقاط التقاطع الموضوعية القائمة بين مجموع فئات وشرائح وطبقات الشعب الفلسطيني ومصلحتها الرئيسية في تحرير الارض الفلسطينية من الاحتلال ؛ هذا القانون الذي يفرض وجود حد ادنى من اللقاء والتعايش بين شتى التيارات الفكرية والسياسية في داخل حركة فتح ، ما دامت تقف جميعاً على أرضية الحق في التحرير والعودة .

يمكن القول اذن ، ان ذلك كله لم يحققه المـؤتمـر الثالث ، وفي الوقت ذاته يمكن القول الآن ، ودون ان يستند ذلك الى حاجة تعبوية ، ان المؤتمر الرابع لحركة فتح قد حقق كل ذلك ، او انه - وهو الاكثر دقة - قد وضع الحركة في جو الاستعداد والتأهب لتحقيق ذلك ، بعد ان صاغ لها المبررات والمسوغات على هيئة اساس فكري وسياسي وتنظيمي .

الظاهرة الثانية حيوية فتح : دون مغالاة ، يمكن القول ان نظرة سريعة على حركة الاغلبية الساحقة من القوى والاحزاب والتيارات والاطر السياسية في الوطن العربي ، توضح

ان هذه الاغلبية تكاد تتراوح جميعها بين السكون والانزواء واليياس التنظيمي والسياسي والفكري ، وبين التفتت والانقسامات والتشرذم . وبصرف النظر عن الاسباب الموضوعية والذاتية التي ادت وتؤدي الى مثل هذه النتيجة الملموسة ، فان الملفت للنظر ، وهو امر جدير بالاعتبار والدراسة ، ان حركة فتح لا تعاني اياً من هذه الظواهر . فرغم كل التمايزات القائمة ، والتعارضات والاختلافات التي تصل حدود العلن بين مجمل التعبيرات المنسجمة في اطار فتح ، الا ان ذلك لم يظهر ابداً باشكال انقسامية فعلية ، باستثناء تدخلات وتعديات عربية سعت الى تأطير انقسامات باهتة فقدت مبررات استمرارها بمجرد خروج رموزها عن خط الحركة ؛ مما دلل على ان هذه الاستثناءات لم تكن تملك اي اساس موضوعي للانقسام او الاستقلال .

علام يدل ذلك ؟ لا شك في أن قساوة الظروف التي تناضل فتح في اطارها لا مثيل لها على الاطلاق في الساحة العربية على الاقل ؛ فمن المسؤولية الرئيسية التي تتولاها فتح في صد الهجمات الاسرائيلية المتتالية ، الى المسؤولية الرئيسية في شق الثغرات في جدار العدو الامني وخوض الكفاح المسلح ، الى تلقي ضربات الاغتيال التي تستهدف قيادة فتح وكوادرها ، الى المسؤولية الرئيسية في التصدي للقوى العربية المرتبطة بالامبريالية ، الى المسؤولية الرئيسية عن امن الشعب وقوته . ورغم كل هذه المهام البالغة التعقيد والصعوبة ، والتي تستخدمها اطراف اخرى لتبرير تقاعسها ، فان فتح تتقدم وتتحرك في سياق منهجها ، فيأتي المؤتمر الرابع للحركة ليكشف انها مزدحمة بالدوافع الى التقدم والحركة ، وان الشاغل الرئيسي لقيادتها وكوادرها هو البحث عن الطريق الاكثر صوابا ، وذلك بعد تراكم خبرات متنوعة شكلت المسوّغ لاحداث النقلة على شتى المستويات .

وقد يرى البعض ان كل ما سبق ليس اكثر من دفاع يقدمه عضو في الحركة ، لكن الاكيد ان ذلك ليس وارداً في هذه اللحظة بالذات . فما سبق ان قلته ليس الا اشارة تحريضية للمثقفين على درس مثل هذه الظاهرة ؛ ظاهرة الحيوية التي تشتمل حركة فتح ، وذلك في مرحلة يتفق الجميع على تحديد سمتها الرئيسية وهي حالة الانحسار والعجز التي تعيشها حركة التحرر العربية .

اذن ، وانطلاقا من الوثائق الاساسية التي اقرها المؤتمر الاخير للحركة ، لنحاول ان نقف فيما يلي عند الاستنتاجات العامة الاكثر اهمية :

١ ـ جدل الفعل

ان موضوعة التوازن في بنية كل حركة تحرر وطني تكاد تكون بمثابة الهيكل العظمي لهذه البنية ، وهي قانون رئيسي لا بد من ان يحكم نهج أية قوة سياسية تأخذ على عاتقها العمل على تحقيق مهام مرحلة التحرر الوطني ، ويعود ذلك اساساً الى شدة التعقيد التي تحكم هذه المهام .

وفي وضع كوضع حركة فتح ، تشكل هذه الموضوعة احد ابرز قوانينها ؛ فهي تتجلى في كل خطوة او قرار لها على كافة المستويات . وبتراكم الخبرة على مدى خمسة عشر عاماً ، تحول هذا القانون ليلعب دور المفتاح ، خصوصاً ان الابواب المغلقة امام العمل الوطني الفلسطيني تكاد لا تحصى . واذا كان البعض ينظر الى قانون التوازن هذا باستخفاف حيناً وبشك حيناً آخر ، فان

ذلك لا يدل ، في الواقع ، الا على عدم الدقة في استيعاب معطيات الواقع الفلسطيني والعربي والدولي .

ان من عاش ايام المؤتمر الرابع العشرة يلمس بوضوح قدرة كل عضو فيه على تفهم هذا القانون والعمل من خلاله ؛ وهو الامر الذي عكس نفسه في كافة الوثائق والبرامج التي اقرها المؤتمر ، وما يستطيع ، ان يلمسه المراقب ايضاً من خلال البرنامج السياسي الصادر . فمن تاكيد وتثبيت الاهداف الاستراتيجية لحركة فتح ، التي جوهرها بناء المجتمع التقدمي في فلسطين الديمقراطية الى « اعتبار القرارات السارية للمجالس الوطنية الفلسطينية لمنظمة التحرير الفلسطينية جزءاً مكملاً للبرنامج السياسي للحركة » . ومن المسلّمة التي تنص على ان حركة فتح هي محور الثورة الفلسطينية وعمودها الفقري ، الى ضرورة النضال من اجل « التعزيز المستمر للوحدة الوطنية الفلسطينية على كافة المستويات » وبقيادة الحركة ، الى البند الذي يؤكد على ضرورة مشاركة الحركة بثقل اساسي في منظمة التحرير الفلسطينية لضمان فعاليتها . ومن النص على ان « العلاقة مع الجماهير العربية علاقة استراتيجية وذلك من خلال قواها السياسية الوطنية المنظمة » ، الى اقامة العلاقة مع الانظمة العربية « بحيث لا تتعارض مع العلاقة الاستراتيجية مع الجماهير » . ومن التشديد على قانون ان « حركة فتح جزء من حركة التحرر العالمية في النضال المشترك ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية » الى القول بضرورة « تكثيف العمل السياسي في دول اوروبا الغربية واليابان وكندا والاستفادة من تأييد القوى السياسية الديمقراطية والتقدمية في هذه الدول » .

ان خلاصة هذا التوجه الشامل هي قدرته في التعبير عن جدلية معطيات الواقع المعقد ، بحيث يصح القول ان قانون التوازن المشار اليه هو في الواقع قانون الجدل ، اي رؤية الواقع من خلال الجدل القائم بين معطياته .

ان كل التجربة الماضية اكدت انه بدون الاسترشاد بهذا القانون لا يمكن احراز اي نجاح في الساحة الفلسطينية ، بل ان العمل في هذه الساحة يصبح غير ممكن .ليست المسألة في لعبة التوازن التي تظهر على السطح من خلال تفاصيل العمل السياسي ؛ فهذه اللعبة ليست غير الانعكاس السريع لقانون جدل الفعل الذي يحكم الممارسة السياسية لحركة فتح .

٢ ـ التقدم في اطار الوحدة

في حين ان البعض يحرص اشد الحرص على نظرته المسطحة وعلى تقييمه المبسط لجوهر حركة فتح ، فينظر اليها وكانها كتلة ذات لون واحد ، فلا يرى التمايزات والتعارضات القائمة في هذا الجوهر ، يحرص بعض آخر على تفسير كل تغيير او تطور في هذا الجوهر بأنه نتيجة ترتيب معين او تسوية معينة . وكلا النظـرتين تتسمان بسذاجة وقصر نظر اذا أحسنّا النية .

ان الاساس في كل ذلك هو في كيفية النظر الى حركة فتح : هل هي منظمة فلسطينية ام هي صلب الحركة الوطنية الفلسطينية .

ان من يعتبرون ان حركة فتح هي التعبير السياسي عن الاغلبية الساحقة لقطاعات الشعب الفلسطيني ، لا بد من أن يؤمنوا أيضاً ان هذه القطاعات غير محكومة بلون واحد ، وان

التمايزات والتعارضات قائمة فعلاً بينها ، رغم الوحدة التي تجمعها في إطار الحركة ، وهذه حقيقة موضوعية .

وليس سراً القول ان المؤتمر الرابع لحركة فتح قد شهد اصواتاً متمايزة علا نقاشها واحتدم ، ولكن على قاعدة الوحدة ، وهي المسلمة التي يؤمن بها الجميع . وفي هذا السياق ، يفرض التقدم نفسه ، فينعكس على كافة المستويات : الفكرية والسياسية والتنظيمية ؛ مما يجعل الباب مشرعاً لانعكاس هذا التقدم على مستوى القيادة ، واذ بالجميع يستنتج ان قاعدة حركة فتح رغم كل هذا الاحتدام ، قاعدة حرة طليقة القرار ، وليس من الممكن ان تكون مجيّرة لطرف ، الا اذا طرح هذا الطرف امامها الاجابات الواضحة على الاسئلة الصعبة . فاذا كانت الدوغما يمكن ان تنفذ الى قواعد اخرى ، فانه من الصعب نفاذها الى قاعدة فتح .

على قاعدة التقدم اذن ، يحدث التطور في البنية العامة للحركة ، فيبرز القانون الشعبي القائل انه « لا يصح الا الصحيح » .

اما بعض الذين يتمتعون بضيق الافق ، فلا يرون قانون هذه الحركة الرئيسي (الصراع في اطار الوحدة) ، فيدفعهم نهمهم المعروف ولا ديمقراطيتهم نحو الهيمنة ، فلن يجدوا امامهم غير الخسارة ، لانهم يخترقون بذلك خطاً احمر غير ممكن الاختراق ؛ اذ حين تتحول فتح الى ذات لون واحد تصبح كل شيء الا ان تكون حركة فتح .

هشام الدجاني

التحولات الاقتصادية والاجتماعية في المناطق المحتلة في ظل الاحتلال الإسرائيلي

ان رصد الآثار الاقتصادية والاجتماعية لاحتلال ما ، عبر فترة زمنية ما ، يبدو عملية بالغة الصعوبة والتعقيد نظراً لتشابك العوامل المؤثرة وصعوبة تحديد أبعادها من جهة ، وحجب الحقائق والتضليل المتعمد الذي تلجأ اليه سلطات الاحتلال عادة من جهة ثانية .

وبالنسبة الى الاحتلال الاسرائيلي بالذات ، الذي يتميز عن باقي أشكال الاحتلال ، بطبيعته الاستيطانية والتوسعية ، تبدو عملية الرصد والدراسة هذه اكثر صعوبة وتعقيداً . ومما يجعلها كذلك أن سلطات الاحتلال الصهيونية لم تعمد ، كأية سلطة احتلالية ، الى نهب واستنزاف خيرات وطاقات الأراضي المحتلة فحسب ، بل عمدت الى الحاق هذه الأراضي المحتلة بسكانها واقتصادياتها بالكيان الصهيوني ، وجعلتها جزءاً متمماً ومجالاً حيوياً .

ولعل الدراسة التي نقدمها هنا تكون حافزاً وتمهيداً لدراسات أوسع وأشمل .

قبل دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية ـ أو لنقل أبرز هذه التحولات والمتغيرات ـ في المناطق المحتلة ، لا بد من التنويه بايجاز عن أهم التطورات والتأثيرات التي **أوجدها الاحتلال الاسرائيلي في القطاعات الاقتصادية الرئيسية الثلاثة ـ الزراعة والصناعة والتجارة ـ في المناطق المحتلة ، والتي تعتبر الأساس الذي قامت عليه هذه التحولات .**

فعلى صعيد **الزراعة** : ـ التي تعتبر القطاع الأساسي والمورد الانتاجي الأول في المناطق ـ أشرنا إلى أن سياسة الاحتلال هنا كانت أكثر ما تكون بعداً ووضوحاً . فقد تعرضت مساحة الأراضي الزراعية خلال سنوات الاحتلال لتقلص كبير نتيجة عدة عوامل : ابرزها **التوسع الاستيطاني الصهيوني** على حساب هذه الأراضي (حيث استولت سلطات الاحتلال ، بمختلف أشكال المصادرة على نحو ١,٥ مليون دونم تشكل ٢٧,٥٪ من المساحة الكلية ، ثلثها من الأراضي الزراعية)[١] . ومنها تدني ريعية الزراعة في بعض المناطق واضطرار المزارعين الى هجر أراضيهم والعمل تحت وطأة الحاجة في مجالات العمل الاسرائيلية . ومنها نقص كميات المياه المستخرجة والقيود التي وضعتها سلطات الاحتلال على

حفر الآبار وضخ المياه ، واستنزاف المستوطنات الاسرائيلية للمياه الجوفية في الضفة ، مما أدى الى نقص مياه الآبار المتبقية أو زيادة نسبة الملوحة فيها ، وهو ما اعترفت به المصادر الاسرائيلية (٢) .

ومن بين الآثار السلبية الأخرى لسياسة الاحتلال في هذا القطاع : تدني **أو تقلص العمالة الزراعية** (من ٤٦,١٪ من مجمل القوة العاملة عام ١٩٦٩ ، في الضفة ، و ٣٣,١٪ في القطاع إلى ٣٣,٤٪ في الضفة و ٢٥,١٪ في القطاع عام ١٩٧٧)(٣) . وتدني نصيب الزراعة في الدخل القومي للمناطق المحتلة (من ٣٥,٥٪ عام ١٩٦٨ إلى ٢١٪ عام ١٩٧٧ في الضفة ، ومن ٢٨,١٪ إلى ٢٢,٩٪ **في القطاع خلال الفترة نفسها**) .

وعلى صعيد **الصناعة** : استهدف التخطيط الاقتصادي الاسرائيلي ، ضمن اطار سياسة الدمج الاقتصادي ، أن يجعل من المناطق المحتلة ملحقاً صناعياً (Sub- Contracted) للصناعة الاسرائيلية ، وسوقاً إضافية للبضائع الصناعية والخدمات الفنية .

وكما تعرضت الزراعة لاستنزاف العمالة العربية ، تعرضت الصناعة ايضاً لهذا الاستنزاف ، وهو ما انعكس بدوره على حجم الانتاج الصناعي ، ونصيب هذا الانتاج في الدخل القومي (حيث تدنى من ٨٪ عام ١٩٦٨ إلى ٤,٧٪ عام ١٩٧٧)(٤) .

وأدت سلسلة الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها سلطات الاحتلال ، مثل عدم السماح بافتتاح المصارف العربية ، وقصر النشاط المصرفي على المصارف الاسرائيلية التي كانت تتحكم بالقروض والاعتمادات ، وفرض رسوم جمركية عالية على المواد الأولية اللازمة للصناعة ، أدت الى عدم تطور هذا الفرع تطوراً يذكر ، وهو ما اعترفت به المصادر الاسرائيلية أيضاً . تقول نشرة « بنك اسرائيل » : « بالرغم من بعض التطور الذي طرأ على الصناعة (في المناطق المحتلة) لتلبية احتياجات الصناعة الاسرائيلية ، إلا أن نسبة الانتاج الصناعي إلى الانتاج العام ظلت منخفضة »(٥) .

ومن بين الآثار الضارة أيضاً لسياسة الاحتلال في هذا القطاع ، احتكار أسواق المناطق المحتلة وجعلها **وقفاً** على البضائع الاسرائيلية . وهذا ما حرم الكثير من الصناعات الناشئة التي يمكن أن تتطور من فرص المنافسة أو الاستمرار . وتؤكد الباحثة شيلاريان هذا الأثر فتقول .

« ومن أجل الابقاء على امتيازات اسواق الضفة الغربية وغزة حكراً على صناعات اسرائيل وحدها ، فإنها حدّت وبشكل صارم من السماح باستيراد بضائع مصنعة من بلدان أخرى الى المناطق المحتلة»(٦) .

وعلى صعيد **التجارة** : اعتبرت المناطق المحتلة « سوقاً مكملاً للبضائع والخدمات الاسرائيلية من جهة ، ومصدر عوامل انتاجية للاقتصاد الاسرائيلي ، وخاصة اليد العاملة من جهة أخرى »(٧) . ضمن هذه العلاقة اتخذت سلطات الاحتلال ، في هذا القطاع ، سلسلة من الاجراءات ذات المنعكسات الضارة والمعيقة للتطور ؛ مثل الغاء الحواجز الجمركية بين المناطق واسرائيل ، وبالتالي فرض الرسوم الجمركية على جميع ما تستورده المناطق من العالم الخارجي وفقاً للتعرفة الاسرائيلية . ومثل احتكار المؤسسات الاسرائيلية لعمليات التصدير والاستيراد ؛

وهو ما يعني الاستيلاء على عائدات صادرات المناطق من القطع الأجنبي : مقابل دفع قيمتها بالليرات الاسرائيلية .

وهكذا ، أصبح معظم تجارة المناطق المحتلة يتم مع الكيان الصهيوني أو عن طريقه . وقد أدت سياسة احتكار أسواق المناطق الى أن يرتفع نصيب الكيان الصهيوني في نسبة مجموع مستوردات المناطق من الخارج من ٦٠٪ عام ١٩٦٨ إلى ٨٣٪ عام ١٩٧٥ على سبيل المثال[٧] . ومنذ عام ١٩٧٣ تحولت المناطق المحتلة الى « ثاني أكبر سوق للصادرات الاسرائيلية بعد الولايات المتحدة »[٨] .

التحولات الاجتماعية

بعد هذا ، يمكننا أن ننتقل الى رصد أبرز التحولات الاجتماعية والاجتماعية ـ الاقتصادية والتي يمكن أن تعتبر ، بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة ، نتيجة السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال في المناطق المحتلة .

ضمن عملية الرصد هذه سوف نتعرض بايجاز للتحولات التي طرأت على **بنية السكان** والقوى الاجتماعية ، وخاصة الطبقة العاملة ، **والأحوال المعيشية** للسكان وللقوى العاملة ، كما سنتعرض لظاهرتي **الهجرة والتعليم** .

١ ـ البنية الاجتماعية

■ لعل من بين التحولات والتطورات الواضحة التي طرأت على البنية الاجتماعية للسكان في المناطق المحتلة **تضاؤل النفوذ السياسي لطبقة « الأعيان » الاقطاعية** . وقد جاء هذا التطور نتيجة جملة عوامل أهمها توفر فرص العمل بأجور معقولة نسبياً في مجالات غير قطاع الزراعة ، مما أدى الى تقلص نفوذ طبقة الأعيان والاقطاعيين في القرى والأرياف . كذلك كان من بين هذه العوامل ـ كما سنرى بعد قليل ـ تنامي دور الطبقة العاملة ، والقوى العاملة والمنتجة بصورة عامة ، والتي باتت تشكل الشريحة الأولى والأكبر في المجتمع .

لقد سعت سلطات الاحتلال العسكرية في البداية الى التعامل مع سكان المناطق من خلال هذه القوى التقليدية مثل رؤساء البلديات والمخاتير الذين عملوا سابقاً في ظل الحكم الأردني . بيد أن « الانقلاب » ، الذي أحدثته سياسة الاحتلال ، ومن ضمنها استخدام العمالة العربية على نطاق واسع ، كان أحد العوامل التي أدت الى نسف أساس سلطة هؤلاء الزعماء والأعيان التقليديين . **ويرى بعض الباحثين أن من بين نتائج هذا «الانقلاب»** ،« أن العمال أصبحوا يكسبون اكثر بكثير من المخاتير مُلاك الأراضي الزراعية»[٩] . كما ظهرت عناصر مهنية ومثقفة جديدة كان لها دورها في المتغيرات الاجتماعية التي طرأت بعد الاحتلال . وفي التحليل النهائي فإن هذا التحول أو الانقلاب ينبغي الا نعيده الى أسباب اقتصادية بحتة ، كما ينبغي ألا نغفل دور العامل السياسي .

ومن نافلة القول ، ان سلطات الاحتلال لم تقصد أو تتعمد احداث هذا « الانقلاب » أو هذا التحول الاجتماعي الذي يمكن أن يعتبر تحولاً ايجابياً داخل البنية الاجتماعية لسكان المناطق . بل إن سلطات الاحتلال أعاقت من خلال القيود التي فرضتها « التحرك الجديد

للسكان نحو خلق قيادة فلسطينية اجتماعية ـ اقتصادية عامة ، أو بناء اقتصاد تحتي ... وانتهج الاسرائيليون ، كشأن الاردنيين قبلهم ، سياسة تعيق ميلاد الزعامة القائدة في الضفة الغربية ... »(١٠) .

ويقول الكاتب شاؤول ميشيل : « ان قدرة الزعامة التقليدية في الضفة الغربية على المحافظة على التوازن بين نفوذ ومصالح اسرائيل والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ، قد بدأت تتلاشى بعد عام ١٩٧٣ ، بعد أن أخذت المنظمة تحقق مستوى رفيعاً من الاعتراف العربي والدولي بها ... وهذا ما عزز الاعتقاد لدى قطاعات واسعة من السكان في الضفة أن المنظمة ، وليست عمان ، هي التي ستكون خليفة للاسرائيليين »(١١) .

وقد أظهرت الانتخابات البلدية عام ١٩٧٦ مدى النجاح الذي حققته العناصر المثقفة والمسيّسة ، كما أظهرت اخفاق وبداية اندثار الزعامات التقليدية . والنتيجة الأهم هي أن قواعد السيطرة الاجتماعية في المجتمع « باتت ترتكز الآن في أيدي العائلات البسيطة التي تحملت جميع أعباء القرى »(١٢) .

■ اشرنا في بداية هذه الفقرة إلى أن من بين الأسباب الجوهرية للتحول الاجتماعي الذي تحدثنا عنه **تنامي الطبقة العاملة ودورها في المجتمع** . والحق أن الطبقة العاملة الفلسطينية في المناطق المحتلة قد تعرضت ، خلال سنوات الاحتلال ، لتطورات عميقة وهامة على صعيد الحجم والثقل الاجتماعي والتكوين البنيوي .

فعلى صعيد الحجم : يبين لنا الجدول رقم ١ نسبة تنامي حجم القوى العاملة الى مجموع السكان في سن العمل(١٣) في الضفة الغربية .

جدول رقم ١

السنة	مجموع السكان في سن العمل	القوى العاملة	نسبة الثانية الى الى الاولى
١٩٧٠	٥١٩,٧٠٠	٩١,٧٠٠	١٧,٨
١٩٧٢	٥٤١,٧٠٠	١١٤,٧٠٠	٢١,٢
١٩٧٣	٥٥٢,٠٠	١١٩,٠٠	٢١,٦
١٩٧٤	٥٧٣,٨٠٠	١٢٦,٥٠٠	٢٢,٧
١٩٧٥	٥٩١,٩٠٠	١٢٣,٦٠٠	٢٠,٨
١٩٧٦	٦٠٢,٥٠٠	١٢٦,١٠٠	٢٠,٩

وإذا كانت هذه الأرقام تؤكد نمو الحجم المطلق للقوى العاملة ، فينبغي الا نتصور أن هذا النمو هو مجرد تراكم كمي . بل ينبغي أن نتصور ـ وهو تصور له مبرراته العملية ـ انه يقود الى تغيير جذري في نسبة القوى الاجتماعية بين السكان لمصلحة الطبقة العاملة على حساب الطبقات الأخرى . فقد تجاوزت نسبة قوى العمل اليدوي ٦٢٪ من مجموع القوى العاملة ، في حين لم تعد تشكل القوى العاملة الأخرى (موظفون، مهن حرة ، الخ ..) أكثر من ٣٨٪(١٤) : وهذا

يعني أن الطبقة العاملة باتت تشكل الطبقة الاجتماعية الأكبر عدداً بين مجموع الطبقات ، وهو ما يشكل في حد ذاته واحداً من التحولات الاجتماعية البارزة في المناطق المحتلة .

وعلى صعيد تكوين الطبقة العاملة نفسها ، فقد طرأت أيضاً متغيرات ذات دلائل هامة : حيث ازداد بصورة ملحوظة عمال البناء والصناعة والمواصلات ، كما يبين الجدول رقم ٢ ، وذلك في مجموع المناطق المحتلة (الضفة والقطاع) .

جدول رقم ٢
عدد العاملين في ابرز القطاعات (في الضفة والقطاع) بالآلاف

السنة	مجموع القوى العاملة	الزراعة	الصناعة	البناء	الخدمات	المواصلات	مرافق عامة
١٩٧٠	٩١.٧	٢٤.٢	١٢.٦	٢١.٧	٢.٦	٣.٨	٢٣.١
١٩٧٢	١١٤.٧	٢٥.٢	١٩.٣	٣٢.٣	٣.٩	٤.٧	٢٥.٦
١٩٧٣	١١٩	٢٢.٧	٢٠.٢	٣٦.٦	٣.٨	٥.٥	٢٥.٣
١٩٧٤	١٢٩.٥	٢٢.٦	٢١.١	٤١.١	٤.١	٥.٦	٢٥.٩
١٩٧٥	١٢٣.٦	١٨.٦	٢١.٥	٤٢.٤	٤.٥	٥.٩	٢٦.٣
١٩٧٦	١٢٦.١	١٨.١	٢٣.٩	٤١	٥.٣	٥.٧	٢٧.٢

اذا كنا قد استعرضنا فيما سبق الجوانب التي يمكن أن تعتبر ذات وجه ايجابي في التحولات الاجتماعية ، خلال المرحلة التي نحن في صددها ، والتي كانت ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، أحدى النتائج غير المقصودة لسياسة سلطات الاحتلال ، فينبغي أن نشير الى الظواهر والمتغيرات السلبية والمدمرة التي نجمت عن الاستخدام الواسع للعمالة العربية في العمل الاسرائيلي .

أول هذه الظواهر أو التحولات السلبية : أنه في مقابل اتساع الآفاق نسبياً أمام العاملين يدوياً ، ضاقت فرص العمل أمام ذوي التعليم والثقافة النظرية ـ الطبقة المتوسطة عادة ـ في ظل الاحتلال . وهذا ما دفع ابناء هذه الطبقة (مدرسون ، محامون ، جامعيون ، الخ ..) الى البحث عن العمل في الخارج (الوطن العربي وأميركا) . وتقدر الباحثة الاجتماعية سارا غراهام ، أن غالبية هؤلاء الذين استقروا في الخارج لن يعودوا بصورة نهائية إلى المناطق المحتلة في الظروف الراهنة . وتقول سارا : « ... وان هذا النمط من الهجرة قد أخلّ بالتركيب الطبقي للمجتمع في الضفة . ولما كانت غالبية المهاجرين من الرجال فقد أخلّت هذه الهجرة بنسب الجنس في المجتمع (عدد الذكور والإناث) مما انعكس على زواج نساء الطبقة المتوسطة »[١٥] .

وثاني هذه الظواهر الاجتماعية السلبية لاستخدام العمالة العربية في اسرائيل : ان هذا الاستخدام قد استهدف العمال الزراعيين في القرى والمناطق الريفية أكثر مما استهدف عمال المدن « نظراً لأن معظم المشروعات الاسرائيلية تحتاج الى عمال نصف مهرة أو غير مهرة »[١٦] . والنتيجة الطبيعية لذلك هي تفكك الأسر الريفية ، وفك ارتباط الفلاح أو المزارع بأرضه ، وتقهقر الزراعة من جهة ، واستمرار البطالة النسبية في المدن ، حيث العمال المهرة والمتعلمون ، الأمر الذي كان يدفعهم نحو الهجرة الخارجية .

وثالث هذه الظواهر ، وهي ظاهرة اقتصادية ـ اجتماعية ذات ابعاد ونتائج خطـرة : ان ما يزيد عن ثلث الزيادة * في الناتج القومي العام (Q.N.p) في المناطق المحتلة، يأتي مباشرة من عائدات أجور العمالة العربية في اسرائيل(١٧) . وهذا ما يجعل اقتصاديات هذه المناطق تعتمد اعتماداً كبيراً على مورد غير مستقر نسبياً ، ومعرض لهزات حادة لأسباب تتعلق بالركود الاقتصادي الاسرائيلي وتراجع مشروعات البناء ، الخ ... وللدلالة على أهمية وخطورة هذه النقطة بالذات ، نسوق الجدول رقم ٣ الذي يبين مقدار تناقص استخدام العمالة العربية في اسرائيل على اثر الركود الاقتصادي فيها والذي بدأ في العام ١٩٧٤ واستمر في الأعوام التالية(١٨) :

جدول رقم ٣

الضفة الغربية

السنة	مجموع عدد العمال (بالآلاف)	مجموعهم في اسرائيل	نسبتهم في اسرائيل
١٩٧٤	١٣٧,٤	٤٢,٤	٣٠,٨٥
١٩٧٥	١٣٢,٥	٤٠,٤	٣٠,٤٩
١٩٧٦	١٢٩,٧	٣٧,١	٢٨,٦٠
١٩٧٧	١٢٧,٤	٣٥,٥	٢٧,٨٦
قطاع غزة وشمال سيناء			
١٩٧٠	٥٨,٧	٥,٩	١٠,٠٥
١٩٧٢	٦٣,٦	١٧,٥	٢٧,٥١
١٩٧٤	٧٢,٩	٢٦,٣	٣٦,٠٧
١٩٧٥	٧٢,٦	٢٥,٩	٣٥,٦٧
١٩٧٦	٧٦,١	٢٧,٨	٣٦,٥٣
١٩٧٧	٧٧,٣	٢٧,٤	٣٥,٤٤

وثمة مظهر سلبي آخر يترافق مع هذه الظاهرة ، وهو ما أشار إليه الباحث فان اركدي ، وبات من الحقائق الاقتصادية المعروفة في المناطق المحتلة ، وهو أن جانباً كبيراً من عائدات هذه العمالة ينفق على استيراد وشراء البضائع والسلع الاستهلاكية الاسرائيلية(١٩) .

ورابع هذه الظواهر ، ولعله من اخطرها : ان الطلب الاسرائيلي على العمالة العربية ، والذي أوجد تزايداً في حجم الطبقة العاملة العربية ، قد كان على حساب حجم هذه العمالة في

* تورد نشرة بنك اسرائيل (القدس ـ ١٩٧٦ ـ ص ٩) نسبة مشابهة حيث تقدر هذه العائدات بما يتراوح بين ٢٥ ـ ٢٨٪ من مجموع واردات الدخل القومي خلال الفترة ٧٤ ـ ٧٦ .

المناطق المحتلة نفسها ، وبالتالي على حساب اقتصادياتها . فبلغة الارقام المطلقة تناقص عدد العمال العرب في المناطق من /٩٥/ الف عامل عام ١٩٧٤ ، الى /٨٧.٦/ الف عامل عام ١٩٧٨ (٢٠) . وتناقصت العمالة العربية بصورة اكثر حدة في قطاع الزراعة من /٦٠/ الف عامل قبل حزيران ١٩٦٧ ، الى نحو /٤٠/ الف عامل في عام ١٩٧٤ (٢١) .

هذه الظاهرة اتخذت حجماً كبيراً: حيث تشير الاحصاءات الاسرائيلية ـ كما يتبين من الجدول رقم ٣ ـ الى ان قرابة ثلث قوة العمل العربية في المناطق المحتلة تعمل حالياً في الاقتصاد الاسرائيلي مباشرة . فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان هذه الاحصاءات لا تشمل سوى العمال الذين يعملون عن طريق مكاتب التشغيل الرسمية ، ولا تشمل من يعملون فردياً او عن طريق السماسرة او المتعهدين ، لامكن ان نتصور ان حجم هذه العمالة ، العاملة لمصلحة الاقتصاد الاسرائيلي مباشرة او غير مباشرة ، يزيد على نصف مجموع العمالة العربية في المناطق المحتلة .

ويرى بعض الباحثين * بعض الجوانب الايجابية في هذه الظاهرة ، حيث يرون أن الطبقة العمالية الفلسطينية العاملة في اسرائيل ، سوف تضطلع بدور تاريخي في النضال الطبقي والوطني . وهم يرون أن من بين العوامل التي قد تدفع هؤلاء الى القيام بهذا الدور خضوعهم لمعاملة تمييزية حادة فيما يتعلق بالأجور وشروط العمل الأخرى . وهذا ما يقودنا الى الحديث عن خامس هذه الظواهر : فسياسة التوسع في استخدام العمالة العربية قامت على استغلال السلطات الاسرائيلية للطاقة العمالية العربية الرخيصة في الأعمال اليدوية والشاقة ، أو مرافق « العمل الأسود » كما يسمونها في الأدبيات الاسرائيلية . وفوق ذلك يأتي الاجحاف والمعاملة التمييزية الصارخة بين العامل العربي والعامل الاسرائيلي ، حيث لا يتجاوز أجر العامل الأول ٤٠٪ من متوسط أجر العامل الثاني (٢٢) . وتعترف المصادر الاسرائيلية نفسها بهذه الحقيقة فتقول : « اعتاد العمال اليهود أن يتلقوا ٨٥ ليرة مقابل جني طن واحد من الشمندر السكري ، بينما يتلقى عمال المناطق المحتلة ما بين ٢٢ ـ ٢٤ ليرة مقابل جني ٣,٥ طن من الشمندر »(٢٣) .

واذا أضفنا الى ذلك الشروط المعيشية القاسية لهؤلاء العمال العاملين في اسرائيل ، مثل اضطرارهم للمبيت «سراً» في اسرائيل بشروط غير انسانية ، وتعرضهم للضغط السياسي ، وحرمانهم من تشكيل الاتحادات أو التنظيمات النقابية التي تحميهم ، ورفض « الهستدروت » قبولهم في عضويته ، أمكننا أن نتصور ابعاد هذه الظاهرة .

ازاء هذه الظروف يجد عمال المناطق المحتلة أنفسهم أمام خيارين : اما قبول العمل في اسرائيل بكل ما فيه من مشقة وضغوط ، أو الهجرة الى خارج المناطق المحتلة لايجاد عمل في احدى البلدان العربية أو الاجنبية . وتدل أرقام الهجرة الخارجية ـ وهو ما سوف نتحدث عنه بعد قليل ـ على نمو الاتجاه الثاني . فقد بلغ عدد عمال الضفة الغربية وحدها الذين هاجروا خلال عام ١٩٧٥ ما يزيد على /١٥/ ألف شخص ، ويقدر عددهم خلال الفترة ٧٥ ـ ٧٧ بنحو /١٠/ آلاف شخص سنوياً (٢٤) .

---

* انظر مقالة شيلا ريان في نشرة : Merip Report No 74, Jun 1979 p. 6-8
وكذلك سمير امين في كتابه : -The Arab Nation, London, 1978, p. 68.

٢ ـ الأحوال المعيشية

كان للتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة لسياسة سلطات الاحتلال ـ امتصاص العمالة العربية وتشغيلها في اسرائيل والدمج الاقتصادي، الخ ..ـ تأثيرات بارزة على النمط والمستوى المعاشي لسكان المناطق المحتلة . وتقدر المصادر الاسرائيلية أن دخل الفرد السنوي في المناطق المحتلة ارتفع من / ٦٧٠/ ليرة عام ١٩٦٨ الى / ١١٠٠/ ليرة عام ١٩٧٢ ـ على قبيل المثال ـ أي بزيادة ٤٥٪ (وهي زيادة لم تحسب فيها نسب التضخم) . ويعترف الكاتب الاسرائيلي موردخاي نيسان بأن هذه الزيادة تركت اثارها في الطابع المعيشي للسكان ، وخاصة النمط الاستهلاكي ، مثل اقتناء السيارات والآلات الكهربائية والسلع الاستهلاكية [٢٥] .

والأدبيات الاسرائيلية كثيراً ما تدعي أن المناطق المحتلة قد شهدت تطوراً ملحوظاً في المستوى المعيشي منذ عام ١٩٦٧ حتى اليوم ، وأنها بالتالي قد استفادت من « الوجود الاسرائيلي » . ويفند الباحث الاقتصادي الغربي فان اكري هذه المقولة فيقول : « ان المتغيرات البنيوية في اقتصاديات المناطق المحتلة هي متغيرات ضارة على المدى البعيد » . ويضيف : ان الفوائد الآتية تتمثل في ارتفاع الأجور والقوة الشرائية . ومع هذا فهو يتساءل ما اذا كانت هذه الفوائد مجدية ـ حتى على المدى القصير ـ كما تدعي المصادر الاسرائيلية ، ويقول : « في السنوات القليلة الماضية تقلصت حتى فوائد المدى القصير نتيجة للتضخم وتخفيض العملة » [٢٦] .

ومن المعروف أن ارتفاع الأسعار والضرائب في ظل حكومة الليكود ، وكذلك اتخاذها لعدد من الاجراءات الاقتصادية الجديدة ، وارتفاع نسب التضخم بوتائر عالية ، وتطبيق هذه الاجراءات على المناطق المحتلة ، قد أدت الى زيادة الأعباء المعيشية على سكان هذه المناطق ، بسبب التفاوت في دخل الفرد الاسرائيلي والعربي أولاً ، وبسبب حرمان عمال هذه المناطق من علاوة غلاء المعيشية ثانيا . ويكفي أن نذكر أن نسبة ارتفاع بعض الحاجيات الأساسية خلال السنتين الماضيتين مثل الخبز (١٠٠٪) والمرجرين (١١٣٪) والبيض (١٦٥٪) والجبن (١٣٣٪) للدلالة على ما تعانيه جماهير المناطق المحتلة في ظروفها المعيشية .

٣ ـ الهجرة

جاء الاحتلال الاسرائيلي في حزيران عام ١٩٦٧ ليفجر العديد من المشكلات والازمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوق كل ما سببه من خسائر بشرية ومادية . وكان في طليعة هذه المشكلات مشكلة الهجرة ، وخاصة هجرة القوى العاملة ، بسبب الظروف المادية العسيرة .

يقدر عدد الذين هاجروا أو هجروا في الأشهر الأربعة الأولى من احتلال **الضفة الغربية** بأكثر من / ٢٠٠/ ألف نسمة ولم تقف هذه الظاهرة عند سنة أو سنوات الاحتلال الأولى ، بل **ظلت ظاهرة** مستمرة طوال سنوات الاحتلال . ويعطينا الجدول رقم ٤ فكرة عن استمرارية هذه الظاهرة منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٨ ، ولنأخذ مثالاً الضفة الغربية [٢٧] .

جدول رقم ٤

(بالآلاف)

السنة	تعداد السكان في بداية العام	تعداد السكان في نهاية العام	الزيادة الطبيعية (الولادات)	الزيادة السنوية (الزيادة الفعلية)
١٩٦٧	٧٩٥,٩	٥٨٥,٧	–	–
١٩٦٨	٥٨٥,٧	٥٨١,٧	١١,٧	٠,٧
١٩٦٩	٥٨١,٧	٥٩٥,٢	١٢,٣	٢,٣
١٩٧٠	٥٩٥,٢	٦٠٣,٩	١٣,٧	١,٥
١٩٧١	٦٠٣,٩	٦١٧,٣	١٥,٩	٢,٢
١٩٧٢	٦١٧,٣	٦٢٩	١٦,٨	١,٩
١٩٧٣	٦٢٩	٦٤٦	١٦,٩	٢,٧
١٩٧٤	٦٤٦,٢	٦٦١,٦	١٨,١	٢,٤
١٩٧٥	٦٦١,٦	٦٦٥,١	١٨,٦	٠,٥
١٩٧٦	٦٦٥,١	٦٧٠,٩	٢٠,٣	٠,٩
١٩٧٧	٦٧٠,٩	٦٨١,٢	١٠,٥	١,٥
١٩٧٨	٦٨١,٢	٦٨٤,٤	٢٠,٢	–

ان قراءة هذه الارقام توحي للوهلة الاولى بوجود زيادة في تعداد سكان الضفة . ولكن لدى مقارنة نسبة الزيادة الطبيعية بالزيادة السنوية نجد ان ظاهرة الهجرة مستمرة ، وان الزيادة السنوية ما هي الا زيادة طفيفة لدى مقارنتها بالزيادة الطبيعية للسكان . كذلك يتضح لنا لدى عقد هذه المقارنة ان الزيادة السنوية للسكان لا تتناسب ، وخاصة في السنوات الاخيرة ، مع الزيادة الطبيعية . **فظاهرة الهجرة اذاً تزداد تفاقما مع استمرار الاحتلال .**

ويطيعنا الجدول رقم ٥ فكرة عن تناقص الايدي العاملة في المناطق المحتلة .

جدول رقم ٥

عدد القوى العاملة بالالاف في المناطق المحتلة *

السنة:	١٩٧٠	١٩٧٣	١٩٧٧
الضفة الغربية:	٩٩,٨	٨٧,٨	٩١,٩
غزة/ شمال سيناء:	٥٢,٩	٤٥,٦	٤٩,٩

هذا التناقص الواضح يفسر ببساطة بظاهرة الهجرة بشقيها : **الداخلي** (العمل في

* المصدر : Merip Reports, No 74, Middle East Research Information Project, Jan 1979, p. 11.

اسرائيل) والخارجي (العمل في الضفة الشرقية والبلدان العربية الاخرى) .

ويعزو فان اركري هذه الظاهرة بشقيها الى ضعف اقتصاديات المناطق من جهة ، والركود الذي خيم على الاقتصاد الاسرائيلي منذ اواسط السبعينات من جهة اخرى . يقول اركري :

« في السنوات الثلاث الماضية لم تتوسع اقتصاديات المناطق المحتلة بما يسمح باستيعاب فائض العمالة التي خلفها الركود الاقتصادي في اسرائيل . وفي الضفة الغربية حيث بلغت مؤشرات البطالة منذ عام ١٩٧٥ وصاعدا درجات خطيرة ، امكن تجنب ازمة كبيرة بفضل تطور الاقتصاد الاردني وتطلبه لاعداد متزايدة من العمال من الضفة الغربية . كذلك لم تتوقف هجرة سكان الضفة الى اجزاء العالم العربي الاخرة والى الولايات المتحدة ... » [٢٨] .

من الطبيعي ان تتركز ظاهرة الهجرة على الذكور في سن العمل بالدرجة الاولى الذين تدفعهم الضغوط الاقتصادية والسياسية الى الهجرة في محاولة لتحسين ظروف معيشتهم ومعيشة اسرهم . وقد انعكست هذه الظاهرة بصورة سلبية على الزراعة ، كما راينا ، كما انعكست بصورة سلبية ايضا على العمالة بصورة عامة ، وهو ما يؤثر بدوره على كافة فروع الاقتصاد .

ولتوضيح ظاهرة هجرة الشباب في سن العمل ، وخصوصا منذ عام ١٩٧٤ والاعوام التي تليه ، نسوق هذا الجدول (رقم ٦) الذي يبين تناقص مجموع القوة العاملة بالمقارنة بمجموع السكان فوق سن ١٤ ، والنسبة المئوية للمجموعة الثانية الى المجموعة الاولى (في الضفة الغربية) :[٢٩]

جدول رقم ٦

[بالآلاف]

السنة	مجموع السكان فوق سن الـ ١٤	مجموع القوة العاملة	النسبة المئوية للقوة العاملة الى مجموع السكان فوق الـ ١٤
١٩٧٤	٣٥٥,٢	١٣٩	٪٣٩,١
١٩٧٥	٣٦٦,٩	١٣٣,٩	٪٣٦,٥
١٩٧٦	٣٧١	١٣١,٣	٪٣٥,٤
١٩٧٧	٣٧٩,٤	١٢٨,٨	٪٣٣,٩
١٩٧٨	٣٨٩,٨	١٣٢,٩	٪٣٤

٤ ـ اوضاع اللاجئين

ضمن اطار سياسة الدمج الاقتصادي للمناطق المحتلة باسرائيل ، عمدت سلطات الاحتلال الى محاولة انهاء مشكلة اللاجئين عن طريق الغاء المخيمات تدريجيا ، ونقل سكانها الى احياء جديدة لدمجهم في سكان المدن والقرى . ولم تكن الدوافع الاساسية لهذا المخطط

انسانية بالطبع ، بل كانت محاولة للتخلص من المخاطر التي يمكن ان تخلقها هذه التجمعات السكانية الكبيرة حيث تحتدم عوامل التذمر والثورة ، وبالتالي فقد ارادت ان « تصفي » هذه التجمعات ، وخاصة في قطاع غزة ، وتدمجها في باقي السكان ، وتدخلها في عجلة العمل الاسرائيلي .

وقد جرت بالفعل في الكيان الصهيوني عدة دراسات وقدمت عدة مشروعات لتصفية « المخيمات » وحل مشكلة اللاجئين . من ابرز هذه الدراسات والمشروعات :

- **مشروع جماعة رحبوت** : وهو مشروع أعدته جماعة من الاكاديميين في مطلع عام ١٩٦٨ . ويرى المشروع حل مشكلة اللاجئين في تطوير اقتصاديات المناطق المحتلة ، وجذب رؤوس الاموال الخارجية ، وتقديم المغريات للاجئي قطاع غزة للانتقال الى الضفة الغربية .

- **مشروع لجنة برونو** : وهو مشروع اعدته هيئة للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي برئاسة الاكاديمي ميخائيل برونو وقدمته في اذار عام ١٩٦٩ . وهو كسابقه يدعو الى حل مشكلة اللاجئين ضمن اطار سياسة الدمج الاقتصادي ، وافراغ المخيمات تدريجيا عن طريق تقديم الحوافز لسكانها . ويرى واضعو المشروع ان مشروعهم يرمي الى حل مشكلة اللاجئين وزيادة النشاط الاقتصادي والعمالة في المناطق المحتلة .

- **مشروع مؤسسة راند الاميركية** : الذي اعده بعض الباحثين الاسرائيليين لمصلحة المؤسسة المذكورة عام ١٩٧١ . ويرمي المشروع الى ايجاد مجال لاسكان اللاجئين خارج المخيمات بين السكان الاخرين الذين لا يعيشون على المساعدات ، بقصد دمجهم ، وتوفير مجالات العمل لهم .

- **مشروع فايتس** : وهو المشروع الذي اعده مدير دائرة الاستيطان السابق في الوكالة اليهودية وتقدم به عام ١٩٦٩ ، ويرمي الى تعويض اللاجئين وتوطينهم في مناطق ثابتة . كما يقترح نقل /٥٠/ الف لاجيء من قطاع غزة الى منطقة العريش في سيناء

من هذا الاستعراض الموجز لهذه المشروعات نرى ان القاسم المشترك بينها يرتكز الى فكرة ان مخيمات اللاجئين بشكلها الراهن تساعد على بقاء مشكلة اللاجئين ، وان هدف السياسة الاسرائيلية ازاء هذه المشكلة ينبغي ان يرتكز على اخلاء المخيمات عن طريق تقديم الحوافز والمغريات ، فضلا عمن يخلى من سكانها نتيجة ضغط الاجراءات الاقتصادية والقمعية .

وقد شرعت سلطات الاحتلال بتنفيذ هذا المخطط عمليا منذ العام ١٩٧١ حيث باشرت بهدم البيوت وشق الطرق وسط المخيمات القديمة وخاصة في قطاع غزة (مخيمات رفح وجباليا والشاطىء) ، والحاق المخيمات بالبلديات المجاورة . ويذكر بعض المصادر الاسرائيلية ، ان انتقال اللاجئين الى المواقع الجديدة التي خصصت لهم ، يجري منذ العام ١٩٧٤ بمعدل الف الى الف وخمسمائة عائلة سنويا ، وانه حتى العام ١٩٧٦ كان قد تم نقل /٢٥٠٠/ عائلة في قطاع غزة الى الاحياء الجديدة (٣٠) .

---

(١) *Jerusalem Post*. 6/5 1974.

(٢) *Monthly Discharge of Underground Water in Yehuda and Shomron 1977, 78,* Military Government Department of Water.

- انظر أيضا دراسة روز مصلح « اسرائيل ومصادر المياه في الضفة الغربية » شؤون فلسطينية ، أيار ١٩٨٠ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٣) *Statistical Abstract of Israel.* 1970 - 78.

(٤) *Administered Territories Statistics Quarterly*, Israel Central Bureau of Statistics, (Jerusalem, 1978). No 3, P. 102.

(٥) Bank of Israel, *The Economy of the Administered Areas 1974 - 75,* (Jerusalem, Dec. 1976).

(٦) Sheila Ryan, «Israel Economic Policy in the Occupied Areas» *MERIP Reports,* No 24,. Jan. 1974, P. 10.

(٧) « هارتس » ، ٢٦ / ١٠ / ١٩٧٦ .

(٨) *Le Monde*. 9/1/1973

(٩) Anne Sinai and Allen Pollack (eds), *The Hashemite Kingdom of Jordan and The West Bank,* (New York: 1977), P. 205.

(١٠) المصدر نفسه . ص ٢٠٤ .

(١١) المصدر نفسه . ص ٢١٩ .

(١٢) المصدر نفسه . ص ٢٠٥ .

(١٣) *S.A.I.*, 1977.

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) Sarah Graham Brown «The Structural Impact of Israeli Colonisation», *MERIP Reports,* No 74, Jan. 1979, P. 15.

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(١٧) Brian Van Arkadie, *Benefits and Burdens, A Report on the West Bank and Gaza Strip Economics Since 1967.* (The Carnegie Endowment for International Peace, 1977). Excerpts in *The Journal of Palestine Studies,* Vol VI No 2, 1977, P. 120.

(١٨) *Quarterly Statistics of the Administered Territories* as quoted in *MERIP,* OP. Cit. P.10.

(١٩) Van Arkadie, *Op . Cit.* P. 121.

(٢٠) ICBS, *Quarterly Statistics of the Administered Areas, 1978.*

(٢١) *S.A.I* , 1975, P. 58.

(٢٢) Sheila Ryan , «The Political Consequences of Occupation», *MERIP*, No 74, *Op. cit.,* P.P. 6-8.

(٢٣) « هارتس » ، ٤ / ٨ / ١٩٦٩ .

(٢٤) Ryan (*MERIP* No 74), *Op. Cit.*

(٢٥) Mordechai Nisan, *Israel and The Territories 1967 - 1977,* (Turtledove Publishing: Israel, 1978), P. 130.

(٢٦) Van Arkadie. *Op. Cit,* P. 11.

(٢٧) *S.A.I.*, 1978, P. 765.

(٢٨) Ryan, *Op. Cit,* P. 11.

(٢٩) *S.A.I.*, 1973, P. 710, and A.T.S.Q , *Op. Cit.* P. 35.

(٣٠) « معاريف » ، ١٩٧٦/١١/٢٨ .

حوار مع خالد الحسن
أجراه فيصل حوراني

حول موقف أوروبا الغربية والتوجه الفلسطيني نحوها

هذا الحوار اجرته شؤون فلسطينية مع الاخ خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في المجلس الوطني الفلسطيني . وقد أجري الحوار بعد الجولة التي قام بها الحسن على رأس وفد من المجلس في عدد من عواصم اوروبا الغربية ، وحضر في بدايتها مؤتمراً ضم اعضاء الوفد مع ممثلي « المؤسسة البرلمانية الاوروبية للتعاون العربي الاوروبي » ، وذلك في مدينة ستراسبوغ في فرنسا في الفترة بين ١٧ و٢٠ نيسان ١٩٨٠ . اما بقية الجولة فقد امتدت حتى ٩ أيار ١٩٨٠ ، حيث انقسم الوفد الى ثلاث مجموعات زارت كلا من باريس وروما وبروكسل وامستردام ولندن ودبلن ولوكسنبورغ وبون . وكان الحسن رئيساً للمجموعة التي زارت باريس وروما .

وفيما يلي وقائع هذا الحوار :

س : عندي رجاء قبل بدء حوارنا . فاقوالك في العادة تثير التباسات وتكون مبعث انتقادات على الساحة الفلسطينية . ورجائي ان تميز منذ البداية بين ارائك التي تعبر عن اجتهاد شخصي ، وتلك التي تعكس وجهة نظر « فتح » او وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية ، حتى لا يثير هذا الحوار التباسات جديدة . واقترح ان يتركز حديثنا حول موضوعين : المبادرة الاوروبية التي يجري الحديث عنها ، والتحركات الفلسطينية بين يدي هذه المبادرة أو ما يمكن أن نسميه المبادرات الفلسطينية تجاه اوروبا الغربية . واقترح ان نبدأ بالاستماع لوجهة نظرك حول مجمل الموقف الدولي ، لنعرف الدوافع التي تجعلك واحدا من المتحمسين للنشاط في مجال الاتصال ببرلمانات وحكومات اوروبا الغربية ، مما يعني انك بين من يعتقدون بأن هذه الاتصالات ذات جدوى ، فما هو تصورك لافاق الوضع الدولي المتصلة بقضية فلسطين والشرق الاوسط : ولموقع اوروبا الغربية في هذا الوضع ؟

ج : اي خطة عمل توضع ، او أي استراتيجية ، في اية قضية ، خصوصاً عندما تصل الى مستوى القضية القومية ، لا يمكن وضعها من منطلق ردود الفعل ، بل يجب وضعهما من منطلق

الفهم الدقيق لطبيعة القضية ، اولا ، ولخصوصياتها ، ثانياً ، ولعلاقاتها بما حولها من حيث ضيق او اتساع دائرة الحلفاء والخصوم واهداف الخصوم في سلوكهم السياسي بالنسبة لها ، ثالثا . واذا لم ندرك هذه الامور كلها نبقى محصورين في اطار تفكير ضيق . وهذا الضيق قد يؤدي الى فشل النضال بشكل نهائي ، كما انتهى الامر بالنسبة لعدد كثير من الثورات .

لا اريد ان اخوض في التفاصيل المعروفة لدى القارىء . واكتفي بالقول بأن اسرائيل لم توجد نتيجة العطف على اليهود بسبب المذابح النازية . وفكرة انشاء دولة يهودية ، مثل فكرة التحالف الغربي مع يهود العالم تجاه الشرق الاوسط ، تعود الى اوائل القرن الثامن عشر . ومعروف من الوثائق التي نشرت والاخرى التي لم تنشر مما يمكن الاطلاع عليها ، ان ايجاد دولة اسرائيل كان في اساسه هدفاً استعمارياً للسيطرة على الشرق الاوسط . ومن هنا يتوجب علينا ان نعرف ان الصراع مع اسرائيل هو ، في حقيقته وفي جوهره ، صراع مع السياسات الدولية التي أوجدت اسرائيل وما زالت ترعي مصالحها ، وخصوصاً مع سياسات العالم الغربي المعروف بالعالم الرأسمالي ، والذي قادته في فترة سابقة انكلترا وفرنسا وتقوده الان الولايات المتحدة الاميركية . وهؤلاء عندما انشأوا اسرائيل لم يفعلوا ذلك نكاية بالشعب الفلسطيني بل انشأوها في هذا الموقع بالذات ، أي في فلسطين ، تحقيقاً لرغبتهم في استمرار سيطرتهم على منطقة الشرق الاوسط لحيوية هذه المنطقة بسبب موقعها الجغرافي ولكونها صلة الوصل بين الطرق المائية العالمية .

كذلك ، وخصوصا منذ اوائل القرن العشرين بدأ النفط يظهر في المنطقة . ودخل العلم الحديث الى الآلة العسكرية وتغيرت الاستراتيجيات العسكرية في العالم بعد التعقيدات التي حصلت في وسائل القتال ، فانتقلت من : كيف ينقل الجندي الى ارض المعركة ، الى : كيف ينقل العتاد ، ثم تطورت اكثر مع التقدم العلمي وظهرت الحاجة الى كيفية تأمين ورش الصيانة ومستودعات الوقود وقطع الغيار في ساحات القتال ، وما ترتب على ذلك من نشوء فلسفة القواعد العسكرية ، التي لا تقتصر على وجود الجنود ، بل تشمل الطائرة والدبابة والوقود وقطع الغيار وورش الصيانة ومستلزمات تشغيل هذا كله .

ولكي يتحقق وجود القواعد طبقاً لهذه الفلسفة صار على القيادة الاميركية او العالم الرأسمالي ، او أية دولة في العالم ، ان تضمن صداقة الشعب بحيث يؤمن الشعب بوجود القواعد العسكرية في بلاده . واوروبا الغربية ، مثلا ، تؤمن بوجود القواعد العسكرية الاميركية في بلادها بل تطلبها وتتمسك بها . وفي هذا السياق جرى العمل لاقامة دولة كاسرائيل ، شعبها غريب عن المنطقة وينتمي في أصوله الى الحضارة الاوروبية ويعتمد في وجوده على الدعم الغربي ، لان شعباً كهذا سيرى في وجود مثل هذه القواعد العسكرية شيئاً اساسياً لضمان استمرار وجوده الى المرحلة التي تمكنه فيما بعد من تحقيق مخططاته . ولذلك كانت حماية الاستعمار العالمي لاسرائيل كفكرة ثم كوجود وكاستمرار تتطور من خلال تطور سيطرته على المنطقة ، بما هي منطقة تشكل شيئاً اساسيا لاستمرار ممارسة الولايات المتحدة لدورها كقوة أولى في العالم .

ومن هنا فإن النضال لتحرير فلسطين ليس نضالا محلياً ، كنضال الثورات الاخرى ، فنضال الثورة الجزائرية ، مثلاً ، كان موجهاً ضد فرنسا فقط ، والنضال الثوري في فيتنام كان موجهاً ضد عملاء الولايات المتحدة فيها .

س : اظن انك لا تقصد ان العامل الدولي كان غائباً ؟

ج : لم يكن عاملاً اساسياً . وأي حركة في عالمنا الحديث لها بالطبع علاقة بالسياسة الدولية . الفرق ان القضية الفلسطينية ، منذ ابتدأت ، تمس جوهر السياسة الدولية . ومنذ عرف العالم هذه المنطقة وامورها متصلة بجوهر السياسة الدولية . ولم تمر في التاريخ دولة اولى في العالم لم تسيطر على منطقة الشرق الاوسط . وبالتالي فإن طبيعة النضال الفلسطيني تمس مباشرة جوهر الاستراتيجية الدولية ، وبما ان اليد العليا في الاستراتيجية الدولية هي الآن للمعسكر الغربي الذي تقوده اميركا ، فالنضال الفلسطيني يمس جوهر الاستراتيجية الاستعمارية في العالم . ومن هذا كله كانت طبيعة النضال الفلسطيني ، شئنا ام ابينا ، طبيعة دولية .

وهناك نقطة ثانية ، فمع ان قضية فلسطين قضية قومية الا ان النفسية الدفاعية هي المسيطرة على الحركة القيادية العربية . والتمزق العربي يكاد يصل الى حد الاقليمية المغلقة ، بالرغم من كل الحديث القومي والقرارات القومية التي تتخذ في مؤتمرات القمة والتي تنفذ بوسائل اقليمية . وهناك ايضاً ما تمثله اسرائيل من طموح خاص بها ، بالاضافة لمطامع الاستعمار ، طموحها الخاص الكي تستطيع ان تعيش باكتفاء ذاتي في تحقيق فلسفة اسرائيل الكبرى وما يمثله هذا من خطر قومي على الأمة العربية . كل هذا يتطلب ان يمارس العرب سياسة موحدة للأمن القومي بينما تجري في الواقع ممارسة سياسات الأمن الاقليمي بسبب الواقع العربي الراهن . وبهذا لم يتمكن الموقف العربي من ان يواجه الوجود الاسرائيلي بالشكل الصحيح . وما حدث كان معكوساً فلولا الحروب الاسرائيلية في السنوات الثلاثين الماضية لما كانت هناك حروب عربية . وكل قواتنا العسكرية العربية تبنى وفق نظرية الدفاع . وانا لا أتهم احداً بأنه لا يريد التحرير . ولكن هذا هو الوضع العربي : النفسية الدفاعية ، الاستسلام للواقع والتفكير الاقليمي ، وهو ما يتناقض مع متطلبات أي عمل يقوم على الأساس القومي لمواجهة خطر من طبيعة الخطر الصهيوني .

وهذا كله لم يحسم قضية فلسطين لصالح الشعب الفلسطيني ولصالح الأمة العربية وتاه الصراع الدولي بين العرب وبين اسرائيل وفي هذا المجال ، وطالما نحن في الموقف الدفاعي ، فإن المنتصر باستمرار هو اسرائيل ، سواء في المجال العسكري او المجال الدولي . ومن هنا فإن الشعب الفلسطيني ، بالرغم من جذوره القومية وتفكيره الوحدوي ، قرر ان يبرز شخصيته على المسرح الدولي كشخصية مستقلة . وكان هذا احد الضرورات القومية لتعديل ميزان النظرة الى الصراع ، ففي المجال الدولي لا يفهمون ان الدول العربية العشرين تشكل امة واحدة وانما يرون عشرين أمة ، وهم لا يفهمون بالتالي ان بلداً كابوظبي يريد تحرير فلسطين ، الا انهم يفهمون ان الفلسطينيين يريدون العودة لوطنهم .

ومن هنا كانت خصوصية القضية الفلسطينية اذ لا بد من اعادة الشخصية الفلسطينية الى المسرح الدولي ، كشخصية مناضلة اولاً ومطالبة بحقوقها الوطنية ثانياً . وبالتالي يصبح الصراع في المسرح الدولي بين العدوان الاسرائيلي وبين الحقوق الوطنية الفلسطينية ، وهذا يعيد التوازن لصالح النضال الفلسطيني على المسرح السياسي العالمي .

س : لنبق في مجال تحديد صورة الوضع الدولي . واذا جاز لي ان الخص ما قلته بكلمات اخرى فانت ترى ان تبني الغرب للمشروع الصهيوني ، الذي ادى لانشاء اسرائيل ، قد تم في فترة نهوض الامبريالية وتطور مصالحها الاستعمارية واتساعها ، وان هذا ما يزال قائماً ، مما يعني انه مع توسع المصالح يتوسع دعم الغرب لاسرائيل ، فهل فهمتك بشكل صحيح ؟

ج : صحيح تماماً .

س : ومن تحصيل الحاصل ، أن انتقال مراكز قيادة المعسكر الامبريالي من بلد الى آخر ينقل مركز التأثير في مجمل السياسة الغربية الى هذا البلد ، وكذلك مركز الدعم الرئيسي لاسرائيل ومجابهة حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية بالطبع .

ج : هذا أيضاً صحيح ، ومن هنا ظهرت الطبيعة الدولية للقضية الفلسطينية ، وهي تفرض تنمية الشخصية الفلسطينية النضالية المستقلة . وبالطبع فيما يخص المسرح الغربي ، لا يمكن الا ان تكون في اطار الموقف العربي . واذا فهمنا هذه الاشياء يصبح من البداهة ان تجري حركة فصل سياسي على مسرح العالم الغربي ؛ ففي الفترات السابقة ، وخصوصاً منذ الحرب العالمية الاولى حتى ١٩٦٧ ، كان موقف الرأي العام الاوروبي كله لصالح اسرائيل والسياسة الغربية في فلسطين ولصالح الموقف الاسرائيلي والبقاء الاسرائيلي ، وكل شيء اسمه اسرائيل في فلسطين . ووجود رأي عام كهذا مع الطبيعة الديمقراطية للحكومات الاوروبية التي اسهمت بدورها في خلقه مكن هذه الحكومات من ان تطبق سياساتها الاستعمارية في فلسطين دون ان ترى مواقف مضادة لها من قبل شعوبها . وانا لا اريد ان ننتقل مباشرة للحديث عن الموقف الغربي بعد عام ١٩٧٣ وعن القوى الاقتصادية المتنامية وعلاقة ذلك بما يجب ان يتم في الساحة ،فهذا سنأتي اليه فيما بعد . ما اريد أن اقوله انه تبلور معسكر خصم فيه كل العالم الغربي في وقت يقود فيه هذا العالم السياسة الدولية من خلال قيادة الولايات المتحدة له . والتأثير في هذا العالم الغربي يتم عن طريق الرأي العام وعن طريق المصالح . ولم يصل الموقف العربي الى مستوى التأثير على مصالح العالم الرأسمالي حتى يشده الى الموقف السياسي العربي . سياسة كهذه غير موجودة عندنا كعرب لاننا لم نصل بعد الى مستواها ، ولان ضرب المصالح الاستعمارية او المصالح الرأسمالية في منطقتنا لا يتم بخطف طائرة او تفجير قنبلة تحت سيارة . وضرب المصالح الاستعمارية يحتاج الى موقف عربي سياسي اقتصادي متكامل لمواجهة المتطلبات الاقتصادية الاوروبية في عالمنا وهي بحجم تستطيع معه ان تؤثر على السياسة ، سواء في اوروبا او في غير اوروبا . هذا هو وضعنا عربياً ، ونحن كفلسطينيين لا نملك ان ندفعه الى الممارسة على النحو الذي يسنجم مع اهدافنا ، قد ندفع نحو موقف عربي عام ونضغط على الدول العربية حتى تربط السياسة بالاقتصاد . ولكن ما نستطيع ان نفعله هو ان نقوم بالفعل الفلسطيني الاعلامي والسياسي لايجاد تأثير في الرأي العام في معسكر الخصوم .

س : المقصود مبادرات فلسطينية تعوض غياب او عدم انتظام المبادرات العربية ؟

ج : هذا جانب أساسي في الموضوع ، والجانب الثاني هو تمايز الشخصية الفلسطينية وابرازها على المسرح الدولي لتبديل النظرة الغربية الى الصراع من كونه صراعاً بين عشرين دولة

عربية ودولة اسمها اسرائيل الى نظرة تدرك ان هناك شعباً اضطهد بوجود هذه الدولة وسلبت حقوقه وهو يناضل من اجل استعادتها ، والدول العربية مؤيدة له .

س : في كلامك نقطة بحاجة لايضاح ، انت تتحدث عن العالم الغربي وعن العرب ، وترى في كل منهما وحدة واحدة . اما في الواقع فليس هناك عالم غربي موحد ، ولا عرب موحدون . في الغرب طبقات رأسمالية وحكومات تمثلها، وفيه طبقات وقوى معارضة او معادية للرأسمالية . وبين العرب موالون للغرب وبينهم مؤيدون للتحرر منه . والحديث عن مبادرات اعلامية وسياسية تجاه الغرب ينبغي ان يميز شيئاً واحدا : لمن تتجه هذه المبادرات وبالتالي من اي نوع تكون . وبصورة عامة ، ومن غير رغبة في التبسيط ، يمكن القول ان القوى الغربية التي تضعها مصالحها ضد الاهداف الوطنية للشعب الفلسطيني سيشتد عملها ضدها اكثر كلما عرفت اهدافه بجلاء أشد . فاستقلال الشعب الفلسطيني وتحقيق دولته يتعارض مع مصالحها كلية . وهناك ، أيضاً العرب المشرفون على الثروات النفطية ولهؤلاء مصالحهم التي لا تنسجم مع اهداف الشعب الفلسطيني الوطنية ، ومثلهم عرب آخرون مرتبطون بمصالح الغرب الرأسمالي ، واذا كان السادات ابرز الامثلة في هذا السياق فهو ليس الوحيد ، فهل يجوز ان نتحدث عن غرب باطلاقه وعن عرب باطلاقهم ؟

ج : حديثي كان مقدمة عامة عن طبيعة الموقف الدولي ، ولكي نفهم حقيقة هذا الغرب فهو يتكون من مجموعات عديدة من الدول تقوم على النظام الرأسمالي ، ونظام الرأسمال يقوم على المنفعة الاقتصادية أساساً . ومن هنا ، بغض النظر عن الامور الاجتماعية ، يقع تناقض بينها مع تناقض مصالح دولها . والتناقض الاساسي البارز الآن هو بين دول اوروبا الغربية مجتمعة ومعها اليابان وبين الولايات المتحدة الاميركية .

س : ملاحظتي السابقة لم تكن عن الخلافات داخل المعسكر الرأسمالي الغربي بل الخلافات بين الرأسمالية والقوى المعارضة لها في الغرب نفسه .

ج : هذه نؤجل الحديث عنها حتى نستكمل النقطة التي بدأنا بها حول التناقض ما بين اوروبا والولايات المتحدة ، فاوروبا يقوم اقتصادها على تصدير فائض الانتاج . وهي بالتالي بحاجة ماسة الى الاسواق التي تستهلك انتاجها المتنوع . وطبقاً لاحصاءات ١٩٧٦ تستحوذ اوروبا على ٤٤,٤ بالمائة من اجمالي التصدير العالمي . وهي تعيش وتنمو عبر هذا الفارق بين ما تنتجه وما تصدره ، وتأمين الاسواق مسألة بالغة الأهمية بالنسبة لاقتصادها .

اما طبيعة الاقتصاد في الولايات المتحدة فهي مختلفة ، اذ انها تستهلك ٩٥ بالمائة من انتاجها ، وتصدر ٥ بالمائة منه وغالبيته من السيارات . ومشكلة اميركا الاقتصادية هي كيف تستثمر فائض رأسمالها المتحقق لها من السوق الداخلي . وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان تراكم رأسمال الولايات المتحدة مذهلاً ، ويدفعها للبحث عن سبل لاستغلاله والا لأصبحت تعاني من تضخم رهيب . ومن هنا بنيت السياسية الامبريالية الاميركية على استثمار فائض رأسمال في الخارج وخصوصاً في الدول الصناعية حيث شاركت اميركا اوروبا في صناعتها . ومن هنا ، ايضاً ، كان الفرق النوعي في البنية الاقتصادية بينهما . وتطورت الامور في المعسكر

الرأسمالي بعد انتقال اوروبا من مرحلة الانهيار الاقتصادي الذي تلا الحرب العالمية الثانية مباشرة الى مرحلة الاكتفاء الذاتي وعودة مشكلة فائض الانتاج الى الظهور . وقد تجددت ، بسبب ذلك ، الحاجة الماسة الى الاسواق ، وهنا بدأ تناقض جديد بين اوروبا واميركا . هذا التناقض تمثل في حاجة اوروبا الى التصدير بدون مشاركة اميركا لها ، حتى تستطيع ان تحقق مشاريعها في التنمية بالشكل المرغوب . وقد ازدادت ارباح اوروبا الغربية بحيث اصبحت قادرة على انشاء مؤسسات انتاجية مستغنية عن المعونة الاميركية وعن معونة الشركات متعددة الجنسية . وهنا اصبح استثمار راسالمال الاميركي في الخارج يتراجع ، وبهذا التراجع بدأت علائم التضخم بالظهور مما اربك الاقتصاد الاميركي وذلك منذ أيام الرئيس كينيدي ومما يجعله مرشحاً لمواجهة مزيد من الارباكات في المستقبل . وقد قام كينيدي بمحاولة للاصلاح في مجال الصناعة حتى يتمكن من موازنة فروع الاقتصاد الاميركي ، الا انه فشل بسبب سيطرة الاحتكارات ومقاومتها .

والتضخم المالي رافقه ايضا تطور مذهل في التكنولوجيا ، واصبح هناك استثمار من نوع جديد لم نحس به تماماً حتى الآن ، مع انه استعمار المستقبل . هذا الاستعمار القادم يختلف في طبيعته عن الاستعمارات القديمة كلها ، بما فيها الاستعمار الجديد لانه سيقوم على التكنولوجيا المتطورة . واستثمار التكنولوجيا ليس مسرحه العالم الثالث بل مسرحه الدول التي تملك التكنولوجيا . ولذلك عندما خاضت فرنسا بقيادة الجنرال ديغول معركتها ضد اميركا لتحقيق الاستقلال الفرنسي عن اميركا وعن المعسكر الغربي ككل وعن حلف الاطلسي كان محور هذه المعركة هو تطبيق التكنولوجيا الفرنسية في الصناعة الفرنسية ، ولكن ديغول خسر في النهاية ، وعادت التكنولوجيا الاميركية تستعمل في الصناعة الفرنسية .

هذا النوع من الاستعمار الجديد ، الذي هو وليد تطور التكنولوجيا استتبع خلق تناقض جديد في المصالح بين دول العالم الرأسمالي ، واخذ يركز بشكل أقوى تبعية بلدان العالم الرأسمالي في المجال الاقتصادي التكنولوجي للتكنولوجيا الاميركية ، ومن هنا اصبحت التكنولوجيا الالمانية الغربية في موضع المحاصر على المستوى العالمي سواء في الانتاج او التصدير كما كان الانتاج الالماني محاصراً قبل الحربين العالميتين ، وشمل الحصار تكنولوجيا البلدان الأخرى كلها . ولهذا صرنا نجد ، مثلا ، الثلاجة الفرنسية بموتور اميركي ، وصناعة السيارات البريطانية تستخدم التكنولوجيا الاميركية . وعندما نصل الى الموضوع الذري ندرك كم هو مهم موضوع التكنولوجيا المتطورة . فالتناقض الذي نجم عن تطورها هو الذي جعل من بلدان اوروبا الغربية بلداناً شبه تابعة للولايات المتحدة .

وقد بدأت الولايات المتحدة تغير من سياستها الاقتصادية بحيث تعتمد على التصدير وبالتالي تريد ان تصبح منافساً حقيقياً لصناعة حلفائها في اوروبا واليابان . والوسيلة الوحيدة لتحقيق تفوقها في المنافسة هو ان تكون اميركا قادرة على منافسة اوروبا في اسعار سلعها ، مع حاجة اميركا لزيادة الانتاج حتى تتمكن من التصدير .

س : وهل هذا في رأيك هو الذي يفسر ايضاً حاجتها للهيمنة على النفط وعلى فوائض رأس المال النفطية ؟

ج – : بهذا ، وكذلك بتطوير التكنولوجيا تعمل اميركا لتحسين فرصها في المنافسة . تطوير التكنولوجيا صار هدفاً ملحا، والنفط لم يعد يستخدم للوقود فقط كما كان في الماضي، بل اصبح الآن اساسا لصناعة ٨٢ سلعة رئيسية ، وخصوصاً السماد الذي يعالج مشكلة الغذاء ، التي هي ايضاً مشكلة اساسية في العالم . والغرب ، ويضمنه الولايات المتحدة ، اصبح بحاجة أمس للنفط على نطاق واسع . وقد اصبحت اميركا حذرة في استهلاك نفطها بعد ان جفت بعض آباره في تكساس وهي لا تستطيع ان تقامر بنفطها ، وصار لا بد ان تستهلك نفطاً مستورداً . وقد كانت في العادة تستورد النفط من فنزويلا وبلدان اميركية لاتينية اخرى لتأمين حاجاتها خارج القارة ، والآن ، بالاضافة لمسؤولياتها في الخارج ، صارت بحاجة للنفط المستورد لتلبية متطلبات الصناعة في الداخل ايضاً ، واصبحت تستورد ٤٠ بالمائة من حاجاتها النفطية . وقد احدث هذا خللاً في ميزان المدفوعات الاميركي ، فزادت حدة التضخم المالي ، وزادت التناقضات بينها وبين حلفائها في اوروبا واليابان ، ولذلك لجأت الى اسلوبين : فعملت ، من جهة ، على زيادة أسعار النفط حتى ترغم اوروبا ، التي تستورد ٨٧٪ من حاجاتها للنفط من العالم العربي ، على رفع كلفة انتاج السلع الاوروبية المعدة للتصدير مما يحسن فرصها في المنافسة ، وعملت على تخفيض قيمة الدولار او صمتت عن انخفاضه لتحقيق الغرض ذاته ، بينما ارتفعت قيمة الين الياباني والمارك الالماني الذي هو بطل الصناعة الاوروبية ، من الجهة الاخرى . وهاتان العمليتان جعلتا البضاعة الاميركية ارخص من الاوروبية . وقوة شراء الدولار الآن ، مثلاً ، تعادل قوة شراء الاسترليني مع ان هذا يساوي اكثر من دولارين ، وبامكانك ان تشتري بسعر سيارة المرسيدس الالمانية ثلاث سيارات اميركية عادية او اثنتين دون مستوى الكاديلاك . وبالاجمال تحسنت فرص اميركا في المنافسة لان سلعها صارت متوفرة وسعرها تدني .

س : انت توافق اذن على ان زيادة اسعار النفط تمت لصالح الامبريالية الاميركية ؟

ج : ان زيادة السعر في المرتين الاولى والثانية جرت بالاتفاق بين الولايات المتحدة وشاه ايران ، ثم اتت حرب تشرين ١٩٧٣ ، وزادت عملية التضخم المالي فصار لا بد على العرب ، ولو من باب الانانية ، وليس من باب السياسة ، واستجابة للحقائق الاقتصادية العالمية ، ان يندفعوا في اتجاه رفع الاسعار كنتيجة للتضخم المالي ولانخفاض القيمة الشرائية للدولار . وهكذا لم يكن لرفعهم للاسعار علاقة بما ذكرت وانما هدفه الابقاء على دخل الدول المنتجة للنفط في نفس المستوى .

س : انت هنا تعزل النفطيين العرب عن تأثيرات الولايات المتحدة في مسألة رفع الاسعار وتحصرها بشاه ايران ، مع ان العملية في رأي الكثيرين واحدة ، وقد تمت أساساً لصالح احكام الهيمنة الاميركية ، وما تزال مستمرة .

ج : في بداية العملية كان هناك تأثير الولايات المتحدة اما المراحل التالية فقد جرت وفق ميكانيكية جديدة في موضوع النفط ، تتصل بالانخفاض المستمر في القوة الشرائية للدولار ، وقد صار على منتجي النفط ان يرفعوا اسعارهم عند كل انخفاض جديد فيها . وهم يرفضون ان يقيموا نظاماً جديداً لبيع النفط يحرره من تأثير الدولار ، كأن يباع بالعملة المحلية او بالذهب او بكل العملات الصعبة وليس الدولار وحده ، ولا يزالون يعتمدون الدولار على اساس انه يمثل ٦٥

بالمائة من حركة التداول النقدي في العالم وليس من السهل ، بالتالي ، ان يتركوه . ومعروف ان الدولار الاميركي اعتمد بعد الحرب العالمية الثانية كتغطية للعملات الأخرى في العالم ، حيث تعهدت الولايات المتحدة ان تغطي كل دولار بنسبة معينة من الذهب تكون جاهزة لدفعه عند الطلب . وبهذا اصبحت هي بمثابة البنك المركزي للعالم الرأسمالي فيما يتصل بموضوع العملة وليس لدى الدول العربية والأخرى ، المصدرة للنفط امكانية التخلي عن ذلك . وما دامت القيمة الشرائية للدولار تهبط فلا بد ان يقابلها رفع في سعر النفط يعادل الهبوط . والآن نجد ان القيمة الشرائية لسعر برميل النفط في هذا العام تعادل القيمة الشرائية لسعره في عام ١٩٧٣ .

هذا كله ، على اية حال ، زاد من حدة التناقض والتنافس بين الصناعة الاميركية وصناعة حلفائها الغربيين في اوروبا واليابان . ولم يقتصر التنافس على مجال الانتاج واكلافه او تسويقه ، بل امتد ليشمل مشاريع الانشاء الضخمة التي تتم في العالم الثالث بشكل عام وفي العالم العربي بشكل خاص .

س : هل ترى ان هذا تناقض يؤدي الى قسم المعسكر الرأسمالي الى بلدان متناحرة او متنافسة كبلدان ، ام ان الأمر في جوهره يعكس جانباً من الازمة العامة للرأسمالية ، للنظام الرأسمالي ككل الذي يسعى لجني الارباح وفرض الهيمنة فيعجز بسبب ذلك وبحكم طبيعته ذاتها ، عن ان يلبي مصالح البلدان النامية مثلما يعجز عن وقف تزايد الاعباء عن كواهل الطبقات المنتجة في بلدانه . اما ما تسميه تناقضات داخل هذا المعسكر فهي موجودة وهي ناجمة عن مستويات التطور المتفاوتة بين بلدانه وبضمنها مستويات تطور التكنولوجيا . وهذا العامل هو بين الاسباب التي تجعلها تسلم بصورة او باخرى بزعامة الولايات المتحدة للمعسكر ككل ، ولا ترقى التناقضات المشار اليها الى حد دفعها للتمرد على هذه الزعامة او الفكاك من هيمنتها في الامور الهامة ، ورؤوس الاموال الكبرى ، برغم التبدلات التي طرأت على حركتها لهذا السبب او ذاك ما تزال مختلطة ومتعددة القوميات ، او فوق القوميات ان جاز التعبير .

ج : حركة المال العالمي يشغل الدولار فيها نسبة ٦٥ بالمائة والباقي من العملات الصعبة الأخرى .

س : هذا في العالم الرأسمالي اما العالم الاشتراكي فهو خارج اسر الدولار .

ج : بل في العالم كله ، مثلما هو الحال في العالم الرأسمالي ، لانه حتى العالم الاشتراكي مضطر في تجارته الخارجية لأن يسعر على اساس الدولار .

س : هذه مسألة أخرى ، فالدولار هنا ، او اية عملة ، يصبح وحدة لمعادلة او تقدير السعر ، ولا يكون له نفوذ سياسي ، وسؤالي الذي طرحته ، على ضوء تحليلك لدوافع التناقض بين البلدان الرأسمالية ، سياسي ، فهل تعتقد ان العالم الرأسمالي مقبل من جديد على صراع قوميات بين بلدانه ، ام ان تطوره يتخذ منحى مغايرا يظهر تغييباً للمصالح القومية في ظل الرأسمالية لصالح وحدة مصالحها وهيمنة طرفها الأقوى الذي هو الرأسمال الاميركي .

ج : هناك ، اولا ، ازمة في النظام الرأسمالي ككل ، وهذه الازمة كانت دائماً تلي كل حرب

عالمية ، ولكن هذه المرة مع ظهور الفائض الضخم في الرأسمال الاميركي تأجل ظهور الازمة من ١٠ ـ ١٥ سنة الى ٣٠ سنة . وهناك ، ثانيا ، شيء خاص بالنسبة لاوروبا . ثمة تمايز او انسلاخ بين ثلاث تجمعات في العالم الرأسمالي : واحد اوروبي وآخر اميركي وثالث ياباني . وقد وجد الاوروبيون انهم حتى يستطيعوا مقاومة رأسالمال الاميركي الموجود في صناعتهم والسياسة الاميركية، عليهم ان يقيموا السوق الاوروبية المشتركة فيحققوا توحيد الاقتصاد الاوروبي والموقف الاوروبي بمواجهة الاميركي .

س : هذا التحليل يغفل نقطة وهي ان الهيمنة العسكرية ايضاً هي بيد الولايات المتحدة بحكم التطور التاريخي ، وهي القادرة على تولي الجانب الاكبر في سياسة الدفاع العسكري عن المعسكر الرأسمالي ككل ، ويرتبط بهذا دورها في فتح مجالات الهيمنة له في بلدان العالم الثالث . وقد رأينا انه ، برغم الاختلاف ، فإن رأي الولايات المتحدة هو الذي يتغلب بين يدي اي قرار هام لصالح التحالف الغربي باسره . ولدينا آخر الامثلة : صواريخ بيرشنغ ، اليس هذا صحيحاً ؟

ج : حديثنا يدور عن العلاقات داخل المجموعة الرأسمالية ، لم نتطرق لمشاكل الصراعات العالمية بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي .

س : ولكن حاجات المعسكر الرأسمالي الدفاعي ، مثلها مثل حاجاته الاقتصادية ، تحدد جانبا من اسباب الهيمنة الاميركية ،وبروز الدور الاميركي كدور اول فيه . وجهة النظر الاميركية تفرض نفسها آخر الأمر ، وعلى الآخرين ان يتبعوا : ازمة النفط ورفع الاسعار ، حلف الاطلسي وفشل محاولات ديغول في الاستقلال عنه ، العقوبات ضد ايران . وانا اريد ان اكرر سؤالي السياسي المحدد : هذا الذي نشهدُ من التناقضات ، التي لها اسبابها القائمة فعلاً بين مجموعات رؤوس لأموال ، هل يتيح هامشاً واسعاً للاختلاف في وجهات النظر حول المسائل الاستراتيجية الكبرى ؟ لان تحديد مدى هذا الهامش هو الذي يحدد جدوى التوجه الفلسطيني نحو اوروبا الغربية من عدم جدواه ، كما يحدد طبيعته ماهو في تصورك سقف هذا التناقض ؟

ج : قبل ان نصل الى كلمة السقف علينا ان ندرك ان الصراع التاريخي بين القوميات الاوروبية لا يزول في فترة وجيزة . فاوروبا ، مثلاً ، تخشى قيام المانيا المسلحة ولذلك قرروا عدم تسليحها حتى لا تتقدم في مجال التكنولوجيا العسكرية الا ضمن اطار التخطيط الاميركي والاوروبي . الصراع الخفي بين القوميات في اوروبا كان احد اسباب تمزق اوروبا ، وبالتالي قدرة الولايات المتحدة على الاستمرار في اعطاء تعليماتها لها منطلقة من ضخامة الالة العسكرية الاميركية . لكن اوروبا الموحدة التي لا يوجد خلل في العلاقات بين بلدانها ، تستطيع ، اذا اتخذت موقفاً موحداً ، ان تواجه النفوذ الاميركي بحيث لا تعود له نفس فعاليته القائمة الآن . اما الآن فأميركا قادرة على أن تعزل المانيا الغربية عن فرنسا ، وان تجعل الموقف البريطاني في السوق الاوروبية مرتبكاً ؛ قادرة على ارباك الوضع الداخلي في ايطاليا لدرجة فقدت معها ايطاليا فعاليتها واستقلالية حركتها في الساحة الدولية . التمزق الاوروبي هو الذي يجعل من الموقف الاميركي قوياً بهذه الدرجة ، وهذا ليس معناه أنه اذا توحدت اوروبا فسيتطور الموقف الاميركي ، الا انها لن تبقى تابعة للموقف الاميركي .

وبهذا نأتي بحديثنا الى الموقف العربي، وانا اقصد الموقف العربي بشكل عام ، ليس فقط من خلال سوقه الخاصة ولكن ايضاً من خلال امتداد تأثيراته عبر مساهماته في تنمية العالم الثالث ، وخصوصاً افريقيا التي تمثل مستودعاً للمواد الخام . هذا العالم العربي قادر ، اذا اتخذ موقفاً اقتصادياً على ضوء استراتيجية سياسية موحدة ، محورها القضية الفلسطينية ، ان يصعد حدة التناقض بين اوروبا واميركا ، وان يخير اوروبا بينه وبين اميركا في الموضوع السياسي . ولهذه القدرة اسبابها العديدة : النفط والجغرافيا السياسية ، وما تركته العلاقات الاستعمارية القديمة من آثار في العالم الثالث ، وكلها عوامل تؤثر على الاقتصاد الاوروبي . ولو كان الموقف العربي موحداً لربط الى جانبه الموقف الافريقي ولوضع اوروبا امام الخيار ...

س : تتمنى موقفاً عربياً موحداً فعلى اي شيء سيتحد ؟

ج : على سياسة اقتصادية تربط الموقف من اوروبا بموقفها من القضية الفلسطينية .

س : تريد قوة عربية اقتصادية موحدة في الضغط على اوروبا ؟

ج : بطبيعة الحال ضاغطة

س : انت هنا تغفل ، ايضاً ، شيئاً هاماً وهو ارتباط معظم مصدري النفط العرب بكل هذه الالية الاقتصادية السياسية الرأسمالية في موضوع النفط . من الانتاج الى التسويق الى استخدام العوائد الفائضة من بيع النفط . كيف يمكن ان نرى وضعاً كهذا معادياً في مجمله لاهداف حركة التحرر الفلسطينية ونضع ال « لو » متمنين ان يصير في خدمتها ؟ انت تعرف كم هو ضيق هامش الاستقلال المتاح لمصدري النفط العرب ، الاستقلال عن كامل هذه الآلية الرأسمالية التي صارت عاملاً هاماً في السياسة الدولية ككل .

ج : انا اعتقد ان هناك هامش استقلال كبيراً . واعتقد ان اساس المشكلة في دول النفط العربية ليس هامش الاستقلال . ولو شئنا ان نتعمق هذه المسألة فلا توجد في المرحلة الراهنة في الحياة العالمية هوامش استقلال لاي دولة من الدول، كبرى او صغرى . مشكلة الموقف العربي هي في طبيعة ارادته ، نفسيته ، هل هي نفسية هجومية او نفسية دفاع .

س تنبثق الارادة من المصالح فاين تتجه مصالح النفطيين ، هذا هو السؤال ؟

ج : تبنى الارادة على البنية الذاتية للمجتمع العربي وهي الآن متدهورة ومنهارة . ربما تخالفني ، لكن ، حتى المصالح ، مصالح النظام نفسه ، توجهها الارادة الذاتية . مثلاً هناك قروض عربية تعطى لاوروبا ، فلماذا لا تقترن بشروط ؟ اعطي مؤخراً قرض مقداره ٥ آلاف مليون دولار لالمانيا الغربية ، وكل هذه الاستثمارات العربية الموجودة في اوروبا. في العالم العربي اذا انشيء فيه بنك مركزي ، امكانية لان تصبح العملة العربية عملة صعبة .

س : في اقوالك تضع يدك على السبب . في كل العالم الغربي ، وحتى في الولايات المتحدة ، مع تطور حركة الانتاج ورغبات الهيمنة ومع تطور حاجات المجتمعات الغربية

الاستهلاكية ، وكذلك حركة انتاج الاسلحة ، مع هذا كله حدث تبدل في حركة رأسالمال العالمي وبعد ان كانت فوائضه توجه للاستثمارات خارج البلدان المتقدمة صارت هذه بمعظمها بحاجة الى رؤوس اموال للاستثمار فيها ، وبالاضافة للاسباب الناجمة عن الهيمنة الاميركية على عوائد النفط المسجلة باسماء عربية تعطي الاستثمارات في البلدان المتقدمة ريعا أعلى واكثر ضمانات بكثير من ما تعطيه في البلدان النامية ، والأمثلة التي اوردتها ترد في هذا السياق ، وتؤكد ان رأسالمال الموصوف بالعربي ، الناجم عن العوائد النفطية بارقامها المذهلة ، مجند في خدمة النظام الرأسمالي العالمي في الاساس ، وطبيعته وطبيعة مصالح مالكيه تفرض ذلك . فكيف تفترض ان ينجم عن وضع كهذا املاء شروط على الغرب ؟

ج : من هنا يأتي دور النضال الفلسطيني الذي هو في تصاعد مستمر وفي صلب الصراع في الشرق الاوسط ، وما يخلقه هذا النضال من صراعات وتأثيرات مستمرة ستهدد في النهاية الانظمة السياسية، فاما ان تنهار واما ان تعود الى التفكير بشكل ايجابي في هذه المسألة . ولا ننسى ايضاً ان عملية التضخم المالي في اوروبا وما ينجم عنها من ازمات البطالة تجعل اوروبا الغربية بحاجة ماسة جداً الى النفط العربي والى هذا الفائض من رأسمالمال العربي ، حتى تتمكن من الاستمرار في التنمية .

س : ومصدرو النفط العرب يساعدون في حل ازمات البلدان الرأسمالية

ج : يقومون بذلك بفعل ارادي ، والمفروض الا يفعلوا ذلك الا بشروط .

س : لقد رأيت بنفسك كيف ان الاطراف العربية التي اشتركت في الحوار العربي - الاوروبي وافقت رسمياً على طلب دول اوروبا الغربية بعدم ادخال السياسة في هذا الحوار . وهذه الموافقة في حد ذاتها ذات مدلول سياسي مغاير لما تتمناه .

ج : هنا يكمن الخطأ الاساسي . ونحن بحركتنا السياسية الفلسطينية نحاول ان نصحح هذا الخطأ ، ان نعوض النقص ، لأن السياسة العربية في التعامل مع العالم ليست قادرة على الفعل ما دامت لا تربط السياسة بالاقتصاد . وفي مؤتمر قمة تونس الأخير اتخذ قرار يربط السياسة بالاقتصاد الا انه لم ينفذ الى الآن ، ولو تدريجياً . العرب الآن يتكلمون ويحاولون ان يربطوا . ابو ظبي ، مثلاً ، اشترطت في التفاوض على صفقة نفط مع اليابان ان تعترف هذه بمنظمة التحرير الفلسطينية ، لو تمسكت بهذا الشرط حتى النهاية لتحقق الاعتراف .

س : هل تخلوا عن الشرط ؟

ج : الأمر ليس كذلك ، لا تنسى غياب الخبرة ازاء المراوغة السياسية اليابانية . فقد وافق اليابانيون على ان يوجهوا الدعوة للاخ ياسر عرفات ، وبسبب غياب الخبرة لدى الجانب العربي لم تشترط ابو ظبي ان تكون الدعوة من الحكومة اليابانية بالذات . وبعد ابرام العقد وجهت الدعوة من قبل مجموعة من اعضاء البرلمان ولم يكن هذا هو المطلوب . كل ما حدث ان المفاوض العربي نسي ان ينص على الجهة التي ينبغي ان توجه الدعوة وهي الحكومة . عندئذ تخلف في الموقف السياسي العام وضعف امام الغير .

س : الجانب الفلسطيني طموح وهو يناضل من اجل تبديل اتجاه الرياح ، وهو نضال لا بد ان يكون طويلاً حتى يمكن الوصول الى نتائج ملائمة . اما الوضع الراهن فهو كما نراه ، وهذا يعيدنا الى السؤال الاصلي . وما دمنا متفقين على ان الموقف الاميركي معاد لاهداف الشعب الفلسطيني ، وانه معاد ليس فقط لأن الولايات المتحدة تراعي اسرائيل بل لأن مصالحها ذاتها تضعها في هذا الموضع ، وانت تتحدث عن التناقض بين اوروبا الغربية والولايات المتحدة وتراهن عليه ، فما هي حدوده في الافق المنظور الملموس ، وليس وفق « لو » التمنيات ؟

ج :انا لا اتحدث ضمن الـ « لو » اطلاقاً ، فعندنا قاعدة موجودة وواقع موجود ، هل الواقع قابل لأن نمارس فيه الفعل ؛ واذا كانت النتائج لا تتحقق فبسبب الواقع العربي ، اما الفعل الفلسطيني فهو قائم ومستمر لغزو الرأي العام الاوروبي ولتحقيق مزيد من التفهم للقضية الفلسطينية . وقد ثبت لنا اننا لم ندخل مؤتمراً دولياً الا اصبح في النهاية معنا ، ليس الى جانبنا كما نريد بالضبط ، ولكن تحولاً ما ضد اسرائيل يحدث لصالحنا . والرأي العام الاوروبي بدأ يتحول ، وهناك ادلة كبيرة . هذا الغزو الفلسطيني عبر الحركة السياسية وما تقترن به من حركة اعلامية هدفه في النهاية احداث تغيير في الرأي العام لصالح الموقف الفلسطيني . وهذا التغيير بدوره سيؤثر على الموقف الحكومي . ولكن متى يمكن ان يكون التأثير المتتابع اعمق ؟ اذا استطعنا ان نقرن الحركة الفلسطينية بتحرك عربي ايضاً . وهنا علينا ان نحدث تغييراً ، ولو بطيئاً ، في الموقف العربي من شكل التعامل مع اوروبا . نحن الآن لا نأمل بأي تغيير في التعامل بين العرب والولايات المتحدة ، بل نأمل في تغيير يتناول التعامل مع اوروبا الغربية واليابان ، ومن هنا يتركز جهدنا على الحركة العربية ازاءها ، ونلحظ ان نجاحات كثيرة ملموسة تتحقق . وقد بدأت الصهيونية تنتقل الى مواقع الدفاع . طبعاً لم نصل الى مستوى تحقيق ايمان اوروبا الكامل بحقوقنا ،ومع ذلك صاروا فيها يتحدثون عن الحقوق الفلسطينية وعن ضرورة ان يحصل الفلسطينيون على حقوق . والمعركة الآن في اوروبا تدور حول تحديد طبيعة هذه الحقوق ، وليس حول وجودها من حيث المبدأ ، كما كان الامر من قبل . ونحن مستمرون في نشاطنا العالمي .

س : حتى نستكمل صورة الوضع الدولي نأتي الآن الى الوجه الآخر ، وهو المعسكر الاشتراكي وحلفاؤه في العالم . والملاحظ ، على الاقل بالنسبة للسنوات الاخيرة ، ان هناك تحولاً ، ابتدأ بطيئاً وهو يشتد الآن ، في موازين القوى العالمية لصالح هذا المعسكر ، مما يجعله قادراً على تنشيط مبادراته ، وآخرُ الامثلة افغانستان ، فكيف ينعكس فهم هذا على مجمل التحرك الفلسطيني ؟

ج : هذا التحول موجود وهو نام ، الا انه ما يزال ينمو ببطء . وبالنسبة لأثره على قضيتنا فانه لا يزال في اطار الفعالية السلبية بسبب الجغرافيا السياسية وليس بسبب نوايا الكتلة الاشتراكية . فالشرق الاوسط يقع ضمن دائرة النفوذ الغربي لان الغرب فيه يقاتل من اجل حياته ذاتها . واقتراب الكتلة الاشتراكية من الشرق الاوسط ليس اقتراباً ذاتياً لانه سيؤدي الى الاصطدام مع الولايات المتحدة ، وليس هذا وارداً في سياسة المعسكر الاشتراكي ، فهو لا يريد ان يقوم بأي شيء يؤدي لحرب عالمية . ولذلك تأخذ حركة الكتلة الاشتراكية الموقف السلبي ، الا اذا تكون موقف عربي قادر على ان يتعامل معها بشكل ايجابي ، وقادر على أن يخوض معركته

السياسية بامكانياته الاقتصادية ، ففي حالة كهذه سيزداد حجم ونوعية موقف المعسكر الاشتراكي الى جانبنا . وطالما بقي الوضع العربي مفككاً وسلبياً واستمر غياب الموقف العربي الموحد عملياً فستبقى قدرة الكتلة الاشتراكية على الفعل محدودة بالرغم من تأييدها لنا .

س : انها محدودة بمحدودية قدرة حلفائها من العرب ، اليس كذلك ؟

ج : صحيح . ونحن كحركة فلسطينية لا نستطيع ان ننتظر التحول العربي الايجابي نحو الكتلة الاشتراكية او ننتظر زيادة قدرتها . ولا نستطيع ان نبقى صامتين ازاء احتكار الاعلام الصهيوني للرأي العام الغربي . وعلينا ان نتحرك ، ونحن متفقون مع المعسكر الاشتراكي على ضرورة هذه الحركة .

س : هذا جانب من الصورة ، والفلسطينيون غير مطالبين بأن يبقوا جامدين الى ان تحدث التحولات الكبرى ، وما من احد منهم يعترض على التحرك حين يكون هدفه كسب مزيد من التأييد لدى الرأي العام . ولكن ليس جائزاً ايضاً ان يجعلهم الواقع القائم يبحثون عن صيغ للتجانس معه كما هو ، بكلمات اخرى ؛ حين لا تتوفر على الجانب الغربي معطيات تسمح بتسوية تتضمن حقوق الحد الادنى الفلسطينية فلا يجوز بسبب ذلك ان تتم الحركة مع تنازلات الى ما هو أقل ، فهل توافقني على ذلك ؟

ج : كلامك صحيح ، لو صح اننا نطالب اوروبا الغربية بتسوية . الا اننا لا نطالبها بتسوية ، ونحن نقول بصراحة لكل من نلتقيهم ان على المستوى العلني او المستوى غير العلني : اننا نعرف ان هامش الاستقلالية الاوروبية عن السياسة الاميركية يكاد يكون معدوماً . ونعرف ايضاً ان هناك سياسة دولية غربية تقودها الولايات المتحدة واطرافها متحالفة وبلدان اوروبا اعضاء في هذا التحالف الغربي . وقد وصل الأمر حداً لم يدع العلاقة علاقة حلفاء بل تبعية ، والولايات المتحدة ، عندما تريد ، تصدر الاوامر لحلفائها الاوروبيين او تنفرد في المواقف من غير ان تخبرهم . نحن ندرك هذا كله ، ولذا فان حركتنا السياسية لا تستهدف الحكومات وحدها وانما تستهدف الرأي العام اساساً ، لأنه هو القادر عندما يتغير على ان يغير مواقف الحكومات . ونحن نحقق التقدم في هذا المجال . وهذه الجمعية البرلمانية التي اشتركنا مع ممثليها في مؤتمر ستراسبورغ ، مثلاً ، انشئت قبل خمس سنوات وكان فيها انذاك خمسة برلمانيين : بريطانيان وفرنسيان والماني غربي واحد . اما الآن فانها تضم ما يزيد على ٣٥٠ عضواً ينتسبون لبرلمانات دول أوروبا الغربية التسع . وهذا يعني أن ٣٥٠ صوتاً برلمانياً تؤيدنا ، ومع مواصلة الاتصال ورفع مستوى الفعالية سيزيد هذا العدد ، وستتحول المناقشات داخل البرلمانات لصالحنا ، كما هو الحال فعلاً في ايطاليا ، وكذلك ، تقريباً ، في هولندا ، التي اتخذ برلمانها قراراً يحث الحكومة على تكثيف الاتصال والتعاون مع م.ت.ف .

س : يذكرني هذا بشيء طريف ، ففي سنة ١٩٧٣ عندما فكر العرب بقطع النفط قطعوه فقط عن هولندا ، استضعفوها فقطعوا عنها النفط ، هل تذكر ذلك ؟

ج : يستغل الصهيونيون هذه الواقعة الآن في تحريضهم ضدنا .

اتوقع اذن ان تزيد قوة مؤيدينا في البرلمانات وفي الاعلام وستجد الحكومات نفسها في

وضع تضطر معه لتغيير سياستها . وطبعاً لن تتغير المواقف بمقدار ١٨٠ درجة او دفعة واحدة ، الأمر يجري بالتدريج ، وعلى تحركنا ان يستمر ، وفي غضون ذلك علينا أن ندرك ان الموقع الاميركي ، الذي بلغ اعلى مراتبه بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يعد الآن كذلك ، وهو ينخفض ذاتياً ومن خلال نمو فاعلية الدول الاشتراكية في السياسة الدولية . وعلينا بالتالي ان نواكب حركة التغيير في موازين القوى ، ليس كمراقبين من بعيد بل كفاعلين بحيث نستفيد منها لصالحنا ، علينا ان نكون نشيطين داخلها حتى يحدث التغيير الملائم لنا . وفي النهاية ، ماذا يهمني ان تصير الاشتراكية اقوى او الرأسمالية اضعف اذا لم يجير ذلك لمصلحتي كقضية . علينا ان نتعامل مع حركة التغيير . امورنا مع المعسكر الاشتراكي محلولة ، وفعلنا داخله اقل بكثير ، بالتالي من فعلنا داخل المعسكر الرأسمالي لانه ليس لدينا مشكلة مع الاول منهما .

س : اريد هنا ان اتدخل بملاحظة : ان المعسكر الاشتراكي يقوم من جانبه لتوسيع التمايز بين اوروبا الغربية والولايات المتحدة ، ويفعل من أجل ذلك الكثير ..

ج : هذا صحيح

س : اردت من هذه الملاحظة ان اقول ان الفعالية الفلسطينية تجاه اوروبا الغربية يمكن ان تتم بالتوازي مع فعالية المعسكر الاشتراكي وبالاستفادة منها ، وهذا يعني ان توثق م.ت.ف. علاقاتها به في هذا المجال ايضاً ، وان توثق بالتالي علاقاتها بالقوى الحليفة له داخل البلدان الرأسمالية ، لا ان يتم التحرك بمعزل عنها ، فهل توافقني على هذا ؟ ومن الامور التي تتضمنها انتقادات المبادرات الفلسطينية نحو اوروبا الغربية انها تترك احياناً الانطباع وكأنكم تهملون هذه القوى سواء تلك منها التي في اوروبا او المعسكر الاشتراكي ، بالرغم من انها الحليف الثابت ، اليس لهذا الانطباع ما يبرره ؟

ج : ما رأيك في أن النقد كان يوجه لنا ، خلال جولتنا الاخيرة ، باننا نتجاوز الحدود في علاقاتنا مع الاحزاب الشيوعية ، وهو نقد وجهته الاحزاب الاوروبية الأخرى ، وهم يقولون ايضاً اننا نتوجه في علاقاتنا الى الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ونهمل الاحزاب اليمينية . اريد ان اقول : اننا لم نترك القوى الحليفة أو نهملها الآمر بالعكس ، فقد كان دخولنا لاوروبا الغربية اساساً عن طريق هذه القوى .

س : الا ترى ان هذا هو الوضع الطبيعي ، على اي حال ؟

ج : صحيح ، ونحن لا نهمل هذا اطلاقاً .

س : اقول ان انطباعاً كهذا قد وجد . ومن الجائز انكم تركزون على شيء فسيتفرق الذهن ، ويأتي الاعلام فيزيد من التركيز ، فتنجم الشكوك ..

ج : عقدنا لقاءات تنسيقية عديدة مع الاحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية قبل واثناء اللقاءات مع الآخرين ، وهم الذين رغبوا في ان لا ننشر شيئاً عن لقاءاتنا معهم . نحن ندرك ان المعسكر الغربي باجماله معسكر اعداء ، اما دوائر الاصدقاء داخله فنحن ننسق معها ، وفي اطار هذا التنسيق وعبره يتم الفرز بين الاعداء والاصدقاء .

س : لو انتقلنا الى الموضوع الآخر ، هذا الحديث الدائر عن شيء اسمه المبادرة الاوروبية ، فما هي هذه المبادرة ، بالملموس

ج : انا ، شخصياً ، لا ارى حتى الآن مبادرات اوروبية ، ولذلك ركزت في كلمتي الأخيرة في مؤتمر ستراسبورغ ، وبشكل واضح تماماً ، على ما أحس به من ان الحديث عن المبادرة ليس جدياً ، وقلت : حين يصير الكلام جدياً ومخلصاً فاننا سنعمل من جانبنا كذا وكذا . وقد استثار قولي هذا الوفد الفرنسي باعتبار ان الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان هو اساس ما يوصف بالمبادرة ، واعتبر الفرنسيون قولي بمثابة تشكيك . وانا الآن اكرر القول بانني لا ارى مبادرة اوروبية ، ومثل هذه المبادرة قد لا تتم الا اذا غيرت الولايات المتحدة من موقفها . وحقيقة المبادرة الاوروبية ، حين تكون هناك مبادرة ، تكمن في ان تتمكن اوروبا من تغيير الموقف الاميركي، ولن تكون هناك مبادرة اوروبية مستقلة .

س : هل تعني انه لا يوجد شيء ملموس ؟

ج : حتى سنة على الأقل لن يتبلور شيء عملي .

س : لماذا سنة ؟

ج : الانتخابات ، موقف اميركا متصلب والمعركة الانتخابية جارية فيها ، واوروبا لا تستطيع ان تتحدث معها في تغيير موقفها . بعد الانتخابات يمكن ان يبدأ الحديث بينهما في تغيير الموقف . وحقيقة المبادرة ونوعيتها مرتبطة بمدى قدرة اوروبا على تغيير الموقف الاميركي . لماذا ؟ لانه حتى لو اتخذت اوروبا مبادرة مستقلة فقدرتها على التنفيذ غير متاحة . تبقى القيمة المعنوية ، وهذه لن تكون في كل الاحوال كبيرة الا اذا ساعدت مواقفنا على احداث المزيد من التغيير في مواقف الرأي العام الاوروبي .

س : في اطار المواقف داخل المجموعة الاوروبية الغربية ما هي التأثيرات الموجودة بين مواقف دولها المتعددة، بين فرنسا وبريطانيا مثلاً ؟

ج : يعكس الموقف الفرنسي محصلة المواقف . وانا ارى ان بريطانيا مكلفة بمحاولة التأثير على الموقف الاميركي بينما تقوم المانيا بدور المساعد لبريطانيا ، لأنها ايضاً ذات قدرة على التأثير في الموقف الاميركي . الا ان رد الفعل الاميركي الذي عرفناه بشكل رسمي تمثل باصدار الأوامر لاوروبا بأنه لا مبادرة الا في اطار كامب ديفيد وامتداداً له .

س : هل عرفتم هذا رسمياً من الاوروبيين ؟

ج : نعم من الاوروبيين ، وعندما سئلنا عن رأينا في هذا قلنا انه من الافضل لكم الا تتحدثوا عن مبادرة من هذا النوع وان لا تقدموها .

س : هل يمكننا القول ان الحديث عن مبادرة اوروبية هو مجرد حديث يعبر عن توجهات لم تتبلور في افكار محددة ؟

ج : بالضبط ، والمسألة غير مبلورة لدى الاوروبيين انفسهم

س : اذا كانت كذلك فلماذا يطعم البعض انفسهم جوزاً فارغاً ؟

ج : نحن لم نطعم انفسنا شيئاً ، الخطأ يكمن في طريقة الفهم لدى بعض الناس : يأخذون الأمور بالمطلق ، واذا عرض أحد اقتراحاً ، إذا تحدث عن دولة فلسطينية مثلاً ، ظنوا أن الدولة صارت في الجيب وأنها ستقوم غداً ، واذا قال أحد : ليس هناك دولة توهموا أن الأمر انتهى وحل اليأس ، وان لا فائدة . المشكلة في أسلوب التفكير كما ترى، علينا أن نتعامل مع كل مرحلة في سياق موقعها من الاستراتيجية العامة . أنا أتعامل مع معطيات كل مرحلة في إطار تأثيرها على تحقيق الهدف النهائي ، وليس مع هذا الهدف وحده . عندنا من يبدأون دائماً من الآخر : وصلنا إلى الهدف يعني انتصرنا فان لم نصل إليه فكأننا في الصفر .

س : هل تعتقد ان مسألة الاعتراف بمنظمة التحرير ، على الأقل ، مبتوته في سياق الافكار التي يجري تداولها في اوروبا الغربية ، ام ان دولها هي الأخرى غير باتة وتسعى ، مثل الولايات المتحدة ، للبحث عن بدائل تسير وراء حل من ظهر المنظمة .

ج : نحن نتصل بهذه الدول وموقفهم واقعي اكثر من اميركا في هذه المسألة . وعدم اعترافهم رسمياً بالمنظمة لا يعكس عدم رغبتهم في الاعتراف ، بل هو نتيجة للضغط الاميركي عليهم ، وهذا واضح بالنسبة لنا تماماً . والاميركان يبررون موقفهم بأنهم اخطأوا الا ان لديهم قراراً من الكونغرس بان لا يتصلوا بـ م.ت.ف. الا اذا اعترفت باسرائيل . ولذلك لاحظنا ان الكل يسألنا في جولتنا : لماذا لا ننشيء حكومة موقتة . وقد قال البعض : الا ترون ان الحكومة الموقتة تسهل عملية الاعتراف بكم . وانت تعرف اننا في المرحلة الحالية لا نفكر بانشاء حكومة لان ظروف انشائها غير متوفرة . ونحن نحس ان اوروبا مرتبكة ازاء مسألة الاعتراف بالمنظمة نتيجة الضغط الاميركي والسيطرة الاميركية .

س : نعود للنقطة التي اثرتها انفاً : ما هي حدود تأثير العلاقات العربية مع اوروبا الغربية ، والضغوط العربية ان وجدت ، على مواقف دولها ؟

ج : انه تأثير ضعيف جداً . وقرارات القمة العربية بهذا الصدد لا يجري تطبيقها ، كما ان قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية لا تؤخذ بعين الاعتبار .

س : هل ترى ان ضعف التأثير والضغط العربيين بغير تفسير ، وبكلمات اخرى هل تعتقد ان هذا يحدث عفواً وان الذين تنتدبونهم لممارسة الضغط على اوروبا الغربية لا يقومون به لدوافع ذاتية ، ام ان هذا هو ابن الوضع الذي تحدثنا عنه والذي يجعل دول النفط جزءاً من التركيبة الرأسمالية العالمية ؟

ج : من طبيعتي ان لا اضع اللوم على الآخرين وانما اضعه على انفسنا . نحن مقصرون في هذا الموضوع . ويجب ان يكون لنا نشاطنا العربي وان يكون اوسع ، وان يتم علناً وليس سراً . يجب ان ننتهي من الحديث في الغرف المغلقة حول الموقف العربي ازاء اوروبا . وعلينا ان نضع مطالب علنية ، وان نضغط من أجل ربط الموقف الاقتصادي العربي بالموقف السياسي . لقد تقرر هذا في قمة تونس الا انه لم ينفذ ، وهنا علينا واجبات كثيرة .

س : ماذا لو تحدث العرب عن الضغوط ومنعتهم طبيعتهم من ممارساتها ؟ ان امام

الغرب تجربة السادات ، فقد تحدث عن الربط واشترط ، وحتى توعد ، ثم انتهى الى ما انتهى اليه ، فأية قيمة ستبقى لتلويحات جديدة حين يعرف الغرب ان مصالحه تتعزز برغم كل شيء ؟

ج : ليس العرب كلهم السادات . السادات شخص وليس شعباً .

س : السادات يمثل نظاماً ومصالح طبقات وفئات طويلة عريضة وامثالها موجودة في بلدان أخرى ، اليس كذلك ؟

ج : انا ، شخصياً ، لا ارى ان السادات يمثل مصالح طبقة عريضة ، انه يمثل مصالح طبقة طفيلية تلتف حوله في المجال الاقتصادي ، وهو عدو حتى للبرجوازية المصرية المنتجة .

س : معظم الدول العربية التي تتحدث عن الحاجة لضغوطها على الغرب يسود فيها تكوين مماثل . فأين هي البرجوازيات المنتجة في الدول العربية المندوبة للضغط ؟

ج : لدي سؤال من نوع آخر . السعودية ، مثلاً ، اوقفت صفقة نفطية مع شركة ايطالية لأن اتهامات ظهرت لشخصيات سعودية بأنها قبضت رشوة على الصفقة ، اوقفت الصفقة مما اضطر ايطاليا لان تشتري نفطا بضعف السعر . ثم جرى تحقيق اظهر براءة المتهمين ، المهم انها استطاعت ان توقف الصفقة ، اذن امكانية الضغط متوفرة ، وامكانية وقف النفط متوفرة .

س : ولكنه لم يتوقف للضغط من أجل مطالب الشعب الفلسطيني ؟

ج : المهم ان الامكانية موجودة .

س : ألا ترى ان الدافع غير موجود ، او معدوم ؟

ج : اذا كان الدافع معدوماً فبسبب انعدام النفسية الهجومية وليس بسبب المصالح . أنا لست مع الذين يقولون ان النفط يولد تبعية للغرب وما أراه هو العكس، فمن شأنه أن يدعم الاستقلالية . لأن المشتري بحاجة للمصدر أكثر من حاجة المصدر له . نحن بحاجة لنفسية هجومية يدرك أصحابها قوتهم . وهنا استشهد بما قاله عمار اوزيغان : ان مشكلة العصفور أمام الحية انه ينسى ان له جناحين . النفط بالنسبة للعرب هو جناحا العصفور . لنتذكر أن لنا جناحين فلن نشل أمام رهبة الحية .

س : يتذكر هذا امثالنا من العرب اما عرب النفط فلهم مصالح من نوع آخر ؟

ج : حديثي عن العرب ، وليس عن حالنا نحن وحدنا ، بالنسبة لنا لدينا النفسية الهجومية ولذلك ترانا نتحرك ونحن في تقدم مستمر، قد يكون نسبياً وبطيئاً لكنه تقدم ، وعلى الآخرين أن يقتنعوا بما اقتنعنا به ، من واجبنا ان نقنعهم .

س : ليست المسألة مسألة اقناع واقتناع ، بل دراسة مصالح فلبعض العرب مصالح لا تسير في الاتجاه الذي تسير فيه مصالح الشعب الفلسطيني الوطنية . الا ترى ذلك ؟

ج : هنا ايضاً ، انا لا ارى ان مصالح هؤلاء الناس تتناقض مع اتجاه مصالحنا ، انا

ارى ان الدوافع متصلة بالفكر وبالفهم اكثر من اتصالها بالتطور المجتمعي الداخلي وتوزع القوى فيه ، خصوصاً في مسألة النفط بالذات . وانا اخاف على العالم العربي عندما تصير فيه صناعة نفطية واسعة ويصير بحاجة لتسويقها فيقع ضمن احتكارات التسويق العالمية ، عندها تصبح المسألة مخيفة اكثر بكثير لانها تدخل حلبة صراعات الاحتكارات . واما بالنسبة للنفط الخام فالعرب هم الذين يحتكرونه . وليس مطلوباً منهم ان يقطعوه عن الاسواق الغربية كما أنه ما من احد يستطيع الامتناع عن شرائه ما دام الجميع بحاجة ماسة له . والمطلوب ان يرسموا سياسة انتاجهم وتنويع مبيعاتهم بما يتفق مع متطلباتهم السياسية . وهذا سهل ، الا انه يحتاج الى تنظيم والى نفسية هجومية .

س : عندنا تجربة ايران . وواضح ان مطلبها منذ قيام الثورة على نظام الشاه هو تصحيح علاقاتها مع الغرب على اساس اخذ مصالحها الوطنية في ثروتها النفطية بعين الاعتبار ، اي على الاساس الذي افهم انك تطالب النفطيين العرب باستخدامه . وانت ترى موقفهم العملي من مسألة كهذه ، لا يؤيدون ايران وهم مستعدون للعمل ضدها بالرغم من ان مطلبها مفيد لهم وأنها لا تدعو لبتر العلاقات مع الغرب بل لتصحيحها فكيف تفسر هذا ؟

ج : اذا استثنينا العلاقات الايرانية ـ العراقية فالمواقف العربية الاخرى كانت داعمة لايران وان تم هذا على استحياء ، في الازمات الاساسية كانوا الى جانب ايران وان لم يعلن ذلك . المشكلة هي في غياب جماعية الموقف ، يستطيع الغرب ان يضرب ايران مستغنيا عن بترولها مكرراً ما حدث مع مصدق . عملية النفط يجب ان تخاض جماعياً ، وهذا ممكن .

س : لماذا لم تتفق قمة تونس على قرار بشأن النفط ؟

ج : صدر قرار عام عن الاقتصاد على اعتبار ان النفط جزء من الاقتصاد ، ولم يتم شيء ، بعد ، في مجال تطبيقه . وهذه مشكلتنا كعرب ، اننا لا ندرك قوتنا الذاتية .

س : لماذا لم تتمسك م.ت.ف حتى النهاية بضرورة صدور قرار بشأن النفط عن قمة تونس ؟ مع انها كانت مصرة على استخدام سلاح النفط في العلاقة العربية مع الغرب .

ج : قالت المنظمة في مؤتمر القمة كلاماً واضحاً بهذا الخصوص

س : هل اضطرت المنظمة ان تدخل في تسوية مع مصدري النفط بحيث تسحب مطلبها مقابل شيء ما .

ج : لم يحدث شيء كهذا . الذي حدث انه كان هناك تيار عربي عام يرى انه ما دام النفط جزءاً من الاقتصاد فليكن القرار عن الاقتصاد .

س : وبهذا غيب التركيز على موضوع النفط بالذات

ج : صحيح . لكن عندما نتحدث عن الاقتصاد العربي فأي شيء هو غير النفط ، وفائض رؤوس الاموال كله من النفط .

س : من كل ما قلته يفهم ان الحديث عن مبادرة اوروبية غربية فيه كثير من

المبالغة . كما يفهم أن مبادراتكم نحوها هي مجرد حركة في اتجاه طويل ، حركة هدفها احداث تأثيرات متتابعة ، بينما يثار الأمر على الساحة الفلسطينية وكأن هناك مشروعاً محدداً ، ويحتدم الجدل بشأنه بين المؤيدين والمعترضين . وهذا يرجعني الى سؤال يدور ، مرتبط بملاحظتي في بداية هذا الحديث : هل تناقش هذه التحركات في قيادة م.ت.ف أو ان القيام بها يرد في اطار المبادرات والاجتهادات الفردية ، او انها نوقشت في اطار حركة فتح ؟

ج : لنتحدث قبل هذا عن طبيعة ما جرى في جولتنا الاخيرة وردود الفعل بشأنها ، حتى نلاحظ كيف أن بعض ردود الفعل لم تكن موضوعية ، بل جاءت عاطفية . كان مقرراً ان ينعقد مؤتمر ستراسبورغ ، الذي حضرناه ، في الشهر الاول او الشهر الثاني من هذا العام ، ثم تأجل الى نيسان لأننا تمسكنا بأن ينعقد في مقر البرلمان الاوروبي ، وقد اقتضى الأمر هذا الوقت حتى تمكنت « المؤسسة البرلمانية الاوروبية للتعاون العربي ـ الاوروبي » من اخذ الموافقة . المؤتمر اذن مقرر منذ مدة طويلة ، وقد وافقت اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف. على الاشتراك فيه ، كما وافق ايضاً الاخ خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني الفلسطيني . ثم ان التقاءنا باعضاء الجمعية يرد في سياق النشاطات العادية لعمل المجلس الوطني .

وجدول أعمال المؤتمر كان مقرراً مسبقاً ، وفيه بند هو : ماذا يريد الفلسطينيون من اوروبا . وقد تصادف ان سبقت زيارة الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان لعدد من الدول العربية موعد المؤتمر بقليل ، واثارت الزيارة حديثاً عن مبادرة اوروبية ، بحيث صرنا نسأل عنها في كل مكان نذهب اليه . وكان الاعلام الصهيوني ناشطاً قبل بداية جولتنا . اما مطالبنا من اوروبا فهي معروفة : الاعتراف بـ م.ت.ف ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني وتأييد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واقامة دولته المستقلة ، وتقديم مساعدات اوروبية له اقتصادية وثقافية . وهي كما ترى مطالب عامة كان النقاش سيقتصر عليها لو لم تأت زيارة ديستان وما اثارته من الضجيج الاعلامي ، الصديق او المعادي ، الذي اقترن بها . المجلس البرلماني الاوروبي ومثله المجلس الوزاري قررا مناقشة موضوع الشرق الاوسط . وصرنا اذن في ظرف تطفي فيه قضية فلسطين على المناقشات . ولم يكن جائزاً بالطبع ان نضيع الفرصة لتحقيق مكاسب سياسية ولاحداث التأثير على القرارات الاوروبية .

س : لا يختلف احد معك في هذا ، بل لا يختلف احد معك في ضرورة التحرك النشط في كافة الميادين ، سؤالي من طبيعة اخرى . ولعلنا جميعاً نلاحظ ان اي تحرك سياسي فلسطيني يستتبع في العادة التباسات ، ويثير بعد حدوثه خلافات تؤثر على طبيعة المكاسب المتحققة من ورائه ، وتضعف موقف الذي يقوم بالتحرك وتهز الهيبة الفلسطينية باجمالها ، وهذا يتكرر في كل مرة تقريبا بالنسبة لمؤتمركم هذا ، مثلاً ، فهو مقرر منذ بضعة شهور قبل انعقاده ، ومطلوب من الوفد الفلسطيني فيه ان يجيب على سؤال كبير ، فمن هي الجبهة الفلسطينية التي ناقشت الموضوع ملياً ، ووضعت حدود الاجابة المتفق عليها بحيث لا تنجم التباسات ؟

ج : ما من جهة ناقشت الأمر بالتفصيل وردود الفعل جاءت بعد ان قمنا بالجولة

س : هنا المشكلة ، ومن هنا تأتي الالتباسات وتتعدد وجهات النظر حول حدث بعد وقوعه وليس قبله ، لماذا لم يناقش الأمر في اللجنة التنفيذية للمنظمة او في مجلسها المركزي بحيث تتمثل كل الفصائل والقوى المنضوية تحت لواء م.ت.ف ، وحيث يمكن اذا وقع خلاف ، ان يتم الحوار بشأنه بحيث ينتهي الى وضع تصور مشترك او الى جعل حدود الخلاف واضحة ؟

ج : يرجع هذا لطبيعة الوضع الذاتي على الساحة الفلسطينية .

س : هل يعني هذا انك توافقني على ان الذين لم يشتركوا في النقاش والذين قرأوا اخبار جولتكم كما اوردتها وسائل الاعلام فاعترضوا وكان رد فعلهم عاطفياً ، كما تقول ، أو عنيفاً .. ان هؤلاء عندهم حق لأن الصورة لم تكن واضحة امامهم ولم يعرفوا ما الذي حصل بالفعل ؟ وهناك ، غير جولتكم ، مثال هام آخر يتصل بالحوار مع الاردن وقد حدثت التباسات مماثلة فلما نوقشت المسألة في الهيئات القيادية للمنظمة بمشاركة الجميع زالت الالتباسات بينما اتضحت الخلافات وحدودها مرة اخرى : لماذا لم تناقش جولتكم في الهيئات القيادية .

ج : انا لست عضواً في اللجنة التنفيذية .

س : انت مع ذلك في المركز القيادي .

ج : اللجنة التنفيذية وافقت على حضورنا المؤتمر الا انها لم تناقش التفاصيل . وما تثيره مشكلة قائمة لا بد من حلها .

س : الحل الديمقراطي ، يجتمع الفرقاء المعنيون ويتشاورون ...

ج : تبرز مهمات سريعة لا تتيح سرعتها وقتاً للتشاور مسبقاً .

س : جولتكم كانت مقررة قبل اشهر من ابتدائها ، ومع ذلك لم يحمل وفدكم تصوراً مشتركا يتحرك في اطاره ، اليس كذلك ؟

ج : نحن كوفد اجتمعنا وقررنا خطة عملنا فكانت لنا خطة متفق عليها في الوفد .

س : من هي الفصائل التي تمثلت في الوفد ؟

ج : فضلاً عن المنظمات الشعبية التي مثلتها الاخت عصام عبد الهادي رئيسة الاتحاد النسائي كان معنا ممثل عن الصاعقة . وعندما فوتحت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالمشاركة في الوفد قالوا : لا نؤمن بالحوار ، ورفضوا ، وكذلك الجبهة الديمقراطية ، وهكذا اسهمت فتح والصاعقة في الوفد . وهناك ، كما تعلم ، خط في الساحة الفلسطينية لا يؤمن بالحركة الا في اطار المعسكر الاشتراكي ، وهو يعرض وجهة نظره باستمرار في المجلس المركزي ، ويرى ان الحوار مع الغرب سيكون بغير نتيجة لانه معسكر اعداء . هذا الخط يقوده الشيوعيون الفلسطينيون وتقف معه الجبهتان الديمقراطية والشعبية في بعض الاحيان ولا تقفان معه احياناً اخرى .

وازاء رفضهم اخذنا من ذكرت وكذلك اعضاء مجلس وطني من الارض المحتلة . وبهذا لم يكن الوفد وفد فتح وحدها .

س : الذين اعترضوا من الشيوعيين وغير الشيوعيين فعلوا ذلك لاسباب مبدئية وعملية ، وربما كانت في اذهانهم تجربة السادات ، فقد ابتدأ قبل سنوات بالحديث عن كسب تأييد الغرب وانتهى الى ما انتهى اليه. والمعترضون يثيرون اشكالات حول التوجه نحو الغرب . وفي اعتراضهم نقطة لها وجاهتها الكبيرة ، فهم يرون ان هامش استقلال اوروبا الغربية في القرار عن الولايات المتحدة ضئيل ، ويرون ، ايضاً ، في حديث المبادرات الاوروبية محاولات غربية لصالح مجمل التحالف الغربي تهدف لتليين مفاصل م.ت.ف ان جاز التعبير . ولا نستطيع ان نهمل وجاهة هذه النقطة وانت تؤمن بضآلة هامش الاستقلال هذا ...

ج : مثل السادات لا يمكن ، ولا يجوز ، ان ينسحب بشكل مطلق على اي شخص وهو بالتأكيد لا ينسحب على القيادة الفلسطينية ، لان التليين المطلوب من قبل اوروبا والغرب بمجمله ، وهذا صحيح ، ينطلق من ان الغرب يبحث عن الحلول الوسط وعقله يقوم على هذا . والحلول الوسط عنده تعني تنازلات متبادلة حتى الوصول الى نقطة التقاء ، والحل الوسط بالطبع يتم لصالح من يملك التفوق في ميزان القوى ، وحين نرفض هذا المنطق ، والرفض ارادة قائمة ونحن نملك الارادة وحرية الارادة ، فلاننا نثق بانفسنا . وقد اثبتت الارادة الفلسطينية صلابتها وعدم استعدادها لتقديم تنازلات. والامر، على الساحة الفلسطينية، يحتاج الى الثقة. وهناك نقطة اخرى ، فانت تعرف ان اتخاذ القرارات هو من اصعب الأمور فلسطينياً . ولا يكفي ان تتخذ قراراً في المجلس الوطني . ولديك مثل تعرفه ، فعندما طرح موضوع الدولةالفلسطينية، طرح على الرأي العام الفلسطيني للمناقشة على مدى اشهر ممتدة . لا تستطيع القيادة ، اي قيادة ، ان تحتكر القرار . نحن بحاجة الى القناعة الشعبية اولاً ، ثم المجلس الوطني ، ثم القيادة ، وما من عاقل يعتقد انه قادر ، وحده ، ببساطة على اتخاذ قرار فلسطيني ، ولذلك ووفق على الدولة الفلسطينية ووافق المجلس الوطني على أن تسهم القيادة في أي مؤتمر دولي وفي اي بحث لا يؤدي الى صلح مع اسرائيل او اعتراف بها . هذا قرار اساسي يتيح مرونة الحركة دون ان يمس بالمبادىء . والطرف الذي يرفض اي حركة خارج اطار المعسكر الاشتراكي يرى ان فكرته وحدها هي الصحيحة . وهذا يعكس تبعية للفكرة المسبقة. ومن المؤسف ان معظم الصراعات التي شهدتها الساحة العربية القومية نجمت عن الضعف الذاتي للفكر ، وبنيت على الشكوك والاتهامات المتبادلة ، وتولد عن هذا احساس مزمن بالمخاوف المتبادلة يغطى في العادة بالصياغات ذات الكلمات الثورية جداً . عندنا هذه المشكلة : مشكلة الخوف والشك ، وهذا يضع قيداً على الحركة ، قيداً على المناورة السياسية مثلما انه قيد على حرية التفكير . وهو خطأ يعرقل في النهاية العملية النضالية . واعتقد أن الساحة الفلسطينية تحتاج الى توفر عامل الثقة بالذات . عندما نكون في الخارج نلمس ما معنى قوة الثورة الفلسطينية وما معنى انشغال العالم بالقضية الفلسطينية . وهو ما يجب ان يعطينا الثقة بذاتنا. ثم لماذا نظن اننا اذا حاورنا اوروبا الغربية فستدفعنا الى التنازل ؟ اليس هذا الظن وليد عدم الثقة بالذات . لا يجوز ان نشك بقدرتنا كشعب وبذاتنا او وطنيتنا فنخاف ان يغلبنا الغرب في الحوار ويلييننا ويحملنا على تقديم التنازلات . لماذا لا تكون العملية معكوسة ، او على الأقل متوازنة ، فكما أن لديهم رغبة صلبة في

تليننا فان عندنا تصميماً على أن لا نلين . وقد بينت الوقائع مدى صلابة الشعب الفلسطيني وصلابة قيادته . والالتباسات تنجم عن عقدة الخوف .

وبعد هذا ، انا ، شخصياً ، لا اطالب ، ولا استطيع ان اطالب ، بان لا تكون هناك خلافات على الساحة الفلسطينية ، لان هذا مستحيل ، فالأنسان الواحد قد يختلف مع نفسه في بعض الاحيان . ولا مانع في أن يكون هناك نقد وكشف للخطأ ، ما اطالب به هو رفع مستوى اسلوب الخلاف حتى لا يتحول النقد إلى اتهامات تخرجنا عن الموضوع وتحول الأمر الى مهاترة .

س : كيف نطبق ذلك في حالة الخلاف الذي تبع جولتكم ؟

ج : سأقول لك امثلة ، في جولتنا واجهنا الاسئلة حول تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني والاعتراف بحق اسرائيل في الوجود وكنا نجيب دائماً : الميثاق لن يعدل ونحن غير ملزمين بالاعتراف باسرائيل ونوضح اسبابنا لذلك . وجاءت وكالة انباء الشرق الاوسط (المصرية) فنقلت ان الوفد الفلسطيني تحدث عن حق اسرائيل في الوجود .والتقطت بعض المصادر الفلسطينية ما نقلته الوكالة المعادية للتشويش علينا ، وبنت موقفها على ضوئه . فهل يجوز لهذه المصادر ان تعتمد على ما نقلته وكالة انباء تقف في موقف الخصم !؟

س : الا تعتقد بأنه لو كانت خطة جولة الوفد مناقشة ومعتمدة من الجميع لما وقع احد في الالتباس ؟

ح في كل الاحوال لا يجوز الاستناد الى تشويشات الخصوم ، ما دام من المعروف ان قرارات المجلس الوطني تحكم تحركنا ، وهذه ترفض الاعتراف . لا يجوز ان ننفعل بسرعة او ان لا تكون لنا ثقة ببعضنا .

س : بعد كل ذلك هل ترى انه ، في ظل موازين القوى المنظورة ، يمكن ان تقوم دولة فلسطينية مستقلة بغير اعتراف باسرائيل ؟

ج : اذا توفر موقف عربي صحيح فهذا ممكن ، اما ضمن المعطيات الحالية فهو غير ممكن ولا بد من متابعة النضال لاحداث مزيد من التغيير .

س : الا تظن انه ، ضمن المعطيات الحالية ، لا يمكن ان تقوم دولة فلسطينية مستقلة حتى مع الاعتراف ؟

ج : لا اوافقك ، فمع الاعتراف يمكن ان تقوم ، لأن المشكلة تضغط كثيراً على الغرب .

نهى نادرس

مبدأ كارتر أو سياسة التدخّل العسكري الأميركي في الخليج العربي

تغيرات استراتيجية

أعلن مسؤول في وزارة الدفاع الأميركية في منتصف نيسان ١٩٨٠ وقبل حوالي عشرة أيام من المحاولة الاميركية الفاشلة لإنقاذ الرهائن في إيران ، ان الولايات المتحدة ستخفض عدد قطعها البحرية في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهادىء، لتكثف وجودها العسكري في المحيط الهندي . وقد صرح غراهام كليتور ، وهو نائب وزير الدفاع ، أمام لجنة الدفاع في الكونغرس « إن الوجود البحري الأميركي في المحيط الهندي سيبقى على أعلى مستوياته في المستقبل المنظور ، وسوف يتم ذلك بإعادة توزيع القوات ، وتخفيض مستوى الأساطيل الأخرى في مناطق أخرى من البحار »[١] .

وكان هذا التصريح يعتبر إنذاراً أميركياً موجهاً إلى الثورة الإيرانية ومنطقة الخليج من جهة وإلى حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين من جهة أخرى حول إمكانية تحويل جزء من العتاد الأميركي البحري والجوي والأرضي العامل في اطار الناتو إلى العمل في إطار الدفاع عن المصالح الغربية في منطقة الخليج ، مما قد يسبب خللا في استعدادات الحلف الأطلسي العسكرية ، ولذلك طالبت الولايات المتحدة ، في نفس الوقت ، حلفاءها الأوروبيين بتقوية إمكانيات الناتو العسكرية[٢] .

وقد وافق الرئيس كارتر في شهر نيسان على خطة استراتيجية جديدة لا تلزم الولايات المتحدة بارسال قواتها المتواجدة في المحيط الهادىء إلى اوروبا في حال حدوث هجوم سوفياتي عليها ، إلا عند اللزوم . وبهذا القرار تخلى كارتر عن السياسة الاميركية المتبعة منذ عشرات السنين تجاه أوروبا ، و المعروفة « باستراتيجية الارجوحة » (Swing Strategy).

وصرح أحد المسؤولين في البنتاغون ان هذا التغيير يعني « ان لدينا الآن مرونة أكبر ، فقد نحافظ على قواتنا في المحيط الهادىء ونرسلها إلى المحيط الهندي أو إلى أوروبا ، حسب الظروف» . وعلم ان إدارة كارتر ستبلغ الحلفاء رسمياً بهذا القرار في تموز عندما يعرض كل أعضاء الحلف

الأطلسي قائمة بالقوات العسكرية المخصصة للحلف وللعمل في أوروبا[٣] .

ومن الواضح ان الولايات المتحدة تبحث في إعادة ترتيب تواجدها العسكري واستراتيجيتها العسكرية في منطقة الشرق الأوسط والخليج ، خاصة منذ نجاح الثورة الإيرانية ، وهذه الترتيبات تؤثر على استراتيجيتها الشاملة . وقد صرح بريجنسكي في أواخر عام ١٩٧٩ ، في مقابلة مع مجلة أميركية ، بقوله : « اليوم هناك ثلاثة مناطق أمنية مركزية ومرتبطة ببعضها ، وهي أوروبا الغربية ، والشرق الأقصى والشرق الأوسط . إن استقلال وأمن كل من هذه المناطق لهما أهمية مباشرة لكل من المنطقتين الأخريين ، وإن أمن كل منهما ذو أهمية حيوية بالنسبة للولايات المتحدة . ولهذا الوضع معنى استراتيجي وسياسي ، فإنه يعني إنه « تصبح من الأصعب ، يوما بعد يوم ، تجزئة المسائل الأمنية وحصرها في منطقة جغرافية معينة »[٤] .

وعلى اثر هذا التصريح طرح عليه السؤال التالي : « هل يعني ذلك ضرورة توسيع الناتو لمواجهة أخطار غير أوروبية ؟ » فأجاب : « إن وضعت السؤال بهذه الحدة فالجواب لا بد أن يكون لا ، لأن الناتو أسس للحفاظ على أمن المنطقة الأطلسية . ولكن إذا اعترفنا بأن أمن هذه المنطقة مرتبط بأمن مناطق مركزية أخرى ، فلا بد أن تتأثر سياسة واستراتيجية الناتو على المدى الطويل[٥] .

ومن الجدير بالذكر ان معظم الخطط الحربية الأميركية في السبعينات كانت تركز على احتمالات حدوث نزاعات في أوروبا ، بينما لم تعط الصراعات في العالم الثالث نفس القدر من الأهمية . وكانت جميع الفئات في المؤسسة الحاكمة الأميركية موافقة على هذا التركيز ، لأنه لم يوح بأمكانية حدوث تدخلات عسكرية اميركية في العالم الثالث على نمط الحرب الفيتنامية من جهة ، ولكنه كان يسمح باستمرار درجة معينة من الانفاق العسكري[٦] .

ومثلما حدث في الخمسينات ، حين رفض بعض الاستراتيجيين نظرية أيزنهاور التي ارتكزت على مبدأ «الانتقام الشامل » في مواجهة السوفيات لأنها تجاهلت المناطق الأخرى من العالم ، بدأ بعض الاستراتيجيين في السبعينات يرفضون تركيز المخططات الحربية الأميركية على الحروب بين أوروبا الغربية والشرقية ويطالبون باهتمام أكبر بمناطق العالم الثالث ، وذلك لأنه أصبح واضحاً بالنسبة لهم ان إقتصاد الولايات المتحدة أصبح يعتمد أكثر فأكثر على المواد الأولية والأسواق في العالم الثالث[٧] .

ومن الجدير بالذكر ان الجنرال ماكسويل تايلور الذي عارض في الخمسينات منطلقات نظرية «الإنتقام الشامل » لأنها لا تستطيع المحافظة على الأمن في عدة مناطق من العالم ، وطالب بانشاء قوات تدخل سريعة في ذلك الوقت ، هو من اوائل الذين دعوا في أوائل السبعينات ، مرة أخرى ، إلى الإهتمام بالعنف المتزايد في العالم الثالث على أساس إن الوضع في هذه المناطق قابل للتفجير أكثر منه في أوروبا ، وقد عبر بالتالي في عام ١٩٧٤ عن نفس الرأي الذي كان يشيد به في الخمسينات « في العالم المضطرب ... سنتطلب قوات متحركة مستعدة لصد أو ، في بعض الأحيان ، لقمع بعض النزاعات قبل ان تتحول إلى نزاعات أكبر »[٨] .

وتجد فكرة قوات التدخل السريع جذورها في المشاريع التي طورت في فترة حكم كنيدي

وماكنمارا ، مثل مشروع طائرات النقل العملاقة (C 5 A) والحاملات الخاصة بحوامات الإنزال التي بدأت تظهر في الستينات إثر التدخل الأميركي في فيتنام[٩] .

ويعتبر مبدأ خوض « حرب ونصف حرب » احد مبادىء الاستراتيجية العسكرية الأميركية منذ الحرب العالمية الثانية ، ويعتمد هذا المبدأ على احتمال خوض الولايات المتحدة حرباً « حقيقية » في أوروبا ضد قوات حلف وارسو ، وخوض حرب محدودة في نفس الوقت في مناطق أخرى (نصف حرب) . ولمواجهة إمكانية خوض حرب ونصف حرب ، تتطلب الولايات المتحدة تجهيز قوات عسكرية أخرى غير قوات الحلف الأطلسي[١٠] .

وكانت الولايات المتحدة بعد الحرب الفيتنامية ، قد تبنت « مبدأ نيكسون » الذي كان يعني الإعتماد على حلفاء محليين للحفاظ على المصالح الأميركية ، وتفادت بذلك إمكانية التورط بحرب محدودة على نمط الحرب الفيتنامية .

وبينما لم تتخل الولايات المتحدة في الوقت الحاضر عن ضرورة الإعتماد على حلفاء محليين ، بدأت تزيد في الوقت نفسه من استعداداتها العسكرية لخوض حروب محدودة . ومما قاله هارولد براون في كانون الثاني ١٩٧٩ « إن الولايات المتحدة أصبحت ، وبشكل غير قابل للتغير ، متورطة في المسائل العالمية . إن إقتصادنا يعتمد على استيراد مصادر الطاقة والمواد الأولية ، و ٩٪ من دخلنا القومي ناتج عن مبيعاتنا لسلع وخدمات أميركية في الخارج » . ولذلك يجب على الولايات المتحدة الأهتمام من الناحية الإستراتيجية بالمناطق البعيدة مثل « بحر اليابان ومضائق ملقا والخليج الفارسي ومضيق الدردنيل وبحر البلطيق وبحر البارنتس » ، ويجب أن نكون على استعداد « للتحرك سريعاً وبثقة »[١١] .

وقد بدأت إدارة كارتر منذ شهر آب ١٩٧٧ البحث في مشروع انشاء قوات تدخل سريعة ، واعتبرت مذكرة المراجعة الرئاسية رقم ١٠ قوات التدخل جزءاً اساسيا من مبدأ الحرب ونصف حرب[١٢]. وجاءت ثورة ايران لتسرع في عملية تجهيز هذه القوات التي تعتمد على قوات مشكلة من البحرية والجيش والقوات الجوية .

الخليج هدف عسكري

وقد بدأت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤ في وضع خطط من أجل التدخل العسكري المباشر في منطقة الخليج العربي على أثر أزمة الطاقة في عام ١٩٧٣ . وكان أول من لمح إلى إمكانية التدخل العسكري الأميركي في الخليج هنري كيسنجر وزير الخارجية في إدارتي نيكسون وفورد ، وذلك في كانون الأول عام ١٩٧٤ . وبعده أفصح وزير الدفاع في ذلك الحين جيمس شليسنجر ، في منتصف كانون الثاني ١٩٧٥ ، عن نفس النية قائلاً : « انه من الممكن أن تقوم القوات المسلحة الأميركية بعمليات عسكرية في منطقة الخليج إذا إقتضى الأمر ذلك » - ثم أعلن الرئيس فورد ، في أواخر كانون الثاني ، أنه في حال تعرض الولايات المتحدة إلى الإختناق فستقوم بالدفاع عن نفسها »[١٣] . وقام مكتب الأبحاث في الكونغرس في منتصف عام ١٩٧٥ بدراسة إمكانيات السيطرة على آبار النفط في منطقة الخليج وذلك في تقرير عنوانه « آبار النفط كأهداف عسكرية : دراسة تمهيدية »[١٤] .

ولكن لم تبد هذه التهديدات جدية في ذلك الحين إذ كان نظام الشاه يقوم بدوره بصفته الشريك المحلي للولايات المتحدة في المحافظة على أمن منطقة الخليج .

هذا ما أشار اليه تقرير جاكسون حول العلاقة الخاصة بين إيران والولايات المتحدة الذي صدر عن لجنة مجلس الشيوخ المختصة بالطاقة والثروات الطبيعية . « وقد اشير في هذا التقرير الى أنه في حالة قيام إيران بالتدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة في منطقة الخليج ، فلا بد أن تعلم الولايات المتحدة ، مسبقاً ، أن هذا هو الدور الذي تتمنىٰ إيران من أجله ، ولا يمكن توجيه أي اتهام لها لأنها تؤدي واجبها »[١٥] .

وكانت إيران قد اثبتت قدرتها ونيتها للقيام بهذا الدور بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٥ في مواجهة ثوار ظفار . وتوضح أرقام مبيعات الأسلحة الأميركية لإيران في السبعينات ، كيف كانت « تتمنىٰ » ايران من أجل لعب هذا الدور .

ففي عام ١٩٥٠ كانت مبيعات الأسلحة الأميركية إلى إيران تقدر بحوالي ١٠ ملايين دولار فقط ، ولكنها وصلت في عام ١٩٧٠ إلى ما فوق ١٠٠ مليون دولار ، ثم إلى ٥٢٣ مليون دولار في عام ١٩٧٣ ، ثم إلى ٢.٩١ بليون دولار في عام ١٩٧٤ ، وإلى ٢٠٦ بليون دولار عام ١٩٧٥ ، وانخفضت إلى ١٠٣ بليون دولار في عام ١٩٧٦ ، وكانت إيران قد أوصت على اسلحة اميركية ، ثمنها ١٢ بليون دولار قبل سقوط الشاه . وقد توصلت إيران في عام ١٩٧٥ إلى مرتبة أكبر مشتر للأسلحة من الولايات المتحدة[١٦] .

واستمرت إدارة كارتر بمعاملة إيران على نفس الأسس العملية لمبدأ نيكسون . وقد صرح كارتر في اواخر عام ١٩٧٨ حين كانت معالم الثورة الإيرانية واضحة « إن صداقتنا وتحالفنا مع إيران هما من الركائز الأساسية التي تستند عليها كل سياستنا الخارجية »[١٧] .

ولكن في نفس الوقت الذي استمرت فيه إدارة كارتر بدعم الحلفاء المحليين ، بدأت بالتخطيط من أجل انشاء قوة تدخل سريعة للقيام بحروب محدودة في العالم الثالث .

وجاءت الثورة الإيرانية وامكانية تهديدها لمصادر النفط الغربية لتسرع في التخطيط والتجهيز الأميركي للقيام بتدخلات عسكرية من خلال التواجد العسكري في منطقة الخليج ، وقد صدرت مرة أخرى دراسة عن مكتب أبحاث الكونغرس ، في شهر نيسان ١٩٧٩ ، حول إمكانية الإستيلاء على منابع النفط في منطقة الخليج . وقام باحثان بهذه الدراسة (أحدهما الجنرال كولينز وهو ضابط جيش متقاعد والآخر كلايد مارك وهو باحث مختص بالشرق الأوسط في مكتبة الكونغرس) . وذلك بناء على طلب من البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي وبعض السفارات والقوات المسلحة الأميركية[١٨] .

ومن الجدير بالذكر ان التقرير ابدى بعض الشكوك حول إمكانيات قوة التدخل الأميركية التي كانت وزارة الدفاع تقوم بتشكيلها ، وبين التقرير ان عدد ونوعية القوات المؤهلة للانضمام إلى قوة التدخل السريع قد يمكنها من أن تهزم القوات العسكرية لدول الخليج ولكنه لا يمكنها من السيطرة على حقول النفط التي قد تدمر خلال عملية التدخل . فنجاح العملية يتوقف على إحتمالين : الأول حدوث تخريب ضئيل لمنابع النفط الرئيسية.ثانياً : غياب أي تدخل سوفياتي .

واستنتج التقرير « إنه حيث لا يمكن التأكد من هذين العاملين فان عملية استخدام القوات الاميركية للاستيلاء على حقول نفط الأوبيك ـ ستكون عملية مجازفة كبيرة وباهظة التكاليف »[١٩] .

ولكن ، بغض النظر عن هذا التحذير ، استمرت بعض الفئات في الإدارة الاميركية وخارجها في الضغط من أجل الاستمرار في التهيؤ للقيام بتدخلات عسكرية .

القرار بالتدخل

وقد جاء القرار النهائي بضرورة الإستعداد للتدخل العسكري ولتصعيد التواجد الأميركي العسكري ، خصوصاً في منطقة الخليج ، في ٢١ و ٢٢ حزيران ١٩٧٩ ، وذلك خلال إجتماعات لجنة مراجعة السياسة الخارجية التي تضم مسؤولين في ادارة كارتر على المستوى الوزاري . وكانت هذه الإجتماعات تمهد بشكل واضح لنشوء مبدا جديد يحدد منطلقات السياسة الأميركية في الفترة القادمة . وقد عبر عن ذلك احد المحللين في هذه الفترة بقوله : « يحوم حول اجتماعات البيت الأبيض شبح مبدا كارتر الذي ينتظر تعريفاً واطاراً جديداً للعمل »[٢٠] .

وكانت لجنة المراجعة السياسية الخاصة بالرئيس قد حثت كبار الموظفين والمسؤولين منذ أوائل حزيران على الإجتماع والبحث عن استراتيجية جديدة ، لا بد لها « أن تتفادى تطرف حرب فيتنام حيث أردنا أن نقوم نحن بكل شيء وأخطاء مرحلة ما بعد فيتنام حيث لم نقم نحن بأي عمل » . وقال أحد المسؤولين : « نحن لا نتكلم عن قواعد ثابتة وتحالفات رسمية » في منطقة الخليج ، بينما أضاف مسؤول آخر : « ولكن يجب علينا أن نحمي «مصحالنا الحيوية» في منطقة تعتبر أكثر حيوية بالنسبة لنا من فيتنام »[٢١]

وبينما بقيت بعض النقاط الأساسية التي نوقشت ، في الإجتماعين سرية ، وتنفيذها غير فوري ، فان الإقترحات الرئيسية كانت :

أ ـ الاسراع في تجهيز قوات التدخل السريع وأن يكون مركزها الولايات المتحدة .

ب ـ انشاء قيادة عسكرية جديدة خاصة بمنطقة الشرق الاوسط ، وكان من المرجح أن لا تكون تحت إمرة القائد العام للقيادة الشرق أوسطية وحدات خاصة ، وان يكون لديه صلاحيات لسحب قوات ووحدات خاصة بقيادات اخرى عند الحاجة . وكانت مسؤولية قيادة العمليات الخاصة بالشرق الأوسط قبل ذلك ، على عاتق القيادة الأميركية الخاصة بأوروبا .

جـ ـ الحفاظ على تواجد بحري دائم في منطقة بحر العرب وشمال غرب المحيط الهندي ، يستطيع أن يلبي طلبات بالتدخل السريع ، ولكنه يجب أن يبقى على « بعد غير مرئي » لكي لا يثير « حساسيات » شعوب المنطقة . (وكانت نتائج استفتاء عام أجري في عدة سفارات أميركية في الخارج في آذار ١٩٧٩ ، قد بينت ان كثيراً من سفراء الولايات المتحدة في المنطقة ابدوا معارضتهم لوجود قواعد أميركية دائمة وتحالفات رسمية . وكان فانس قد أشار إلى هذا

الإستنتاج للدفاع عن رأيه بضرورة زيادة العمل الديبلوماسي بدلاً من العمل العسكري) .

د ـ توسيع التسهيلات البحرية والتكنات في دييغو غارسيا في المحيط الهندي ، وهي قاعدة هامة يسعى البنتاغون لتطويرها كقاعدة مركزية لعمله .

هـ ـ القيام بتدريبات واستشارات عسكرية مشتركة مع بعض جيوش المنطقة . واول ما تم في هذا السياق محاولة قامت بها بعثة للتخطيط والقيادة يقودها الجنرال لورانس وتعمل في السعودية منذ عدة اشهر(٢٢) .

كان واضحاً ، إذن ، منذ أواخر حزيران ١٩٧٩ ان هناك إجماعاً داخل الإدارة الأميركية حول تقوية التواجد العسكري الأميركي في منطقتي الخليج والمحيط الهندي ، أو ما وصفه بعض المسؤولين بأنه « تحسين في موقع الولايات المتحدة الإستراتيجي في المنطقة » . كما كان واضحاً ان الذين يدعون إلى هذا المنطق هم ، هارولد براون ، وزير الدفاع وزبيغنيو بريجنسكي مستشار الأمن القومي ، وشليسنجر وزير الطاقة (الذي استقال فيما بعد) والجنرال دافيد جونسر رئيس أركان الحرب الموحد ، بينما كانت وزارة الخارجية في ذلك الحين متخوفة من تصعيد الموقع العسكري الأميركي لأنه قد يؤدي إلى معارضة شديدة من قبل دول المنطقة(٢٣) .

وكانت قد طرحت في شهر آذار فكرة انشاء اسطول خامس خاص بمنطقة المحيط الهندي ، ولكن صرف النظر عن هذه الإمكانية فيما بعد ، وكان من المتوقع منذ شهر حزيران أن تنضم إلى السفن الحربية الثلاث المجودة في منطقة الخليج مدمرة أو مدمرتان ، وأن يرتفع عدد القطع الحربية المتواجدة في المحيط الهندي ، وان تقوم طائرات من سلاح الجو الأميركي بزيارات روتينية إلى عدد من الدول العربية ، وأن تجري بعض الإتصالات على المستوى الرفيع مع عمان وبعض إمارات الخليج الأخرى ، وأن تركز الولايات المتحدة على بيع أسلحة لهذه المناطق . هذا في نفس الوقت الذي كان فيه المسؤولون في الولايات المتحدة يدرسون عرضاً من الرئيس أنور السادات تقدم مصر بموجبه « تسهيلات » للطيران والبحرية الأميركيين(٢٤).

وكان التغير الرئيسي الذي يواجه واشنطن في ذلك الحين ناتج عن تخوفها من الإعتماد على قوى إقليمية محلية للحفاظ على مصالحها في المنطقة مثلما كان الحال في إيران ،مما أدى بها الى البحث عن مخططات عسكرية تلعب فيها القوات الأميركية الدور « الاساسي » .وقد عبر بريجنسكي عن هذا الموقف قائلاً : « نحن في مركز الزعامة وعلينا أن نتحمل أعباء هذا الدور »(٢٥) .

وجاء خطاب كارتر عن حال الإتحاد في كانون الثاني ١٩٨٠ ليرسخ المنطق العام للمبدأ الجديد . وهذا المبدأ يقتضي ، أولاً : استمرار الهيمنة الاميركية على العالم حيث قال : « انني مصر على أن تبقى الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم ».كما يقتضي ثانياً : اعتبار منطقة الخليج منطقة خاضعة لسيطرة اميركية كاملة «ليكون موقفنا واضحاً تماماً : أي محاولة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج ستعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة وستصد باستخدام كل الأساليب الضرورية ، وهذا يشمل القوة العسكرية »(٢٦) .

وانسجاماً مع قرارها بالاستعداد للتدخل ، افتتحت إدارة كارتر في أوائل آذار ١٩٨٠ قاعدة ماكديل الجوية في ولاية فلوريدا لكي تصبح مقراً للقيادة العامة لقوة التدخل السريع ، وتولى الجنرال بول كيلي رئاسة اركانها ، وفي وسعه تنظيم نحو ١١٠ ألف جندي ستنفق عليهم الولايات المتحدة حوالي ١٠ مليارات من الدولارات في السنوات الخمس القادمة . وستكون الفرقتان المجولقتان ٨٢ و ١٠١ وكتيبتان من « القوات الخاصة » و ٣ فرق بحرية العمود الفقري للقوة الجديدة ، المشكلة من ١١٠,٠٠٠ رجل بالاضافة إلى ٥٠ ألف من قوات انزال البحرية . ويعتقد بعض الخبراء ان هذه القوة تحتاج إلى اسبوعين لنقل ٢٥ الف جندي مع معداتهم إلى منطقة الخليج . وقد اعترف البنتاغون بأنه في الظروف الحالية يقتضي الأمر ستة أشهر لنقل مئة ألف جندي ومئات الدبابات إلى مسافة تبعد ١٠ آلاف كيلومتر عن الولايات المتحدة(٢٧) .

وقد طورت قوات التدخل السريع عدة خطط لمواجهة إحتمالات عديدة ، وذكرت مجلة القوات الجوية المسلحة الاميركية ان كل المعلومات والخطط العسكرية المتعلقة بالإحتمالات المختلفة مخزنة في جهاز الكتروني ضخم(٢٨) .

واثباتاً لنيته بعرض العضلات امر الرئيس كارتر منذ منتصف شباط ١٩٨٠ قوات هجومية بر / مائية ، تشمل قوات الانزال البحرية ، بالقيام بمحاولات إنزال في بحر العرب في شهر آذار ١٩٨٠ ، وذلك لإظهار إمكانية الولايات المتحدة ، لانزال قواتها في المنطقة ، وتشمل هذه القوة ، المكونة من ١٨٠٠ رجل ، مشاة ومدفعية وقوات مدرعة ووحدات مضادة للدبابات ومهندسين وحوامات وقوات مساندة .

وكانت قوات التدخل هذه أول قوات ارضية اميركية تستعد للذهاب إلى المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية ، كما كان المطلوب من هذه القوة أن تصبح جزءاً من قوات الطوارىء المكونة من الحاملتين « نيميتز » و « كورال سي » مع بواخرها المرافقة والمتواجدة في بحر العرب وجنوب إيران(٢٩) .

وقد وصل حجم القوات الأميركية في المحيط الهندي في أواخر نيسان إلى ١٨ قطعة بحرية محاربة في اطار قوتين للطوارىء المشكلة من « نيميتز » و « كورال سي » ، اللتين تحملان حوالي ٢٠٠ طائرة مقاتلة ، هذا بالإضافة إلى عدة غواصات (عددها غير معروف) كما ترافق هذه القوة ٨ بواخر للمساندة ، وقد انضمت إليها قوات الإنزال المكونة من ١٨٠٠ عنصر في شهر آذار وترابط قوات الإنزال هذه على ٤ سفن برمائية مجهزة بطائرات هليكوبتر مقاتلة ودبابات (أم - ٦٠)(٣٠) .

وكان عدد القطع الحربية الأميركية المتواجدة ، في مضيق هرمز والمحيط الهندي في منتصف العام الماضي لا يتعدى ١١ قطعة ، بعدما إقترح الخبراء العسكريون في ذلك الحين زيادة القطع البحرية الحربية المتواجدة في القواعد الأميركية في البحرين من ٣ قطع إلى خمس قطع وزيادة عدد الزيارات التي تقوم بها قوات الطوارىء الأميركية إلى المنطقة ، وتشمل عادة كل

بعثة من هذا النوع ما بين خمس وثمان قطع حربية[٣١] .

وتواجدت القوة العسكرية الأميركية المشكلة من ثلاث قطع حربية (مدمرتين وباخرة برماء) في منطقة البحرين منذ الحرب العالمية الثانية ، ولكن الولايات المتحدة لم تول منطقة الخليج دوراً خاصاً في استراتيجيتها العسكرية إلا في عام ١٩٦٨ ، حيث كانت تركز قبل ذلك على علاقاتها مع إيران والسعودية بينما كانت بريطانيا هي التي تقوم بدور الحفاظ على الأمن[٣٢]

وبين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣ اتخذت الولايات المتحدة بعض القرارات العملية التي عبرت عن تغير ملحوظ في سياستها الخليجية . فحصلت على عقد إيجار طويل المدى مع البحرين ، يسمح لها باستخدام القاعدة العسكرية البحرية ، التي كانت تستخدمها بريطانيا سابقاً كمقر قيادي عام لقوات الشرق الأوسط (MIDEASTFOR) . وكانت السياسة الأميركية الجديدة تتطلب أدنى حد من التواجد العسكري المباشر في الخليج ، وكان التركيز منصباً على التواجد فقط في إيران والسعودية[٣٣] .

وأدخلت منطقة الخليج في جوهر الصراع العربي الاسرائيلي بعد الحرب الإسرائيلية ـ العربية في تشرين الأول ١٩٧٣ ، وقد أدت الحرب إلى إعلان البحرين نيتها بالغاء عقد الإيجار مع الولايات المتحدة ، ولكنها تراجعت عنه في منتصف عام ١٩٧٤ . ومنذ حرب ١٩٧٣ ، قامت الولايات المتحدة بإرسال قوات بحرية عسكرية إلى منطقة الخليج بمعدل مرتين أو ثلاث في العام الواحد ، (وكانت هذه القوات تشمل عادة حاملة طائرات)[٣٤] .

القواعد والتسهيلات الأميركية في منطقتي الخليج والشرق الأوسط

وكانت الولايات المتحدة بموجب اتفاق اميركي بريطاني موقع في العام ١٩٦٦ قد بدأت تستخدم قاعدة دييغو غارسيا في المحيط الهندي للمواصلات والتزود بالوقود . وقد هيأت القاعدة ووسعتها منذ عام ١٩٧٢ ، وطورت البحرية الأميركية منذ بعض الوقت إمكانيات هذه القاعدة لتوفير رصيف لرسو حاملة طائرات ومطار طول مدرجه ٣٦٠٠ متر ، لاستقبال طائرات النقل الضخمة والمقاتلات النفاثة (وقد صرحت مصادر البحرية الأميركية في أوائل كانون الثاني ١٩٨٠) بأن ١٢ قطعة حربية ستبحر من الولايات المتحدة ، وإن بعضها سيتجه إلى المحيط الهندي وبينها حاملة الطائرات لونغ بيتش المزودة بصواريخ موجهة") وتنوي الولايات المتحدة الإستمرار في توسيع قاعدة دييغو غارسيا وستكلفها هذه العملية حوالي ١٤٠ مليون دولار [٣٥] .

هذا ، وقد وافقت عمان وكينيا والصومال على إعطاء القوات العسكرية الأميركية حق استخدام التسهيلات العسكرية في قواعدها ، أي امكانية تخزين الوقود والعتاد العسكري والنزول في هذه القواعد ، وذلك مقابل مساعدات عسكرية أمبركية لهذه الدول . وعبر أحد المعاونين في ادارة كارتر عن الإتفاق المبرم بين هذه الدول والولايات المتحدة بقوله « انه يمثل منعطفاً هاماً متناقضاً مع التدهور السابق لموقعنا الاستراتيجي في هذه المنطقة وتختلف

سياسة الولايات المتحدة في استخدامها لهذه القواعد ، عن السياسة التي اتبعتها الولايات المتحدة في أوروبا الغربية وفي المحيط الهادىء في الخمسينات والستينات ، والتي كانت تتطلب بناء قواعد أميركية جديدة . وتكتفي الولايات المتحدة في الوقت الحاضر بالحصول على حق استخدام القواعد الموجودة ، مثل قاعدة ميناء بربرا في الصومال ، وميناء مسقط في عمان ، وميناء مومبازا في كينيا . وستكلف عملية إصلاح هذه القواعد الولايات المتحدة عدة ملايين من الدولارات(٣٦) .

وبالإضافة إلى القواعد والتسهيلات البحرية التي حصلت عليها ، تخطط الولايات المتحدة من أجل بناء ١٥ أو ١٦ باخرة عملاقة ، تستخدم كقواعد عائمة . وستكلف عملية بناء كل من هذه القواعد ٢٨٠ مليون دولار ، وستحمل كل منها اسلحة وذخيرة قيمتها ٥٠٠ مليون دولار . ومن المخطط لها أن تنتشر في البحار في مناطق مجاورة لمناطق النزاع . كما تتطلب خطة إدارة كارتر العسكرية بناء ٥٠ طائرة نقل عملاقة من طراز (C.X) تكلف كل منها ١٨٠ مليون دولار . ومن المتوقع أن تكون القواعد العائمة المعروفة أيضاً « بالبواخر البحرية المتمركزة » (Maritime Prepositioned Ships) جاهزة للعمل في منتصف الثمانينات(٣٧) .

هذا بالنسبة للقواعد البحرية ، اما بالنسبة للقواعد الجوية ، فلدى الولايات المتحدة حق وامكانيات استخدام المطارات الحربية المتواجدة في مصر ، واسرائيل والمغرب وقاعدة الظهران الجوية في السعودية وقاعدة جيبوتي المطلة على خليج عدن ، التي تسيطر عليها فرنسا ، وقاعدة مصيرة في بحر العرب (٣٨) .

وبموجب البنود السرية لإتفاقيات كامب دايفيد المبرمة في آذار ١٩٧٩ ، المتعلقة بتنفيذ هذه الإتفاقيات من جانب الولايات المتحدة ، تعمل الولايات المتحدة على تعزيز تواجدها العسكري في منطقة الشرق الاوسط . وقد بدأت بالفعل في بناء قاعدتين جويتين عسكريتين لاسرائيل في صحراء النقب .

ويقوم في الوقت الحاضر حوالي ١٠٠٠ خبير اميركي بعملية بناء المطارين في صحراء النقب في منطقتي رامون وعوفدا . وتعتبر مهمة انجاز البناء قبل ٢٥ نيسان ١٩٨٢ مهمة حيوية بالنسبة للولايات المتحدة لانها تعتبرها حلقة اساسية لنجاح اتفاقيتي كامب ديفيد . حيث ان اسرائيل وافقت على ارجاع اخر قطعة من سيناء إلى مصر في عام ١٩٨٢ فقط عند اتمام بناء القاعدتين .

ويحتوي هذا الجزء من صحراء سيناء على قاعدتين جويتين وهما عيتم وعتسيون »(٣٩)

وبينما تقتضي شروط كمب ديفيد أن تبقى قاعدتا عيتم وعتسيون منزوعتي السلاح حتى عام ١٩٨٥ ، فان بعض المسؤولين الأميركيين اقترحوا أن تعطي مصر الولايات المتحدة حق بناء قاعدة عسكرية خاصة بها في هذه المناطق ، ولكن في اسوأ الأحوال (بالنسبة للولايات المتحدة) ستستخدم القوات الأميركية القاعدتين الموجودتين في سيناء وهما من أفضل القواعد في العالم ، وقد بنيتا على نفس نمط قواعد الحلف الأطلسي في أوروبا ، وقد اقترح السادات على الولايات المتحدة إمكانية استخدام هذه القواعد .

ويخشى الأميركيون العاملون في بناء المطارين في اسرائيل من أن أي تأخير في انجاز البناء

قد يؤدي إلى فشل إتفاقية كامب ديفيد ورفض اسرائيل الإنسحاب من سيناء ، خصوصاً لانها لا تميل للتخلي عن قاعدتي عيتم وعتسيون . وقد عبر أحد المسؤولين الغربيين عن الإحتمالات الممكنة بعد اتمام عملية بناء القواعد في صحراء النقب قائلاً « انني اخشى التنبؤ حول ماذا سيحدث ، فقد تقرر اسرائيل الإستيلاء على القواعد الأربعة كلها : القديمة في سيناء والجديدة في النقب . وماذا يمكن أن يفعله أي شخص أمام هذا الإحتمال ؟ »[٤٠] .

وقد شكل البنتاغون مع وزارة الدفاع الإسرائيلية قيادة مشتركة يترأسها جنرالات من القوات الحربية الأميركية والإسرائيلية ، وستكون هذه القواعد ملكاً لاسرائيل ، بينما تقوم الولايات المتحدة ببنائها ، وقد كلفتها عملية البناء حوالي ٨٠٠ مليون دولار ، هذا بالإضافة للمساعدات المالية التي وعدت بها الولايات المتحدة اسرائيل ، وقدرها ، ٢.٢ بليون دولار كمساهمة لانجاح « صفقة السلام » . وتستخدم الولايات المتحدة لبناء القاعدتين في النقب اسلوباً تقنياً سريعاً(Fast Track) ، وهو نفس الاسلوب الذي استخدمته ، لبناء قواعدها النووية في الستينات[٤٠] . ويبدو ان عملية بناء القاعدتين قد أدت إلى بروز منافسة بين الأميركيين والاسرائيليين ، وقد عبر عن ذلك أحد الاميركيين بقوله « ليس هناك شك في أن هذه قواعد اسرائيلية ، ولكن هناك نقاش حول من الذي يدير المسرحية . الأميركيون أم الاسرائيليون ؟» وفي رأي الاميركيين قد يحتد النقاش عندما تبدأ اسرائيل في عملية تركيب الأجهزة السرية واللوجستية الضرورية للقيام بعمليات عسكرية انطلاقاً من هذه القواعد[٤١] .

أما بالنسبة لمصر فتستخدم الولايات المتحدة بالفعل التسهيلات العسكرية التي قدمها لها السادات ، وقد ارسلت إلى مصر وبشكل سري في كانون الاول ١٩٧٩ طائرات AWACS ، وعندما اكتشف الأمر ، صرحت الولايات المتحدة بأن هذه الطائرات ارسلت لتساعد في تمرين الجيش المصري . ومنذ ذلك الحين ارسلت الولايات المتحدة هذه الطائرات مرتين إلى مصر وثلاث مرات إلى منطقة المحيط الهندي لتقوم بتمرينات بالتنسيق مع الاسطول الأميركي .

وكانت توجد في شهر آذار طائرتا AWACS في مصر ، تساهم في تدعيم قدرة الطائرات الحربية . وقد ارسلت الولايات المتحدة في تلك الفترة هذه الطائرات من قواعد في مصر إلى منطقة الخليج[٤٢] . وهناك بعض المعلومات تشير إلى ان هذه البعثات العسكرية تنطلق من مطار موجود قرب مدينة قنا الجنوبية . وكان وزير الدفاع براون قد أكد في الفترة نفسها أن قوة من المارينز ستصل إلى المحيط الهندي في ٢٤ أذار ١٩٨٠ وإن سبع سفن تموين ستنضم في حزيران المقبل إلى الاسطول الأميركي فيها . وأضاف إن وحدات من الفرقة ٨٢ يمكن أن تنزل في المنطقة في بضعة ساعات ، وقد تتبعها بعد أيام قوة معززة بالرادارات الطائرة AWACS وأخرى بحرية مزودة بسفن انزال[٤٣] .

وقبيل ذلك صرح هودينغ كارتر الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية ، في اوائل كانون الثاني ١٩٨٠ ، بأن واشنطن صرفت النظر عن عرض مصر واسرائيل إقامة قواعد أميركية في هذين البلدين ، والسبب المذكور هو ان « إقامة قواعد أميركية في مصر واسرائيل أمر غير مفيد حالياً »[٤٤] . وقد أكدت بعض المصادر ، وأولها مصدر اسرائيلي ، ان العملية العسكرية الفاشلة في إيران في ٢٥/٤/١٩٨٠ إنطلقت من المطار العسكري في القاهرة المعروف بمطار « غرب القاهرة » وأنها بعد ذلك حصلت على أمدادات من الوقود من البحرين[٤٥] .

« الخطر السوفياتي »
أو « المصالح الحيوية »

تستخدم الولايات المتحدة حجة « الخطر السوفياتي » على المنطقة لتحريض دول المنطقة ضد الإتحاد السوفياتي ، وكتبرير لزيادة قوتها العسكرية فيها . هذا ما كانت توحي به إقتراحات كارتر في خطابه عندما تحدث عن بناء « إطار تعاون أمني في المنطقة » مع دولها لمواجهة الإتحاد السوفياتي[٤٦] . وهذا أيضاً ما يردده باستمرار مستشار الأمن القومي بريجنسكي؛ فقد صرح بأن الولايات المتحدة مستعدة « لإيجاد إطار تعاون أمني في المنطقة بوسائل مختلفة »[٤٧] . كما تحدث أكثر من مرة عن خطورة التوسع السوفياتي حيث « اننا نواجه توسعاً سوفياتياً ملموساً نحو الجنوب ، وهذا الأمر يشكل خطراً واضحاً على الخليج وهو منطقة حيوية جداً ، ومن هنا يظهر البعد الإستراتيجي لهذه المشكلة »[٤٨] .

هذا ، في نفس الوقت الذي تبين فيه بعض الدراسات الجدية في الولايات المتحدة أن الإتحاد السوفياتي لن يقدم على أي عمليات عدوانية على المنطقة[٤٩]

ومن الجدير بالإهتمام ان هارولد براون وزير الدفاع في تصريحه عن ميزانية عام ١٩٨١ في كانون الثاني ١٩٨٠ عبر عن نظرة تختلف عما يحاول بريجنسكي الإيحاء به باستمرار. فقد أوضح براون ان الخطر الحقيقي ليس خطر التوسع السوفياتي ، بل الخطر الناتج عن تزايد « العنف » في بلدان العالم الثالث « إن الشجب والتهديد باستخدام العنف واستخدام القوة من المشاكل المنتشرة في العالم » ولهذه المشاكل عدة اسباب بينها الفشل في « تلبية حاجات هذه الشعوب الاساسيه وفي تضييق الهوة الموجودة بين الثروة والجوع » . وفي رأي براون ان الاتحاد السوفياتي يستغل هذه الهوة ، ولكنه يبقى « جزءاً فقط من المشكلة »[٥٠] .

ويشكل اعتراف براون بأن الخطر الحقيقي الذي يواجه أمن الولايات المتحدة هو العنف المتزايد في العالم الثالث ، منطلقاً هاماً في الفكر العسكري الأميركي السائد . فبينما تركز معظم التقارير السنوية الحديثة للبنتاغون على الخطر السوفياتي وتطالب بجهود لتغيير ميزان القوى في اوروبا الغربية لصالح المعسكر الغربي ، يكرس تقرير براون معظم جهده على الخطر الناتج عن العنف في العالم الثالث ، الذي قد يؤدي إلى « فوضى إقتصادية دولية » والتي قد تساوي « الخطر العسكري السوفياتي » . وهو يقول « إن انقطاعاً في إمدادات النفط الاجنبي على مدى واسع سيؤدي إلى مضاعفات مدمرة للولايات المتحدة تساوي فقدانها لمعركة عسكرية أو حتى لحرب »[٥١]

وقد استخدم مسؤولون عديدون في الإدارة الأميركية منذ عهد كيسنجر وفورد مصطلح « المصالح الحيوية » الأميركية في منطقة الخليج ، للتعبير عن المنطق الذي يدعو إلى استخدام القوة العسكرية . ومن الجدير بالذكر ان كيسنجر نفسه قد استخدم هذا المصطلح أربع مرات في فقرة واحدة . وقد قال كيسنجر : « إن الحصول على النفط هو مصلحة حيوية بالنسبة لنا وللأنظمة الديمقراطية الصناعية . وبالطبع فإن أي محاولة لقطعه عنا ، أو أي استخدام سياسي له ، سيهددان مصالحنا الحيوية . والتنبؤ بالطرق التي يمكننا استعمالها للحفاظ على المصالح الحيوية هو عمل غير مسؤول ، ولكن ليس هناك شك في انه يمثل مصلحة حيوية »[٥٢]

خلاصة

ومن الواضح ان المنطق الذي يسير سياسة « التدخل الجديد » ، التي تنوي واشنطن اتباعها ، هو منطق « الدفاع عن المصالح الحيوية » الذي يشكل النفط الخليجي جزءاً هاماً منها(٥٣) .

وتتوقف مقدرة واشنطن في اتباع سياسة التدخل الجديد على عدة عوامل أهمها فعالية قوات التدخل التي تقوم بتجهيزها ، وعلى القواعد والتسهيلات والتحالفات التي تستطيع الإعتماد عليها في مناطق الشرق الأوسط والخيج وجنوب أوروبا (حوض البحر الأبيض المتوسط) .

ومن الصعب التنبؤ حول قيام أو عدم قيام واشنطن بالهجوم على منطقة الخليج ، لأن منطق تعزيز القوة العسكرية والتهديد باستخدامها هو جزء من استراتيجية الولايات المتحدة ، التي استخدمت عملية عرض قوتها العسكرية للتوصل إلى أهداف سياسية ٢١٥ مرة بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٧٥ ، أي بدون التورط بحروب(٥٤) . وقد عبر عن هذا المنطق الجنرال جورج براون الرئيس السابق للجنة اركان الحرب الموحدة في عام ١٩٧٨ حين قال : « منذ الحرب العالمية الثانية ، تشير الخبرة إلى ان استخدام القوات العسكرية في الوقت المناسب لعرض العضلات كان كافياً لتفادي الصراع المعلن »(٥٥) .

كما يصعب التنبؤ ايضاً ، لأن الولايات المتحدة تقوم بعدة محاولات سياسية وعسكرية في وقت واحد ، وبسبب تعدد الخيارات أمامها واعتمادها على عدة تحالفات رسمية وغير رسمية وذات أشكال مختلفة في نفس الوقت ، مما يسمح لها بالتقلب من خيار لآخر حسب المتغيرات في الوضع المحلي والعالمي . ومن المرجح أن تستخدم القوة العسكرية عندما تفشل في كل محاولاتها الأخرى(٥٦) .

هذا في نفس الوقت الذي قد أصبحت فيه منطقة الخليج منطقة قابلة للتفجير ، بسبب كثافة التواجد المسلح فيها بشكل عام كنتيجة لسياسة مبيعات الأسلحة الغربية المكثفة في هذه المنطقة . فحسب الميزان العسكري لعام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ تتواجد في هذه المنطقة ٦٦ وحدة عسكرية ، أي بزيادة ٦٠٪ في الأعوام العشرة الأخيرة .

كما إزداد عدد الدبابات ليصل إلى ١٥٨٥٠ دبابة ، وذلك يعبر عن زيادة نسبتها ٦٦٪ في نفس الفترة ، وإزداد ايضاً عدد الطائرات المختلفة حتى اصبح ٣،٠٦٦ أي بزيادة ٦١،١٪(٥٧) .

وهذا العتاد العسكري في منطقة الخليج ، الموزع على دول المنطقة ، مثل إيران والسعودية والعراق والجمهورية العربية اليمنية ، قد يستخدم لتلبية عدة احتمالات . فقد يستخدم في حروب محلية بين قوة وأخرى ، أو للدفاع عن المصالح الأميركية والغربية ، أو بالعكس لمهاجمتها ، وقد اثبتت الثورة الإيرانية أن الأسلحة المكثفة في أيدي « الحلفاء » قد تتحول في فترة تاريخية معينة إلى اسلحة قد تستخدم ضد الولايات المتحدة نفسها .

ومن الواضح ، إن خطط الغزو الأميركية ستطبق عملياً ، خصوصاً اذا تحولت القوى

الصديقة للولايات المتحدة إلى قوى معادية ، أو إذا فشلت القوى « الصديقة » في انجاز المهام المطلوبة ، أي الحفاظ على المصالح الاميركية أو في حال وقوع الأسلحة المتواجدة في المنطقة في أيدي قوى ثورية .

ويمكننا اعتبار العملية العسكرية الفاشلة لإنقاذ الرهائن في إيران أول محاولة عملية من قبل الولايات المتحدة لاثبات استعدادها وإعلان نيتها القيام بتدخلات عسكرية في المنطقة ، بعد فترة امتنعت فيها عن القيام بأي تدخل عسكري مباشر ، هذا مع الأخذ بعين الإعتبار أن الإدارة الأميركية استطاعت أن تبرر العملية الفاشلة على اساس انها عملية « انقاذ انساني » ، مما يجعلها مختلفة نوعياً عن التدخلات العسكرية التي تهدد الولايات المتحدة بالقيام بها منذ عدة سنوات بهدف « الاستيلاء على منابع النفط » أو لصد عدوان سوفياتي على المنطقة » .

وقد فسر البعض فشل هذه العملية على أنه برهان على عدم قدرة الولايات المتحدة على استخدام قوتها العسكرية بشكل مجدٍ ، بينما فسرها البعض الآخر على أنه حلقة أولى من سلسلة عمليات عسكرية أميركية ستقوم بها الولايات المتحدة في داخل إيران وخارجها ، وقد وصفها احد الموالين لمنطق استخدام القوة العسكرية وذلك على اساس ملاحظة قائد اسرائيلي ، بأنها ليست إلا « اشعاراً أولياً » بزيارات متتالية[٥٨] . ويمكن اعتبار هذه العملية كمحاولة جدية لاثبات استعداد الولايات المتحدة للمجازفة بالارواح ، مما يعني اعترافها بالتخلص من « عقدة فيتنام » .

كما تحدى كارتر من خلال هذه العملية تشريع« صلاحيات الحرب » المقر في عام ١٩٧٣ والذي يطالب الرئيس باستشارة السلطات الأخرى قبل القيام بحروب في الخارج[٥٩] . وهذا يعني تحطيم إحدى الحواجز التشريعية الأخيرة أمام قدرة الجيش الأميركي بالتدخل في الخارج ، هذا بعد أن كان كارتر قد أعلن سابقاً عن تخلصه من العوائق الأخرى التي كانت تحد من حرية عمل المخابرات المركزية الأميركية ، كما أعلن ضرورة العودة إلى الخدمة العسكرية الإجبارية .

ويعتبر تصريح هارولد براون بعد العملية الفاشلة دليلاً على شعور الإدارة الأميركية بضرورة اثبات استعدادها للتدخل أمام العالم ، فقد صرح براون « بأن الغارة الفاشلة على إيران تعد دليلاً على النيات الأكيدة للولايات المتحدة » . وأهمية هذا الشعور باثبات « النية » بالتدخل تصبح أكثر وضوحاً إذا اخذنا بعين الإعتبار معرفة القادة الأميركيين بأن العملية تعتبر مجازفة ، مما يعني إن هدفها لم يكن فقط انقاذ الرهائن بل أيضا اثبات استعدادها للتدخل . وقد عبر كارتر عن ذلك في تصريحه في ٢٥/٤/١٩٨٠ حين قال : « إن مجموعة الإنقاذ كانت على علم وانني كنت على علم بأن العملية كانت بكل تأكيد عملية صعبة وخطرة »[٦٠] .

أما السناتور فرانك تشورس الذي انتقد كارتر بسبب العملية ولاتخاذه قراره بدون استشارة مجلس الشيوخ فقد ذكر : « إنه كان من الممكن إقناع كارتر [في حال استشارة مجلس الشيوخ] بعدم القيام بهذه العملية بسبب المجازفة الكبرى الخاصة بعملية من هذا النوع ، وبسبب المضاعفات المتوقعة في حال فشل هذه العملية »[٦١] .

وجاءت استقالة سايروس فانس وزير الخارجية من منصبه في ٢٨/ ٤/ ١٩٨٠ لتوضح ان العملية العسكرية لم تكن حادثاً استثنائياً ، بل انها تعبر عن المنطق العام الذي يسير السياسة الخارجية في الوقت الحاضر ولعدة شهور قادمة — ويعرف البعض هذا المنطق « بمبدأ كارتر » والبعض الآخر بشكل أدق « بمبدأ كارتر الخليجي » ، بينما يسميه الآخرون « مبدأ براون » .

ويعتبر بعض المؤرخين في الولايات المتحدة ، ان المنطلقات الأساسية لهذا المبدأ ليست جديدة بالنسبة للولايات المتحدة ، فالجو السائد في الأوساط السياسية في الأشهر الأخيرة يشبه الجو السائد في الولايات المتحدة في السنوات التي سبقت الحرب الفيتنامية ، وان الفرق الوحيد هو ان الولايات المتحدة لم تبق مثل ما كانت في أوائل الستينات أي متفوقة في المجال النووي ومزدهرة إقتصادياً ، مما يجعل محاولة تطبيق نفس الاستراتيجية في الوقت الحاضر أمراً خطيراً بالنسبة لها(٦٢) .

ومن الواضح ان المبدأ الجديد لم يتخذ بعد شكله النهائي ، فمن الصعب الإعتماد على أقوال وتهديدات الادارة الاميركية ، المتناقضة في بعض الأحيان ، لتحديد الشكل النهائي لهذا المبدأ ، ولكن من الأكيد أن هناك منطلقات نظرية اساسية قد بدأت تحدد جوهر المبدأ الجديد .

وقد كتب محرر مجلة « الدراسات الاستراتيجية » وهو أحد الخبراء العسكريين حول الشرق الأوسط والمساندين لاسرائيل ، « إن مبدأ الرئيس الخاص بالخليج الفارسي هو أكثر من لعبة انتخابية . فالدفاع عن الدول التي تمد الغرب بالنفط هي مسألة أمنية ضرورية » ولكنه أشار في نفس الوقت إلى عدم اتخاذ هذا المبدأ شكله النهائي بسبب عدة تساؤلات لم يجد المخططون أجوبة واضحة لها وهي : « عن من ندافع ؟ » ، « عن ماذا ندافع ؟ » « متى ندافع ؟ » و « كيف ندافع ؟ »(٦٣) .

ولكن الشيء الأكيد هو أن الولايات المتحدة تستمر في تعزيز وجودها العسكري وفي التهديد بامكانية استخدام القوة العسكرية مما دفع احد الأخصائيين بالسياسة العسكرية الأميركية إلى القول « إذا ارسلت القوات الأميركية إلى الشرق الأوسط أو أي منطقة مكثفة بالسلاح ، فقد نجد أنفسنا في مستنقع ، ستبدو الحرب الفيتنامية ، بالقياس معه مجرد نقطة وحل »(٦٤) .

---

(١) « واشنطن تعيد تشكيل استراتيجيتها : خفض أساطيل المتوسط والهادىء لتعزيز التواجد في المحيط الهندي » ، « السفير » ، ١٨ نيسان ١٩٨٠

(٢) «Allies Told U. S May Have to Divert NATO Forces to the Middle East», *The Times*, 15 April, 1980.

(٣) «U. S Drops Swing Strategy for troops», *International Herald Tribune*, 26 May, 1980.

(٤) «After Iran: Next Turn for U. S. Foreign Policy», (Interview With Zbigniew Brzezinski) *U.S News and World Report*, December 31-January 7, 1980.

(٥) *Ibia.*

(٦) Michael T. Klare, «The Brown Doctrine: Have R. D. F. will Travel», *The Nation*, March 8, 1980, pp. 273-266.

(٧) *Ibid.*

(٨) Maxwell Taylor «The Hard Road to World Order: The Legitimate Claims of National Security» *Foreign Affairs*, April, 1974, pp. 577-594.

(٩) Joe Stork, «U. S. Targets Persian Gulf for Intervention», M.'*E. R. I. P Reports*, No 58, Febıuary 1980, pp. 3-4.

(١٠) «A Move for Military Might. U. S: From Cold War to Half Wars», *The Middle East*, August, 1979. pp. 30-32.

(١١) Harold Brown, *Department of Defense Annual Report, Fiscal Year 1980*, (The Defense Department: Washington, 1979), pp. 30-31 as quoted in Michael T. Klare, «LInquietude Des Puissants: Un arsenal très Elaboré», *Le Monde Diplomatique*, Juillet, 1979.

(١٢) Stork. *Op. Cit.*

(١٣) Collins John and Clyde Mark, *Petroleum Imports from the Persian Gulf: Use of U. S Armed Forces to Ensure Supplies*, Issue Brief no IB 7 9046,(Congressional Research Service:The Library of Congress 26-4-79 and up dated 18-9-79).

(١٤) *Oil Fields as Military Objectives: a Feasibility Study»* (The Congressional Research Service: Library of Congress, August, 21, 1975).

(١٥) *Access to Oil - The United States Relationship with Saudi Arabia and Iran* (Staff Study, Senate Committe on Energy and Natural Resources, December 1977) p. 84.

(١٦) Richard Falk. «Iran and American Geopolitics in the Gulf». *Race and Class*, Summer 1979, p. 46.

(١٧) «Carter gives Praise to Shah», *International Herald Tribune*, 1 November, 1978.

(١٨) Collins. *Op. Cit.*

(١٩) «Risks in Gulf Intervention Would be High, U. S. Told», *International Herald Tribune*, 16 July 1979

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) المصدر نفسه .

(٢٣) «Top Carter Aides Propose Increasing Forces in Gulf», *International Herald Tribune*, 29 June 1979.

(٢٤) « واشنطن : صانعو السياسة الخارجية وافقوا على زيادة الوجود العسكري في المحيط الهندي والشرق الأوسط » ، « النهار » ، ٢ تموز ١٩٧٩ .

(٢٥) «U.S Moves to Streng then Positon in Mideast Region», *International Herald Tribune*, 4 August, 1979.

(٢٦) «Text of the President's State of the Union», *The New York Times*, January 24, 1980.

(٢٧) « امتاح مقر القيادة في فلوريدا : قوة التدخل الأميركية أعد تنظيمها ولكنها قد لا تصبح عاملة قبل ١٩٨٥» « النهار » ، ٣ آذار ١٩٨٠

(٢٨) ١٠٠ب Michael. T. Klare «R.D.F. to the Rescue », *Seven Days*, April 1980 pp. 15 - 16.

(٢٩) Richard Halloran «U.S will send Assault Troops to Arabian sea», *New York Times*, 13 February 1980.

(٣٠) Jurek Martin ، «The Tougher Line from Washington», *The Financial Times*, 21 April, 1980.

(٣١) David Buchan. «U.S Charts the Troubled Waters of a new Role in The Gulf, *The Financial Times*, 5 July 1979.

(٣٢) (David E. Long, «U.S Policy Toward the Pesian Gulf», *Current History, February 1979.*

(٣٣). *Ibid*

(٣٤) *Ibid*

(٣٥) أميركا تطور قاعدة دييغو غارسيا وتحرك ١٢ قطعة بحرية إلى المنطقة » ، « النهار » ، ١٠ كانون الثاني ، ١٩٨٠ .

(٣٦) Richard Burt, «Indian Ocean

Lands Reported to agree to U.S use of Bases.», *New York Times*, 12 February 1980.

(٣٧) William Hansen, «The Rapid Deployment Force: America's Big Stick,»*Issues*, April 1980.

(٣٨) James Canan, «A.U.S. Scenario for Fighting a Mideast War», *Business Week*, February 25, 1980 .

(٣٩) «Israel Desert Airfields-Compliments of U.S» *U.S News and World Report*, May 26, 1980 pp. 49 - 50 ·

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٣ «U.S. Sent Patrol aircraft from Egypt to Gulf Area», *International Herald Tribune*, March 11, 1980.

(٤٢) « براون : نستطيع في اسبوعين ارسال الفرقة ٨٢ إلى الخليج ، « **النهار** » ، ٥ آذار ١٩٨٠ .

(٤٤) « واشنطن تصرف النظر عن إقامة قواعد في مصر واسرائيل » ، « **النهار** » ، ١٠ كانـون الأول ، ١٩٨٠ .

(٤٥) «Cairo Airfield Thought to be Mission Base», *The Times.*, 26, April 1980.

(٤٦) «Text of The President....» *Op. Cit.*

(٤٧) « واشنطن تقترح على دول المنطقة إقامة حلف ضد السوفيات يشمل ليبيا والعراق وآخرين » « **النهار** » ، ١٦ كانون الثاني ١٩٨٠ .

(٤٨) « بريجنسكي : يجب عدم الاستهانة بقوتنا . براون : لم نسقط الوسائل الأخرى » « **النهار** » ، ٢٨ نيسان ١٩٨٠ .

(٤٩) «U.S Foreign Policy in the 1980's,» *Monthly Review*, April, 1980 ·

(٥٠) As quoted in Klare, «The Brown Doctrine...» *Op. Cit.*

(٥١) *Ibid*

(٥٢) «We Must not Submit to Blackmail»,(Interview with Henry Kissinger), *U.S News and World Report*, April 16, 1979.

(٥٣) Richard Falk. « The Prospcts of Intervention: Exporting Counterrevolution», *The Nation*, June 9, 1979.

(٥٤) Barry M. Blechman and Stephen S. Kaplan «U.S Military Forces as a Political Instrument» *Political Science Quarterly*, Summer 1979. p 195.

(٥٥) George S. Brown *United States Military Postures for fiscal year 1979* (The Defense Department. Washington.. 1978) p. 17.

(٥٦) James Petras, «U.S Foreign Policy: The Revival of Interventionism», *Monthly Review*, February 1980.

(٥٧) Perlmutter Amos. «An Interventionist Force in the Mideast», *Wall Street Journal* ، 17 March 1980,

(٥٨) William Safire «Iran: On Leaving a Calling card», *International Herald Tribune, 29 April, 1980.*

(٥٩) «The War Powers Act»,*Newsweek*, May 5, 1980.

(٦٠) «The Carter Text»*International Herald Tribune*, April 26-27, 1980.

(٦١) «Congressmen Decry Lack of Cousultation», *International Herald Tribune*, April 26-27, 1980.

(٦٢) Walter La Feber, «The Politics of Deja Va », *The Nation*, March 15, 1980.

(٦٣) Perlmutter. *Op. Cit.*

(٦٤) Klare, «The Brown Doctrine», *Op. Cit.*

د. خيرية قاسمية

نشاطات صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥ - ١٩١٥

مقدّمة

لفلسطين أهمية فريدة في العالم ، بالاضافة الى مكانتها الدينية وموقعها الهام كجسر بين اسيا وافريقيا ، تلاقت على ارضها حضارات عديدة تركت اثارها في بقايا قائمة او مدفونة تحت الارض ، وتناثرت بعض اخبارها في وثائق مكتوبة من كتب العهد القديم ، وأخبار الرحالة والكتّاب والحجّاج سجّلوا ملاحظاتهم الوصفية ومذكّراتهم . ورغم ان هذه الكتابات كانت تفتقر الى روح النقد ووسائل البحث العلمي ، الاّ انها القت ضوءا على احوال البلاد الجغرافية وطبائع سكانها والمواقع الاثرية فيها . وحتى مطلع القرن التاسع عشر ، لم يحدث أي تقدم في الكشف عن الوثائق المتعلّقة بتاريخ فلسطين ، او تفسير النقوش والكتابات ، او فهم الخط العام لتطور الحضارات ، او دراسة الحقائق العلمية الجغرافية ، او التنقيب داخل التلال المتراكمة التي تكمن تحتها المدن والقرى القديمة (١) .

ومنذ بداية العشرينات اصبحت فلسطين حقلا لاهتمام خاص من الدول الاوروبية ، حيث تدفقت اليها الارساليات الاجنبية ، وفتحت فيها المدارس ، وانشئت المطابع ، وبدأ التعرّف على احوال فلسطين الجغرافية وطبوغرافيتها وجمع المعلومات عن اماكنها المقدسة وآثارها . ذلك لأنها احتلت مكانا بارزا في المنافسات الدولية بسبب موقعها الجغرافي ، والتقت عندها مصالح معظم الدول الاوروبية المتداخلة ، وكان الاهتمام الديني جانبا فقط من التطلّعات السياسية والتجارية للدول الاوروبية في شرقي المتوسط ، وبدت فلسطين كما كانت دوما ، صلة الوصل بين اوروبا وثروات الهند والشرق الاقصى ، وأصبحت القدس مركزا لنشاطات القناصل الاوروبيين تماما كما كانت الآستانة مركزا لنشاط السفراء (٢) .

بدايات الاستكشاف في فلسطين

كان الانجليز اسبق من غيرهم في مجال التعرّف على فلسطين ، لأن بريطانيا كان لا يمكنها ان تسمح لأية دولة أخرى بتهديد الطريق الرئيسية للمواصلات بين بلادها وبين ممتلكاتها

الآسيوية ، فكان لها مصلحة تقليدية في الاهتمام بفلسطين ، وتشكلت في لندن عام ١٨٠٤ ، اثر فشل الحملة النابليونية على مصر وفلسطين رابطة فلسطين Palestine Association لجمع ونشر المعلومات عن جغرافية الاراضي المقدسة وسكانها ومناخها وتاريخها ،لكنها لم تقم الا بنشر ترجمة كتاب سيتزن Seetzen يصف فيه المنطقة المجاورة لبحيرة طبريا ونهر الاردن والبحر الميت ، فالوقت لم يكن مناسباً لعمليات الاستكشاف نظراً لخطورة الوضع(٣) . وفي عام ١٨٣٠ تشكلت الجمعية الجغرافية الملكية Royal Grographical Society فكان ان حلّت الجمعية الاولى وقدمت اوراقها واموالها الى الحمعية الجديدة لاستخدامها للاستكشاف الجغرافي ، ولم تعمل الجمعية الجديدة الكثير فيما يتعلق بالاستكشاف في فلسطين لأن اهتماماتها كانت عالمية .

وشهدت الفترة بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ تزايد الاهتمام البريطاني بفلسطين بعد ان وقفت بريطانيا بوضوح لمقاومة دولة محمد علي ، واتخذت دور حامية اليهود في الدولة العثمانية وفي فلسطين بالذات . وكان ذلك وراء انشاء اول قنصلية لها في القدس عام ١٩٣٨ ، وبداية المشاريع البريطانية التي تجمع على ان الاستيطان اليهودي ضروري لتحكم بريطانيا في الشرق (٤)

وفي عام ١٨٣٨ قام القس الاميركي ادوارد روبنسون Robinson بدفع عملية « التعرف على فلسطين » الى مرحلة عملية ، وكان قد عينّ استاذا لادب التوراة في كلية الاتحاد اللاهوتية في نيويورك Union Theological Seminary . وكي يتعرف بنفسه على « أرض التوراة » ، بدأ زيارته لفلسطين عام ١٨٣٨ واتجه من القاهرة بطريق سيناء حتى وصل بير السبع متتبّعاً اشارات التوراة ، (ورافقه في هذه الرحلة دكتور ايلي سميث)(٥) وقد نشر بعد عودته عام ١٨٤١ كتاباً بعنوان « ابحاث توراتية في فلسطين » Biblical Research in Palestine ضمنّه كل المعلومات التي جمعها واستنتاجاته ، فكان احسن عمل علمي نشر حتى الآن ، مع أن مسائل الآثار أو التاريخ الطبيعي أو عادات اهل البلاد لم تثر اهتمامه . ومنحته الجمعية الملكية الجغرافية الميدالية الملكية الذهبية مكافأة له على هذا المجهود . قام عام ١٨٥٢ برحلة أخرى الى فلسطين مضيفاً مادة جديدة وخاصة فيما يتعلّق بالطبوغرافية التوراتية ، ودوّن نتائج اكتشافاته في كتاب آخر عنوانه « ابحاث توراتية جديدة » Later Biblical Researches وكان يأمل في ان يؤلف كتاباً آخر يعالج بشكل منظم جغرافية الأراضي المقدسة الطبيعية والتاريخية ، لكنه توفي عام ١٨٦٠ قبل ان يتم له ذلك(٦) .

وقدم الى فلسطين منذ الاربعينات عدد آخر من المكتشفين والرحالة وكثير منهم من الضباط والمهندسين وجّهوا اهتمامهم الى جغرافية البلاد ، ففي عام ١٨٤١ قام الملازم (ليفتنانت) سيموندس R.E.Symonds من سلاح الهندسة الملكية البريطانية Royal Engineers بمسح المنطقة الممتدة من يافا ـ القدس ـ البحر الميت . وفي عام ١٨٤٧ قام الملازم مولينكس Molyneux (من الاسطول البريطاني) بركوب قارب عبر الاردن من بحيرة طبريا حتى البحر الميت لمسح المنطقة (توفي بلفحة شمس) . وفي عام ١٨٤٨ قام الملازم لنش Lynch (من الاسطول الاميركي) بتتبع خطاه برحلة مسح فيها نهر الاردن والبحر الميت (قاس عمق البحر الميت بواسطة الارتداد الصوتي) وفي عام ١٨٥١ ـ ١٨٥٢ قام الملازم فان دي فيلد Van de Velde (من الاسطول الهولندي) بزيارة فلسطين ، ونشر خريطة ١٨٥٨ كانت اهم عمل في فن

رسم الخرائط (الكارتوغرافية) جرى حتى الآن ، وأرفق بها مجلّدا يحوي ملاحظات هامة [٧] .

جاء فلسطين طبوغرافي فرنسي هو (جورين) V. Guérin عكف بمفرده على صنع خريطة لفلسطين انتهت عام ١٨٦١ ومعها دراسة وصفية في سبعة مجلدات ضخمة تتضمن ملاحظاته . وكان من زوار فلسطين ايضا ستانلي (الذي اصبح مطران وستمنستر) ودوّن نتائج رحلته الاولى في مؤلّف اسمه « سيناء وفلسطين » Sinai and Palestine عام ١٨٥٦ . وفي رحلته الثانية الى الاراضي المقدسة عام ١٨٦٢ ، رافقه ولي عهد الملكة فيكتوريا (اصبح ادوارد السابع) ، وهي اول زيارة يقوم بها أحد أفراد العائلة المالكة البريطانية منذ الحروب الصليبية .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ خط آخر في ميدان الاستكشاف بالاضافة الى الاستكشاف السطحي ، هو التنقيب على الاثار . ففي عام ١٨٥٠ قام (دي سولسي) F. de Saulcy برحلة الى الاراضي المقدسة واعتقد انه عثر على موقع سدوم ، كما لفتت نظره المقابر الصغيرة المحفورة في الصخر شمال القدس والمعروفة باسم قبور الملوك وحصل على تصريح من السلطات العثمانية باجراء التنقيب وعمل حتى ١٨٦٣ حيث وجد عددا من التوابيت الحجرية عليها نقوش (نقلها الى فرنسا)[٨] .

وفي عام ١٨٥٦ قام وليام سميث بجمع قاموس للكتاب المقدس Dictionary of the Bible ضمنه كل المعلومات التي امكن الحصول عليها ليضعها في خدمة دارسي التوراة . كما ان جورج جروف Grove (وكان سكرتير شركة Crystal Palace) جمع المقالات المتعلقة بفلسطين .ساعد ستانلي باعداد كتابه :سيناء وفلسطين .وقد رأى جروف كسلفه روبنسون أنه لابد من زيارة الاراضي المقدسة للتعرف بنفسه على الاماكن التي وردت في المقالات ، واصطحب معه مهندسا معماريا هو فيرجسون Fergussen ، الذي كان مهتما بطبوغرافية القدس (وخاصة كنيسة القيامة وموقع الهيكل) .

وخلال فترة تزايد الاهتمام بالأراضي المقدسة ، تبرعت البارونة بورديت كوتس Burdett-Coutts عام ١٨٦٤ بمبلغ /٥٠٠/ جنيه استرليني لتزويد القدس بالمياه [٩] . وكانت اول خطوة لتحقيق ذلك ، وضع مخطط للقدس والمنطقة المجاورة ، قدمتها الى المدير العام لهيئة المساحة العسكرية البريطانية Ordnance Survey ووقع الاختيار على ضابط من سلاح الهندسة الملكية Royal Engineers هو النقيب تشارلس ويلسون . ورافقه في مهمته فريق من سلاح الهندسة الملكية للقيام بالمسح (ايار ١٨٦٤ ـ ايار ١٨٦٥) وتم رسم مخطط تفصيلي للقدس (بمقياس $\frac{١}{٢٥٠٠}$) مع مخططات تفصيلية لقبة الصخرة وكنيسة القيامة وسواها من الاماكن الهامة في المدينة ، كما مسحت المنطقة المجاورة للقدس (بمقياس رسم $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ وقامت دائرة المساحة البريطانية بنشر المخططات والتقارير والصور مع الملاحظات الدقيقة التي احتوت على معلومات هامة . وكان لعمل الكابتن ويلسون قيمة كبيرة للمهتمين بتاريخ القدس والحجر الاساسي الذي بني عليه كشف فلسطين العلمي . وكانت مع الاعمال السابقة هي الحوافز الخارجية لتشكيل صندوق استكشاف فلسطين كما يقول مؤسسو الصندوق .

انشاء جمعية صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥

شعر بعض المهتمين بموضوع فلسطين بعد نجاح هذه العملية ، ان الوقت قد حان للقيام بعمل اكثر تنظيما بخطوات محددة لانشاء جمعية للاستكشاف العلمي لفلسطين . وأيّد ستانلي مطران وستمنستر جهود (جورج جروف) . وفي ١٢ أيار ١٨٦٥ عقد اجتماع في قاعة القدس Jerusalem Chamber في وستمنستر برئاسة رئيس اساقفة يورك (وليام تومسون) ، حضره المهتمون بأغراض الجمعية المقترحة وجميعهم من كبار رجال الدين أو اعضاء البرلمان او الدوقات او اللوردات(١٠) ، واتخذ القرار بتشكيل رابطة باسم « صندوق استكشاف فلسطين » Palestine Exploration Fund بغرض الكشف عن آثار فلسطين وجغرافيتها وجيولوجيتها وتاريخها الطبيعي . وقد عينّ (جروف) Grove سكرتيرا فخريا للجنة الصندوق ، وعهد الى لجنة فرعية فيها رئيس اساقفة يورك ومطران وستمنستر ، بمهمة وضع بيان يوضع اهداف الجمعية ويدعو الجمهور الى المساهمة المادية لانجاز هذه الاهداف . وفي ٢٢ حزيران ١٨٦٥ عقد اجتماع عام في وستمنستر في Willis's Room برئاسة رئيس اساقفة يورك ، تم فيه تشكيل الجمعية رسميا . وتقدّم رئيس الاساقفة بثلاثة مبادىء محددة يقوم عليها عمل الجمعية وهي : **اولاً** : كل عمل تقوم به الجمعية يجب ان يكون على اسس علمية . **ثانياً** : ان تمتنع الجمعية كهيئة عن الدخول في اي جدل . **ثالثاً** : ان لا تبدأ كجمعية دينية ولا تمارس عملها على هذا الاساس (١١) .

وفيما يتعلق بالهدف الاول ، فكان غرضه ـ من وجهة نظر مؤسسي الصندوق ـ التأكيد على ان تقبل نتائج التحريات والاستكشاف من العالم كما تقبل الحقائق الناتجة من مخبر للعلوم الطبيعية (١٢) . اما الهدف الثاني ، فغرضه ان تقدم الجمعية الحقائق المكتشفة نفسها دون اية استنتاجات(١٣) . اما الهدف الثالث ، فهو ـ كما يقول مؤسس الصندوق ـ لضمان استقلال الجمعية بمنعها من الارتباط بأية عقيدة أو هيئة دينية أو كنسية . والجمعية تطلب اسهام جميع الاشخاص المهتمين بتاريخ بلد يتصل اتصالاً وثيقاً بالديانات الثلاثة ، وللمساعدة على فهم التوراة بشكل أفضل على ان لا تعالج مسألة العقائد الدينية في منشورات الجمعية .

وفي الاجتماع الاول تحدث البعض عن الاعمال المرتقبة فأشار (ليارد) A. Layard (وكان قد انتهى حديثا من حفريات نينوي) عما يمكن ان تلقيه الحفريات في « تلال » الارض المقدسة ، من أضواء على تاريخ وفنون « الامة اليهودية » . كما اشار مارشيسون R. Murchison رئيس الجمعية الملكية الجغرافية الى ضرورة العمل على مسح جغرافي جيولوجي لفلسطين تمهيدا للكشف العلمي للبلاد .

ووضعت اللجنة الفرعية بيانا تمهيديا (١٤) ، اوضحت فيه بتفصيل أهداف الجمعية ، فأكدت اولاً على اهمية البلد الذي يحوي وثائق العقيدة الدينية ، والحاجة الملحّة الى توضيح اشارات وحوادث التوراة لتصبح في مادتها كتابا جديدا بعد ان ظلّت غامضة في كثير من نواحيها ، وضرورة الكشف عن وجه هذا البلد ومناخه ومنتوجاته وعاداته وملابسه وانماط حياته (والتي تختلف في نواحيه المادية عن العالم الغربي) ، وانه بدون المعرفة الدقيقة تظل الوثائق الدينية غامضة . ويمكن الحصول على ذلك بخريطة دقيقة للبلاد والتعرف على الطبوغرافية والكشف عن بقايا الآثار المدفونة ، اي العمل بشكل منظم لما ظل مهملا في السابق او تم بطريقة

مبعثرة وجهود شخصية متفرقة . « ولو بذل في ميدان استكشاف فلسطين نفس الحماس والجهد والمعرفة التي بذلت في قرطاجة وسيرينا ، وهي اماكن ليس لها ارتباطات مقدسة ، فان النتيجة ستكون كسبا لمعرفة هذه البلاد وتعاقب ساكنها » .

وأشار البيان الى ان الفرصة قد حانت لمثل هذا البحث العلمي بعد الزيارة التي قام بها امير ويلز الى جامع الخليل « وكسر الحاجز الذي اعاق لقرون دخول المسيحيين الى اكثر اماكن فلسطين قداسة » ، وان ما تم عمله باشراف ويلسون يدل على ما يمكن تحقيقه بالمرونة واللباقة ودون اثارة معارضة السكان والسلطات . ويقترح البيان جمع الاموال لتوظيف اشخاص اكفاء للقيام بالمهام التالية :

الآثار : وتقدم القدس حقلاً خصباً في هذا المجال ، اذ أن ما هو قائم فوق سطح الارض سوف يعرض بدقة بعد انتهاء عملية المسح التي يقوم بها ويسلون ، الا ان ما هو تحت سطح الارض لم يكتشف بعد . وستقدم الاعماق التي تقوم عليها المدينة مادة هامة ومفيدة لعالم الآثار وعالم النقود . وكذلك فان البلاد الواقعة وراء المدينة المقدسة مليئة بالمواقع التي لا تقل أهمية بوفرتها وحاجتها للكشف .

العادات والتقاليد : هناك حاجة ملحة لعمل كتاب عن الاراضي المقدسة شبيه بكتاب « لين » عن مصر الحديثة ، يصف بطريقة منظمة ومفصلة عادات السكان وتقاليدهم وطقوسهم ولغتهم ، لتوضيح جملة العادات القديمة التي يتميز بها سكان فلسطين قبل ان تختفي امام موجة العادات الغربية المتزايدة . « وتزول بذلك المعاني الدقيقة لكثير من الاشياء المتطابقة مع التوراة » . ومع انه قد وردت في كتب الرحالة اشارات لذلك الا انها ليست دقيقة ولا منظمة .

الطبوغرافيا : اذ لا يوجد سوى خريطة واحدة لخط الساحل الفلسطيني (خريطة الامبريالية التي تمت مؤخرا) والمطلوب مسح المناطق بدقة مماثلة لما تم عمله ، تحدد فيها المواقع الصغيرة ، ومستويات الاماكن بصورة دقيقة (قامت الجمعية الجغرافية الملكية حتى الآن بتحديد ارتفاع منطقة القدس وارتفاع البحر الميت) ، وكذلك معرفة مسارات الطرق القديمة ومدى مطابقتها للطرق الحديثة ، نظرا لما لها من اهمية بالغة في دراسة التاريخ وفهم الاسس الحديثة التي رسمت عليها حدود الولايات وخط الحدود بين القبائل وتوزيع القرى .

الجيولوجيا : وهذه مسألة مجهولة تماما . فوادي الاردن وحوض البحر الميت ، هما اكثر المناطق الجيولوجية اهمية على سطح الارض ، بالاضافة الى اهمية تفسير حوادث التوراة بمعرفة التغيرات البركانية التي حدثت حول هذه المنطقة خلال العصور التاريخية .

فروع العلوم الطبيعية : علم النبات والحيوان والظواهر الجوية وهي فروع غير معروفة بدقة . بينما اظهرت تحريات العلماء مؤخرا انه يمكن للبحوث العلمية ان تقدم نتائج قيمة . ويتساءل البيان « لماذا يكرس علماء الطبيعة جهدهم وقدراتهم لدراسة غابات اميركا الجنوبية وانهار افريقية ، ولا يكرسونه لدراسة زنابق وأرز وثعالب وغربان الاراضي المقدسة ؟ » .

وتؤكد اللجنة في بيانها أن هذا لا يعني اطلاقا ان القضايا المشار اليها لم يجر بحثها أو

الكشف عنها ، ولكن الملاحظ ان اعمال الرحالة والعلماء السابقين ، مع تقدير قيمة ما أنجزوه ، كانت مبعثرة وجزئية ، والنتائج التي توصلوا اليها كانت تتناقض مع بعضها في كثير من الاحيان . لذا ، تقترح اللجنة ارسال بعثة من اشخاص اكفاء بجميع فروع البحث يتمتعون بتفويض كامل من حيث المال والوقت وكل التسهيلات الممكنة ، لوضع تقرير شامل عن فلسطين يقبله الجميع كوثيقة معتمدة ، وسيجري استبقاء كابتن ويلسون في فلسطين عدة اشهر اخرى بعد انجازه عملية مسح القدس ودراسة مستوى البحر المتوسط والبحر الميت ، كما سيجري العمل على توظيف اكفاء آخرين للقيام بالمهام الاخرى .

ادارة جمعية صندوق استكشاف فلسطين

اعلن في الاجتماع الاول عن موافقة الملكة على ان تكون راعية للجمعية (تبرعت بمائة وخمسين جنيها [١٥]) ، وساهمت جامعة اكسفورد (٥٠٠) ، وكمبردج (٢٥٠) ، والرابطة البريطانية (١٥٠) ، ولجنة تحسين سوريا Syria Improvement Committee (٢٥٠) ، والمحفل الماسوني الاكبر (١٥٠) ، وعدد كبير من الافراد (خلال سنوات ثلاثة جمع نحو ٨٠٠٠ استرليني بعضها اكتتاب وكثير منها تبرعات وبلغ مجموع الواردات حتى ١٩١٥ ، ١٣٨٦٥٠ جنيها ، والنفقات ١٣٨٦٥٠ جنيها [١٦] . وكان مؤسسو الجمعية يأملون بانجاز الاهداف خلال سنوات ، ولم يدركوا ضخامة المهمة التي اضطلعوا بها ، لذا أخذت الجمعية فيما بعد تعتمد على الاكتتاب السنوي وليس على التبرعات . كما سعت لضم اعضاء جدد وتوسيع التعريف بأعمال الجمعية . وكانت قائمة المكتتبين تتغير باستمرار ، وكثير منهم كان يرسل المعونة اثناء سير عمليات الاستكشاف فقط . وبلغ عدد اعضاء الجمعية لدى تأسيسها ، ٤٥ عضوا من المهتمين بالكشف عن فلسطين . واصبح عام ١٩١٥ (١٠٥) اعضاء (لم يبق من الاعضاء المؤسسين سوى موريسون ، امين الصندوق) . وتولّى رئاسة الجمعية عند تأسيسها ، رئيس اساقفة يورك الذي ظل يحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته عام ١٨٩٠ ، حيث خلف في هذا المنصب رؤساء اساقفة كنتربري . ومنذ عام ١٨٧٥ ، تقرر تعيين لجنة تنفيذية صغيرة لمدة سنة تجري اعادة تعيينها في الاجتماع السنوي ، وتعقد اجتماعين في الشهر . وكان اول رئيس للجنة التنفيذية هو رئيس اساقفة يورك .

وكانت الجمعية في عام ١٨٦٦ تشغل غرفة في الجمعية الآسوية الملكية Royal Asiatic Society . ثم شغلت ابنية مختلفة حتى تبرع موريسون عام ١٩١٠ بمقر دائم في 2, Hinde Str. Manchester Square كان يحوي الكتب والادوات والخرائط ونماذج وعينات من الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي ، ومجموعات من الآثار الفلسطينية تشكل متحفا فلسطينياً صغيرا ، كان مفتوحاً للمساهمين وللجمهور .

واتسع نطاق الجمعية فأصبح لها ٤٦ فرعا في مختلف انحاء بريطانيا ، لتوسيع الاهتمام بعمل صندوق الاستكشاف وتنظيم لقاءات وترتيب المحاضرات وجمع التبرعات ، كما امتدت الفروع الى بلاد الدومنيون البريطاني والولايات المتحدة الاميركية وفلسطين [١٧] . وخلال السنوات الاولى لنشاط الجمعية ، كانت الرسائل والتقارير تطبع وترسل الى المتبرعين المهتمين بمجريات العمل . وفي عام ١٨٦٩ تقرر طبع الرسائل والتقارير والبحوث في مجلة دورية Quarterly Statement وارسالها مجانا ، واصبحت ناطقة باسم الصندوق ومعترفاً بها في

ميدان البحث الفلسطيني بما تحويه من موضوعات تتعلق بالاراضي المقدسة (١٨) .

عمليات صندوق الاستكشاف

أ - الاستطلاع الاولي في فلسطين ١٨٦٥ - ١٨٦٦: (١٩)

طلبت لجنة صندوق الاستكشاف من الكابتن ويلسون الشروع بالعمل الذي اقترحته في بيانها التمهيدي ، بالقيام بمسح اولي يمكّن اللجنة من اختيار الاماكن المناسبة لاعمال الاستكشاف في المستقبل ، وكذلك الحصول على معلومات محددة تلقي ضوءا على الموضوعات التي أشير اليها في البيان التمهيدي .

رافق ويلسون الملازم (لفتاننت) اندرسون Anderson ، وفريق من سلاح الهندسة الملكية،ونزلت البعثة بيروت في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٦٥ ، ثم اتجهت شرقا عبر جبال لبنان وبعلبك ودمشق ، حيث قامت برسم الخرائط وأخذ صور الآثار الهامة ، وسمحت السلطات العثمانية لويلسون بعمل مخطط دقيق لجامع بني امية (كان قد عمل مثيلا له للحرم الشريف) وتقدمت البعثة الى بانياس قرب منابع الاردن حيث بدأت عملية مسح فلسطين في كانون الثاني ١٨٦٦ بالتعرف على المواقع والآثار الهامة وتسجيل الملاحظات الفلكية والظواهر الجوية والطبوغرافية . وتعذّر تحري شاطىء بحيرة طبريا الشرقي بسبب الاوضاع المضطربة بين القبائل ، كما رفض قائمقام طبريا منح البعثة الحماية المناسبة . وتقدمت البعثة عبر تلال الناصرة للتعرف على سهل مرج ابن عامر (يزرعيل) ثم اتجهت نحو نابلس (وقدم القائمقام العثماني حراسة مسلحة أثناء قيام اندرسون ببعض الحفريات في آثار كنيسة بيزنطية في جبل جرزيم) ، وأنهت البعثة عملها في القدس في نيسان ١٨٦٦ .

وقد عرض رئيس اساقفة يورك نتائج عملية المسح التي قام بها ويلسون في بيان عن تقدم العمل Statement of Progress سجّل فيه اهم المعلومات التي امكن للمكتشفين الحصول عليها :

الطبوغرافية : اخذت ملاحظات دقيقة عن التوقيت وخطوط العرض في ٤٩ موقعا بين بيروت والخليل ، وحدد خط السمت من بانياس حتى القدس ، وعلى اساس ذلك تم عمل مجموعة من الخرائط بمقياس رسم (بوصة للميل الواحد) للجزء الاساسي من البلاد بما فيها بحيرة طبريا والجداول المنحدرة الى شاطئها الغربي .

الآثار: تم عمل خمسين مخططا مع رسوم تفصيلية للكنائس والكنس والمساجد والمعابد والقبور ، « وقدمت السلطات التركية في الاستانة وسوريا والقدس كل مساعدة ممكنة ، كما أبدى العرب موقفا وديا » (٢٠) .

أوضحت اللجنة في تقريرها الاسباب التي تدفع القيام بمسح كامل ودقيق لفلسطين ، والبحث العلمي في الآثار « الوثيقة الصلة بالتاريخ التوراتي » . وأشار التقرير الى أنه ما يزال الكثير لانجازه في طبوغرافية المنطقة بين القدس والاردن ، وخاصة شبكة الوديان المنحدرة نحو أريحا التي«عبرتها تحركات شعب اسرائيل»، لذا فوادي الاردن وحوض البحر الميت يحتاجان

الى توضيح يشبه ما قدمته الخريطة الطبوغرافية الحالية بشأن وسط فلسطين ، وكذلك فان المنطقة الواقعة شرقي الاردن تحتاج الى قدر مشابه من الملاحظة العلمية ، ويمكن عندها اعتبار عملية مسح فلسطين قد تمت .

ومع تقدير اللجنة أهمية الابحاث الطبوغرافية والاثرية ، الآ انه لم يكن في نيتها اهمال التحريات العلمية التي وضعها البيان التمهيدي ، لذا ، وبعد الاخذ بعين الاعتبار عملية الاستطلاع الاولى التي قام بها ويلسون ، تقترح اللجنة توجيه جهودها نحو الاهداف التالية :

١ ـ مسح فلسطين الغربية بمقياس رسم يكفي لتوضيح الصفات الجغرافية والطبوغرافية والمدن والقرى « والتلال » (أي : مواقع المدن المدفونة) والبقايا الاثرية .

٢ ـ مسح مشابه للمنطقة شرقي الاردن .

٣ ـ القيام بتحريات في القدس لدراسة تاريخ المدينة القديمة الكامنة الآن تحت تراكم القرون .

٤ ـ الكشف والتنقيب في التلال والروابي المبعثرة بأعداد كبيرة في انحاء البلاد ، حيث تحوي كل منها تاريخ مدينة مدفونة .

٥ ـ التحري في فلسطين عن الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي والظواهر الجوية بأسلوب دقيق وعلمي .

ب ـ الاستكشافات في القدس ١٨٦٧ ـ ١٨٧٠ :

أجلت لجنة الصندوق عملية المسح الدقيق للبلاد ، ووجهت بعثتها الثانية نحو المدينة المقدسة « نظرا لأن عددا كبيرا من المتبرعين للصندوق كانوا يعنون بصفة خاصة بأمور مرتبطة بالقدس [٢١] » . وكانت التوجيهات التي اعطيت الى البعثة ، هي ضرورة التوصل الى جواب لبعض المسائل المثيرة للجدل وأهمها [٢٢] :

١ ـ تحديد موقع هيكل اليهود (الذي بناه سليمان وهدمه تيتوس) .

٢ ـ تحديد سنة انشاء قبة الصخرة المشرفة (التي تسمى خطأ مسجد عمر) .

٣ ـ تحديد موقع كنيسة القيامة (هل تقوم على موقع الكنيسة التي انشأها الامبراطور قسطنطينين في القرن الرابع) .

٤ ـ تتبع جدران القدس الثلاثة التي وصفها المؤرخ اليهودي يوسيفوس .

٥ ـ تحديد ابواب المدينة القديمة المشار اليها في التوراة وفي كتابات يوسيفوس .

٦ ـ تحديد اماكن اخرى هامة مواقعها الحقيقية غير مؤكدة كمدينة داود وقبرهيرود ، وكانت النظريات المختلفة بشأن هذه القضايا مبنية على آراء المؤلفين الشخصية وعلى اشارات طبوغرافية مبعثرة في التوراة ، وفي وصف يوسيفوس والكتّاب المسيحيين الاوائل ، والحجاج المسيحيين . واعتمدوا على الروايات وكثير منها خاطىء ، ولا بد للتعرف على الحقيقة ـ كما تقول

التعليمات التي وجهتها لجنة الصندوق – من معرفة ما هو موجود في باطن الارض وكشف بقايا الابنية القديمة ، ولو امكن اعادة تركيب مخطط البناء كما كان قبل تهديم تيتوس .

وتقدمت لجنة الصندوق عام ١٨٦٧ بطلب الى وزارة الحربية للاستفادة من خدمات الملازم (لفتينانت) تشارلس وارين Warren وهو ضابط في سلاح الهندسة الملكية ، وبمساعي السفير البريطاني في الآستانة بعثت الحكومة العثمانية الى السلطات العثمانية في القدس لتقديم التسهيلات المناسبة الى الاستكشاف . ووصل وارين على رأس فريق من سلاح الهندسة الملكية الى فلسطين في شباط عام ١٨٦٧ واستمر العمل حتى عام ١٨٧٠ .

ونظرا لأن بعض القضايا الهامة التي حددت في مهام البعثة كانت في اماكن قريبة من الحرم الشريف (٢٣) ، كان من الصعب على البعثة القيام بتحرياتها في هذه المنطقة . وتقرر بدء العمليات بتفحص الجدران الخارجية . واثبتت التحريات الاولى ان الجدران الخارجية اضخم من منظرها الخارجي لاختفائها وراء بعض الابنية وتراكمات الاتربة . ووجد أن الطريقة الوحيدة للوصول الى الاساس هي حفر الانفاق والممرات تحت الارض كما يجري في المناجم (٢٤) وللتغلب على اعتراضات السلطات المحلية للاستكشاف قرب منطقة الحرم ، احتال وارين بحفر الانفاق على مسافة بعيدة خارج الجدران ، ثم دفع الممرات تحت الارض نحو الجدار . وقد تمّ فحص الجدار من عدة نقاط وتبين أنه اكثر ارتفاعا مما كان متوقعا ، خاصة عند الزاوية الشمالية الشرقية . كما حفر عدداً من الانفاق على طول وادي Tyropoeon ملاصقا لقوس « روبنسون » ، الذي هو بداية طريق معبد ضخم يمتد من الحائط الغربي لمنطقة الحرم الشريف ملاصقا لزاويته الجنوبية . واكتشف وارين قناة محفورة في قعر الوادي (بعمق ١٢ قدما وعرض ٤ أقدام) كانت تستخدم لجلب المياه الى المدينة السفلى . وقام بفحص البركة المعروفة ببركة سلوان (ويعتبرها موقع مدينة داود) .

ولم يستطع وارين القيام باستكشاف على طول جدار الحرم الداخلي كما فعل في الجدار الخارجي . لكنه اجرى فحصا دقيقا لقبة الصخرة ، ولكثير من الخزانات المحفورة في الصخر لخزن المياه ضمن منطقة الحرم ، كما قام بالعمل في اجزاء أخرى من القدس مضيفا الى المعلومات التي حصل عليها ويلسون فيما يتعلق بالجدران والابواب واقنية جر المياه الى المدينة .

ونشر وارين بعد عودته مجلدا بعنوان « احياء القدس » Recovery of Jerusalem قدم فيه خلاصة لاستكشافاته . وبعد سنوات نشر مؤلفا آخر عنوانه « القدس الدفينة » Underground Jerusalem واهم الكتب التي عالجت حفريات وارين ، هو مجلد القدس في المجموعة المسماة : مذكرات عملية مسح فلسطين الغربية Memoirs of the Survey of Western Palestine الذي نشرته لجنة الصندوق عام ١٨٨٤ ، وارفق بأطلس فيه ٥٠ لوحة ضخمة هي نسخة طبق الاصل لمخططات رسمها وارين . وتفيد دراسة هذا المجلد في فهم تاريخ القدس القديمة ومعرفة التغيرات التي حدثت في المدينة منذ العصور القديمة .

ورأت اللجنة ان كشوف وارين لم تحل النقاط مثار الجدل (٢٥) ، لأنه ليس من المعقول حلّ مشاكل طبوغرافية القدس المعقدة بسبر عدد من الاماكن المتفرقة داخل المدينة وحولها ، الا

انها ـ في نظر اللجنة ـ قد اظهرت مدى الكنوز التي ما تزال مختبئة داخل المدينة وحولها ، بانتظار قدوم بعثة اخرى [٢٦] .

وخلال السنوات التي عمل فيها وارين في القدس ، قام بالتعرف على انحاء اخرى من فلسطين . فقام برحلة الى غزة وعسقلان ومدن كثيرة على ساحل فلسطين الجنوبي ، مسح فيها ٨٠٠ ميل مربع ، كما سافر الى وادي الاردن وشرقي الاردن ولبنان وجمع معلومات هامة من الآثار القديمة للمدن والمعابد ، وأقرت اللجنة ان نتائج بعثته تشكل قاعدة اساسية لدراسة القدس القديمة « وان جميع المهتمين بتاريخ التوراة يدينون بالامتنان للطريقة الدقيقة التي قام بها وارين في استكشافه [٢٧] » .

جـ ـ بعثة الى صحراء سيناء ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣ :[٢٨]

بعد انتهاء مهمة وارين ، توقف صندوق الاستكشاف لمدة ٢٠ عاماً تقريباً عن القيام بعمليات تنقيب على مقياس واسع ، وتوجهت اهتماماته الى مهام اخرى .

ونفذت العملية التالية (التي لم يموّلها الصندوق وان كانت من ضمن اهدافه) في المنطقة الصحراوية التي تفصل جنوب فلسطين عن مصر « لمعرفة الطريق الذي سلكه النبي موسى مع بني اسرائيل عند هجرتهم من مصر الى فلسطين وتلقى الشريعة عند جبل موسى » . وقد تقدم بتلر P. Butler رئيس كلية (ألكوم) Ulcome في (كنت) باقتراح لجمع مال يخصص للقيام بعملية مسح سيناء لتحديد نقاط الخلاف التي تتعلق بتاريخ التوراة [٢٩] . وعيّن لامانة صندوق مسح سيناء ميرشيسون R. Murchison رئيس الجمعية الملكية الجغرافية ، وهنري جيمس مدير عام المساحة العسكرية Ordnance Survey. واختير الكابتن ويلسون للقيام بالمهمة الفعلية (بعد عودته من فلسطين) يساعده الكابتن بالمر E. Palmer وهولاند F.W. Holland (السكرتير الفخري لصندوق الاستكشاف) ، وكان بالمر عالما في المشرقيات وفي الطبيعة ، كما استعين بفريق ضباط من سلاح الهندسة الملكية من ساوثامبتون .

وبدأت العملية من السويس في تشرين الاول عام ١٨٦٨ وانتهت في نيسان التالي ، وتمّ مسح دقيق (بمقياس بوصة واحدة للميل الواحد) للمنطقة التي يفترض ان بني اسرائيل قد اجتازوها بعد عبور البحر الاحمر الى المنطقة التي تلقى فيها موسى الشريعة (نحو ٤٠٠ ميل مربع) . وتوصل ويلسون ورفاقه الى ان جبل موسى وليس صربال ، هو المذكور في التوراة . ونشرت دائرة المساحة العسكرية عملية المسح كاملة ، كما قدمت الى صندوق استكشاف فلسطين خلاصة عن العمل بعنوان استكشافات في شبه جزيرة سيناء Explorations in the Peninsula of Sinai ضمنت في مجلد احياء القدس The Recovery of Jerusalem الذي نشر عام ١٨٧٠ اقتصر عمل فريق ويلسون على المنطقة المحيطة لجبل سيناء ولم تشمل تحرياته المنطقة التي تقع الى الشمال الشرقي والتي سار خلالها موسى مع بني اسرائيل بعد تلقي الشريعة (وهي المعروفة بصحراء التيه) .

وقد رأت لجنة الصندوق نظرا لأهمية هذه الصحراء « لدارسي تاريخ التوراة » ارسال بعثة برئاسة بالمر Palmer احد مساعدي ويلسون ، « خاصة وان معرفته بالعربية تؤهله للقيام بالمهمة ، لأن الطريق الذي سيسلكه ، يقع داخل صحراء مجهولة يقطنها بدو رحّل لا ينظرون بودّ

الى الرحالة الاوروبيين » (٣٠). وقد اتجه الفريق من السويس عبر طريق وادي « الغرندل » حتى وصل جبل سيناء ، ثم توقف ثانية عند « نخل » على طريق الحج من السويس الى العقبة . وبعد اجتياز عدة اودية مهجورة وصل وادي « قادس » ـ ربما تكون قادش برنيا المذكورة في التوراة بأنها بداية سنوات التيه ـ والى شمال الوادي يقع النقب ، أي جنوب الاراضي المقدسة « والتي أقام بها ابراهيم واسحق مؤقتا » ، ومنها يمر طريق شور Shur ، « وقد يكون الطريق الذي سلكه يعقوب واتباعه » . وقد وجد بالمر في هذه المنطقة عددا من القلاع والكنائس وبقايا خزانات وأقنية ري ، وتفحص عددا من آثار المدن على الطريق الى بير السبع في جنوب فلسطين ومنها الخلصة Khalasa. وذهب في رحلة الى عربة وجبل حور وزار آثار البتراء ثم عاد الى القدس بطريق ديبان Diban (في مؤاب) فأريحا .

وفي القدس اجرى دراسة لتاريخ الحرم الشريف كما يراه المؤرخون العرب (٣١) . وقد نشرت تقارير بالمر عن كشوفه في صحراء التيه في دورية الصندوق عام ١٨٧٠ . كما نشرت بشكل موسع في مجلدين عام ١٨٧١ عنوانهما صحراء الخروج The Desert of the Exodus. وفي نظر اللجنة ، اظهرت المعلومات التي جمعها الحاجة الى مسح هذه المنطقة بطريقة اوسع ، إلا ان الظروف حالت دون القيام بذلك حتى ١٩١٣ (٣٢)

د ـ مسح « فلسطين الغربية » ١٨٧١ ـ ١٨٧٧ :

قررت لجنة الصندوق بعد عملية (وارين) في القدس ، القيام بمسح دقيق لفلسطين الغربية (اي : المنطقة الممتدة من البحر المتوسط غربا الى نهر الاردن شرقا) تكون منطلقا لاعمال اخرى من اعمال اللجنة ، وتوجهت بنداء خاص الى الجمهور في حزيران (٣٣) عام ١٨٧١ ، اوضحت فيه الاهداف المرتقبة والاسلوب المقترح للعمل . فعملية مسح فلسطين كما يوضح النداء تبدو الهدف الرئيسي في الوقت الراهن ، نظرا لأن الخرائط المتوفرة لفلسطين ليست دقيقة او كاملة وتحوي كثيرا من الاخطاء (عدا تلك التي وضعها لنش Lynch وفان دي فيلد Van de Velde وويلسون واندرسن ووارين ، والمسح الذي قامت به الاميرالية للخط الساحلي) ، كما ان كثيرا من مواقع التوراة ومواقع الاودية والجبال لم تحدد بعد ولم تثبت خطوط العرض والطول . واستحث النداء اسهام « كل من يرى في التوراة الكتاب المقدس الجدير بالدراسة » ، لأن هدف الخطة الاساسي هو اتاحة الفهم الصحيح للكتاب المقدس وكشف مدى صحته وامانته . وقد اشار النداء الى ان عملية مسح فلسطين تقسم الى قسمين : شرقي الاردن وغربيه ، وستتولى جمعية اميركية مستقلة الجانب الشرقي بينما تتولى اللجنة الانكليزية (اي : الصندوق) المنطقة الغربية تحت إمرة ضباط من سلاح الهندسة الملكية ، ويقدر ان يستغرق العمل عدة سنوات على ان يبقى المساهمون بالصندوق على اطّلاع بسير العمل من خلال الدورية .

اما القضايا التي سيتوجه اليها عمل الفريق فهي : وضع خريطة بمقياس رسم « بوصة واحدة لكل ميل » ـ وضع مخططات بمقياس اكبر للمدن الاثرية والمواقع الهامة ـ عمل رسوم ومخططات اكثر تفصيلا للمباني والقبور ـ اجراء حفريات في الاماكن الهامة ـ جمع اسماء المواقع القديمة و« الخرائب » والقرى ـ التقاط الصور ـ جمع العينات الجيولوجية والآثار ـ

جمع العينات الحيوانية والنباتية ـ عمل رسومات مجسمة وتصوير الاشياء والكتابات الاثرية والنقوش ، الى غير ذلك .

وبعد جمع المال اللازم [٣٤] ، تقدمت لجنة الصندوق بطلب لوزارة الحربية للاستعانة بخدمات ضباط من سلاح الهندسة الملكية يتولى مسؤولية البعثة ، ووقع الاختيار على النقيب (كابتن) ستوارت R. W. Stewart مع بعض المساعدين. ونزل فريق العمل[٣٥] يافا في تشرين الثاني عام ١٨٧١ ، وبدأ باختيار نقاط ملائمة تشكل اساس المسح الطبوغرافي ، وبعد اصابة ستوارت بالحمى عاد الى انكلترا واستدعي دريك T. Drake من دمشق (وكان قد رافق بالمر في بعثة صحراء سيناء) للانضمام الى فريق المسح بصفته خبيرا بالعربية ومترجما وعالما في الآثار والطبيعة . وظل مسؤولا عن عملية المسح حتى تموز عام ١٨٧٢ الى ان جاء الملازم (لفتنانت) كلود كوندر C. Conder من سلاح الهندسة ليرئس البعثة . وجرت دراسة دقيقة لكل ما له قيمة اثرية وثبتت مواقع التلال التي تغطي مدنا قديمة ، وملئت التفاصيل الطبوغرافية ، وجرى التأكد من الاسماء المحلية الحديثة ، وارسلت تقارير كاملة نشرت في دورية الصندوق لاطلاع المتبرعين على سير العمل قبل نشر المذكرات عند انتهاء عملية المسح [٣٦] .

وبسبب نقص التمويل استغرق العمل فترة اطول مما كان متوقعا ، وحتى نهاية عام ١٨٧٢ ، كان قد تم مسح ١٢٥٠ ميلا مربعا شمل مساحة بين الساحل وخط شمال جنوب من الناصرة حتى القدس . وفي خريف عام ١٨٧٣ تحرك الباحثون الى وادي الاردن لبدء العمل . وبسبب اصابة كوندر ودريك بالحمى قرب أريحا ، توقف العمل حتى شباط عام ١٨٧٤ حيث استؤنف على طول وادي الاردن وحتى بحيرة طبريا . وفي أيار قدم كوندر تقريرا عن العمل في الاجتماع السنوي للجمعية . واثناء غيابه توفي دريك في القدس وحلّ مكانه الملازم (لفتنانت) كيتشنر H.H. Kitchener كمسؤول ثان في قيادة فريق المسح (وكان ضابطا صغيرا في سلاح الهندسة ـ التلغراف الميداني) [٣٧] . وحتى حزيران عام ١٨٧٥ كان قد تم مسح ٤٤٠ ميلا مربعا .

وتقدمت عمليات المسح الى الشمال ، حيث جرت مشادة عنيفة بين افراد البعثة وجماعة من اهالي صفد اسفرت عن اصابة كوندر وكيتشنر [٣٨] ورفع تقرير الى وزارة الخارجية عن طريق القنصل العام في بيروت (كما رفع تقرير تفصيلي الى سلاح الهندسة الملكية) . وتقرر وقف العمل الى ان تتم محاكمة المتهمين ومعاقبتهم . وعقدت المحاكمة في عكا حضرها كوندر وكتشنر كشاهدين ، وسجن المتسببون بالحادث وفرض على اهل صفد ١٥٠ جنيها [٣٩] . وخلال الاجراءات المتعلقة بالحادث ، عكف فريق العمل على اعداد المواد في قاعة ألبرت الملكية ، وتولى ويلسون وجروف تحرير المذكرات ، كما ساعد اندرسون في تحرير الخريطة التي تقرر نشرها في ٢٦ لوحة بمقياس رسم « بوصة للميل الواحد » ، مع نسخة ثانية بمقياس اصغر للرحالة ودارسي التوراة .

وبما أن قسماً كبيراً من الجليل وقسماً صغيراً من الجنوب لم يتم مسحهما بعد (أي : نحو ١٢٠٠ ميل مربع) أعطيت ادارة العملية الى كتشنر (لانهماك كوندر بعملية الاعداد للنشر) ، ووصل الفريق الى صفد في نيسان عام ١٨٧٧ [٤٠] . واندفعت عملية المسح في الجليل بسرعة (في فترة اشتد فيها القلق بسبب الحرب الروسية العثمانية) . وفي ١٠ تموز كان قد تم

مسح ١٠٠٠ ميل مربع ووضعت المخططات ووصفت القرى والمواقع الاثرية وطبيعة البلاد . ثم ذهب كتشنر مع بعثة صفر الى الجنوب وتمّ مسح ٣٤٠ ميلاً من الصحراء حول بئر السبع وانتهى العمل في ايلول عام ١٨٧٧ (٤١) .

وفي كانون الثاني عام ١٨٧٨ ، انضم كتشنر الى كوندر لمتابعة اعداد وكتابة المذكرات ولوحات الخريطة (٤٢) . وقد ترك كوندر العمل في الصندوق في ايار ، واستمر كتشنر في عمله في المتحف حتى ايلول ، حيث كلفته وزارة الخارجية بالاشراف على مسح قبرص (٤٣) (وكان السلطان العثماني قد تنازل عنها في مؤتمر برلين) .

واستغرقت عملية مسح فلسطين الغربية نحو ست سنوات . وبعد الانتهاء من الخريطة ، قامت ادارة المساحة العسكرية Ordnance Survey في ساوثامبتون بتصويرها ونشرت عام ١٨٨٠ . وبين اعوام ١٨٨٠ ـ ١٨٨٤ ، نشرت لجنة الصندوق العمل كلاماً تحت عنوان : Survey of Western Palestine شمل سبعة مجلدات :

المذكرات : وهي في ثلاثة مجلدات ، تحوي الرسوم والمخططات والملاحظات والمعلومات التي قام بها ضباط عملية المسح وفيها وصف جغرافي وطبوغرافي للوحات الخريطة وتقرير تفصيلي عن الآثار القديمة وملاحظات عن السكان . **قوائم الاسماء** : وتحوي اكثر من ١٠٠٠٠ إسم جمعت خلال عملية المسح ونقلت بحروف انكليزية وترجمت . **اوراق خاصة** : وهي اعادة نشر البحوث والاوراق التي ظهرت تباعا في الدورية . **مجلد القدس** : ويعطي تقريرا وافيا عن حفريات وارين ، مع وصف لحفريات وبحوث اخرى قام بها ويلسون وكوندر وجانو (٤٤) Gannean وتشك (٤٥) Schich وسواهما . **الحياة النباتية والحيوانية** : كتبها تريسترام C. Tristram

وبعد انتهاء عملية المسح ، كتب كوندر تقريرا اكثر تبسيطا لاطلاع الجمهور في مجلد عنوانه : Tent Work in Palestine وفيه شرح للعمل الذي انجز والاساليب التي اتبعت . واعدت طبعة اخرى من الخريطة على مقياس اصغر (٣ بوصة لكل ٨ اميال مربعة) انتهت عام ١٨٨٤ على اربعة اشكال :

فلسطين الغربية : وعليها الاسماء العربية الحديثة .

فلسطين الغربية : وعليها اسماء العهد القديم التي امكن التحقق منها .

فلسطين الغربية : وعليها اسماء العهد الجديد (الانجيل) .

فلسطين الغربية : تبين مصادر المياه وتوزيعها .

واهم النتائج التي اسفر عنها العمل في نظر اللجنة (٤٦) هي **اولاً** : تحديد عدد كبير من الاماكن المذكورة في التوراة لم تكن مواقعها معروفة سابقا (٦٢٢ اسم توراتي في غربي الاردن كان قد تحدد منها ٢٦٢ قبل عام ١٨٧٠) وتأمل التعرف على عدد اكبر بواسطة(١٠٠٠٠ إسم حديث حددت مواقعها الخريطة) . **ثانياً** : وصف المظاهر الطبيعية للبلاد لاول مرة بشكل تفصيلي يمكن دارسي التوراة من متابعة احداث ما يقرأون . **ثالثاً** : التعرف على طبيعة البلد

وينابيعها ونباتاتها وحيواناتها وخصوبتها وعلى تاريخها القديم ، من الآثار المتراكمة التي تعلم مواقع المدن القديمة ، ويمكن الادعاء كما تقول اللجنة « بأن مسح فلسطين الغربية هو عمل ليس له قيمة كبرى في الوقت الحاضر ، بل انه قاعدة علمية لكل كشوف الاراضي المقدسة في المستقبل »(٤٧) .

وخلال عملية المسح ، استطاعت لجنة الصندوق ان تستعين (وبموافقة وزارة الخارجية الفرنسية) بجهود كليرمونت جانو C. Ganneau عالم الساميات والاثري المعروف لتحرّي آثار القدس وفلسطين الجنوبية (كان قد سبق له وهو موظف في القنصلية الفرنسية في القدس ان قام بكشف وتفسير حجر مؤاب) (٤٨) ، كما اكتشف اللوحة اليونانية في القدس (وكانت اصلا في المعبد اليهودي) ، وأجرى كشوفا هامة في القدس أواخر عام ١٨٧٣ ، وزار أريحا وعسقلان وغزة واماكن أخرى في فلسطين الجنوبية ، وجمع قدرا من المعلومات ، وقام زميله المهندس المعماري ليكوم Lecomte باجراء عدد كبير من الرسوم الجميلة للاماكن والابنية ، ونشرت رسائل جانو في دورية الصندوق عام ١٨٧٤ ، ثم نشرت بعد ذلك بشكل موسع في مجلدين عنوانهما : بحث اثري في فلسطين Archaeological Research in Palestine كملحق لمذكرات « مسح فلسطين الغربية » ، وفي المجلدين كثير من الرسوم التوضيحية وقدر كبير من المعلومات عن آثار القدس .

هـ ـ مسح فلسطين الشرقية ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢ :

وجهت لجنة الصندوق انظارها الى مسح المنطقة الواقعة شرقي الاردن (فلسطين الشرقية) وكان قد تم الاتفاق على ان تتولى عملية المسح جمعية فلسطين الاميركية American Palestine Society الا انه لظروف عديدة لم تتمكن الجمعية من القيام بذلك ، فقررت لجنة الصندوق عام ١٨٨٠ ارسال فريق عمل مهدت له بنشر بيان يصف نتائج عملية المسح السابقة ويشرح العمليات المقترحة في شرقي الاردن ويطلب جمع المال لمواجهة النفقات وكانت المناطق المزمع مسحها بحسب ما جاء في البيان (٤٩) :

١ ـ منطقة باشان Bashan: وهي منطقة نجدية تمتد من المنحدرات الجنوبية لجبل الشيخ (حرمون) الى جلعاد في الجنوب وتشمل منطقة الجولان وحوران واللجاة .

٢ ـ ارض جلعاد وتمتد جنوبا حتى نهر ارنون (الموجب) .

٣ ـ مؤاب : واهم مدنها ديبان Diban (حيث وجد حجر مؤاب) .

وكان يتوقع ان يتم مسح شرقي الاردن بسرعة نظرا (٥٠) ، لأن الوضع الجغرافي اكثر ملاءمة . وكلّف الملازم (لفتنانت) كوندر بتوليّ البعثة مع ضباط من سلاح الهندسة الملكية بموافقة وزارة الحربية . ونزل كوندر بيروت في آذار عام ١٨٨١ ، وقام بزيارة بعلبك والتعرف على موقع قادس في منطقة وادي العاصي . ومن حمص عبر الى طرابلس وتتبع الساحل حتى بيروت ، حيث انضم الى فريق المسح بعد وصول ادوات العمل . ووصلت البعثة الى القدس في ٧ أيار ، الا أن الاوضاع القلقة في المنطقة إثر الحرب الروسية التركية ، أخّرت القيام بالترتيبات الكافية لحماية فريق العمل مع الشيخ « قبلان العدوان » . وبدا له ان فرصة العمل قد تكون

افضل في الجزء الجنوبي من « فلسطين الشرقية » . وقد بدأت عمليات المسح في مؤاب ، وابدى كوندر اهتماما خاصا بالآثار الحجرية المتوفرة باعداد كبيرة في شرقي الاردن والبحر الميت ، قام بتصويرها وكتب تقريرا عنها (وهي من نوعين : دولمن Dolmens والمنهر Menhirs)(٥١) . وبعد ان قام قائمقام السلط بمنع الفريق من متابعة عملية المسح ، اضطر كوندر ورفاقه الى العودة الى القدس (وكان قد تم مسح ٥٠٠ ميل وجمع قدر كبير من المعلومات) . وفشلت المحاولات التي بذلت في الآستانة لاستصدار ترخيص جديد . وخلال فترة الانتظار شغل كوندر في القدس باعداد المواد التي جمعها للنشر . كما رافق الاميران ألبرت فيكتور وأمير ويلز جورج خلال زيارتهم الاراضي المقدسة ، وقام الاميران بزيارة الحرم الابراهيمي في الخليل ، وباذن خاص من السلطات العثمانية زار الفريق الملكي مغارة المقبلة (٥٢) .

وقد قطع كوندر صلاته بصندوق الاستكشاف بعد قيام ثورة عرابي واعداد الحملة الانكليزية على مصر ، واختير للخدمة في دائرة الاستخبارات Intelligence Department نظرا إلى خبرته بالعربية ومعرفته بأهالي الشرق العربي (٥٣) .

وقد تم نشر المعلومات التي جمعت خلال عملية مسح هذا الجزء من « فلسطين الشرقية » في عام ١٨٨٣ في مجلد عنوانه « مسح فلسطين الشرقية » The Survey of Eastern Palestine يشبه في طبيعته مذكرات المسح السابق . ونشر الكابتن كوندر في العام نفسه ، نسخة اكثر تبسيطا في كتاب ألفه بعنوان Heth and Moab وفيه وصف مسهب لكشوفاته في موقع قادس على نهر العاصي ، وكذلك وصف الآثار الحجرية لعصور ما قبل التاريخ في شرقي الاردن .

ورغم فشل استئناف عملية « مسح فلسطين الشرقية » ، استطاعت اللجنة ان تستخدم خبرات دكتور شوماخر Schumacher الالماني بصفته مهندسا موظفا لدى سكة حديد حيفا - دمشق ، فكلّف بعمل خريطة لحوران والجولان تشمل ٣٤٠ ميلا مربعا ، نشرت مع تقارير شوماخر عام ١٨٨٦ في مجلدين عنوانهما : عبر الاردن Across the Jordan ومسح الجولان The Survey of the Joulan وقام شوماخر بعملية مسح تالية (٧٠٠ ميل مربع) في منطقة عجلون الشمالية نشرت مع تقارير عام ١٨٨٩ في مجلد اسمه Abila, Pella and Northern Ajloun (٥٤) ، تشمل مخططات للمعابد والباسيلكيا والاكربول والكهوف الخ ، يرافقها وصف كامل .

وفي عام ١٨٩٠ ، نشرت لجنة الصندوق طبعة جديدة لخريطة فلسطين بمقياس رسم $\frac{٣}{٨}$ بوصة للميل الواحد) تتضمن جميع المعلومات التي تحويها عمليات المسح الاخرى . وتمتد الخريطة من بعلبك في الشمال الى قادش برنيا في الجنوب . وقد نشرت في طبعتين : الاولى ، تحوي الاسماء الحديثة فقط . والثانية ، اسماء العهد القديم والجديد مع الاسماء المذكورة في الابوكريفا Apocryph (١٤ سفرا تلحق بالعهد القديم) ، والمؤرخ اليهودي يوسيفوس والهدف من نشر الخريطة ان توضع بمتناول زائري الارض المقدسة ودارسي التوراة (٥٥) .

و - البعثة الجيولوجية ومسح عربة ١٨٨٣ - ١٨٨٤ (٥٦) :

كان من الاهداف الاساسية التي حددها البيان التمهيدي للجنة الصندوق ، هو التحري

الجيولوجي لفلسطين وخاصة وادي الاردن وحوض البحر الميت (ولم يكن يعرف عنها الا القليل) . وتقرر في تموز عام ١٨٨٣ ، ارسال بعثة لهذا الغرض ، وامكن الاستفادة من خبرات الاستاذ ادوارد هل E. Hull (مدير المسح الجيولوجي لايرلندة) ، وبتصريح خاص عهد الى (الكابتن) كتشنر Kitchener (وكان يعمل مع القوات البريطانية في مصر والسودان) (٥٧) بمرافقة « هل » للعمل على مسح وادي عربة ، المنخفض الممتد من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، الى اقصى الطرف الشمالي لخليج العقبة ، لربط عملية المسح الحالي بالعمليات التي تمت سابقا في فلسطين .

غادر « هل » لندن مع فريق العمل في تشرين الاول عام ١٨٨٣ ، وقابل كتشنر في مصر . وفي السويس تمت الاعدادات لعبور الصحراء الى العقبة (٥٨) ، فاتبعوا طريق صرابيط الجمل ، فوادي « نصب » لتفحص الاحجار الكلسية ذات المستحاثات لتحديد عصرها الجيولوجي ، ثم عبروا المناطق الغرانيتية في شبه جزيرة سيناء ، ودرسوا التشكل البركاني لسبل موسى والجبال المجاورة التي تتميز عن الحجارة الكلسية والرملية في تلال الشمال . ووصلوا وادي عربة في نهاية تشرين الثاني ، وبدأت عمليات المسح باتجاه البحر الميت ، ومن هناك تحول المكتشفون غربا الى بئر السبع وتل ابو حريري حيث عاد كتشنر الى الاسماعيلية عبر الصحراء (٥٩) ، بينما تابع « هل » ورفاقه الطريق الى غزة فيافا فالقدس . وتوجهت البعثة بعد ذلك نحو وادي الاردن والبحر الميت وهي منطقة لها اهمية جيولوجية خاصة .

وقد عرض « هل » نتائج عملية مسح المنطقة بين جبال سيناء ووادي عربة التي يحدها غربا نجد « التيه » وشرقا جبال آدوم ومؤاب . واعدت البعثة خريطة بمقياس رسم $\frac{٣}{٨}$ البوصة للميل (نفس مقياس الخريطة المصغّرة) ، كما احدثت بعض التصحيحات للخط الساحلي لخليج العقبة وحدود البحر الميت ، وأجرت عملية استطلاع جيولوجي عبر مناطق سيناء والعقبة ووادي عربة وعرض « هل » وصفا كاملا لنتائج بعثته في مؤلف عنوانه : Mount Seir Sinai and Western Palestine نشر عام ١٨٨٥ ، أرفقه بخريطة جيولوجية تشمل المنطقة شرقي مصر (صحراء سيناء وفلسطين) ، كما نشر في عام ١٨٨٦ مجلدا أكثر تفصيلا حول الموضوع نفسه بعنوان : .The Geology of Palestine and Arabia Petroea

وترى لجنة الصندوق ان هذين الكتابين يستحقان دراسة عميقة من الراغبين في فهم التاريخ الجيولوجي للاراضي المقدسة ومعرفة التغيرات التي مرت منذ عصور ما قبل التاريخ . واكثر هذه التغيرات حداثة ، له ارتباط هام بتاريخ التوراة (مثلا : عبور بني اسرائيل البحر الاحمر وموقع سدوم وسواه) .

ز ـ الحفريات في تل حسي (لاكيش) ١٨٩٠ ـ ١٨٩٢ :

شغلت لجنة الصندوق بصورة عامة بعمليات المسح التي تهتم بالصفات الجغرافية والطبوغرافية للبلاد . وبعد ذلك ، قررت اللجنة تولي مهمة كشف باطن الارض ، خاصة وقد لفتت عمليات المسح الانتباه الى التلال المبعثرة في انحاء البلاد والتي هي اكوام تغطي وتعلّم مواقع القرى والمدن القديمة ، ولكن بتعاقب العصور ، لم يبق من اثرها شيء ظاهر وسوّت الرياح والامطار جوانب التل (٦٠)

وكان من الضروري قبل بدء العمل الحصول على ترخيص من السلطات العثمانية وفقا للقانون العثماني الذي يحظر عمليات التنقيب الاثرية قبل الحصول على الاذن الرسمي [٦١] وتقدمت وزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٨٨ بطلب الاذن من السلطات العثمانية ، واختير للتنقيب موقع هوتل حسبي (١١ ميلا شمال شرق غزة) ، وهو موقع المدينة القديمة لاكيش Lachish. وتولى العملية دكتور بتري F. Petrie (خبير الآثار المصرية) ، وساعدته خبرته السابقة في التنقيب الاثري وتحديد الفترات التاريخية بدراسة قطع الفخار في عمله في موقع تل حسي [٦٢] . وقد ارجع تاريخ الموقع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد (حيث بدأت الفتوحات المصرية في آسيا ووجد شعب فلسطين ضرورة بناء الاماكن المحصنة) ، وحدد تواريخ الفترات المختلفة لسكنى الموقع حتى عهد نبوخذ نصر . ونشرت نتائج كشوفه في مجلد تحت عنوان « تل الحسي » (لاكيش) عام ١٨٩١ ، وفيه وصف كامل لسير العمل واساليبه في تصنيف الفخار واستخدامه كمفتاح لتوضيح تاريخ الموقع .

وبعد عودة « بتري » الى مصر ، تولى العمل دكتور بلس Bliss (ابن رئيس الجامعة الاميركية في بيروت وله معرفة دقيقة بالعربية وخبرة في التنقيب الاثري وسبق له العمل مع بتري في مصر) ، وحتى كانون عام ١٨٩٢ ، تمّ الكشف عن ثمان مدن متعاقبة مدفونة تحت الاطلال (على عمق ٦٠ قدما) وجرى قياس جدران وابنية كل مدينة بدقة تامة ، كما وضعت مخططاتها وحددت مواقعها الصحيحة في الترتيب التاريخي . واكد « بلس » استنتاجات بتري ، ان لاكيش كانت حصنا للكنعانيين قبل غزو الاسرائيليين فلسطين ، وانها هجرت قبل غزو الرومان . كما استدل من الآثار على العلاقة بين لاكيش وتل العمارنة . وعرض وصفا كاملا [٦٣] لعمله في تل حسي في كتابه « اكمة من عدة مدن » A mound of many Cities نشرته الجمعية في عام ١٨٩٤ ، وهو موضح بالمخططات والرسوم وصور الادوات المكتشفة ، وكانت تل حسي اولى التلال التي كشفت عنها الحفريات بصورة صحيحة واظهرت النتائج اهمية الحفريات من هذه النوع [٦٤] .

حـ ـ الاستكشافات في القدس ١٨٩٤ ـ ١٨٩٧ :

بعد انهاء العمل في تل الحسي ، توجه الصندوق مرة اخرى نحو القدس لمتابعة العمل الذي بدأ به « وارين » [٦٥] . وقد قررت اللجنة اجراء فحص دقيق لبقايا الجدار الخارجي في الجهة الجنوبية من المدينة (وهو جدار وصفه يوسيفوس اثناء حصار تيتوس) . وخوّل التصريح العثماني عام ١٨٩٤ الاذن بالتنقيب في المنطقة الممتدة من غرب سلوان وحتى قدرون شرقا [٦٦] . وتولى عمليات التنقيب « بلس » يساعده ديكي A. Dickie (استاذ الآثار في جامعة مانشستر) للقيام بعمل المخططات والرسوم . وقد جرت عمليات التنقيب بواسطة الخنادق والممرات بطريقة مماثلة لطريقة وارين (وان لم تكن بالعمق نفسه ـ ٤٢ قدماً) نظراً لأن جزءاً من الجدار كان مدفوناً تحت الارض . وقد تتبع بلس الجدار الجنوبي للقدس من جبل صهيون حتى وادي قدرون (باتجاه الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم) . وحدد مواقع ابوابه كما تعرّف على بعض ابراجه وهو جزء من نظام معقد للتحصينات ذات قيمة اثرية كبيرة .

وقد استمرت عمليات بلس حتى حزيران عام ١٨٩٧ ، حيث انتهت مدة الاذن العثماني (وكما اشترط نص القانون اعيد ملء الخنادق والممرات) ، ونشرت اللجنة وصفا كاملا

لعمليات الحفر في مجلد بعنوان « حفريات القدس ١٨٩٤ ـ ١٨٩٧ » Excavation at Jerusalem 1894 - 1897 موضح بالرسوم والمخططات التي وضعها ديكي Dickie. وفي عام ١٨٩٥ ، توجه بلس ببعثة الى شرقي الاردن تفحص خلالها بعض كنائس مأدبا وابنية اخرى هامة في ديبان وكرك (٦٧) .

ط ـ الحفريات في تل الصافي ، تل زكريا ،
تل الجديدة، تل ساندهانه ١٨٩٨ ـ ١٩٠٠ :

رأت اللجنة متابعة الكشف عن التلال المنتشرة في الساحل الفلسطيني (لتحديد الاماكن المذكورة في تاريخ العهد القديم) ، واهمها تل الصافي (جنوب الرملة) ، الذي يفترض انه موقع مدينة « جات » Gath (المدينة الكنعانية التي ورد ذكرها في التوراة في اخبار الحرب بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، كما كانت موقعا هاما في حروب صلاح الدين والصليبيين) . وقد تولى بلس عملية الحفريات يساعده العالم ماكاليستر Macalister. ونظراً لأنه طلب الاذن ، كان لا بد ان يرفق بمخطط مساحته ١٠ كم٢ . فقد اضيف الى المنطقة المقترحة لاجراء التنقيب فيها ثلاث تلال اخرى هي : تل زكريا وتل الجديدة وتل ساندهانة (وهي اماكن هامة في الماضي رغم ان اسماءها غير معروفة) . وقد شرع بالعمل في تشرين اول عام ١٨٩٨ في تل زكريا اولا (في منتصف الطريق بين القدس وعسقلان) . وفي أيار عام ١٨٩٩ انتقل التنقيب الى تل الصافي . وفي تشرين الثاني عام ١٨٩٩ الى تل الجديدة (قرب بيت جبرين) . وفي حزيران عام ١٩٠٠ انتقل مخيم التنقيب الى ساندهانة آخر اربع تلال يشملها الاذن العثماني (ويظن انها موقع مدينة مرش Marissa القديمة) .

وامكن خلال عمليات التنقيب باسلوب حفر الخنادق ، تتبع جدران المواقع وخطوط التحصينات وبقايا الأبنية ، وجرى وضع المخططات ودراسة الآثار والفخار ، بحيث امكن تحديد الفترات التاريخية للموقع وللسكان الذين شغلوه . وبانتهاء فترة الاذن الممنوح في خريف عام ١٩٠٠ ، اغلقت الخنادق والممرات نهائيا وملئت ، وكان بلس وماكاليستر يرسلان بتقارير كاملة عن عمليات التنقيب بين حين وآخر (٦٨)

وبعد انتهاء العمل نشر مجلد عنوانه « حفريات في فلسطين » خلال سنوات ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ Excavation in Palestine during the years 1899 - 1900 موضح بالمخططات والرسوم التي اعدّها ماكاليستر Macalister ، كما اعد دراسة وصفية للفخار والآثار الاخرى . واعد العالم Wunch فصلاً عن مجموعة النقوش اليونانية في ساندهانة .

ي ـ حفريات تل جزاري Jezari
(جزر) ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥ ، ١٩٠٧ ـ ١٩٠٩ :

تقدمت لجنة الصندوق عام ١٩٠١ ، بطلب اذن جديد من السلطات العثمانية لمتابعة العمل بموقع جديد هو تل جزاري (جنوب الرملة عند محطة السكة بين يافا والقدس) وهو احد المواقع القديمة التي امكن تحديدها بدقة . واقدم ذكر للموقع ورد في رسائل تل العمارنة ، وكانت جزر مدينة كنعانية مشهورة قاومت غزو الاسرائيليين واكتسبت اهمية خلال حروب صلاح الدين ضد الصليبيين ، وقد تولى عمليات الحفر فيها (ماكاليستر) في حزيران عام ١٩٠٢ ، بحفر

الخنادق داخل الاطلال ، وتبين من نتائج الحفريات ، توالي فترات متعاقبة من السكنى تعود الى عصر سكان الكهوف والادوات الحجرية . وقد كشف بقايا حصن كنعاني ونفق ضخم يؤدي الى نبع تحت الارض (تقول الروايات التقليدية ان لهذا صلة بقصة طوفان نوح) .

واستغرق التنقيب عن هذا الموقع خمس سنوات في موسمين (٦٩) ، ونشر ماكاليستر نتائج التنقيب في كتاب عنوانه : « اضواء جانبية على التوراة من تلة جزر » Bible Side Lights from the Mound of Gezer اوضح فيه ما ألقته كشوف « جزر » من اضواء على تاريخ التوراة .

وبانتهاء المرحلة الثانية من عملية التنقيب عام ١٩٠٨ ، كان ماكاليستر قد اضاف قدرا كبيرا من المعلومات الى سجل علم الآثار الفلسطينية . فعمل ٦٠٠٠ مخطط ، ورسم نحو ٥٠٠ صورة ، وأعدّ تقريرا كاملا ضمنه ملاحظات اكتشافه في ثلاثة مجلدات نشرت عام ١٩١٢ تحت عنوان « حفريات جزر » Excavation of Gezer in 1902 - 5 and 1907 - 9. والمجلد الثالث يحوي الوسائل التوضيحية ، وهو من اضخم الاعمال التي نشرت حول تاريخ تل اثري ، ولم تكن « جزر » سوى واحدة من عدة تلال .

ك ـ الحفريات في عين شمس (بيت شمس) ١٩١١ ـ ١٩١٢ :

طلبت اللجنة من ماكاليستر كتابة تقرير عن مواقع تلال اخرى تصلح لمتابعة التنقيب ، واختيرت عين شمس (التي يعتقد انها موقع بيت شمس المذكورة في العهد القديم) ، وتقع قرب محطة دير أبان على خط سكة الحديد بين يافا والقدس جنوب وادي الصّرار ، أحد الطرق الرئيسية بين السهل الساحلي والقدس ، وقد اشير الى المدينة في قائمة البلاد التي فتحها رمسيس الثاني باسم شماشانا Shamashana ، وكانت مدينة كنعانية مشهورة قبل تاريخ الغزو « الاسرائيلي » . ووقع الاختيار على العالم ماكنزي D. Mackenzi (٧٠) لتولي عملية الحفريات نظراً لخبرته في الآثار اليونانية وحفريات كنوسوس في كريت ، ورافقه نيوتن F. G. Newton لعمل المخططات والرسوم . وقبل وصول التصريح العثماني قام ماكنزي ونيوتن برحلة الى مؤاب وآدوم بهدف تفحص آثار احجار ما قبل التاريخ Dolmens Megalithic ، كما عمل قياساً لخزنة بتراء ومخططات دقيقة لها ولمدينة ديبان (حيث وجد حجر مؤاب ١٨٦٨)

وبدأ التنقيب في عين شمس في نيسان عام ١٩١١ ، وتتبع ماكنزي الجدار الذي يحيط بالمدينة القديمة ، ووجد بقايا معبد وثني ودير بيزنطي ونفق لتزويد المدينة بالمياه وقبور محفورة في الصخر ، كما عثر في الطبقات الدنيا على آثار سكنى تعود الى عصور ما قبل التاريخ ، وادوات مختلفة (فخار واختام واسلحة وحلي) من نماذج مصرية او تشبه ما وجد في جزر بحر إيجة. وتمكن ماكنزي من خلال دراسة هذه النماذج تحديد الفترات التاريخية المتتالية . وانتهت عمليات الحفر في شهر كانون الاول عام ١٩١٢ ، واعيدت الارض الى حالتها الطبيعية . ونشرت تقارير ماكنزي في المجلدات السنوية التي نشرها الصندوق في اعوام ١٩١١ و١٩١٢ و١٩١٣ موضحة بالصور ، ويحوي المجلد الاول وصفا للآثار الحجرية في شرقي الاردن وخزنة بتراء (٧١)

ل - مسح فلسطين الجنوبية ١٩١٣ - ١٩١٤ :

كانت اللجنة قد اتمت بين عامي ١٨٧١ - ١٨٧٧ مسح « فلسطين الغربية » ، وهي المنطقة الممتدة بين المتوسط ونهر الاردن . ومن صور وبانياس في الشمال ، الى خط يسير من غزة جنوبا عبر بئر السبع الى المنطقة المعروفة بالنقب ، أي المنطقة التي تقع بين بئر السبع وخط الحدود المصرية من رفح والمتوسط الى رأس خليج العقبة . وكما تقول اللجنة « هي منطقة يشار إليها في كتب العهد القديم في اخبار الآباء الأوائل ابراهيم واسحق ويعقوب ، واخبار تجول بني اسرائيل في الصحراء ، بعد ان تركوا مصر قبل وصولهم ارض كنعان » . وقد تم الحصول على قدر لا بأس به من المعلومات عن هذه المنطقة في عمليات الاستطلاع السابقة التي قام بهابالمر « هل » و« كتشنر » . إلا انها ، كما تقول اللجنة : « لم تعط ذلك القدر الدقيق من المعلومات التي يتطلبها صندوق الاستكشاف وكانت الفرصة التي تطلعت اليها اللجنة عام ١٩١٣ (٧٢) » .

وفي ذلك العام عهدت وزارة الحربية الى الكابتن نيوكومب S.F. Newcombe والفتاننت (الملازم) جريج Greig ، القيام بعملية المسح في منطقة النقب والمناطق الجنوبية من فلسطين الى الحدود المصرية لمتابعة العملية التي بدأها كوندر وكتشنر . وقد وقع الاختيار على نيوكومت ، نظرا لأنه سبق له مسح شبه جزيرة سيناء من جهة قناة السويس الى الحدود المصرية العثمانية (الفلسطينية) (٧٣) ، وكان يعرف الصحراء بدقة وهو على صلة وثيقة بقبائل المنطقة . وألحق بفريق نيوكومب عالمان بالآثار هما :(وولي) C. L.Woolley ، ولورنس T. E. Lawrence(٧٤) كانا يعملان حينذاك بالكشف عن مدينة كركميش الحثية « جرابلس » شمال سورية على الفرات في بعثة اثرية للمتحف البريطاني .

وقسم عمل البعثة الى موضوعين . الاول : المسح ، الذي يتولاه ضباط من سلاح الهندسة الملكية . والثاني : العمل الاثري ، ويتولاه وولي ولورنس ، وكلاهما باشراف نيوكومب .

بدأت العمليات من غزة في كانون الاول ، وكان لا بد من ربط عملية المسح هذه بعمليات المسح الثلاثة السابقة : اي عملية كوندر في الشمال ، وكتشنر في الشرق ، ولجنة الحدود المصرية العثمانية في الغرب . أي ان المنطقة التي يقترح مسحها ، تشمل نحو ٤٥٠٠ ميل مربع ، تحيطها من الجهات الثلاثة ، عمليات المسح السابقة . وقد توزع العاملون بالمسح الى خمس فرق ، وانتهى العمل في أيار ١٩١٤ ، باستثناء جزء صغير قرب رأس خليج العقبة (رفضت السلطات العثمانية السماح بدخولها ولم يكن لهذا الرفض تأثير كبير ، اذ كان كتشنر قد وضع خريطة لهذه المنطقة خلال بعثة عام ١٨٨٣) ، وتمت بذلك عملية المسح خلال وقت قصير بالرغم من الصعوبات التي واجهتها وكبر المساحة وصعوبة النقل والتموين (٧٥) .

وقد وصل وولي ولورنس غزة في مطلع عام ١٩١٤ ، وقدم لهما وكيل القنصل البريطاني في غزة كنزفيتش Knesevitch المساعدة المطلوبة (٧٦) ، ثم اتجها الى بئر السبع ، حيث تم الاتفاق مع نيوكومب على اسلوب العمل في البعثة. ومن بئر السبع اتبعا طريق « شور » القديم (الذي يقال ان ابراهيم ويعقوب اتبعاه في طريقهما الى مصر) ، ووضعا مخططاً للآثار القديمة وبقايا

المدن البيزنطية خلصه ، والرحيبة ، والعوجة ، وعبده ، وما تحويه من البيوت والكنائس والأديرة والقلاع . وبعد ذلك تقدم العالمان الى سهول القصيمة عبر الحدود المصرية (وهي التي يفترض انها قادش برنيا ونظرا لأنها عقدة مواصلات تؤدي الى مصر والخليل ووادي عربة وايلات ، وبسبب توفر المياه فيها ، وامتداد التربة الصالحة ، فقد جزما بأنها كانت مركز بني اسرائيل خلال تجولهم ٤٠ عاما) .

وقد افترق العالمان عند القصيمة . فاتجه وولي شمالا الى عبده والكرنب ، بينما اتجه لورنس الى وادي لوسان والكنتلة ، ثم الى خليج العقبة ، وبعد ذلك اتجه شمالا الى عربة وجبل الحور فالخط الحجازي عند معان . وقد نشرت نتائج تحرياتهما في المجلد السنوي الذي اصدره الصندوق عام ١٩١٤ـ١٩١٥(٧٧)، وهو موضح بالرسوم والمخططات والصور ، ونشره هوغارت D.G. Hogarth (٧٨) في الفترة التي توجه فيها وولي (٧٩) ولورنس الى مصر ليقوما بدورهما في مسرح العمليات الشرقية في الحرب العالمية الاولى . الاّ انّ الخريطة التي اعدت بعد انتهاء نيوكومب من عملية المسح ، لم تنشر وتوزع بناء على طلب وزارة الحربية . وانتهت بذلك عملية مسح فلسطين قبل ان تتوقف عملية استكشاف فلسطين خلال فترة الحرب (٨٠) .

رأي في صندوق استكشاف فلسطين

لا شك في ان الاشراف البريطاني على عملية استكشاف فلسطين ، كان احد اهداف السياسة الخارجية البريطانية منذ ان بدأت بريطانيا تبدي اهتماما خاصا بالشرق العربي بسبب تجارتها مع الهند . وزاد هذا الاهتمام بعد ان هددت قوى اوروبية اخرى هذا الطريق (احلام روسيا القيصرية ، حملة نابليون ، قوة محمد علي) . ومنذ اواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر ، كان احد الاتجاهات التي لجأت اليها الدبلوماسية البريطانية للسيطرة على الشرق العربي يمر عبر فلسطين . ونوقشت على نطاق واسع في الصحافة وفي الاوساط الحاكمة ، قضية تحويل سورية وجزء من فلسطين الى منطقة للنفوذ البريطاني او مستعمرة بريطانية . ولعب صندوق استكشاف فلسطين الذي اسس عام ١٨٦٥ ، دورا كبيرا في تأكيد هذا الاتجاه ، ومع انه انطلق من فكرة دينية بهدف دراسة كل ما يتعلق بالاراضي المقدسة ، الاّ ان حقول نشاطاته وما قام به من عمليات التنقيب والمسح ووضع الخرائط ، قد تعدّت المسائل الدينية العلمية ، ولا يمكن ان نعزوها فقط الى دوافع أثرية دينية . فمعظم الذين قاموا بالبعثات والاستكشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط ، كانوا من وزارة الحربية البريطانية ومن سلاح الهندسة الملكية بالذات . ومعظم هؤلاء بالرغم من اهتمامهم العميق بالآثار وتعلقهم بتاريخ التوراة وحسهم العميق بجمال الأراضي المقدسة ، كانوا يشيرون الى معلومات تدور حولهم ، ويشاركون في سير الاحداث لخدمة اغراض السياسة البريطانية الخارجية (كوندر ، بالمر ، كتشنر ، وولي ، لورنس ، الخ) . ويقر احد متتبعي عمل كتشنر في فلسطين : « ان كتشنر وهو يقرأ الماضي كان يرسم دروسا للحاضر والمستقبل (٨١) . وان مشاهدته آثار العظمة القديمة دفعته الى التطلع نحو عظمة بلاده وشعبه . وان « رؤيته شعباً قد اعماه تخلفه الحضاري عن رؤية تدنّي مستوى معيشته ، قد أشعره بقيمة العمل الذي سيؤديه ، برفع امثال هؤلاء وملايين معهم نحو مستوى ارفع من الحياة » . ويتساءل الكاتب : هل كان كتشنر وهو يتطلع الى سهل « يزرعيل » ، ويرى مشهد معركة « ارمجدون » ، يتوقع بأن « ارمجدون » جديدة اصبحت

وشيكة الوقوع (٨٢) . وكتب كتشنر نفسه رسالة من القدس يتحدث فيها عن آثار طرق رومانية في منطقة نابلس : « لو أن فلسطين اعيد فتحها للحضارة ، فهذه الطرق ستشكل اساس الخطوط الرئيسية للمواصلات عبر البلاد (٨٣) .

وفي حديثه عن جمال منطقة بحيرة طبريا التي تبدو اليوم خرائب يقول : « ان المستقبل المشرق يبدو على وشك ان يشرق على تلك الارض »(٨٤) .

وازداد نشاط الضباط الانكليز لحساب صندوق استكشاف فلسطين في العمل على كشف ومسح جنوب فلسطين ، بعد ان برزت مشكلة الحدود الشرقية لمصر ، والدفاع عن القناة عام ١٩٠٦ ، واعيد النظر في الاستراتيجية التي تنجم عن كون مصر لم تعد جزيرة محمية ، بل يمكن ان تخترق في ظروف معينة بقوة معادية . وبتخطيط كتشنر (وكان المعتمد البريطاني في مصر) ، قامت بعثة « نيوكومب و وولي ولورنس » بمسح في صحراء سيناء فدلّت الى حد كبير الفكرة السائدة بأن نقص المياه ومصاعب النقل تمنع أي هجوم خطير من فلسطين ، كما ان المعلومات التي قدمتها عن الصفات الطبيعية ووصف الاماكن ومواقع المياه مع الصور التوضيحية والمخططات ، كانت ذات قيمة كبرى اثر نشوب الحرب حين توجهت الانظار كلها الى شمال سيناء . ويمكن القول ان هيئة الاركان البريطانية كانت تملك عند نشوب الحرب خرائط عن فلسطين اكثر بكثير مما يملكه الترك .

وكان العطف البريطاني نحو اليهود ومشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين تحت الحماية البريطانية ، جزءا من سياسة بريطانية الشرقية ، منذ ان صمم بالمرستون على ان يحول بين محمد علي وبين ان يكون حاكم سوريا ومصر معاً(٨٥) ، واكدت نشاطات صندوق استكشاف فلسطين هذه الصلة العملية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فاجتماعات لجنة الصندوق غالبا ما كانت تشير الى فكرة « عودة اليهود » ، كما ان اعماله شجعت بطريقة غير مباشرة عملية الاستيطان اليهودي بتقديم صورة مفصلة عن فلسطين(٨٦) . وكان (لورنس اوليفانت) L. Oliphant (الصحفي البريطاني وعضو البرلمان الذي قام برحلات الى الشرق في سبعينات القرن التاسع عشر بعد مؤتمر برلين) احد المساهمين في بحوث وتقارير دورية الصندوق ، وضع مشروعا لحل المسألة الشرقية بتنمية موارد الامبراطورية العثمانية ، بدعوة اليهود في اوروبا الى الاستيطان في الجانب الشرقي للاردن في النهاية العلوية للبحر الميت (ارض جلعاد) . وفي دعوته التي بناها على عوامل دينية وعاطفية ، تكمن امور سياسية واستراتيجية نظرا للدور الذي يمكن ان تلعبه بريطانيا في سياسة الشرق عن طريق اليهود في هذه المنطقة الحساسة بالنسبة الى المصالح البريطانية(٨٧) .

ويكتب مؤرخ نشاط كتشنر في صندوق الاستكشاف(٨٨) ، بأن كتشنر قد رأى في فلسطين ، الارض التي تخص الشعب اليهودي ، ولمس التطلع العاطفي لهذا الشعب نحو امجاده القديمة ، ورأى في فلسطين استمرار الحياة اليهودية من يوشع وحتى حاخامي القدس وطبريا ، ووجد ان رجال الشعب اليهودي العظام منذ القرون الاولى بعد تحطيم الهيكل وحتى العصور المتأخرة ، لا يجدون راحتهم الاّ في الارض التي يدعونها ارضهم . ورأى كتشنر ان تغيّرا آت نحو فلسطين ، فهل فكر كتشنر أنه بعد « ارمجدون » يمكن لليهود او جزء منهم على الاقل ان يعودوا الى بلادهم القديمة ، من يدري ؟ .

وفي عام ١٨٩٢ نشرت لجنة الصندوق في كتاب بعنوان « المدينة والبلاد » The City and the Land (سلسلة من المحاضرات بعثت في صيف ١٨٩٢[٨٩] كان ابرزها محاضرتان احداهما القاها وولتر بيسانت Beasant السكرتير الفخري للصندوق ، وكان قد شغل منصب السكرتير الفعلي مدة خمسة وعشرين عاما ، والثانية القاها كلود كوندر وكانت بعنوان مستقبل فلسطين .

وفي حديث بيسانت عن عمل الجمعية قال : « كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودوس ، كنا نستعيد بلاد داود ونرد الى الخارطة اسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع . لقد اعدنا الى القدس مكانتها ومجدها وفخامتها ، لقد اعدنا البلاد (فلسطين) الى العالم بالخارطة وبالاسماء والاماكن المذكورة في التوراة . « عندما وضعت الاسماء في اماكنها اصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها » .

وتحدث كلود كوندر في كلمته « مستقبل فلسطين » عن الهجرة اليهودية الى فلسطين وخاصة مدينة القدس فقال : « ان عدد اليهود في مدينة القدس عام ١٩٧٢ ، لم يكن يتجاوز بضع مئات ، اما الآن (١٨٩٢) فقد بلغ عددهم اربعين الفا ، واصبحوا يسيطرون على التجارة في المدينة ، ولم يعد اليهود اقلية مضطهدة وجبانة ، وانما يبدو انهم سادة المدينة » . اعتقد بأنني استطيع القول دون تبجح انه كان لي (ولآخرين غيري) دور ما في هذه الحركة . ففي اول كتاب نشرته بعنوان (مخيمات في فلسطين) ، حاربت الفكرة القائلة ان فلسطين لم تعد قطرا يصلح للسكنى وأدى ذلك الى عرض محرر صحيفة « ذي جويش كرونيكل » على ان اكتب مجموعة من المقالات عن الاستعمار اليهودي في فلسطين . ويبدو ان هذه المقالات لفتت انتباه لورنس اوليفانت وقدمت له سلسلة من الاقتراحات يبدو انه قبلها كأساس ، ولكنه استعاض عن اقتراحي اقامة مستعمرة في الجليل ، باقتراح من عنده هو لاقامة مقاطعة يهودية في جبال جلعاد (البلقاء وعجلون) ... والآراء التي كانت عندما كتبتها قبل اثني عشر عاما تبدو من شأن المستقبل البعيد اصبحت حقائق بفعل الاشخاص الذين يهمهم الامر اكثر من غيرهم ... (ويقصد اليهود) والسكة الحديدية التي اقترحتها عام ١٨٧٨ (من قناة السويس الى دمشق) قد بدأ العمل فيها . والمستعمرات التي اوصيت باقامتها وبزراعة الكرمة والزيتون والحبوب والقطن والفواكه فيها ، قد اخذت تظهر الى حيز الوجود في فلسطين . ويبدو اننا سنرى سكة حديدية في فلسطين في العام القادم ، الامر الذي من شأنه ان يزيد من عدد السكان وينشط التجارة ... هذا الخط سيزيد من احتمال نشوب معركة كبيرة في مجدو ـ ميدان القتال القديم ـ في حالة نشوب حرب لأن السيطرة على خط السكة الحديدية الوحيد في البلاد ستكون الهدف الحتمي الوحيد لأي مخطط استراتيجي ...«أن الخط الحديدي ستتبعه شبكة من الطرق البرية تكون بمثابة روافد له ، وسيفتح جبال جلعاد امام زارعي الكرمة والحبوب (والمقصود هنا اليهود) . اما السكان القلائل من البدو العرب فسينسحبون الى الجنوب والشرق ، وستنمو القرى الصغيرة المتفرقة لتعود مدنا مزدهرة كما كنا نعرف انها كانت بين العهدين المسيحي والاسلامي » .

وعن المستقبل الذي يتصوره لفلسطين قال كوندر : « ان الذي نتوقع ان نراه في فلسطين ـ اذا كان مستقبلها سليما ـ هو زيادة تدرجية في عدد السكان المزارعين ، وانتشار (المستوطنات) المزدهرة . ولن يحول وجود الاتراك دون هذا التقدم وان كان من الممكن ان يحد

من سرعته . وكلما ازداد رأس المال الاوروبي والمستعمرون الاوروبيون في البلاد ، ازداد دخولها في دائرة الدول التي تنبثق من جسم الترك (الامبراطورية العثمانية) . وان اية محاولة عنيفة للتدخل في تطور بلد يستطيع اعالة شعب كبير مزدهر تطورا سليما ، ستؤدي حتما الى حدوث « مشكلة فلسطينية » هائلة ينبغي حلها في كركميش ومجدو (٩٠) . وفي الوقت نفسه ، لا تعتمد عودة اليهود على اي عرق سواهم ، وقد بدأوا يعودون وينوون العودة بأعداد اكبر ، لأن معارضة الحكومات لا يمكن ان تعيق مثل هذه الحركة ، وانما قد تنظمها على نحو يكون فيه صلاحها ... ان نتيجة اي مشروع مهما يكن صغيرا في مظهره لا يمكن حسابها حتى تظهر جلية للعيان . لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عمله ، وهدفه الوحيد القاء ضوء اجدّ وادق على التوراة ، ومع ذلك فقد اصبح أداة رئيسية لمساعدة اولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل في الحصول على الحقائق الثابتة عن طاقات وامكانيات البلاد . وهكذا قدّم خدمة جلّ بالعمل السلمي المخلص لتحقيق الازدهار وازالة الفقر من البلاد » .

ويقول نورمان بنتويتش في معرض حديثه عن التغلغل الاوروبي في الشرق والاهتمام البريطاني بفلسطين لحماية طريق الهند ، كيف ان فكرة فتح فلسطين للشعب اليهودي قد طرحت بين عامي ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ ، وانها اتخذت شكلاً جغرافياً وعلمياً ، وان صندوق استكشاف فلسطين الذي اسس عام ١٨٦٥ ، قد تولاه ضباط سلاح الهندسة في الجيش البريطاني للقيام بنشاط مزدوج كان مثالاً لهذا التكامل بين المصالح التوراتية والسياسية(٩١) .

(١) *Macalister R. A. S.*, A Century of Excavation in Palestine, London 1925, pp. 13 ff.

وكان المؤلف مديرا للحفريات في صندوق الاستكشاف ، ثم استاذا لعلم الاثار السلتية في دبلن .

(٢) *Stravrou, Th. G.*, Russian Interests in the Levant 1843-1848, Middle East Journal, vol. 17. 1963, p. 91.

(٣) *Watson, C. M.*, Fifty Years Works in the Holy Land, A record and a summary 1865-1915, the Committee of the Palestine Exploration Fund, London 1915.

وكان المؤلف رئيس اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين عام ١٩١٥ .

(٤) خيرية قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين ١٨٤٠ ـ ١٩١٧ وأثرها في جذور الصراع العربي الصهيوني » . بحث مقدم الى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٨/١٢/٢٧ ـ ١٩٧٩/١/٣ .

(٥) كان ايلي سميث بحكم اقامته الطويلة في سورية كرجل ارساليات اميركي ومعرفته بظروف السكان وخبرته باللغة العربية خير مرشد في هذه الرحلة .

(٦) Macalister, p. 26.

(٧) Macalister, p. 26.

(٨) Macalister, p. 26.

(٩) Watson, p. 15.

(١٠) كان قد نشر اعلان في التيمس ١٩٦٥/٥/٨ بالدعوة لهذا الاجتماع

انظر : محمد وادي المراش ، بريطانيا : **صندوق الاستكشافات الفلسطينية** ، شؤون فلسطينية عدد ٩ ، ١١ أيار ١٩٧٢ ، ص ١٢٨ نقلاً عن التيمس ١٨٦٥/٥/٨ .

(١١) Watson, p. 18.

(١٢) *Ibid.*, p. 19.

ويقول المؤلف ان قيام ضباط سلاح الهندسة الملكية بقدر كبير من العمل مع مشاركة عدد آخر من المكتشفين العلماء قد اكد التمسك بهذا المبدأ

الاساسي

(١٣) Loc. cit.

يقول المؤلف انه بمرور الزمن تبينت صعوبة استبعاد عنصر الرأي الشخصي في مطبوعات الجمعية ورغب المتبرعون في التعرف على آراء الاشخاص المبنية على نتائج كشوفاتهم ، وان هذه الآراء والمقالات التي كانت تظهر في الدورية Quarterly Statement والتي بدأ يصدرها الصندوق منذ ١٨٦٩ ، قد اثارت اهتماما كبيرا وأضافت الكثير الى قيمة الاستكشافات ، الا انها نشرت كآراء خاصة بكتابها .

(١٤) Watson, pp. 22-28.

(١٥) تعاقب ملوك انجلترا بعد الملكة فكتوريا على رعاية الجمعية . وقد خلفها ادوار السابع الذي كان يعرف الاراضي المقدسة شخصيا منذ ان كان امير ويلز وسافر عبر سيناء وفلسطين ١٨٦١ . ثم اصبح جورج الخامس، راعيا عام ١٩١٠ وكان قد زار الاراضي المقدسة ١٨٨٢ مع شقيقه الامير البرت فيكتور ، امير ويلز .

(١٦) تدل ميزانية الصندوق على أن تكاليف النشر هي اكثر من حصيلة المبيعات ، ذلك ان قسما كبيراً من منشورات اللجنة كان يقدم مجانا .

(١٧) في عام ١٩١٠ عيّن ماسترمان E. W. G. Masterman سكرتيرا عاما فخريا للّجنة في فلسطين وكان مسؤولا عن البعثة الطبية لجمعية يهود لندن ، وقد اجرى عدة جولات ودراسات مع عالم الآثار ماكاليستر Macalister عن سكان فلسطين في العصر الحديث نشرت في دورية الصندوق .

(١٨) وجدت جمعيات أجنبية اخرى مماثلة بنشاطها لصندوق استكشاف فلسطين ، إلا ان هذه الجمعيات لم تنشر سوى القليل بالقياس الى ما نشره الصندوق ، كما أنها عنيت بأمور تقع على سطح الارض ويمكن الوصول اليها بدون عمليات الجو . ففي عام ١٩٧٨ بدأت الجمعية الالمانية Deuts-che Palastina-Verein بنشر مجلة تحوي مواد متفرقة لها علاقة بفلسطين ، وكذلك كانت الجمعية التونسية Ecole Biblique والتي يديرها اساتذة من علماء الدومينكان تنشر منذ مدة مجلتها الدورية Le Revue Biblique وتحوي موضوعات من النقد التوراتي والتاريخ الكهنوتي والآثار الفلسطينية . وكذلك فقد ادى اهتمام روسيا الديني والفكري المتزايد في البلاد المقدسة الى انشاء جمعية فلسطين الامبراطورية الارثوذكسية عام ١٨٨١ Imperial Orthodox Palestine Society اهدافها : زيادة المعرفة بالاراضي المقدسة ومساعدة للارثوذكس العرب ، واخذت بنشر مجموعات من الاعمال العلمية باسم مجموعة فلسطين الارثوذكسية Sbornik فيها مصادر اولية للاراضي المقدسة واماكنها الدينية خلال فترة الحكم البيزنطي والاسلامي .

(١٩) Watson, pp. 31-40.

(٢٠) Watson, p. 38.

(٢١) Macalister, p. 31.

يرى المؤلف ان التوجه المبكر للكشف عن المدينة المقدسة هو خطأ اساسي ، اذ كان يجب التوجه الى مواقع اقل اهمية في البلاد والعمل فيها بدقة لمعرفة صفاتها العامة وتاريخ الآثار فيها ، ذلك لأن عملية التنقيب تحدث تخريبا في بعض الاحيان . والاجدى أن يتدرب المنقبون على اسلوب التنقيب في مواقع اقل اهمية .

(٢٢) *Ibid*. p. 32.

يرى المؤلف ان هذه التعليمات قد اعطيت بطريقة خاطئة ، اذ يفترض فيها ان تقدم الحفريات المقترحة حلا نهائيا لنقاط الجدل المتعلقة بالاماكن المقدسة ، والخطأ الاساسي لا يكمن فقط بضخامة التوقعات ، بل بوضع برنامج محدد سلفا ، لأن المنقّب الحقيقي يتوجه الى موقعه المختار ، بهدف واحد هو أن يجد ما يحويه هذا الموقع ، لا أن يبحث عمّا يجب ان يحتويه هذا الموقع .

(٢٣) Macalister, p. 35.

ويدّعي المؤلف ان الجميع يقرّ بأن الحرم الشريف يشغل موقع معبد سليمان .

(٢٤) *Ibid*,

يرى المؤلف ان هذا الاسلوب كان مكلفا وبطيئا وخطرا ، كما انه لا يمس الاّ جزءا صغيرا من التراب ، فلا يمكن من دراسة الترتيب التاريخي . وهذا الاسلوب لا يكون ناجحا الاّ اذا كشف البناء كله وعملت شبكة كاملة من الانفاق .

(٢٥) اثبت وارين ان الهيكل لا يمكن ان يكون في الجانب الجنوبي الغربي لمنطقة الحرم كما كان فيرجسون Fergusson يقول ، بل يجب ان يكون عند الموقع الذي تشغله قبة الصخرة الآن ، واما الجانب الجنوبي من منطقة الحرم فيبدو ان هيرود قد اضافه .

(٢٦) Macalister, p. 38.
(٢٧) Watson, p. 52.
The Desert of the Exodus.
(٢٨) وتسميها لجنة الصندوق صحراء الخروج
(٢٩) Watson, p. 54.
(٣٠) *Ibid*. p. 58.
لم يستعن بالمر بالخدم او التراجمة ، وكان حراسه اصحاب الجمال التي يستأجرها ، وكان يستبدلهم اثناء تنقله من منطقة الى اخرى بين القبائل البدوية لتجنب المتاعب .
(٣١) Quarterly Statement, 1871, p. 107.
(٣٢) Watson, pp. 62-64.
عاد بالمر ثانية الى الصحراء في ظروف مختلفة وذلك عام ١٨٨٢ ، اثناء الاعداد لارسال الحملة البريطانية الى مصر . وقد اعتبر مسألة هامة ضمان تأييد القبائل البدوية أو سكوتها وعدم تعرضها للقوات البريطانية بشكل يهدد امن القنال .ونظراً الى معرفة بالمر بأمور هذه القبائل ، كلّفته الحكومة البريطانية بالاتصال بشيوخ القبائل لاجراء الترتيبات الضرورية لأمن القنال « وهو عمل غير عادي لاستاذ جامعي » . وقد وجد بالمر ضرورة الاتصال بالقبائل على الجانب الفلسطيني ، فاتجه بحرا من بور سعيد الى يافا ثم غزة ، واجرى اتصالاته مع اصدقاء قدامى من قبائل ترابين والتياهة ، وعبر الصحراء نحو السويس لمقابلة شيوخ آخرين ، ثم قدم تقريرا الى الاميرال وليام هويت Hewitt قائد الحملة وطمأنه بنجاح مهمته وانه لا يوجد ما يخشاه من العرب بشأن القناة . وبعد احتلال القوات البريطانية للسويس ، عينّ مسؤولا عن الترجمة ومعه جهاز كبير ، وتقرر ان يقوم ببعثة اخرى الى الصحراء ومعه ضابطان بريطانيان ، وبعد مغادرته آبار موسى (٨ آب ١٨٨٢) هاجمته بعض القبائل العربية عند وادي سدر فقتل الثلاثة . ويتساءل Watson هل كان ذلك بغرض النهب ام بتوجيه من الحزب الثوري ؟ لا يدري ، الا انه يضيف بأن العقوبة التي تلت الحادث « لن ينساها بدو صحراء سيناء » وان الخسارة التي لحقت بالصندوق بالغة ، لانه كان ملمّا بالعربية وبعادات وطبائع السكان العرب .
(٣٣) Watson, pp. 65-70.
(٣٤) قدر النداء تكاليف البعثة بما فيها نشر تقارير الضباط ووضع الخرائط وسواها ، بما لا يقل عن ١٥ الف جنيه . ولدى الصندوق اكتتابات سنوية ٢٠٠٠ جنيه ، وكان لا بد من جمع مبلغ ٧٠٠٠ جنيه موزعة على اربع سنوات .
(٣٥) كان فريق العمل يتألف من ٥ اوروبيين و٦ من المواطنين(خدم ومساعدين) وجندي للحراسة من قبل السلطات المحلية ، ومع الفريق ٨ خيول و٦ جمال و٧ بغال .
(٣٦) Quarterly Statement, 1972, 1873, 1874, 1875, Letters and Reports of the Survey of Palestine (Condor and Drake).
(٣٧) Diaches, S., Lord Kitchner and his work in Palestine, London 1915, pp. 15 .
والكتاب هو نص محاضرة القاها المؤلف في جمعية jew's College Union Society خلال الحرب العالمية الاولى وكان كتشنر وزير الحربية . يذكر المؤلف ان سبب التحاق كتشنر بالعمل هو « ميوله العلمية وتلهفه للقيام بعمل يتيح له استخدام خبرته كمهندس ، الا ان السبب الاكثر عمقا هو حبه للتوراة وارض التوراة مما دفعه الى التعرف على الارض المقدسة ومسحها والتنقيب في كل زاوية منها ، وربما ايضا لرؤية امكانياتها المستقبلية وهو اغراء لم يستطع كتشنر ان يقاومه » .
(٣٨) في تقرير كتبه كوندر (واكمله كتشنر) بعث به من جبل الكرمل في ١٥ تموز عام ١٨٧٥ ، انه بعد الاعتداء وصل ضابط وعدد من الجنود ومعهم وكيل القنصل البريطاني ، وعندها اختفت الاسلحة والمهاجمون ، ويقر كوندر بخدمات المستشفى اليهودي في صفد لفريق المسح .
Quarterly Statement, 1875, pp. 195-196.
(٣٩) رفض كتشنر المبلغ فزيدت الغرامة الى ٢٧٠ جنيها تبرع بها الى صندوق الاستكشاف . انظر المراش ، صندوق الاستشكاف ، ص ١٩٩ نقلا عن كتاب :
The City and the Land P. E. F. London, 1892.
(٤٠) في تقرير بعث به كتشنر بعد عودته من فلسطين نشرته Quartery Statement, 1877 pp. 70-72 يصف دخوله صفد في ١١ نيسان ، حيث خرج القائمقام والقاضي ووكيل القنصل البريطاني

وعدد من الاتباع على مسافة مسيرة ساعة ونصف ، ودخل بموكب الى السرايا وبعد تناوله القهوة حضر كل الحاضرين في المجلس حفل اقامة مخيمه قرب صفد . ويعلق مؤلف كتاب Lord Kitchener and his Work in Palestine, p 33 بقوله : « نرى هنا كتشنر الفاتح » .

(٤١) *Ibid.*, pp. 50-55. في تقرير كتبه كتشنر من مخيمه في القدس في ١٢ تشرين اول ، عام ١٨٧٧ ، يعلم فيه انتهاء خريطة فلسطين من « دان الى بير السبع » ، ويصف عمله في الصحراء بين غزة وبير السبع ، ويعرف الاسماء الحديثة بالاماكن التوراتية ، ثم يصف رحلة العودة من بير السبع الى القدس واصطدامه بعدد من الفلاحين .

(٤٢) كان كتشنر قد احضر معه ٥٠ صورة من فلسطين اختار منها ١٢ صورة لها علاقة بالتوراة نشرها في مجلد واحد مع وصف لها بقلمه ، وعنوان المجلد : Lieutenant Kitchener's Guinea Book of Biblical Photographs. See, Quarterly Statement, 1878, p. 134.

(٤٣) عبرت اللجنة التنفيذية للصندوق في اجتماعها السنوي ١١ حزيران عام ١٨٧٨ عن تقديرها لعمل كتشنر في وقت كانت البلاد مهددة بالقلاقل ولم توجد اية مقاومة للاهالي ، الاّ حين هوجم كتشنر بالحجارة في شوارع نابلس لمنعه من تنفيذ اقتراحه باصلاح بير يعقوب . Diaches, S., p. 69, and Quarterly Statement, 1878, p. 108.

(٤٤) Quarterly Statements, Letters and Reports, 1874, pp. 3, 7, 80, 89, 98, 104, 135, 147, 158, 167, 261, 269, 275.

(٤٥) Quarterly Statement, 1879, p. 187.

(٤٦) كلفت عملية المسح ١٧ ألف جنيه تقريبا بزيادة ٢٠٠٠ جنيه عن التقدير الاولي واسترد معظم النفقات من بيع الكتب والخرائط .

(٤٧) Watson, p. 179.

(٤٨) Quarterly Statement, Letter to the Times on Moabite Stone, 1870, p. 175.

(٤٩) Watson, pp. 81-82.

(٥٠) قدرت تكاليف البعثة بنحو ٢٠٠٠ جنيه سنويا .

(٥١) الدولمن هو حجر كبير مسطح فوق عدد من الحجارة المنصوبة ، والمنهر هو نصب حجري عمودي Quarterly Statement, 1881, pp. 158, 275 ،وقد اظهرت الكشوف التالية ان هناك عددا كبيرا من هذه الحجارة موجودة في الغرب ، الاّ انها كانت مغطاة بأكوام الاطلال كما في تل جزاري وبيت شمس .

(٥٢) Report on the Visit of their Royal Highnesses Prices Albert Victor and George of Wales to the Hebron Haram on 5th April, 1882. Quarterly Statement, 1882, p. 197.

(٥٣) Watson, p. 86. ويدعي المؤلف ان الحملة الانجليزية ارسلت الى مصر لاعادة الأمن بعد قيام ثورة عسكرية فيها .

(٥٤) Pella هو المكان الذي تراجع اليه مسيحيو القدس قبل حصار مدينتهم على يد تيتوس .

(٥٥) ابدت اللجنة بعد ذلك رغبتها في اصدار خريطة نافزة بالحص ، تظهر الصفات الطبيعية للبلاد بطريقة اكثر وضوحاً . وتولى القيام بها ارمسترونج (الذي عمل بالمسح مع كوندر ، ثم اصبح سكرتيراً مساعداً للجنة الصندوق) بعد سبع سنوات بالمقياس نفسه ($\frac{3}{8}$ البوصة للميل وبالمساحة نفسها من بعلبك حتى بير السبع (ابعادها ٧ اقدام و ٦ بوصات طولا و٤ اقدام عرضا ووضعت في متحف اللجنة . كما عرضت صور منقولة عنها للبيع وخاصة للمكتبات الجامعية والمؤسسات العامة . وفي عام ١٩٠٢ عملت خريطة بحجم اصغر لاستخدامها بالمدارس (مقياس بوصة لكل $\frac{1}{4}$ ميل ابعادها ٣ اقدام و ٦ بوصات طولا و ٢ قدم و ٦ بوصات عرضاً) ، وكانت ذات قيمة للاساتذة ودارسي التوراة .

(٥٦) Watson, pp. 91-98.

(٥٧) كان كتشنر يتنقل بين مهمات في الخارج (قبرص ومصر والسودان) ويعود ثانية الى اعمال الصندوق .

(٥٨) كتب كيتشنر الى لجنة صندوق الاستكشاف في ١٣/١/١٨٨٤ بعد ان تمت عملية المسح رسالة من العباسية نشرت في Quarterly Statement,

1887, pp 136-7 يقول فيها انه مر بكثير من القبائل العربية واستقبل بوصفه موظفا مصريا باسم : عبد الله بيه اذ انه كان يتقن العربية كأهل البلاد .

(٥٩) Letters on the Survey, Quarterly Statement, 1884, pp. 136-202. ويقول مـؤلف كتاب Lord Kitchner المذكور سابقا ص ٢٧ « ان كتشنر مسح خلال شهرين شبه جزيرة سيناء والبلاد الواقعة جنوب البحر الميت وصعد جبل سيناء وجبل حور ، وقد لا يوجد شخص سواه يعرف منطقة الحدود المصرية الفلسطينية كما يعرفها » .

(٦٠) Macalister, p. 40.

(٦١) يقضي الاذن بوصف المكان المقترح للتنقيب فيه بدقة مع تقديم مخطط لمسافة ١٠ كم (٤ اميال مربعة) يحضر التنقيب خارجها . ويصدر التصريح من متحف الآثار في الآستانة الذي انشيء عام ١٨٥٠ .

(٦٢) Quarterly Statement, 1892, p. 114. Note on the Results at Tell El-Hesy.

(٦٣) Quarterly Statement, 1891, 1892, 1893, Reports of the excavation at Tell Hesy.

(٦٤) حين انتهت مدة التصريح العثماني كان ثلث التل قد تم التنقيب فيه حتى الصخر .

(٦٥) في الفترة بين عملية وارين وعملية الاستكشاف الاخيرة كانت لجنة الصندوق تنتهز كل فرصة لتنشر في دوريتها Quarterly Statement اي كشف يقوم به احد العلماء في القدس . وكان اهم تلك الكشوف ما قام به العالم الفرنسي جانو C. Ganneau ونشرت نتائج كشوفه في المجلد الاول من Archaeological Research وعالم آخر سويسري هو دكتور تشك C. Schick عمل في القدس بين ١٨٤٦ ـ ١٩٠١ كمهندس معماري ووكيل جمعية يهود لندن Jews Society London ومدير مدرسة الصناعة للشباب اليهودي . وكان مهتماً بالآثار وتاريخ مدينة القدس . وقدّم الى ويلسون عام ١٩٦٤ مساعدات قيمة اثناء عملية المسح نظرا لمعرفته بالامور المحلية وبالعربية وعلاقته بالسكان . وكان يراقب بشكل خاص مستويات الصخور التي بنيت عليها المدينة ويتابع كل عمليات تهديم البيوت القديمة او حفر اساس البيوت الحديثة ، ويعمل مخططات لكل ما يكشف تحت الارض . وقد نشر في دورية الصندوق نحو ٢٠٠ تقرير وبحث جميعها موضح بالمخططات والرسوم عن آثار القدس (منها المستويات الصخرية في القدس ، الجدران القديمة . الابنية المجاورة لقبة الصخرة ، ابنية منطقة الحرم الخ) .

(٦٦) كانت شروط الاذن تقضي بحظر الحفريات في المناطق المجاورة للاماكن المقدسة او المنشآت العسكرية ، وتوجب نقل الموجودات الى متحف الآستانة ، على ان يكون لعالم التنقيب كل الحقوق العلمية في النقل والتوضيح والنشر . ويرافقه ممثل للحكومة لنقل حصيلة التنقيب بعد انتهاء الملاحظات العلمية . Macalister, p. 54

(٦٧) Quarterly Statement, 1895, p. 203, Narrative of an Expedition to Moab and Gilead.

(٦٨) Quarterly Statement.
Tell Zakaria, 1899, pp. 10, 89, 170,
Tell es-Safi, 1899, pp. 188, 317, 1900, p. 16.
Tell ej-Judiedeh, 1900, pp. 87, 199.
Tell Sand Hannah, 1900, p. 319.

(٦٩) Quarterly Statement, Macalister's Reports, Excavation of Gezer, 1902, 1903, 1904, 1905, 1907, 1908.

(٧٠) كان ماكاليستر قد عين استاذا للآثار السلتية في دبلن .

(٧١) بانتهاء عملية التنقيب في بيت شمس ، انتهت عمليات التنقيب في فلسطين في الفترة التي سبقت الحرب الاولى ، واستحال الاستمرار بعمليات التنقيب خلال الحرب . Macalister, p. 10 وقد ظل صندوق الاستكشاف حتى نهاية القرن التاسع عشر هو الهيئة الاجنبية الوحيدة التي تعمل في ميدان التنقيب عن الآثار .

ومنذ اواخر القرن ، دخلت دول اخرى في تنافس ودي مع لجنة الصندوق ، فقام العالم الالماني النمسوي سيلين E. Sellin عام ١٩٠٢ . بطلب اذن للحفر في تل تنك Taanak ، وهو موضع مدينة Taanach . ونتيجة لزيارة الامبراطور الالماني لفلسطين عام ١٨٩٨ ، ارتبط اسم العالمين الالمانيين Watzinger و Kohl بهذه الزيارة . اذ قاما مع العالم الالماني ثيرش Thersch بالكشف عن مواقع

الكنس القديمة في الجليل (وكانت هذه الكنس قد لفتت انظار كيتشنر خلال عملية مسح فلسطين الغربية) . وتولى شوماخر برعاية الامبراطور الالماني ، التنقيب في موقع تل المتسلّم (مجدو) لمصلحة Deutsche Paiästina-Orient-Verein وبالتعاون مع Gesellschaft كما اختارت اميركا منطقة جبال السامرة حقلا لعملياتها ، واشرف على العمل الدكتور ليون P. G. Lyon ، ودكتور ريسنر G. Reis-ner باسم جامعة هارفارد .

(٧٢) كان كتشنر قد اصبح المعتمد البريطاني في مصر منذ عام ١٩١١ ، وكان مع بعض الدوائر العسكرية في بريطانيا قد وجه الأنظار نحو مشكلة الدفاع عن القناة ضد اي هجوم من الشرق ، بعد تغير الاوضاع في الدولة العثمانية اثر هزيمتها في البلقان واحتمال بحثها عن مجال جديد في مناطق جنوب سوريا والحدود المصرية . وعمل كيتشنر على الدعوة لدى الدوائر الرسمية ، الى فكرة ، انه في حال تجزؤ الدولة العثمانية يجب ان يبذل جهد لفصل سوريا الجنوبية شمالا الى حدود يافا وعكا لتشكل كيانا منفصلا تحت النفوذ البريطاني .
Kedourie, E., England and the Middle East, London 1956, p. 134.

(٧٣) وكان ذلك اثر ازمة الحدود المصرية الفلسطينية بين السلطات في مصر والدولة العثمانية عام ١٩٠٦ .
خيرية قاسمية : قضية الحدود بين مصر وفلسطين ، البحث المشار اليه سابقاً .

(٧٤) لعب ثلاثتهما دورا هاما في مسرح العمليات الشرقية خلال الحرب العالمية الاولى .

(٧٥) Watson, p. 150.
يقول المؤلف ان القبائل البدوية وخاصة العزازمة لم تبد معارضة كبيرة.

(٧٦) لعب كنزفيتش دورا هاما في تشجيع عملية شراء الاراضي لمصلحة الاستيطان الصهيوني في مناطق فلسطين الجنوبية .
خيرية قاسمية : قضية الحدود بين فلسطين ومصر ، البحث المشار إليه سابقا .
وقد اسهم كنزفيتش في نشاطات صندوق الاستكشاف في تقرير عن كشف تابوت حجري في غزة .
Quarterly Statement, A Sarcophagus at Gaza, 1910, p. 294.

(٧٧) كان نيوكومب ولورنس يزودان مجلة الصندوق بتقاريرهما اثناء عملية المسح في الصحراء .
Quarterly Statement, Newcombe Reports, 1914, p. 114, 1915, p. 130 Lawrence Desert Surveys, 1915, pp. 61-2, 121, 130.

(٧٨) كان عالماً في الآثار ومستشرقاً ، وأحد رجال المكتب العربي الذي تأسس في القاهرة عام ١٩١٦ للاشراف على تسيير السياسة البريطانية في الشرق العربي ، وكان هو غارت من منفذي هذه السياسة خلال الحرب حول العلاقة مع الشريف الحسين .

(٧٩) ارتبط اسم وولي عام ١٩١٥ بشبكة التجسس الصهيونية التي تأسست في فلسطين (في مستوطنة زخرون يعقوب قرب عتليت) لحساب القوات البريطانية ، وقد اسر وولي حين فجرت السفينة التي كان على ظهرها ، اثناء محاولته اخذ معلومات من افراد الشبكة على الشاطىء الفلسطيني .
Engle, A., The Nili Spies, London, 1959.

(٨٠) لم يتوقف اصدار دورية الصندوق خلال الحرب ، وكانت تنشر مواداً سبق واعدت قبل الحرب ، وقد عاد صندوق الاستكشافات الى نشاطاته في فلسطين بعد انتهاء الحرب ، وأخذ يعمل بالتعاون مع المدرسة البريطانية للآثار في القدس British School of Archaeology . وحتى الوقت الحاضر ، ما زال صندوق الاستكشاف قائما في مقره القديم الذي اهداه اليه « موريسون » ، (وكان قد عمل في الصندوق مدة ٥٦ عاما) ، ولا تزال مجلته تصدر بالعنوان نفسه ، وان اصبحت نصف سنوية ، وتحوي في صفحتها التعريف نفسه « صندوق استكشاف فلسطين : جمعية لدراسة الآثار والطبوغرافية والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والعادات والتقاليد في البلاد المقدسة دراسة دقيقة ومنظمة لتوضيح التوراة . راعية الصندوق : الملكة اليزابت الثانية . الرئيس : رئيس اساقفة كنتبربري نائب الرئيس : رئيس اساقفة يورك » .

(٨١) Daiches, S., p. 59.

(٨٢) Ibid., p. 86.

(٨٣) Ibid, p. 61. Also Quarterly Statement, 1878, p. 63.

(٨٤) Daiches, S., p. 71.

(٨٥) اقترح السياسي الانجليزي الدوق شافتسبري

في رسالة الى بالمرستون في ٢٥ ايلول عام ١٨٤٠ « لو تمعنا في مسألة عودة اليهود في ضوء بعث فلسطين او تحويلها الى مستعمرة ، لرأينا ان ذلك هو ارخص واسلم طريق لتأمين كل ما هو ضروري لهذه المنطقة القليلة السكان » .

N. Sokolow, The History of Zionism, London, 1914, vol. 11, p. 230

(٨٦) من الامثلة تقارير كوندر التالية في مجلة الصندوق : The Present Condition in Palestine (reprinted from the Jewish Chronicle, 1879, pp. 6-8 The Colonization of Palestine, 1880, p. 116.

(٨٧) Oliphant, L., The Land of Gilead, Edinburgh, 1880.

(٨٨) Diachesn S., pp. 87-88.

(٨٩) المراش ، ص ٢٠٠

(٩٠) اشارة الى المعارك الشهيرة التي وقعت عبر التاريخ في هذين الموقعين .

(٩١) Bentwich, N., Israel and her Neighbours, London, 1955, p. 48.

العقيد الركن حسين أبو لبده

الحرب الثوريّة ودورها في قلب التوازن لمصلحة قوى الثورة

مقدمة

يبقى صحيحاً وعلى مر التاريخ القول « الحرب امتداد للسياسة بطريقة عنيفة » ، فمنذ القدم لم تنشأ قط حرب لا تحمل طابعاً سياسياً ، ولا يمكن للحرب ان تنفصل عن السياسة اطلاقاً . فحين تتطور السياسة الى مرحلة معينة ، بحيث لا يمكن لها ان تواصل تطورها بالوسائل العادية ، تندلع الحرب كي تزيل العقبات التي تعترض طريق السياسة .

والحرب الثورية هي حرب الجماهير ، ولا يمكن شنها بدون تعبئة الجماهير والاعتماد عليها وزجها في الصراع على شكل قوى مسلحة ثورية . انه بالتفاعل بين محارب العصابات وشعبه ، يتحصل الاساس الثوري الذي يشكل ، فيما بعد ، خصائص الحركة الثورية ويعطيها مجالها القومي . وهي بالضرورة عمل هجومي ، يستلزم الدفاع والتراجع ايضاً . فاللجوء الى الدفاع من أجل هجوم جديد ، والتراجع من أجل التقدم ، والالتفاف من الجوانب لبلوغ الجهة المقصودة ، كل هذه ظواهر محتومة في مجرى تطور الكثير من الاشياء ، فما بالك بالعمليات العسكرية .

ويبدو ان الحركات الثورية في الماضي البعيد ، أخذت ، في معظم الأحيان ، شكل تمردات دامية مبنية على الهوى أكثر من انبنائها على المحاكمة العقلية . والعصيان الوحيد الذي تمت قيادته منذ البداية بتقنية ثورية جيدة ، هو عصيان سبارتاكوس .

وفي عهد الفروسية ، في القرون الوسطى ، كان المتحاربون يتقنون استراتيجية الدفاع بالانهاك ، التي تعتبر احدى المكونات المألوفة للحرب الثورية . ثم كانت الفكرة السياسية في حرب الاستقلال الاميركية المتمثلة في الحرية ، حيث ادير العصيان بتقنية الحرب الثورية . فالمتمردون كانوا يناوشون القوات النظامية باستمرار ويزعجونها(١) .

ولقد استفاد نابليون ، في حروبه ، من جميع النتائج الاستراتيجية الناجمة عن قدرة القوات الفرنسية على التبعثر والتجمع ؛ فصار يوزع قواته على شكل شبكة واسعة ، مهمتها

اعماء الخصم وتطويقه ، أو يلتف حوله ليقف على خطوط مواصلاته ويجبره على القتال على جبهات معكوسة . وجاءت تلك المناورة الخاصة بالاستراتيجية النابوليونية ، التي لم يستطع أحد تنفيذها منذ ذلك الوقت ، من الامكانات التي قدمتها ــ دون شك ــ العادات الثورية .

وتبدأ الحركات الثورية الشيوعية أو الوطنية عادة ، بخلق الكوادر الدعاوية ، ثم تنشأ التنظيمات المحلية ، ومن ثم تبدأ العمليات الارهابية المحدودة ، لتنطلق بعدها الى اعداد القوى الثورية اللازمة لحرب العصابات وكسب السكان الى جانبها . وقد نتجت فاعلية الاسلوب الثوري طوال التجارب المتعاقبة ، من توجه جهد الغزاة وقوات القمع ــ بصورة عامة ــ الى العمليات العسكرية ، التي لم يكن لها سوى أثر جزئي . أما الايديولوجية الثورية ، المحرك الحاسم للثورة ، فلم يجر الصراع ضدها بايديولوجية تحمل قيمة مماثلة لقيمتها ، الأمر الذي لم يجعل الحرب الثورية ثنائية الطرفين أبداً ، وبدا هذا الأمر في النهاية حاسماً(٢) .

وعلينا أن نلاحظ ان هناك ، طبقاً للمصطلحات الجارية ، نوعين من حرب العصابات الثورية : الاول ، النضال الثوري المكمل لجيوش نظامية كبيرة ؛ والثاني ، هو الجماعة الثورية المسلحة التي تنخرط في النضال ضد السلطة أو المحتل ، معتمدة على نفسها ، مطورة نضالها الى حرب ثورية شاملة ؛ بهدف الاستيلاء على السلطة وتحرير الشعب والوطن . وهو ما يعنينا في هذا المجال .

الطليعة الثورية

ينبغي القول ــ دون تجاوز الحقائق الموضوعية ــ أنه لا ثورة من دون طليعة ثورية ، وان هذه الطليعة ليست ، بالضرورة ، الحزب الماركسي ــ اللينيني ، وان اولئك الذين يريدون صنع الثورة ، لهم الحق في ان يشكلوا لأنفسهم طليعة مستقلة(٣) .

ان ماهية النضال الثوري المسلح ، هي في أن جماعة صغيرة من الرجال ، هي الطليعة المسلحة للقوات الشعبية العظيمة التي تدعمها ، تمضي الى ما وراء الغرض التكتيكي الآني ، وتنطلق بطريقة حاسمة نحو تحقيق المثل الأعلى ، بهدف اقامة مجتمع جديد ، وتحطيم القوالب الجامدة ، لتتوج في النهاية انجازاتها ، بتحقيق العدالة الاجتماعية ، أو الفوز بالتحرر الوطني الذي ناضلت طويلا من أجله .

ففي البداية ، تنبثق جماعة من الاشخاص المتجانسين بقدر أو بآخر ، ولديهم بعض الأسلحة ، وقد آلوا على أنفسهم ــ بشكل خاص ــ ان يختبئوا في أشد الاماكن وعورة ومناعة ، حيث لا اتصال الا قليلا مع الفلاحين . وبالتالي تبدأ هذه المجموعة بتسديد ضربات نوعية مميزة ، تعمل على أبراز وجودها وتعزيزه . ومن ثم ينضم الى النواة قلة من الفلاحين المعدمين ، وبعض الشبيبة الواعية من الطبقات الأخرى . وبذلك تمتلك جرأة أعظم وتبدأ في العمل ضمن الأماكن المأهولة ، عاملة على توطيد صلاتها بسكان المنطقة . ومن هذه النواة سوف ينبثق رجال ونساء تحكمهم تربية سياسية وعسكرية واحدة صلدة ، وتأتي مهماتهم التاريخية للاضطلاع بها بصبر ثوري : ادارة وتطوير الحرب الثورية .

وهنا نتوقف لنقول : ينبغي على رجال الطليعة ، ان يتميزوا بناحيتين اساسيتين : الأولى ،

امتلاك الحس السياسي الثوري ؛ والثانية ، ان يتوفر لهم الاعداد والتحضير الفني ــ الثوري الضروري . فالرجال الارقى تدريباً ، والاكثر خبرة واستعداداً للعطاء والذين ينذرون انفسهم للحرب الثورية ، هم نواة الثورة الاصيلة . انهم بالتأكيد الرجال المحاربون ، وليسوا البيروقراطيين والانتهازيين التابعين في البناء التنظيمي الحزبي ولا فرسان النقاش في الصالونات ، ولا مدبجي القرارات التي تظل حبراً على ورق(٤) .

يجب ملاحظة ، ان الاستراتيجية الثورية هي استراتيجية اقناع ، وعلى النواة الثورية ان تلجأ الى استخدام الحرب الثورية ، التي تعتبر بجوهرها استراتيجية النوازع العنيفة المرتكزة الى المحاكمة العقلية ، والتي لا تحتاج الى رجال خارقين ؛ بل الى رجال قادرين على نكران الذات ، والتضحية بكل شيء وربما بالحياة ؛ قادرين على الصمود والعناد ، وتحمل الجوع لأسابيع . ويبقى المقياس الاساسي لنجاح أية نظرية ثورية ، في ان يطبقها معتنقوها ويترجموها في الواقع .

في هذا المجال ، يجدر بنا ان نلقي الضوء على الدور الحي والفعال للقيادة التاريخية للحركة الثورية . فليس من نافلة القول ان نشير الى الأهمية الحاسمة لشخصية ماو التي قل نظيرها ، كفلاح ، ومثقف ، واستراتيجي ، وفيلسوف ، وأخلاقي ، في قيادة الحرب الثورية الصينية نحو النهاية الظافرة . وهنا ، لا يسعني الا الاكتفاء بهذا المثال الحي لامثلة عديدة مشابهة ورائدة ، في فيتنام ، وكوبا ، والجزائر الخ ...

ان نكران الذات وضرب المثل في التضحية والفداء ، واشتراك القادة مع المقاتلين في تحمل التقشف على مختلف الصعد ، وفي العمل الدؤوب والتدريب ، من شأنه ان يخلق بالضرورة وينمي روح الكفاح الصلب في مجرى عملية تحقيق الهدف المشترك ، وعلى القائد ان يتميز بالشجاعة ، ودماثة الخلق ، وسرعة البديهة ، وهدوء الاعصاب ، والديناميكية الواعية المبادرة ، كي ينال ثقة رجاله الذين يتخذون من خصائص شخصيته نموذجاً حياً يقتدى في اقصى وادق الظروف خطورة ومسؤولية .

لقد ثبت بالتجربة ، ان كفاح الشعب المسلح هو الاكثر حسماً ، في تشكيل كوادر ثورية ، من تجربة سياسية لا علاقة لها بحرب العصابات الثورية . ومن السخف الاستمرار في الحديث عن التناقض بين الملاكات السياسية والملاكات العسكرية ، وبين القيادة السياسية والقيادة العسكرية . اذ ليس باستطاعة السياسات المحضة ، التي تتوجه الى البقاء هكذا ، ان تخدم الكفاح المسلح للشعب . اما العسكريون الخلص فانهم يخدمون هذا الكفاح . فهم من خلال ممارسة حرب العصابات ومعايشتها ، يصبحون ايضاً سياسيين . فالكفاح المسلح الثوري ذو جوهر سياسي دائماً(٥) .

وفي الاتحاد السوفياتي ، ابان الحرب العالمية الثانية ، كان الحزب الشيوعي ، من أكبر مسؤوليه الى أصغرهم ، يشرف على حرب العصابات . وكان كل شيء يأتي من الحزب : القادة والعقيدة والعون المادي . ان الحماس الثوري والجرأة والشجاعة في القتال والمهارة والعناد الذي تحلى به المقاتلون الثوريون ، كانت كلها مستقاة من الحزب ومن الايحاء الروحي للايديولوجية الشيوعية ، وقد أشارت احدى مذكرات القيادة العليا الألمانية الى ما يلي : « ... لهذا الغرض ، اجتاز الخطوط اعضاء من الحزب ، ورجال متحمسون موثوق بهم ، وضباط

محترفون ، تلقوا تدريباً خاصاً خلال فصل الشتاء ، ومن لم يجتز الحدود نزل بالمظلات خلف خطوطنا . وكانت مهمتهم تحويل الأنصار الى اداة قتال حقيقية ، ولقد تحققت هذه المهمة بكل نجاح »(٦) .

أما بالنسبة لانطلاقة الثورة الجزائرية ، فقد رسمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل ، منذ البداية ، خطا سياسيا واضحا جداً ، استهدف في الوقت ذاته الاعتماد على التقاليد الاسلامية . ومارست ارهاباً شديداً ، كمم بسرعة شديدة أفواه الشعب أمام السلطات الفرنسية . وتجنبت اللجنة بذكاء حاد كل مجابهة مباشرة مع القطعات الفرنسية . وتم اللجوء الى الانقضاض المفاجيء ، والكمائن ، والاغتيالات على مختلف أنواعها .

وغني عن البيان ، أنه سوف يتعرض كل من التنظيم والمقدرة على القتال ، والبطولة والروح المعنوية التي تتمتع بها العصابات ، الى اختبار بالنيران عند حصار العدو . بيد ان الحصار ليس بالمعضلة الخطرة بالنسبة لجماعة من العصابات عارفة بالارض وملتحمة برئيسها من الناحية العقائدية والعاطفية .

ويجب التنبيه هنا ، الى الاخطاء الكبيرة التي قد ترتكبها القيادة الثورية على كل المستويات ، في أسلوب العمل والتخطيط وطريقة القيادة ، وأهمها النظرة الذاتية للامور ، واللاموضوعية ، والبيروقراطية ، وروح أصدار الأوامر ، والعقلية الضيقة ، والعجرفة ، وتقديم المؤسسات على الأفعال . وقد تعمد حركات ثورية ناشئة لا يزيد عدد أفرادها عن عشرات الرجال ، حتى قبل أن تبدأ العمل ، الى اعداد نظام داخلي أكثر تعقيداً وأبهاماً من النظام الداخلي في وزارة ؛ نظام مليء بالوصايا والمهام ، كما لو ان جدية الحركة الثورية تقاس بعدد تقسيماتها ، وأشكالها التنظيمية التي تستبق المحتوى المطلوب تنظيمه(٧) .

ثم ان هناك المصابين بمرض جنون العظمة ، الذين يركضون وراء مركز أو رئاسة . وهناك آخرون ينغمسون في الركض وراء الطعام الجيد والثياب الفاخرة ساعين لتحويل الممتلكات العامة لمصلحتهم الخاصة ، منتهكين صلاحياتهم ومراكزهم لينغمسوا في المبادلات التجارية لكي يصبحوا اغنياء، وهم يفكرون بمصالحهم الخاصة أكثر مما يفكرون في المصلحة العامة . وليس هناك ، بالنسبة لهم ، أية قيمة للسجايا الثورية والرأي العام . وهناك حقيقة اكيدة أيضاً ، أنه يبقى خارج التنظيم الثوري، العديد من الناس الموهوبين والاكفاء، يتعين الاستعانة بهم او تنظيمهم.

والجدير بالملاحظة ، انه لا ينبغي للذين يتصدون للعمل الثوري أن يأملوا في كسب النصر متجاوزين الحدود التي تحددها الظروف الموضوعية ، ولكن من الممكن ، بل من الضروري ان يسعوا بنشاطهم الواعي الى كسب النصر في نطاق تلك الحدود عينها . فالافكار وما شاكلها شيء ذاتي ، أما الممارسة العملية فهي التي تنقل الذاتي الى الموضوعي . وان جميع الأفكار المستندة الى الحقائق الموضوعية والمتفقة معها هي أفكار صحيحة . كما آن الممارسة العملية المسترشدة بالأفكار الصحيحة هي أعمال سليمة . وعلينا ان نطور مثل هذه الافكار العملية ، حتى نطور مثل هذا الدور الفعال الواعي . ويجب ان نكرس الكثير من الوقت لاقامة الأدلة المحسوسة على الأعمال ، والقليل من الوقت للحديث عن النظريات الفارغة .

اذا كانت الكوادر موحدة يصبح ممكناً عمل أي شيء . لذا يجب ان تكون الكوادر والقادة محبوبين من قبل الشعب ، وان يكسبوا ثقته واعجابه ، وان تكون صلتهم قوية به ، يتعلمون من الشعب ويعلمونه . وعقاب النظرة الفوقية الى العناصر وعامة الشعب على أنهم مجموعة من الدهماء ، هو أنهـا تؤدي بالحركة الثورية الى عزل القيادة عن الجماهير .

ان طاقة القادة على العمل الأمين والشجاع ، ومعرفتهم العسكرية ، وتمتعهم بذكاء وقاد ، وقدرتهم على التكيف بسرعة مع الظروف المتغيرة ، واخلاصهم : كلها شروط لا غنى عنها لوضع الخطط وانجاز المهمات . أما مرونتهم في التقدير السليم للموقف على ضوء الاحوال الموضوعية ، وانجاز التدابير الملائمة في الوقت المناسب فانها تصل بهم الى براعة التصرف ، في الحصول على انتصارات مناسبة ومستمرة .

العصيان المسلح

يلجأ المضطهدون في عصرنا الى استخدام القناع الديمقراطي ، ويستخدمون أساليب الرشوة والتدجين والدس لتفتيت وحدة المضطهدين ، وتضليل وعيهم بالظلم والقهر . ولكن تطور النزاع يجعلهم يخلعون القناع بحس سهولة ويتجاهلون الشرعية ويستخدمون القوة العسكرية لسحق الجماهير ، التي لا يمكن ان ترد على العنف الا بالعنف ، فليس العنف حقاً موروثاً لمن يستغل الآخرين ؛ اذ يستطيع ضحايا الاستغلال بل ومن واجبهم ان يستخدموا العنف في اللحظة المناسبة(٨) .

ويمكن تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية ، بواسطة تمرد الجماهير الثوري . وعلى الطليعة الثورية ان تستفيد من هذه الحركات الجماهيرية بتشكيل جماعات من الانصار تشن الحرب الاهلية فوراً اذا سمح الوضع بذلك . وينطبق هذا بصورة خاصة على البلدان التي تتسم بتيار ثوري قومي قوي .

يأخذ العصيان شكلا ثوريا ، عندما يستند الى ايديولوجية قادرة على استقطـاب الجماهير ، وانتزاع تعاطف عناصر عديدة من معسكر الخصم ، وبين صفوف المحايدين . والحقيقة ان اعتماد إيديولوجية ديناميكية ، يعطي العصيان امكانات كبيرة مرموقة ويسمح بزرع بذور العصيان في المناطق المختلفة . ويستطيع العصيان ، بفضل الارهاب ، ايقاف سيل المعلومات المستقاة من السكان ، أي تخفيف مستوى الأمن الذي كان الغزاة يتمتعون به . ويسمح اعتماد الايديولوجية الديناميكية ايضاً بربط علاقات وثيقة داخل البلدان المحايدة ، والحصول على مساعدة معنوية ومادية من البلدان المتعاطفة مع الايديولوجية التي ينادي بها العصيان ؛ الأمر الذي يسمح بخلق نوع من التنظيم المسلح المدعوم بالايديولوجية المختارة(٩) .

ونظراً لاستحالة تحريك الحركة الثورية الا بنظرية ثورية ، فانه يجب تركيز الجهود على المنظمة السياسية العسكرية . وحتى لا تتجمد السياسة الثورية ، يجب ابعادها عن السياسة المجردة . وحتى يتم وضعها في مسيرتها الصحيحة ، يجب توظيفها في إطار سياسي ـ عسكري في الوقت نفسه ، تجاوزاً لكل الصراعات الكلامية القائمة ، وتدعيماً للديناميكية الثورية .

ينبغي ان يستقر في الذهن ، أن هناك حداً أدنى لا يمكن بدونه ارساء القاعدة الاولى للعصابات أو تدعيمها ؛ اذ يجب ان تكون الجماهير قد ادركت بوضوح حماقة الابقاء على النضال من أجل الأهداف الاجتماعية والوطنية ضمن اطار المساجلة المدنية ، فعندما تقوم قوى التسلط بفرض نفسها بالقوة ، يعتبر أن السلام قد انتهك مسبقاً ، وفي هذه الحالة يعبر السخط الشعبي عن نفسه في اشكال أكثر حيوية ، ويتبلور موقف المقاومة اخيراً في انفجار نضالي .

والوعي السياسي شرط لازم وأساسي كيما يفهم المقاتلون أن تنفيذ المهمة وتقديم الروح رخيصة خلال ذلك ، هو تنفيذ طوعي لخدمة هدف مشترك . وان المناقشة واستطلاع الآراء لا يستهدفان سوى دفع تنفيذ المهام الى الأمام .

وحرب العصابات ليست مغامرة جميلة ، ولا هي غاية في حد ذاتها ؛ انها ليست الا اسلوباً للوصول الى غاية ، وهي التحرير واستيلاء الشعب المغلوب على السلطة السياسية . فالعصابات الثورية ، سرية ، تولد وتتطور تحت الأرض ، والمناضلون انفسهم يحملون اسماء مستعارة في المرحلة الأولى ، واذا ما قررت العصابات الظهور ، فسيكون ذلك في الزمان والمكان اللذين تختارهما القيادة . والعصابات الثورية في عملها وفي تنظيمها العسكري مستقلة عن السكان ، وليس من واجبها تحمل مسؤولية الدفاع المباشر عنهم . فحماية السكان ترتكز على التدمير التدريجي للآلة العسكرية التي يملكها العدو ، ويصبح السكان في مأمن تام ، عندما تصبح القوى المعادية عاجزة عن القتال(١٠) .

يقول لورنس : « الجيوش شبيهة بالنباتات الثابتة التي ضربت جذورها بقوة في الارض والتي تتغذى عبر سيقان طويلة تمتد من أسفلها حتى ذروتها . ان بوسعنا [العصابات] ان نكون غازاً ، وروحاً تتحرك حيثما تريد ، ولم نكن نقدم أي شيء مادي للمذبحة ، نظراً لأننا لا نحتاج لأي شيء مادي »(١١). فالجيوش في حاجة ماسة الى قواعد امداد ومناطق ادارية لتأمين احتياجاتها الضخمة ، عبر طرق مواصلات جد طويلة ، يمكن قطعها في أكثر من مكان وباستمرار ، مما يؤدي الى ارباكها وتشتيت قواها .

والعصابات سلاح الطرف الاضعف ، وتأتي فاعليتها من ان خصمها لا يملك ابداً القوى الكافية للسيطرة على الأرض كلها . وتكمن قوة العصابات في قدرتها على تمييع القتال واجبار الخصم على بعثرة جهوده . فالعصابات تستمد قوتها وخاصة قدرتها على البقاء من صفتها البدائية البسيطة : انها حرب ازعاج لا تحتاج الى قوة كبيرة ، وتستمد فاعليتها من حركتها وندرة احتياجاتها . والخطأ القاتل لقادة العصابات يكمن في البحث عن تحقيق المهابة الشكلية للقوات النظامية . فالمهمة الأولى للعصابات ان تبقى موجودة ومختفية ، وأن تقوم بانسحابات استراتيجية عند اللزوم أكثر من ان تثبت أمام الخصم ، فثباتها أمام الخصم المتفوق يعني الانتحار .

ورغم ان القوات الجوية في الوقت الحاضر ، خلقت استحالة وجود قاعدة حصينة كلياً ، وزادت من امكانيات اكتشافها زيادة كبيرة ، فانه يلزم العمل دوماً على ايجاد مواقع بديلة ، وان يتم تدريب الرجال على نقل مراكزهم بسرعة ، واختيار الأماكن العالية التي تسيطر على منطقة واسعة نهاراً ويتعذر الاقتراب منها ليلا .

وشرط المحافظة على أفضل العلاقات الودية مع السكان المحليين ، لا غنى عنه للعصابات الثورية ، فهي تعتمد على مساعداتهم في انجاح عملياتها ، فبامكانهم خيانتها اذا أرادوا وعليها ان تختار نقاط تجمع مخفية يلجأ اليها الرجال في حالات الطوارىء ، كما ان عليها انشاء مخابىء للسلاح والذخيرة والطعام والماء والادوات الطبية . وعلى الذين يقودون زمر المقاتلين ان يدرسوا الأهداف المحتملة وان يستكشفوا الطرق المؤدية اليها ، ومناطق التجمع البديلة التي قد يستفيدون منها فيما بعد . ويجب على كل فرد ان يدرس المنطقة دراسة وافية ، وان يتعرف على أسلحة العدو التي يستخدمها ، فقد تكون مصدر امداد للمقاتلين (١٢) .

غالباً ما لا ينتقي الجيش ساحة معركة ، بينما يملك الانصار دوماً اختيار المكان والزمان لضرباتهم . ويحتل الجيش دائماً جبهة متصلة ، بينما يعمل الانصار بنظام منتشر . لذا فحاجتهم الى تنسيق مع الجوار أقل بكثير من حاجة الجيش . ويزداد صدق هذا القول لسبب آخر ، هو ان تعرض عصابة من الانصار للفشل يجعلها تتحمل وحدها نتائجه ، ولا تؤثر هذه النتائج بالضرورة على بقية العصابات ، بينما نجد العكس في الجيش النظامي . وتتمتع العصابات باستقلال ذاتي واسع . فهي تتمون ذاتياً ، ولا تحتاج الى بزات أو أسلحة ثقيلة أو وسائط نقل ، وليس لقطعاتها وحدات احتياطية ومعسكرات ثابتة ؛ انها قوات خفيفة بلا مؤخرات وبلا مشاكل ادارية تقريباً . فقوة العصابات المروعة لا تعتمد بلا شك على قوتها العددية أو أسلحتها الثقيلة ، ولكنها تعتمد اساساً على الهجمات المفاجئة والكمائن والسرعة في الاختفاء (١٣) .

علينا ان نتذكر دوماً ، ان غزو الأرض واحتلالها ليسا مهمة من مهمات عناصر العصابات ، والواقع انهم لا يقاتلون اساساً للتشبث بالارض ، فمهمتهم الرئيسية هي تشتيت العدو وانهاكه بالهجمات المفاجئة واعمال التخريب الواسعة والانسحاب بسرعة بعد تنفيذ ضرباتهم .

تلجأ العصابات في منطقة ما الى مشاغلة أكبر عدد ممكن من قوات العدو لأسباب تتعلق بأمنه . وللوصول الى هذه النتيجة ، على رجال العصابات ان يقوموا بسلسلة متواصلة من الهجمات الصغيرة ضد العدو على أعرض جبهة ممكنة . ولكن ليس من المناسب ان تقاتل جماعة العصابات في مواجهة قوة معادية ضخمة جداً ، أو عندما لا تكون القوة المعادية ضخمة ، ولكنها قريبة جداً من قوات العدو الاخرى ؛ فالعصابات الثورية هي الجانب الاضعف ، ويجب ان يكون هدفها المحافظة على النفس حتى تستمر في استنزاف العدو وتشتيت قواه ، والتدرج في تنمية قواها المادية والمعنوية وكسب الشعب الى جانبها . وهذا يدعوها الى تبني المبدأ الصحيح واللائم لها وهو « أضرب واهرب » ، وما يتطلب تنفيذه من مواصفات بدنية ونفسية راقية لمحارب العصابات .

يقول غيفارا : « محارب العصابات فرد يشارك شعبه التوق الى التحرير ، وانه حينما تستنفذ الوسائل السلمية ، يبدأ القتال جاعلا من نفسه طليعة مسلحة للشعب المناضل . وعليه ، يجب ان تجتمع له الصرامة التي يولدها فيه كبح النفس ، الى جانب ما تمليه صعوبة ظروف الحرب من قلة مبالاة بجسده ، فهو مطالب بأن يكون ناسكاً . وهو محتاج الى بنية حديدية تمكنه من مقاومة كل الشدائد دون ان يسقط من الاعياء ، فهو يغدو بفضل تكيفه الطبيعي جزءاً

من نفس الأرض التي يحارب عليها . وأفضل سن لمحارب العصابات تتراوح بين ٢٥ و ٣٥ سنة ، فهي مرحلة تتخذ حياة أغلب الأفراد فيها شكلها المحدد ، وأي امرىء ينطلق في هذا السن ، هاجراً بيته وأطفاله وعالمه جميعاً ، لا بد ان يكون قد فكر جيداً في مسؤوليته ووصل الى قرار ثابت بأن لا يتراجع قيد خطوة . على ان هناك حالات فوق العادة لاطفال قد بلغوا أعلى المراتب في جيشنا الثوري بوصفهم من المحاربين ، الا ان ذلك ليس بالحال الاعتيادي . ففي مقابل كل واحد من الذين ابدوا صفات نضالية عظيمة ، هناك عشرات اضطررنا الى اعادتهم لبيوتهم وكثيراً ما شكلوا عبئاً خطيراً على جماعة العصابات »(١٤) .

ومحارب العصابات مقاتل ليلي ، فيجب أن يكون ماكراً ، وقادراً على السير الى مكان الهجوم عبر السهول والجبال دون ان يلحظه أحد ، ويجب ان ينقض على العدو فجأة ، مستفيداً من عامل المفاجأة ، يهب كالاعصار مكتسحاً كل شيء ثم يختفي بسرعة .

وتعمد قوات القمع عادة الى مهاجمة مناطق العصابات وتطويقها وتمشيطها لاجبار العصابات على الدخول معها في معركة تقليدية ضد قوات متفوقة ، لمنعها من فوائد الحرب السرية وقبل ان تضرب الادارة الثورية بجذورها داخل صفوف الجماهير . ولا تستطيع العصابات ان ترد على ذلك الا بالمبادأة وشن الهجمات التعرضية الدائبة . على مدن العدو وطرق مواصلاته ، بشكل يجبره على بعثرة قواه لحماية اهدافه الحيوية ويحرمه التفوق اللازم للهجوم . وعلى العصابات أيضاً ، عند تنفيذ عملية ما ، ان تحشد لها قوة ضاربة تفوق الحاجة ليكون انتصارها مؤكداً .

ويقدم نظام انغيت ـ مينه الآتي ، كأحدث تكتيك ذكي حول حرب العصابات :

١ ـ التظاهر بمهاجمة نقطة ، والانقضاض على نقطة أخرى بغية منع العدو من الاحتراس .

٢ ـ الظهور طوراً والاختفاء طوراً اخر، بشكل يجعل العدو يجهل مكاننا الحقيقي ويتعذر عليه مهاجمتنا

٣ ـ تحاشي نقاط العدو القوية ، ومهاجمة نقاطه الضعيفة .

٤ ـ اختيار الوقت المناسب للتقدم أو للتراجع . ان علينا ألا نقاتل بتهور أو عناد ، وان لا نعدو مسافة كبيرة أو نبقى في مكاننا فترة طويلة من الزمن .

٥ ـ اجراء الهجوم والابادة والانسحاب بسرعة ومرونة بشكل يمنع العدو من العمل ، أو جلب القوات لتطويقنا .

٦ ـ عدم الاشتباك في المعركة الا اذا كان النجاح مؤكداً(١٥) .

ومن الامور التي لا غنى عنها لمحاربي العصابات ، المعرفة الجيدة بالمنطقة المحيطة بهم وبالمداخل والمخارج وبامكانيات المناورة السريعة ، وبأماكن الاختفاء الصالحة ، وعليهم بالبديهة ان يعولوا على تدعيم الشعب لهم . فمن المستحيل القضاء على العصابات اذا كان الاهالي يقدمون لها كل عون ومساعدة . وحتى عندما تتفوق حركية العصابات على حركية خصومهم ، فانها لا

تستطيع العيش بدون السكان المحليين ، لأن هؤلاء يقدمون للعصابات جهازاً كاملا لاستطلاع العدو ، تستفيد منه بدرجة كبيرة .

والعدو المحصن ليس بالفريسة السهلة عند محاربي العصابات ، انما يفضل ان يكون العدو متحركاً وعصبياً ، على غير دراية بالأرض ، فهو مذعور من كل شيء وليس أمامه تحصينات طبيعية تعينه على الدفاع . ان تصفية شاحنة من ناقلات جند العدو ، بالاضافة الى ما تسببه للعدو ، فيها من الدعاية السياسية العميقة التي تستثير السكان وتجعلهم ينضمون للعصابات ، أكثر من مئتي خطاب ثوري بليغ .

كان عنصر المفاجأة ، الى أمد قريب ، حكراً على العصابات ، ولكن الطيران أعاد التوازن في هذا المضمار ، وتستطيع القوات المضادة للعصابات استخدام الطيران لاجبار العصابات على الوقوف موقف الدفاع . وذلك بالاضافة الى وحدات كوماندوس المطاردة المجهزة والمسلحة بشكل يتلاءم مع مهامها ، والمستعدة للقتال والمعيشة فترة طويلة من الزمن بوسائلها الخاصة ، وما لها من تأثير وفاعلية قوية ضد العصابات ، مما يزيد في صعوبة أدائها لمهامها[١٦] . ولكن يبقى ما تتمتع به العصابات من حسم وتضحية وسرعة في الحركة والاختفاء ، واعتمادها على دعم ومساندة السكان يجعلها الأقدر على مفاجأة العدو والايقاع به .

وتحتوي مصنفات الجيش الألماني عدداً كبيراً من التقارير عن حرب الانصار السوفيات ابان الحرب العالمية الثانية . وعند قراءة هذه التقارير نحس باليأس تزداد حدته بين الالمان . ويمكن فهم سبب ذلك بسرعة ؛ فالانصار السوفيات كانوا يضربون في كل مكان ، والقوات التي كانت تزج ضدهم لم تكن قادرة على تجميدهم في أي مكان من الأمكنة ، والاشتباك معهم بصورة جدية .

ونقرأ فيما كتبه الجنرال السوفياتي بونو مارنكو مبلغ الخسائر التي أوقعها الانصار بجيش هتلر النازي ، حيث يقول : « طبقاً للمعلومات الواردة ، وخلال سنتين من سنوات حرب الأنصار على مؤخرات الألمان ، قضي على أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جندي منهم ٣٠ جنرالا ، وأخرج عن الخط الحديدي ٣٠٠٠ قطار ، كما دمر ٣٢٦٣ جسراً من جسور الطرق والسكك الحديدية و ١١٩١ دبابة وعربة مدرعة ، و ٤٧٦ طائرة ، و ٣٨٧ مدفعاً ، و ٦١٨ عربة أركان ، و ٤٠٢٧ عربة نقل ، و ٨٩٥ مستودعاً ومخزناً »[١٧] . ورغم ان حرب الانصار تلك لم تكن العامل الحاسم في الحرب ، فانها بالتأكيد ، كانت انجازاً رائداً وملهماً لكل من انحازوا لقضايا الشعوب وتبنوا الحرب الثورية طريقاً للخلاص .

فعالية الحرب الثورية

من خلال الرؤية الموضوعية ، يجب ان نؤكد ان النضال من أجل تزاوج النظرية الثورية مع التطبيق ، هو نضال الحد الأعلى من الفعالية . فالفعالية لا تتعارض مع النظرية ، بل تتعارض مع النظرية المنفصلة عن التطبيق الثوري . إن الحاجة الى الفعالية الثورية ، باتت تضرب الأبواب بشدة ، غير ان هذه الحاجة اذا لم تتزاوج مع العقل ، فانها لن تنجب أية ثمرة[١٨] .

والخصوصية الأساسية للعصابات الثورية ، هي الحركية ، فهي التي تسمح للعصابات بأن تبتعد في دقائق قليلة عن مسرح معين ، بل عن منطقة بأسرها اذا غدا ذلك ضرورياً . وهي التي تمكنها من تغيير الجهة وتجنب أي نوع من الحصار ، ومن ثم ان تركن للفرار من التطويق الذي هو الوسيلة الوحيدة بيد العدو لارغام جماعة العصابات على اشتباك حاسم قد لا يكون مرغوباً فيه . والحركية هي التي تمكن العصابات ، فضلا عن ذلك ، من أن تقلب المعركة الى حصار مضاد . وسواء كانت العصابات مبعثرة أو مجمعة ، فان عليها ان تضع مخطط عمل يأخذ جميع الاحتمالات بعين الاعتبار ، ويحدد السلوك الواجب اتباعه ، وعلى كل وحدة موزعة ان تكون مستعدة للتجمع بسرعة ، كما ان على كل وحدة مجمعة ان تكون قادرة على التبعثر عند الضرورة ، ولا يمكن الحفاظ على المبادأة القتالية للعصابات بشكل دائم الا اذا احسنت استخدام التبعثر والتجمع في اللحظات المناسبة .

والثورة لا تتبع خطاً مستقيماً الى الأمام ، بل تتعرض لمد وجزر ، وتنتقل من ذرى الانتصارات الى وهدات الهزائم . ومن خلال هذا الطريق الطويل ، تتمرس القوى الثورية وتتعلم كيف تقدر قوتها وقوة عدوها ، ثم كيف تعدل سياستها وتكتيكاتها وأساليبها ، لتندفع بعد ذلك بزخم جديد .

والدفاع الذي يمكن للعصابات الثورية ان تتبناه ، هو ذلك النوع من الدفاع المرن والفعال المبني على الطلعات التعرضية والاغارات المستمرة في مواجهة العدو المتوقف ، والتراجع الارادي والهجمات المعاكسة المحلية ضد العدو المتقدم ، والمطاردة الحثيثة ، والكمائن المتواترة وعمليات الاعاقة والازعاج في ملاحقة العدو المنسحب . يقول هوشي منه : « يجب ان تعملوا بمهارة فائقة ، بسرعة ، بسرية ، وان تكون لديكم القدرة على تفريق قواكم او تجميعها حسب ما تقتضي الظروف . ويجب عليكم ان تفيدوا من التجارب في كل ساعة وفي كل يوم ، ويجب ان تكونوا يقظين ضد الخونة والجواسيس ، ويجب ان تكونوا موحدين بصورة مطلقة »(١٩) .

أما فيما يتعلق بقوى القمع ، فان القطعات الاسرائيلية الخاصة وكافة القطعات المبنية على غرارها تتلقى تربية ايديولوجية ونفسية خاصة ترفع مستوى الحقد والعنف والروح العدوانية لدى افرادها . والحقيقة ان سفك الدماء غدا جزءاً من طباعهم ، وتغلبت روح المقاتل عندهم على روح الانسان . ولتجنب نقاط العدو القوية ، وقلبها الى نقاط ضعف ، لا بد لجماعة العصابات من استخدام السرعة ، كما ينبغي اجراء كافة اعمال الانقضاض والانسحاب والرمي بسرعة بالغة . وعلى كل مقاتل ثوري ان يصل الى تحطيم معنويات العدو منذ لحظة الاشتباك الاولى بفضل قدرته القتالية وشجاعته النادرة . وعلى كوارد ومقاتلي العصابات ان يصمموا على تدمير العدو تدميراً كاملا وقتله وانتزاع سلاحه . فانه اذا ما تعذر على العدو أخذ زمام المبادرة وقعت قواته في السلبية وأصبحت تحت رحمتهم .

والغريب أن العدو المتفوق على جماعة العصابات بالتقنية والتسليح والعدد ، يهرب أمام هجماتها السريعة الحاسمة ، ولا يتجرأ على التقدم الا تحت حماية طيرانه ومدفعيته ، ويرجع ذلك — اضافة الى ايمان المقاتلين الثوريين القلبي وقناعتهم الفكرية بقضيتهم الثورية — الى ان جنود العدو لا يتمتعون بروح قتال عالية ، ولا يثقون بقواتهم أو رؤسائهم تمام الثقة ، وقد لا يتساندون بل يزدري بعضهم بعضاً . فعندما لا يكون هناك قضية واضحة وعادلة يحارب

الجيش في سبيلها ، يصبح استخدام الحرب ضد الثورة ، وسيلة عقيمة ، وغير ملائمة : أنها أشبه بمن يأكل الحساء بالكسين[٢٠] .

على المقاتل الثوري ان يكون في تنقل دائم ، حاملا معه حاجاته الضرورية حتى يتمكن من الاختفاء عدة ايام والانقضاض على العدو فجأة . فبقاء المقاتل الثوري في موقع واحد يجعله عرضة لاكتشاف العدو الذي قد يضعه في موقف حرج جداً . وعلى مقاتلي العصابات ان يكونوا غازاً لا يراهم العدو ، وعيوناً حادة وآذاناً مرهفة ترى وتسمع كل حركاته .

والقول الصيني المأثور : أعرف نفسك واعرف عدوك ، فان فعلت كنت قادراً على خوض مئة معركة دون كارثة واحدة » ، قول له قيمة كبيرة . ومع أن جميع السكان تقريباً في منطقة العصابات او التي تقوم فيها بغاراتها هم عناصر استخبارات لها ، فان من دواعي الحكمة ان يكون هناك اشخاص معينون توكل اليهم هذه المهمة[٢١] .

ويعمد العدو الى مهاجمة العصابات عندما يعلم بأن التطويق وهجمات كوماندوس المطاردة غير كافية لابادتهم ابادة كاملة . وهو يستهدف من ذلك أخراجهم من مواقعهم واجبارهم على ترك مسارح عملياتهم الحالية . ولما كانت جميع اعمال العصابات ، كأختيار الاهداف والمفاجأة والهجوم الصاعق ، والتبعثر المفاجىء ، والانسحاب السريع ، تعتمد على المعلومات . فإن العصابات التي تترك مكان عملها الاصلي الذي تعرفه جيداً ، ويعرفها فيه السكان معرفة وثيقة ، تضطر الى تحديد عملياتها ، والوقوف بسلبية فترة من الزمن حتى تتمكن من تأسيس استخبارات جديدة .

يجب ان تكون وحدة العصابات عارفة بالتضاريس في منطقة عملياتها معرفة تامة ، ويجب ان تفكر ملياً بالوسائل التي تمكنها من الظهور في مكان لا يتوقعها فيه العدو ، سالكة طرقاً سرية خفية ، مثل الاودية والغابات والممرات الضيقة المتعرجة ، حتى تستطيع الاقتراب كثيراً من العدو والانقضاض عليه متتبعة مبدأ « هزيم الرعد لا يترك وقتاً ليغطي المرء اذنيه » ، ثم تتلاشى دون ان تترك أثراً[٢٢] .

وعلى مقاتل الحرب الثورية الاكتفاء بالدفاع السلبي انتظاراً لهجوم العدو . يقول ماو : « اذا تقدم العدو انسحبنا أمامه ، وان توقف بدأنا ازعاجه ، وان وجد نفسه متعباً هاجمناه ، وان تراجع طاردناه ... أما فيما يتعلق بالمكان الذي يجب ان ننسحب اليه ، فانه ليس من المناسب ان نسير مسافات طويلة على الطرق الرئيسية حتى يتتبعنا العدو حتى النهاية . واذا ما ظهر العدو امامنا ، يجب ان نلتف في دائرة حول مؤخرته ، واذا كان العدو على الجبال يجب ان ننحدر الى الأودية ، وعندما نأتي في انسحابنا الى تقاطع طرق ، يمكننا ان نخلف بعض الحاجات عن قصد في الفرع من الطريق الذي لم نختره ، أو نرسل ثلة صغيرة من رجالنا على هذا الطريق »[٢٣] .

يجب اقتناص كل فرصة متاحة لمهاجة مراكز قيادات العدو وأسر وقتل ضباطه وقادته . فبمهاجمة المراكز القيادية يتم ضرب مراكز تفكير وتخطيط العدو ، ومن المحتمل ان يؤدي هجوم مخطط تخطيطاً محكماً الى شل قيادة العدو في لحظة حاسمة . وعند تحقيق النجاح في الهجوم لا بد لجماعة العصابات من العمل بسرعة من جمع الأسرى والتقاط الغنائم ، ثم تدمير ما لا يمكن الافادة منه ، واخلاء القتلى والجرحى من رجالها واعطاء اشارة الانسحاب . وعلى الوحدة ألا

تنسحب كلها مجمعة ، بل تنقسم الى عدة مفارز تسلك كل واحدة منها سبيلا مستقلا ، بشكل يؤمن حمايتها من رمايات المدفعية والطيران ، ويضمن سرعة الانسحاب ، بحيث يكون هذا الانسحاب منظماً ولا يأخذ شكل الفرار .

وتكمن فعالية الحرب الثورية التي تستخدم الحركية الدائمة ، والانقضاض المدمر ثم التلاشي بلا أثر ، في ارباك العدو وتحديد تحركاته وحرمانه من المبادأة ، مع اصابته بالاحباط والتجمد . وفي تقرير صحفي لمراسل حربي الماني هو كيرت كلاين شونفلد ، تحت عنوان « غابات الموت » ، نرى مدى اليأس والاحباط والبطء الذي أصاب القطعات الالمانية ، حيث يقول : « ... ثم كان الليل البهيم ، ومع نزوله حلت ساعات البطالة والانتظار الطويلة ، لأنه كان علينا أن لا نفكر بمتابعة الطريق في هذه الظروف ... ولم نستطع الوصول الى هدفنا قبل الليلة التالية ! لأنه كان علينا ان نجتاز ايضاً جسرين آخرين مدمرين وسداً . وفي الطريق انفجرت احدى سياراتنا حين مرت فوق لغم ، فأصيب رجل آخر ، واضطررنا الى التخلي عن سيارة أخرى من القافلة . الا اننا وصلنا في النهاية الى القرية التي نقصدها !! »(٢٤) .

أما دور المرأة في الحرب الثورية ، فانه غني عن البيان التأكيد على حيويته وفاعليته بل وضرورته . والواقع أنه مهما تكن وحشية الضغط ودقة التفتيش المعادي ، فلا شك في ان المرأة سوف تعامل بأسلوب أقل خشونة من الرجل ، ثم أنها قديرة على توصيل رسالتها أو حملها الى الوجهة المطلوبة . فالمرأة هي الأقدر على الوصل بين القوات المتباعدة ، وحمل الرسائل الى أقصى الخطوط بل الى أقصى انحاء البلاد . والمرأة ايضاً قادرة على القيام بأشق الاعمال وتحمل كافة التضحيات ، والنضال مع الرجل جنباً الى جنب . كما انها ــ خلافاً للاعتقاد الشائع ــ لا تتسبب في مصادمات ذات طابع جنسي بين المحاربين .

تطور الحرب الثورية

بما ان القوى الرجعية ضخمة وقوية ، وان القوى الثورية لا تنمو إلا بالتدريج ، فقد تطلب ذلك ان تكون الحرب الثورية طويلة الأمد استراتيجياً ، وسريعة متحـركة تكتيكيـاً . فالاستراتيجية والسرية في الحملات والمعارك هما وجهان لشيء واحد ، وهما مبدآن متساويان في الأهمية في الحرب الثورية الطويلة الأمد . والمستوى التكتيكي في الحرب الثورية هو مستوى الطرق والاساليب ، والارهاب وسيلة من وسائل الضغط الثوري ، يمكن تطبيقه على السكان الاصدقاء لمنعهم من تقديم المعلومات الى الخصم . وتحدد مطاردة الخونة بصورة عامة بداية الحرب الثورية . ويمكن توجيه الارهاب ايضاً الى اجهزة الخصم ، والى السكان في بلاد العدو ويستهدف الضغط في هذه الحالة ، إكراه الخصم على مضاعفة تدابير الحماية ، الأمر الذي يؤدي الى بعثرة قواه . بالاضافة الى ذلك ، فإن هذا العمل يؤدي الى تثبيت مهابة الثورة بالنسبة للسكان الاصدقاء . وهذا يعني أنه يعتبر وسيلة من وسائل الدعاية

يقول ماو : « عندما يتوقف العدو نناوشه ، ونزيد مضايقتنا باطلاق الرصاص في كل مكان ، لجعله مضطرباً في الليل والنهار . وهكذا نمارس تأثيراً كبيراً على كل من عقله وجسده ، وننتظر الوقت الذي تصبح فيه روح افراده المعنوية مضطربة ، واجسامهم مرهقة ، وعندئذ تستطيع قواتنا اذا ما اندفعت كلها مرة واحدة ان تبيده ابادة تامة »(٢٥) .

وتنحصر رغبة العدو في انه يريد الضرب والانتصار بسرعة . واذا طالت الحرب فسوف يمنى جيشه بخسائر فادحة وينهزم . وهذا يفسر السبب في تخطيط استراتيجية حرب المقاومة الطويلة الأمد . فمن أجل تطوير القوات الثورية وزيادة عددها وجمع المزيد من الخبرة الفنية ، يتم اللجوء لتكتيك حرب العصابات ، فتهاجم عدة أمكنة في وقت واحد حتى يجيء رد فعل العدو مضطرباً ومشتتاً ، وتروع قواته ويعوق بعضها بعضاً ، لانهاكها ، الى ان يأتي اليوم الذي تشن فيه القوى الثورية هجوماً عاماً كاسحاً تطهر البلاد منه

عندما يهاجم العدو ، ينبغي ان ترتب القوات الثورية أوضاعها بحيث تضع طليعته في كمين دائما . أنه من اهم الامور من الناحية النفسية ، ان يكون مصير افراد الطليعة المعادية هو الموت دون مهرب . وهذه النتيجة تزيد الشعور بالخطر بين جيش العدو ، حتى تحل لحظة يأبى فيها أي فرد ان يكون من الطليعة ، وهنا يقع العدو في السلبية(٢٦) .

والقدرة القتالية لوحدة العصابات لا تحددها الفنون العسكرية فقط ، بل تعتمد فوق كل شيء على الوعي والتأثير السياسيين، وتحريك الجماهير الشعبية الواسعة وانضوائها تحت لواء القيادة الثورية . ومن هنا يجب أن تكرس كل طاقتها ونقائها الثوري لتشجيع الشعب على الاقتداء بأعمالها وحفزه على محاربة العدو بفاعلية وان توجه عملياته القتالية .

يقول هوشي منه : « ان التحرر الوطني هو هدف عام لكل شعبنا . ويجب على كل فيتنامي ان يشارك فيه . فمن لديه المال عليه ان يقدم المال ، ومن لديه القوة عليه ان يقدم القوة ، ومن لديه الموهبة عليه ان يقدم الموهبة . انني أعد بتقديم كل قدراتي المتواضعة وأتبعكم ، وإني على استعداد للتضحية بكل شيء »(٢٧) . فالاستراتيجية الحسنة الفاعلة في دفع العدو الى حتفه ، تكمن قطعاً في تعبئة جماهير الشعب .

ومن مبادىء الحرب الثورية الهامة ، أنه لا ينبغي الاشتباك في أية معركة أو موقعة ، أو مناوشة ما لم يكن كسبها مضموناً . وان الأمل في نمو العصابات الثورية وتطورها في تبني أشكال القتال المختلفة حتى تصل الى الحرب التقليدية ، له من الاهمية ما للأمل في هزيمة العدو في كل المعارك والاشتباكات والمناوشات . وتبدأ العصابات المستقلة عملها بحرب العصابات ولكنها مضطرة أن عاجلا أو آجلا لأن تقاتل كقوة نظامية لتحقيق أهدافها ، وبالتالي عليها ان تتدرج في بناء جيشها الثوري حتى يصبح قادراً على اتباع استراتيجية الجيش النظامي .

ومع أهمية الحرب النفسية ، فانه ليس لها من أثر ما لم تكن جزءاً من الحرب الفعلية . فاذا تهاون الضغط العسكري لحظة ، فان الضغط السياسي على العدو يفقد رأساً نقطة الارتكاز ويهوي في الفراغ . يقول غيفارا : « وقد كان ضباط باتيستا يقبلون الحوار لأن الجنود كانوا يموتون كل يوم ، ولأنهم يرون حياتهم مهددة »(٢٨) .

ونتيجة لديناميكية الحركة الثورية الجزائرية ، أصبح لجبهة التحرير الوطني موالون فعالون في فرنسا ، وتمزقت الوحدة الوطنية ازاء الحرب الجزائرية ، ولم تتشكل بعد ذلك ابداً . وبجانب ذلك طورت جبهة التحرير عملها عبر البلاد المجاورة : في تونس والمغرب . وقد سمحت لها معونة الحكومتين المستقلتين ، وبفضل الاسلحة التي تسلمتها الجبهة من تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي بأن تشكل نواة جيش نظامي ، هو جيش التحرير الوطني الجزائري(٢٩) .

وتدل تجارب الحروب الثورية على ان الدعاية السياسية التي لا ترافقها عمليات حربية فعالة لا تثير لدى جنود الخصم سوى ابتسامة السخرية . على حين ان طول مدة الحرب الثورية وعنفها ونشاط الثوار وشجاعة القوات الثورية ، تعطي الدعاية الثورية قيمة أكبر من قيمتها الحقيقية . لقد تزايدت قوات ماو الحمراء بسرعة مطردة ، في حين كانت قوات تشانغ كاي ــ تشيك تتناقص في المقابل ، وكان ذلك بفضل تفاني وتضحيات الثوار ، وديناميكية الحركة الثورية الصينية . أضف الى ذلك ما اتسمت به الماوية من طابع أخلاقي خاص جداً ، وشكل من المثالية الثورية التي بعثها ماو في حركته الثورية(٣٠) .

ومما لا شك فيه ، أن تعاطف السكان وثقتهم في الحركة الثورية ، والانضمام اليها والالتفاف حولها وحمايتها ، تتزايد باطراد نتيجة انضباطها ونقائها الثوري واحترامها الأهالي واستهداف مصلحتهم ، بالمقارنة بما يلقونه من سوء معاملة العدو وعجرفته ونهبه لهم.

وتهدف الحركة الثورية ، أساساً ، الى انهاك العدو وتنمية قواها وتطوير قواتها الثورية ، تلك القوات التي تبدأ ضعيفة على المستوى العددي والفني والتكتيكي ، وقوية على المستوى المعنوي فحسب ، حتى تصل الى تحقيق التفوق على العدو ودحره ، عن طريق اطالة أمد الحرب .

القواعد وتوسيع بقعة الزيت

لا يملك العدو العدد الكافي من الرجال حتى يحرس كل الشوارع والبيوت والقرى . لذلك على كل القوى الثورية ان تجد الوسائل المناسبة لمساعدة العصابات في كفاحها من أجل اجتثاث الخونة وقوات العدو . وأهم دور للعصابات الثورية هو تشتيت قوات العدو على أرض شاسعة ، وتجميد تحركها عن طريق اشغالها بالحركة المستمرة ، وبالتالي وضع العدو امام الخيار الصعب ؛ فاما ان تكون قواته مشتتة في كل مكان لا تملك قوة ضاربة مركزة ، وأما ان يركز على جبهة واحدة فيترك جميع اجزاء البلاد الأخرى حرة من سيطرته .

وعلى القوات الثورية ، قبل وصول العدو الى مكان معين ، ان تعمل كل ما تستطيع لاستثارة الجماهير الشعبية ، واستنهاض ارادتها في المقاومة ، وشحنها بالتصميم الذي لا يقهر حتى النهاية ، دون قبول المساومة او الاستسلام . فعندما تمنح الجماهير تأييدها للحركة الثورية ، تصبح درعاً للثورة ، وقاعدة خلفية صلبة وخط تموين أميناً للثوار ، ووسيلة مراسلات سريعة وفعالة وحقلاً خصباً لاستنبات المقاتلين .

أما تورط العصابات في مهام حماية المدنيين والدفاع عنهم ، فانه يجمدها ويفقدها دورها كطليعة للشعب المناضل كله ، ويفقدها النظرة الشاملة في العمل . فترك مبادرة الهجوم بيد العدو ، والاكتفاء بالدفاع السلبي ، يؤديان بالحركة الثورية الى استحالة حماية المدنيين والى تعريض قواها للاستنزاف . بينما يؤدي اللجوء لمهاجمة العدو ، ووضعه في حالة دفاع مستمر ، الى استنزاف قواه هو ومنعه من توسيع نطاق عملياته وانتزاع المبادأة منه ، وهي الطريقة المثلى في حماية السكان (٣١) .

يقول غيفارا : « ما دام معلوماً ان العدو سوف يقاتل لصون سلطته السياسية وجب النظر

في ازالة جيش القمع » (٣٢) . ومن هنا تبدو لنا اهمية تفتيت قوات العدو ، كجزء من أساليب الحرب الطويلة الأمد . وبناء على ذلك يجب استغلال كل الفرص المناسبة لخلق أكثر من نواة داخل ترتيب قوات العدو .

كان استسلام الايطاليين في ٨ أيلول ١٩٤٣ تاريخاً حاسماً لمستقبل تيتو . فمعظم الوحدات الفاشية تبعثر فوراً ، أو استسلم لعصابات تيتو وتخلى لهم عن أسلحته ومتاعه . ولقد أعطت الدعاية الهائلة لتيتو التي قام بها خلال عامين كل ثمارها . فمن ناحية تمكن ٢٠٠,٠٠٠ رجل من التطوع تحت امرته واستلام السلاح فوراً ، ومن ناحية أخرى تحررت كل الاجزاء اليوغسلافية التي احتلها الايطاليون وهي كرواتيا ونصف ساحل دالماسيا دون ان يضطر للقتال . وهكذا تضخم جيش تيتو الأحمر خلال شتاء عام ٤٣ ـــ ٤٤ حتى أصبح يضم ٥٠ فرقة مقاتلة (٣٣) .

ومن الامور الصحيحة في الحرب الثورية ، زيادة الرقعة التي تنشط فيها جماعات العصابات ، ولكن من الصحيح ايضاً انه ينبغي تجنب الزيادة المفرطة في هذه الرقعة . والمبدأ الصحيح دائماً ، هو الاحتفاظ بقاعدة منيعة للعمليات والدأب على تعزيزها طوال فترة الحرب ، مع نشر العصابات المساعدة في طول البلاد وعرضها ، وخصوصاً داخل المدن الهامة . وبالتنسيق الخلاق بين هذه القوى الثورية ، يجد الجيش المعادي نفسه مشتتاً وغير قادر على الحسم ، وبالتالي يتجمد ويقع في السلبية القاتلة .

والمهمة الرئيسية في توطيد القواعد هي تعبئة جماهير الشعب وتنظيمها وتدريب قوات العصابات الثورية والقوات المسلحة المحلية . فتوطيد القواعد ضروري من أجل المثابرة على حرب طويلة الأمد ، ومن أجل توسيع القواعد في الوقت نفسه . فالمبدأ الصحيح هو التوسيع على أساس التوطيد (٣٤) .

والنضال الثوري لا يؤدي الى نتيجة حاسمة اذا لم يقم على أساس تحالف مسلح جيد التنظيم وراسخ البنيان بين العمال والفلاحين وينضوي تحته الطلاب والشباب المثالي . وكلما ازداد العمل بين الجماهير لجعل كل فلاح متحمساً لحرب التحرير الثورية ، ازدادت جماعات العصابات . واخيراً يصير انتقاء مكان أمين كقاعدة ، وتبدأ فيه حياة ثورية مستقرة نوعاً ، ثم يأتي الوقت الذي يصبح فيه قطر دائرة عمل العصابات غير متسع بالنسبة التي تزايد فيها تعدادها ، فينبثق عنها قاعدة جديدة في مكان آخر ، وتتزايد بقعة الزيت. اما القاعدة الاصلية فتستمر في نموها ، ولا تتوقف عن اصدار التشريعات الثورية وانشاء المدارس . واما القادة فيزداد ما يتعلمونه باستمرار خلال تطور الحرب الثورية مع تنامي قدراتهم المطرد على القيادة .

والجدير بالذكر ان مناطق العصابات تختلف عن القواعد فالاولى مناطق نشاط للعصابات لا يزال للعدو وجود قوي فيها : اما الثانية فهي مناطق وجود وسيطرة للقوات الثورية . وتتحول المناطق الى قواعد بعد أن تمر بمراحل ضرورية من حرب العصابات ؛ أي بعد فناء عدد كبير من القوات المعادية ، والحاق الهزيمة بها ، واثارة حماس الجماهير .

عندما تتزايد قوى الثورة ونفوذها ، وتتعقد اجهزتها ، تزيد حاجتها الى ادوات من العالم الخارجي . ومن أجل مواجهة هذه الاحتياجات بالشكل السليم ، يلزم ان تنهض خطوط تموين

منظمة بهذه المهمة على أتم وجه . فاذا ما وجد التنظيم المناسب ، واذا ما أقام جيش الثورة صلات ممتازة مع الفلاحين ، أصبح من المضمون وجود تموين فعال ودائم . أما الصناعات الحربية في قطاع جيش الثورة فلا تنشأ الا بعد تطور طويل ، كما انها تعتمد على سيطرة الثوار على منطقة ملائمة من الناحية الجغرافية (٣٥) .

وبوسع العصابات خلق المناطق المحررة مع تجاوز بعض المتطلبات الخاصة بالسعة او لوضع الاقتصادي ، اذا وقعت هذه المناطق على حدود دولة صديقة مستعدة للقيام بدور العمق الاستراتيجي والبشري والاقتصادي للمناطق المحررة .

وبالرغم من أهمية هذه المناطق المحررة وفوائدها ، فان البدء بتشكيلها قبل نضج الظروف اللازمة لذلك ، أو في مناطق لا تتلاءم مع متطلباتها ، يعرض الحركة الثورية لاخطار وتضحيات كبيرة . ولقد عاقت هذه المناطق المحررة في يوغسلافيا عمل العصابات الثورية في عدد كبير من الحالات . وكان مجرد وجودها يعني الخروج عن قاعدة هامة من قواعد المفاجأة التي تشكل أساس حرب العصابات ، كما انها كانت بالنسبة للعدو دعوة للهجوم . وقد تفقد العصابات عامل المبادأة ، وتقلل من قدرتها على الحركة والتملص . ومع ذلك يمكن التخلص من هذه السلبية ، باليقظة ومتابعة تحركات العدو والتبني المستمر للسياسة الهجومية ، وشن حرب عصابات واسعة النطاق في كل مناطق العدو المناسبة .

لقد اعتقد الاميركيون أن الاعتماد على القوة النارية الساحقة لوحداتهم والدعم الجوي المكثف والقابلية للحركة السريعة التي يتيحها الاستخدام الكبير للحوامات ، سيسمح لهم بالحصول على انتصار سهل ضد فيتنام . فكانت المعارك التي اضطروا لخوضها ضد الفيتناميين قاسية جداً وغير حاسمة . وفي النهاية ذاب العدو الاميركي في الاحراج . وادى استخدامهم الواسع للحوامات الى اقامة سلسلة من القواعد المحمية ، حيث كانت تمتص اعداداً هائلة من الافراد وتثبتهم في مواقعهم . في حين كان الفيتناميون ، معتمدين على شعبهم المناضل ، يعززون قواتهم باستمرار (٣٦) .

ويمكن القول بكثير من الثقة ، ان تثبيت العدو وتجميده امران محتومان ، اذا ما شن الثوار حرباً تقليدية ترافقها حرب عصابات واسعة النطاق ، خصوصاً اذا لم يكن العدو متفوقاً بشكل ملحوظ . ومن المؤكد ان قوات تشانغ كاي ـ تشيك في الصين والفرنسيين في الهند الصينية حاولوا تغطية مجمل اجزاء البلاد بقواتهم ، وان هذا الانتشار حرمهم من كل امكانيات القيام بهجوم كبير فعال ، وبالتالي انتقلت المبادأة الى ايدي القوات الثورية .

وفي الجزائر ، شرع الثوريون الجزائريون ، بعد ان نجحوا في الظهور بشكل بارز على مسرح الاحداث ، بتوسيع بقعة الزيت التي شكلها مناخ انعدام الأمن . ولقد كانوا يملكون إحساساً صائباً جداً بالاستراتيجية الملائمة لثورتهم . فكان قطبا الاضطراب هما قلعتا البر (الاوراس ومنطقة القبائل) الاكثر مناسبة للحرب الثورية . وفي النهاية وجدت جبهة التحرير الجزائرية نفسها قوية بصورة كافية لاشعال الحرب الثورية في كل البلاد ؛ مما مكنها من تحقيق النجاح .

ان قلب ميزان القوى لصالح قوى الثورة لا يتم عن طريق السلبية ؛ فهو صراع يومي وسباق دائم مع عدو يعمل ما في وسعه للحفاظ على ميزان القوى بوضعه الراهن والملائم له .

وفي الحرب الثورية ، سوف تكون هناك مناطق للعدو غير مؤاتية لحرب العصابات ، ويجب مع ذلك ان تبدأ مجموعات صغيرة في اقتحامها ، فتهاجم الطرق وتدمر الكباري وتثبت الالغام وتشيع الفوضى فيها ، كحرب عصابات مساعدة . ثم ان التدمير يزداد في عموم المناطق الملائمة لحرب العصابات وتتوجه العصابات من منطقة الى اخرى حيث تشتبك مع جيش العدو في جبهات محددة . ويتم سقوط العدو عندما تتحول الانتصارات الجزئية تدريجياً الى انتصارات نهائية .

الحرب الثورية هي حرب الشعب . وليس للمظاهر العسكرية لهذه الحروب الا مدى محدود ، وخصوصاً ان تقنيات العصابات الثورية أصبحت الآن متقنة جداً . والحرب الثورية هي حرب النفس الطويل ، ولا يمكن الحصول على الحسم فيها الا عبر نفاذ الصبر ، والطرف الذي يصمد اطول وقت ممكن ، هو الذي يقاتل تحت راية أكثر الدوافع حيوية ؛ أي تحت راية شعارات سياسية تتلاحم معها جماهير الشعب . ويرتبط النصر حتماً بالقيمة النسبية للافكار السياسية القائمة . وفي النهاية ليست القوة المادية هي التي تنتصر وانما بالتأكيد القوى المعنوية .

لقد شهدت الحرب الفيتنامية مواجهة بين مفهومين ، المفهوم الاميركي المادي أساساً والمفهوم الفيتنامي المستند الى الانسان . وكانت قوة النيران الاميركية الهائلة ــ خصوصاً الجوية ــ اكثر من مخيبة لآمال الاميركيين . فالحرب الصناعية كانت عاجزة امام الصناعة العسكرية اليدوية للثوريين الفيتناميين . ولقد زاد التأييد لحكومة فيتنام الثورية وارتفعت سمعتها وهيبتها ، لأنها صممت على شن حرب المقاومة ، ولأنها حكومة موحدة كلياً تشارك الشعب ويلاته ، ولأنها تنتمي الى الشعب وتعمل لصالحه (٣٧) .

ومن المبادىء الراسخة التي يجب استمرار التذكير بها ، أنه اذا ما واجهت العصابات الثورية عدواً قوياً مصمماً ، كان عليها ان تخطط لحرب طويلة الأمد . ويستفيد الثوار عادة من طول مدة الحرب ؛ فالصراع الطويل المدى يضعف العدو ويعطي العصابات الزمن اللازم لقلب ضعفهم الى تفوق . ومن البديهي ان يساعد وجود القواعد الثورية المحررة هذا التحول التدريجي في ميزان القوى .

ومن مسلمات الحرب الثورية ، ان تعاقب المراحل ذات الأهداف المحددة في اطار الاستراتيجية الشاملة للحرب الثورية ، هو جوهر مخطط العمل الثوري . فغالباً ما تكون هناك مرحلة اعداد نفسي ، ومرحلة اعداد مادي تعقبهما مرحلة استثمار نفسي ــ سياسي ، فتؤدي جميعاً إما الى مرحلة مفاوضات ، مع المحتل الاجنبي لأرض الوطن ، أو استيلاء الثورة على السلطة السياسية ، بعد اسقاط السلطة العميلة من خلال الانتصار الكامل في الحرب الأهلية .

في الجزائر ، افتتحت مرحلة جديدة في بداية العام ١٩٥٧ ، حيث فهمت جبهة التحرير

الوطني الجزائرية الاهمية الدولية لموقفها ، كما فهمت نقاط ضعف السياسة الفرنسية في باريس . وفي الوقت نفسه تابعت عملها السياسي والعسكري على كل صفحة الجزائر . واستخدمت الجزائر العاصمة ميداناً لاطلاق الضجيج بمضاعفة اعمال الارهاب ، مع أخذ كيان سياسي على المسرح الدولي يعطيها أكثر فأكثر هيبة الحكومة ، وممارسة عمل سياسي نشيط في فرنسا يستهدف احداث انقسام في الرأي العام الفرنسي إزاء الحرب الجزائرية (٣٨) .

وجدير بالملاحظة ان أسس الحرب الثورية تتلخص في العمليات السريعة المتحركة لجيش الثورة ، التي تقوم بمهمة ابادة العدو ، والحرب الموقعية في القواعد الثورية الحصينة التي تؤدي الى انهاك العدو ، وحرب العصابات الثورية التي تقوم بدور الانهاك والابادة معاً . فعندما تصل الحرب الثورية الى مرحلة الهجوم وتطويق القواعد المعادية وايقاع الهزيمة بالتعزيزات ، وعندما تصل الى العمل الجماهيري والحماس المستعر في الرقعة القومية بأسرها ، عندها يمكن الوصول نهائيا الى الغرض المنشود من الحرب الثورية في فرض ارادة الثورة .

وفي كوبا . عندما نضجت الثورة الكوبية ، كانت سنتياغو كلها مع كاسترو ، ويخفي كل السكان رجاله . وأتاحت له كمائنه تسليحاً ذا أهمية ، خلال بضعة أيام ، استولى على النصف الغربي من البلاد كلها وسار باتجاه هافانا . وبتاريخ ٣١ كانون الاول دخل بصورة مهيبة الى هافانا واصبحت البلاد كلها تحت سيطرته (٣٩) .

ومنذ العام ١٩٤٨ ، خضعت لحركة ماو الثورية كل الصين الشمالية ، وامتص ماو تدريجياً قوات تشانغ كاي ــ تشيك وعتاد المعونة الاميركية . وتضخم جيشه الأحمر ، وتفوق حتى في العدد على الجيش الصيني الأبيض .

وفي الأول من تشرين الأول ١٩٤٩ ، استطاع ماو ، بعد ان تمكن من اخضاع كل الصين تقريباً لسلطته ، من اعلان قيام الجمهورية الشعبية الصينية (٤٠) ويعزى هذا الانتصار لثلاثة عوامل رئيسية :

الاول : فاعلية تكتيك العصابات الذي أعده ونفذه ماو ورفاقه .

الثاني : عجز ادارة الكومنتانغ وفسادها ، والفوضى الكبرى في الوضع الاقتصادي الصيني .

الثالث : القوة المعنوية للحركة الثورية الصينية وفاعلية الجيش الأحمر الصيني .

وأخيراً ، ان النصر في الحرب الثورية ، يجب ان ينطلق من أسس لا بد من توافرها ، حتى تستطيع القوى المعنوية للحركة الثورية قهر القوى المادية للعدو وفرض الارادة عليه .

فالثورة ، أولا ، يجب ان تنطلق من نظرية ثورية واضحة ومقنعة تستطيع ان تكتل قوى الشعب خلف شعاراتها . ثم ، طليعة ثورية متجانسة تتبنى الحرب الثورية طريقاً وحيداً للنضال . وأخيراً ، مخطط عملي مرحلي يبنى على الواقع الحي ولا يتجاوزه ، في اطار استراتيجية ثورية شاملة .

وبعد كل ما تقدم ، لا يسعني الا أن أضيف ، ما يجب ألا يغرب عن البال ، وهو ان

التجسيد الحي للثورة يتم عبر نماذجها البشرية التي تتصدى للنضال الثوري الشاق . فبقدر ما يكون الثوار ، قيادة وقواعد ، نموذجاً مجسداً للنقاء الثوري والفعالية النضالية ، ومضرب المثل في التضحية ونكران الذات ، بقدر ما يعكس ذلك ، التحاماً شعبياً بالثورة ، وتياراً بشرياً جارفاً لا يغلب ، سيؤدي بالنتيجة الى الانتصار .

---

(١) الجنرال بوفر ، « **الحرب الثورية** » ، ترجمة الهيثم الايوبي واكرم ديري ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ١٠٩ .
(٢) **المصدر نفسه** ، ص ٣٧ .
(٣) يجي دوبريه ، « **ثورة في الثورة** » . ترجمة الياس سحاب، بيروت ، منشورات دار الآداب ، ١٩٦٩ ، ص ١٢١ .
(٤) كارلوس ماريغلله ، منظمة التحرير الفلسطينية – مركز التخطيط – المكتبة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٩، ص ٨٢ .
(٥) دوبرية، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١١١ .
(٦) الجنرال ج . اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، « **حرب العصابات السوفييتية** » ، تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، فرع مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٥٧ .
(٧) دوبريه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠٤ .
(٨) ابو همام ، « **المقاومة عسكريا** » ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣٩ .
(٩) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ،ص ٣٥ .
(١٠) دوبريه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٨ .
(١١) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٦٥ .
(١٢) منظمة التحرير الفلسطينية – مركز التخطيط ، « **مبادىء اساسية في حرب العصابات** » ، سلسلة ترجمات رقم ٤ ، بيروت نيسان ، ١٩٧٠ ، ص ٥ .
(١٣) الجنرال ج . اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٧٧ .
(١٤) تشي غيفارا ، « **حرب العصابات** » ، ترجمة ناهض منير الريس ، منشورات دار الآداب ،بيروت، ص ٤١ .
(١٥) اوتوهيلبرون، « **حرب الانصار** » ، ترجمة المقدم الهيثم الايوبي ، دار الطليعة، بيروت شباط (فبراير) ١٩٧١ ، ص ٩٨ .
(١٦) **المصدر نفسه** ، ص ٨٦ .
(١٧) الجنرال ح . اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦٩ .
(١٨) دوبريه ، **مصدر سبق ذكره** ،ص ١٦ .
(١٩) هوشي منه ، « **مختارات حرب التحرير الفيتنامية** » ، ترجمة منير شفيق ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٣٦ .
(٢٠) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٦٦ .
(٢١) غيفارا ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩٥ .
(٢٢) ماوتسي تونغ ، « **حرب العصابات – تعبويتها الاساسية وعملياتها** » ، ترجمة ناجي علوش ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٥٢ .
(٢٣) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣ .
(٢٤) الجنرال ج. اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥١ .
(٢٥) ماوتسي تونغ ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٦ .
(٢٦) غيفارا ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦١ .
(٢٧) هوشي منه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧٤ .
(٢٨) دوبريه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠٦ .
(٢٩) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩٥ .
(٣٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥٥ .
(٣١) دوبريه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩٢ .
(٣٢) ابو همام ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤١ .
(٣٣) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٤١ .
(٣٤) ماوتسي تونغ ، « **ست مقالات عسكرية** » ، دار النشر باللغات الاجنبية ، بكين ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٦ .
(٣٥) غيفارا ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٨٩ .
(٣٦) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٦٩ .
(٢٧) هوشي منه ، **مصدر سبق ذكر** ، ص ٢٧١ .
(٣٨) الجنرال بوفر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩٤ .
(٣٩) **المصدر نفسه** ، ص ٣٣٠ .
(٤٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥٤ .

د. حسني محمود حسين

الشعر واليقظة العربية قبيل الانتداب البريطاني

مدخل لدراسة شعر المقاومة الفلسطينية

تمهيد

في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ التي حاقت بالامة ، تلاشت الجدران المانعة للصوت التي غيبت وراءها الاقلية العربية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، لئلا يصل الى إسماع امتهم شيء من همسهم او حتى صراخهم . وكذلك انهارت الاسوار التي توهمت الدولة الصهيونية أنها رفعتها حول ما قدرت انه قبر الشخصية الفلسطينية ، بعد ما يقرب من عشرين عاما قدر ان تكون موتا بطيئا لها . واذا بهذه الشخصية ، على عكس كل ما خطط ضدها ، تبدو في حال من الوعي العميق ، وقد انتصبت قامتها وعلا صوتها ؛ ومن فلسطين المحتلة جاء الصدى ، واكتشفت الامة نهرا كبيرا من الشعر يتدفق من تحت مرقدها ، ظل ابناؤها الشعراء المأسورون لسنوات طوال يشقون مجراه دون ان تدري هي عنه شيئا ، الا القليل كان قد تسرب منه في بطء خلال جدران الصمت واسوار العزلة .

كان هؤلاء الابناء قد اقاموا صرحا من الشعر لم تكن الامة تعرف ماهيته ؛ اذ لم يكن ما عرفته منه اكثر من اصوات دقات قليلة في الصرح . وعندما تلاشت الجدران جاء الصوت ، وتدفق النهر ، وظهر الصرح ؛ فرأت الأمة من شأن ذلك كله عجبا ، ونظر معظم النقاد والادباء الى هذا الشعر ، فجعلوا منه ، لفرحتهم به بقرة الهندوس ، فوق كل خطأ ، واعلى من كل نقد ، حتى لقد احس اصحاب الشعر نفسه بالضيق من هذا « الحب القاسي » . وبالدرجة نفسها من الاقبال العاطفي ، الذي تزاحم فيه الكثيرون على هذا الشعر ، ادبر آخرون عنه وادا روا ظهورهم له ، بدون تقدير لظروف اصحابه وحياة اهله ، حتى لقد سلبوه جوهر خصائصه ، واصل وجوده : المقاومة . وظل هذا الشعر ، في الغالب ، تتحكم فيه بيننا قسوة العاطفيين .

ومصطلح « شعر المقاومة » حديث نسبيا ، فقد اطلقته الحرب العالمية الثانية ، او بالاحرى ،كان بعض مذاقاتها . طغى طوفان هتلر على اوروبا فجمع الناس المهزومين على كراهة النازية ، ووحد هدفهم في مقاومتها والخلاص من ويلاتها . ولم تكن الشعوب المقهورة اقل حضارة أو وعيا من القوم المنتصرين ؛ فمجتمعاتهم تنعم باستقرار حضاري وديموقراطي، وقد

تجذرت اصوله في تربة الحياة ، واضحت عريقة في نفوس الناس وتراثهم . ولما لم يكن في مخطط النازيين المحتلين طرد هذه الشعوب من اوطانها ، وهم لم يحاولوا ذلك ، فان الاحتلال بطبيعته لم يلامس اكثر من سطح حياتها ، وان خضخضها عاطفيا في اعماقها . وكان طبيعيا ان يهب الوطنيون في البلاد المحتلة لقيادة شعوبهم ضد المحتل ودعاياته ، وضد المتعاونين معه . وقد اخذ الشعراء الوطنيون في هذه الشعوب من ادوار الريادة ما اضفى على شعرهم ، وعلى « الكلمة » بوجه عام ، امجادا ستبقى الانسانية تفخر بها في سجل الخلود . وهكذا فان مفهوم شعر المقاومة في اوروبا يرتبط بظروف الحرب واحتلال النازيين والعمل السري في مقاومته ؛ فهو رفض لهذا الاحتلال ، وتعبئة لقوى شعوب شعرائه لدحره وانقاذ الاوطان من خزيه وويلاته . وقد وجد هؤلاء الشعراء انفسهم ضمن تنظيمات سرية ساهموا ولا شك في خلقها ، فعاشوا بين مواطنيهم روح المقاومة ، واكتوت ارواحهم بنارها ، وتحرقوا في أتونها ، فكان شعرهم ، يؤصله تراث ونهضة عريقان : اصالة فن ، وعمق اثر ، وصدق تجربة ، بحيث ادى دورا حاسما في المقاومة الوطنية ، ثم سجل في النهاية انتصاره مع انتصارها . وبلغ اثره بانتصاره ، وبجمعه اوروبا ، بل العالم ، على كراهة النازية ، حداً جعل مفهومه الخاص ، بحكم ظروفه ، يطغي على تفكير الكثيرين ، فيريدونه ، بخصوصيته ، ان ينسحب على كل ظرف وكل زمان . وقد ينضوي مفهوم هذا المصطلح فيما نسميه عندنا احيانا الشعر الوطني واحيانا اخرى الشعر السياسي او القومي ، مع بعض الفروق ضيقا أو اتساعا ، بحسب مقتضيات الحال ؛ اذ يتجلى كثير من عناصره وفحواه في شعر هذه الفترة او تلك من حياة الامة العربية الحديثة بخاصة ، وان لم يطلق عليه المصطلح نفسه بمفهومه الاوروبي المحدد ، الذي انتهى بلا شك ، بسحق الاحتلال الهتلري وغياب النازية .

ونحن نفهم المعنى المجرد والمطلق للمقاومة ، او ما يمكن ان يسمى على غرار تعريفات الأقدمين ، المعنى اللغوي للمقاومة . فادب المقاومة ، او شعر المقاومة ، هو ادب او شعر يقاوم شيئا ما ، او انه كل ادب حقيقي او شعر حقيقي يستشرف المستقبل في محاولة لتجاوز الواقع او رفضه او تغييره . ويرى بعضهم « ان كل ادب او شعر يتخذ من اسطورة « البعث » خامة فنية ورؤية فكرية يندرج تحت ادب المقاومة ، وان الادب كأدب هو في ذاته نشاط انساني يقاوم عوامل الضعف والخور التي قد تلم بالنفس البشرية في لحظات الانكسار » (١) .

والمقاومة ، في معناها المطلق ، ليست مقصورة على شكل محدد من اشكال العمل الوطني ، ولو كان الكفاح المسلح ؛ اذ تتعدد اساليبها بتعدد طبيعة ملاكات العمل الوطني ، ويتسع مدلولها ويتراخى بين الصمت في حينه وبين لهجة السلاح عندما يأخذ السلاح دوره ، مرورا بكل الوسائل التي يمكن ان يعتمدها المقاوم لاضعاف خصمه والتخلص منه ، بالقلم ، بالريشة ، بالازميل ، بالصوت ، بالعيون ، بالغناء ، بالرقص ، بالصخب والعنف وحتى بالهدوء والصمت ؛ فهو يتمدد على اوسع مساحة من امكانات التصرف الانساني الرافض لواقع ما ، من اقصى جوانب السلبية الى اقصى جوانب الايجابية . والفنان ، دائما ، ولأنه « جهاز الامان » في الأمة ، ولأنه شاهد العصر والضمير فيها ، هو المرهص بولادة روح المقاومة وبزوغ نبتها . والذي يهمنا ان نشير اليه حقيقة ، هو المفهوم الاصطلاحي للمقاومة وما وراءه من خلفية سياسية واجتماعية . ويمكننا ان نتلمس روح المقاومة العربية في شعر الحماسة والبطولة ،

قياسا على معطيات الظروف التي كان يغنى فيها ، اثناء الحروب الصليبية قبل ان يرقد الشعر العربي في فترة سبات طويلة ، ليصحو بعدها على نبض الحضارة الحديثة ، تبعث الدفء في أوصاله ، فيجد نفسه في ظلام العثمانيين وتحت كابوسهم الثقيل ويتململ الشعراء والناس نيام ، يؤازرون حركة الاصلاح والنهضة الفكرية التي دعا اليها الرواد في الشرق العربي . وما كاد العرب يرفعون عن صدر حياتهم الكابوس العثماني حتى اخذ مكانه كابوس الاستعمار الاوروبي في ظروف الحرب العالمية الاولى . وقد وسم شعر هذه الفترة المبكرة بسمة الشمول والدعوة الى اليقظة والتنبه والوعي ، ووجد نفسه امام مقاومة الطغيان والظلم من قبل الحكام المفروضين في ظلال السيطرة الاجنبية ، وامام مقاومة عوامل التخلف التي يدعوهم الوعي الجديد الى نبذها والتعلق بركب الحضارة الحديثة ، وامام محاولات سحق الشخصية العربية وقتل لغتها القومية وانتقاص قيمتها ، فراح يدعو ويبشر منذ وقت مبكر بدعوة القومية وآمال الوحدة . ونستطيع ان نتلمس ملامح المقاومة ، مهما كانت هزيلة احيانا ، في شعر هذه الفترات الوطني والقومي والسياسي ، وان نجردها عما خالطها ، في الغالب ، من عناصر اخرى قد لا تتصل بمفهوم المقاومة عن قرب .

وعلى الباحث في شعر المقاومة العربية بعامة ، والفلسطينية بخاصة ، ألا يتسرع ويخدعه مفهوم المقاومة ، كما بيناه في الشعر الاوروبي ، والمحدد بظروفه المعينة ، فينساق في تطبيقه على شعرنا ببساطة وحسن نية ، او بخبث وسوء نية ، اذ يجب ان نأخذ في الاعتبار ظروف حياتنا وقضايانا التي نقاوم من اجلها ، بدون ان نتناقض مع ذلك المفهوم الذي ينطبق على بعض مراحل حياتنا وظروفها . ونحن لا نوافق على تضييق مفهوم المقاومة الى حد التعامي عن ظروفها وظروف شاعرها والانسان من حوله . فالمجتمع العربي ، في عمومه ، مجتمع زراعي متخلف ومحجور عليه ، حكمته وما زالت تتحكم في كثير من اجزائه فئات اقطاعية توالي الاستعمار ، وتضخم التناقضات في بنيته البشرية احكاما لخنقه واخضاعه باستمرار لقوى التخلف والاستعباد في الداخل والخارج ، ثم هو مجتمع يفتقر الى القيادات الفكرية والروحية الغنية التي يلغى باستمرار دورها في محاولة انتشاله من ظلم الحياة وظلامها . ومع مواطن العقم العديدة المصاب بها هذا المجتمع ، فان عليه ان « يستوعب عدة مراحل حضارية في فترة قصيرة زمنيا ، وهو تحت ضغط ظروف مصيرية لا يستطيع الانتظار ، بل ، هو على العكس ، مدعو بالحاح الى تجاوز هذه المراحل وتخطيها » (٢) . ومن هنا كانت تناقضات المثقفين العرب وتمزقاتهم ، وهم يرون مجتمعاتهم ميادين صراع بين قيم الاقطاعية والبرجوازية الى جانب الاستبداد الداخلي والتسلط الاجنبي من نحو ، وبين القيم الحقيقية التي ترنو اليها الأمة في التحرر والاشتراكية والوحدة من نحو آخر ، بدون ان يستطيعوا فعل ما يقدرون عليه في خدمة أمتهم وتحقيق آمالها ، فيعيشوا حالة الانفصام الحاد بينهم ، كذوي كلمة ، وبين بعض ذوي السلطان الذين يغلون ايديهم ويخنقون اصواتهم ليقتلوا فيهم الفكر ، ويئدوا الكلم ثم يروحون بنفوذهم السياسي ، وبقوة اجهزتهم الاعلامية يعكسون الحقائق ، فيحملون الادب والفن واصحابهما مسؤولية تأخر الأمة الذي يكرسونه هم باخلاص وتفان ، وفشلها الذي يزرعونه بأيديهم وان فرضوا عليها حصاد سنبلة .

هذه الظروف ، مع ما يمكن ان يكون هناك سواها ، مما خضع ويخضع لها المواطن العربي ، كما خضع لها معه ابن فلسطين في منافيه ومناطق تشرده العربية منذ نكبة عام

١٩٤٨ ، لا يمكن الا ان تؤثر على تحديد مفهومنا للمقاومة لديه . واذا اضفنا ما ابتلي به العربي في فلسطين بشكل خاص من اطماع الحركة الصهيونية ومخططاتها وما ترتب عليها قبل النكبة وبعدها ، على مدى ستين سنة ونيف ، فاننا نجد انفسنا امام قضية فريدة ذات وضع متميز لا بد من فهمها واستيعاب ظروفها وتطوراتها ، ليكون تحديدنا لمفهوم المقاومة دقيقا وشاملا ، وتقديرنا لدور الشعر فيها واضحا ومنصفا . فقضية فلسطين اكبر من مجرد احتلال او غزو أجنبي استعماري . انها قضية استعمار استيطاني قام على طرد سكان البلاد الاصليين بالقوة واحلال مجموعات اخرى من الناس محلهم ، جيء بهم من اوطان عديدة ، ليضعوا ايديهم عنوة وقهرا بمساعدة قوى العالم الامبريالية والصهيونية وبتخطيطهما . وهي بذلك تمثل ذروة المد الاستعماري وطوفان مطامعه واخطاره . ثم ان القضية تطورت على مدى عشرات السنين تخطيطا وتنفيذا لمخططات سخرت لها قوى فردية وعالمية على اوسع نطاق واعلى مستوى ، وهي ما تزال وستبقى فترة لا يعلمها الا الله حتى يصل نهر المأساة فيها الى محيط من العدل تغرق فيه آثام الانسانية الطاغية المتجبرة . فبدءا من مؤتمرات الصهيونية التحضيرية ومرورا بتصريح بلفور ، ثم بالانتداب البريطاني على فلسطين ، وما هيأه هذا الانتداب من ظروف وضع فيها البلاد واحاط بها السكان تمهيدا لانشاء الدولة الصهيونية ، ثم بما قدمته الحركة الصهيونية وقوى العالم الاخرى التي ساعدت على وقوع الكارثة ، وانتهاء باعلان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ ، وما تعلق بذلك من سياسات الدول ومواقفها ، وما ترتب عليه من تشريد مئات الآلاف من عرب البلاد الى المنافي العديدة في اصقاع الارض وبخاصة في البلدان العربية ليعيشوا مع اشقائهم ظروفا ذات طبيعة خاصة منحرفة ترهق الفكر ، وترضرض النفس ، يتشوقون واياهم الى يوم التحرير ، وكذلك ما ترتب عليه من بقاء عشرات الوف اخرى من العرب في ارضهم ليعيشوا اقلية مضطهدة تحت حكم عدو شرس اخذ على عاتقه التخطيط لمحق شخصيتهم ومحو انتمائهم القومي بكل اساليب البطش والطغيان .

اذا تبصرنا هذه الظروف ، ولا بد ان نفعل ، حتى نكون اقرب الى الصدق ، فاننا بتقدير ما ، نخرج بمفهوم للمقاومة العربية الفلسطينية يتطور ومقتضيات القضية في تطوراتها ومراحلها المتتابعة والمتنوعة . والمقاومة هنا ، وفي كل حالاتها ، تقوم على محور رفض سلبيات الامر الواقع ، والايمان التام بلا معقولية استمرار هذا الواقع وبوجوب تغييره . وتعددت مظاهرها وتشكلت في صور شتى ابتداء من المقاطعة والاضراب الى الثورة وحمل السلاح . وقام الشعر في كل الحالات بدور ايجابي فعال طويل المدى ، لم يقتصر على اعلان رفضه الامر الواقع فقط ، فشارك في تنبيه الرأي العام ، وفي البناء النفسي للفرد العربي الفلسطيني ، فغرس في نفسه قوة الاصرار وارادة التحدي ، واشعل جذوة الحماسة لتحقيق الآمال ، وخلق روح المقاومة الفكرية والغضب على الاستعمار والصهيونية وعملائهما من الرجعية وما تمثله من تخلف ، واتخذ دعوة الوحدة والقومية سبيلا الى تحرير الارض والانسان من كل الاعداء . وهكذا فان الشعراء العرب الفلسطينيين قد فهموا المقاومة ضد كل سلبيات الحياة والانظمة والمعوقات التي تمنع الشعب او تحد من ارادته في تحقيق آماله ، فلم يقتصر شعرهم على مقاومة الوجود الاستعماري والاحتلال الصهيوني وحسب ، بل تناول ايضا مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية ، فتعمق الحياة العربية وندد بكل مظاهر السلبية مقدرا ، منذ وقت مبكر ، ان المعركة مع الاعداء وحتى مع النفس العربية ، معركة حضارية اولا واخيرا ، وانها اعمق من مجرد

الرفض ورد الفعل الآلي ، فاتسم ببعض ملامح ثورية ، اذ دعا الى التسلح بالعلم والى تغيير الواقع احيانا ، وتحسينه واصلاحه احيانا اخرى .

وشعر المقاومة هذا ليس نبتا شيطانيا نبت ونما وزكا في فراغ ، وانما هو شعر عربي تمتد جذوره في هذه الارض العربية فشعراؤه يعترفون بتأثرهم بالشعر العربي بعامة ، وبالشعر في فلسطين بخاصة ، سواء وعوا بعض جوانب هذا التأثر ام لم يعوها ؛ فهم امتداد ثقافي ناضر للشعراء السابقين عليهم في فلسطين ، وكما ان مآل قضيتهم اليوم مرتبط ببداياتها وبكيفية تطورها ، فان هذا الشعر هو ثمار التراكم الثقافي لديهم ولدى اجيالهم ، وهو مرتبط ببدايات هذه الثقافة وفي جذورها لدى الاجيال التي سبقتهم ، وفي كيفية تطورها ايضا . ومن هنا فانه من الاجدى ان نلج ابهاء هذا الشعر من على عتباته الطبيعية مدخلا اساسيا لدراسته وتقويمه وتقدير دوره وواقعه . وهكذا ، فاننا نرى ان جذور هذا الشعر وخلفياته يمكن ان تمتد الى مطالع هذا القرن ، حيث كانت مرحلة تحول حياتية تتحدد وتتبلور وترهص بالاحداث . وامتدت هذه المرحلة وتطورت بكل مظاهرها الحياتية . وكان الشعر من ابرز ملامح هذه المظاهر ومن اهم معالمها .

الشعر واليقظة العربية في فلسطين قبيل الاحتلال البريطاني

كانت البلاد العربية ، وفلسطين جزء منها ، قسما مهما من اقسام الامبراطورية العثمانية ، وظلت فلسطين دائما تشكل الجزء الجنوبي من بلاد الشام ، فكانت تحت حكم العثمانيين تتداخل بصور مختلفة ضمن تقسيماتها الادارية كجزء ملتحم بهذه البقعة الجغرافية ، الا ما كان من استقلال متصرفية القدس ، فقد ظلت ترتبط بوزارة الداخلية في عاصمة السلطنة مباشرة ، وذلك لمكانة القدس الدينية والتاريخية .

ولم تعرف التقسيمات التي تعهدها اجيالنا الحديثة الا مع نكبة هذه المنطقة بالاستعمار الاوروبي الحديث الذي خلقها ظلما وعدوانا ، وراح يرسخ هذا التمزيق ويبرز حدوده ويثبتها طوال حقبة الزمن التي اعقبت الحرب العالمية الاولى . ففلسطين ، بحدودها التي اصطنعها الانتداب البريطاني لم تكن الا معلما من معالم الصورة العامة لبلاد الشام ، او ملمحا من ملامح وجهها . وانه لمن اسوأ الامور واشدها مرارة على النفس ان نضطر دائما في دراستنا الادبية الحديثة ان نفرد هذه الاقطار بدراسات مستقلة خاصة بكل قطر ومتمشية مع تقسيمات الاستعمار وحدوده السياسية التي حددها بها ، مع ان الانتاج الادبي في كل منها كان جزءا من مجموع الانتاج الادبي العام فيها ، وتحت الظروف العامة المتشابهة للبلد الواحد مع الفوارق الجزئية الطبيعية بين المراكز والاطراف . فاذا ما القينا نظرة على احوال هذه البلاد تحت الحكم العثماني ، فاننا نجدها متشابهة على العموم في النواحي الادارية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية والتعليمية ، الا في حالات خاصة اختص بها لبنان تحت ظروف معينة في فترة من الزمن . تلك احوال حكمها ، على العموم ، الجمود والتخلف والتقهقر ؛ اذ كان الجهل يخيم على جمهور الناس ويتحكم في مجرى الحياة العامة ويوجه تياراتها . « وقد ظلت فلسطين طوال القرن التاسع عشر خالية من اي ضرب من ضروب التعليم الحكومي الحديث الذي يعين على ايجاد نهضة ادبية آنئذ . فقد كانت المدارس إما « كتاتيب وقفية » دينية قديمة لم تنل أي حظ من الاصلاح ، مهمتها تعليم شيء من القراءة والكتابة والتجويد، وإما مدارس

رسمية ابتدائية قليلة العدد ، لغة التعليم فيها التركية وليست العربية . وبذلك لم يقم فيها اي تعليم ثانوي او عال ، اذ لم يوجد فيها اية مدرسة اعدادية (ثانوية متوسطة) قط حتى سنة ١٨٨٩ ، ولم تنشأ فيها اية مدرسة ثانوية كاملة الا قرب زوال الحكم التركي سنة ١٩١٣ » (٣) وفي هذا دليل على ضيق انتشار التعليم ونوعه ومستواه .

ويمكننا ان نكون لانفسنا ملامح لصورة هذا التعليم وواقعه اذا عرفنا ، بالاضافة الى نوعية مدارسه ، ضعف المعلمين القائمين على هذه المدارس وتدني مستوياتهم الثقافية ، فهم ابناؤها ، وضعف الاشراف الحكومي عليها (٤) . ثم اذا عرفنا ان لغة التعليم فيها لم تكن اللغة العربية ، وانما اللغة التركية التي كانت تفرض لغة للتعليم على ابناء المسلمين ، اذ لم يكن يسمح بالتدريس باللغة العربية الا في مدارس الطوائف المسيحية وفي المدارس الاجنبية ، بالاضافة الى لغات هذه الطوائف والجهات الاجنبية التي تتبعها هذه المدارس ، وكانت كثيرة نسبيا في فلسطين بسبب ما للاراضي المقدسة من مكانة وتقدير لدى الدول الاجنبية . ولهذا فليس غريبا ان نرى التعليم العربي الحديث والنهضة الادبية الحديثة يقومان على ايدي ابناء هذه البلاد المسيحيين قبل ابنائها المسلمين ، الذين انحصرت فرص التعليم امامهم تقريبا في المدارس الوقفية المتخلفة ، وفي المدارس الرسمية التي كانت تعلم باللغة التركية . وامام الامكانات المحدودة التي فرضتها سياسة الحكومة التركية لم يتح للرعيل الاول من ادباء هذه البلاد الذين نشأوا في ظل الامبراطورية ان يصيبوا قسطا كبيرا من التعليم ، فظلوا يدورون في دائرة علوم النحو والفقه قراءة وتأليفا ، شرحا واختصارا دونما ابتكار أو اصالة ، مثلهم في ذلك مثل اندادهم في البلاد العربية الاخرى ، ما عدا مصر ولبنان الى حد ما . وهكذا تجمدت الوان الحياة الثقافية الى حد كبير على بعض الموروث من العلوم اللغوية والشرعية ، فكانت تعقد لها الحلقات الصغيرة والمجالس في مساجد المدن الكبرى ، وبخاصة في المسجد الاقصى في بيت المقدس ، وفي جامع الجزار في عكا .

وتكتمل صورة الحياة الثقافية المتقهقرة في فلسطين اذا اخذنا بعين الاعتبار ضعف صلتها الثقافية بالعالم الخارجي : فقد كانت « طوال القرن الماضي منقطعة او كالمنقطعة »(٥) ، بخلاف لبنان ومصر : اذ لم تكن تتاح الفرصة الا لقلة من ذوي الثراء يوجهون ابناءهم في طلب العلم واستكمال الدراسة الى بيروت او طرابلس الشام حيث المدارس السلطانية (الثانوية) ، او الى الآستانة حيث المدارس الثانوية والعالية المختلفة ، او الى مصر للمجاورة في الازهر الشريف بخاصة . وقليلون جدا كانوا يؤمون بعض دور العلم في اوروبا ، وبخاصة في فرنسا . ومن الجدير بالذكر انه لم يكن لهؤلاء اثر كبير في حياة بلادهم الثقافية او نهضتها العامة ، الا أنهم لم يكونوا يعودون للحياة او للعمل فيها ، لاحساسهم بانها تضيق عن امكاناتهم وثقافتهم ، فسرعان ما كان من يعودون منهم الى بلادهم يحسون بالغربة وبالاختناق الثقافي والاجتماعي في بيئاتهم المتخلفة الى حد الجمود ، فيهجرونها الى بلد آخر داخل الامبراطورية او خارجها ليجدوا المناخ الثقافي واجواء الحياة الأكثر مناسبة ، يساعدهم على ذلك كون الاقطار الداخلية مفتوحة الحدود ضمن امبراطورية واحدة وتخضع لحكم مركزي موحد . اما أولئك الذين كانوا يعودون الى مدنهم وبلادهم حتى في مطالع القرن العشرين ، فقد كانوا « بحكم طبيعة ثقافتهم وتحصيلهم العلمي بقية من قديم وليسوا بداية لجديد ، حفظوا اطرافا من التراث التليد ، ولكنهم لم

يشاركوا في صنع تراث جديد ... ان القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لم يضما جذور النهضة الادبية والفكرية الحديثة في الداخل ، وان كانا قد القيا ببذور اثمرت في الخارج » (٦) . وهكذا لم يكن في مقدور فلسطين ان تنفردبحياة ثقافية متكاملة ومستقلة ، شأنها شأن كل جزء بالنسبة الى الكل الذي ينتمي اليه ، فلا عجب اذن ان تخلو في ظل العثمانيين لهذه الاسباب مجتمعة ، من العوامل التي تبعث النهضات الفكرية والادبية في الامم .

بالاضافة الى هذه العناصر التي تألفت منها صورة الحياة الثقافية في فلسطين ، عرفت البلاد بعض العناصر الاخرى منذ بدايات القرن العشرين ، فظهرت الصحافة الوطنية ؛ اذ انشئت بعض الصحف في القدس وحيفا ويافا وعكا وبيت لحم وسواها من المدن . وأسست كذلك بعض الاندية والجمعيات والحلقات الادبية منذ اواخر القرن التاسع عشر ، ثم نمت نموا لافتا للنظر في النصف الاول من القرن العشرين ، كما كان للاحداث السياسية التي كانت تعتمل داخل الامبراطورية تأثير كبير في حياتها ، وتركت بصماتها واضحة على الحياة الثقافية بخاصة ، وكان من اهم هذه الاحداث اعلان الدستور عام ١٩٠٨ حيث كان قمة لاحداث تمخضت عنها الحياة داخل بلاد السلطنة في الحقبة الاخيرة من حياتها . وكان لهذا الحدث ، مع ما تلاه من تطورات ، أثر كبير في سير الحركة القومية العربية ونشاطاتها واتجاهاتها ، وقد شارك فيها العديدون من ابناء فلسطين ، فكانت لهم ادوار بارزة في تلك الحركة انشاء وتنظيما وتوجيها . والدعوة العربية « لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين ، بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم ، اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها ، فازدادوا تعلقا بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالا اداريا » (٧) . ويمكننا ان نحس بوضوح اضطراب النفسية العربية في فترة العهد الدستوري وما تلاه (ما بين ١٩٠٨ ، ١٩١٤) من خلال نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها ، والمطالبة بتحقيق امانيها . فهذا الشيخ يوسف النبهاني * (٨) ، وهو من اشهر شعراء العصر كما وصفه الامير شكيب ارسلان (٩) ، يصور بعد ايابه من اسطنبول ، الهوان والزراية التي يلقاها العربي في عاصمة الخلافة الاسلامية ، فيقول في قصيدة له يمدح فيها ابا الهدى الصيادي في ايام السلطان عبد الحميد :

ويممت دار الملك احسب أنها	الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فألفيت فيها امة عربية	يرى الترك منها ـ امة الزنج ـ اكرما
وما نقموا منا بني العرب خلة	سوى ان «خير الخلق» لم يك اعجما
بني الترك اني ما تكلمت هاجيا	ولكن قلبي من جفاكم تكلما (١٠)

* ولد في بلدة اجزم بلواء حيفا سنة ١٨٤٩ ، وسافر الى مصر سنة ١٨٦٦ م وقضى في الازهر ست سنوات، ثم عاد الى عكا ودرس فيها وفي مسقط رأسه . وقصد الآستانة سنة ١٨٧٦ وعمل محررا في «**الجوائب**»، ثم عاد الى الشام سنة ١٢٩٦ هـ . جاور في المدينة مدة ، ثم عاد الى بلده حيث مات سنة ١٩٣٢ . له كتب ومؤلفات دينية كثيرة، ومعظمها في مدح النبي والأولياء الصالحين .

ونحن ندرك دلالة المرارة الممضة التي يغص بها الشاعر من خلال هذا التعلق ببني الترك بسبب الرابط الديني الذي يربط بين العنصرين العربي والتركي ، وهو الاسلام . فهي مرارة لها دلائل على المشاعر العربية قبل اعلان الدستور بسنوات ، برغم ان الشاعر ينظم قصيدته في مدح احدى الشخصيات العربية البارزة في بلاط الخليفة السلطان .

وفي وصف احوال العرب والتنبيه على اوضاعهم السيئة في هذه الفترة المبكرة ، ومما له دلالة قوية على اليقظة التي تحلى بها الشاعر العربي في فلسطين ، ما يندب به اسعاف النشاشيبي * (١١) حالهم في قصيدة من اربعة وعشرين بيتا ، تعج بالغيرة ، وتفيض بالاسى والحزن على قومه بسبب ما آلت اليه احوالهم من درجات التقهقر والانحطاط . والشاعر صادق في لوعته وفي تمنيه ان يقيل الله قومه من عثرة حياتهم . يقول مستهلا قصيدته في بساطة ودون عمق في الاحساس ، فجاءت نظما مسطحا ومباشرا ، غمره بنظرة سوداوية طافحة بالدموع :

العرب مات شعورهم فاندبه دهرك باكيا
ولى فولى بعده انسي وساء مآليا
قد كنت اطمع ان ارى وطني بهيجا زاهيا
فوجدته من كل علم او علاء خاليا
فرثيته وندبته وسكبت دمعي غاليا
فسعادتي يا ابن الكرام وبغيتي ومراميا
ان تصبح العرب الاذ لة سادة وواليا

وبسبب الواقع المتردي الذي انحدرت اليه الحياة العربية في ايام الاتراك ، انبرى الكثيرون من شعراء فلسطين يشاركون شباب العرب ورجالهم في دفع الظلم التركي عن البلاد ، ولقوا في سبيل ذلك كثيرا من العنت وصنوف البطش والاستبداد ، فنفي الكثيرون منهم الى اقاصي الاناضول وزج بهم في اعماق السجون ، ونظموا في تجاربهم النضالية هذه كثيرا من الشعر . وقد جمع عيسى اسكندر المعلوف كثيرا منه في بحث نشره في حلقات تحت عنوان « المشاهير والسجون » ومن ذلك ما قاله محمد افندي صالح الصمادي الحسني النابلسي ** (١٢). وكان قد سجن في الاناضول متحديا اعداء امته :

* ولد في القدس بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٩٠ ودرس في كتاتيبها ثم في المدرسة البطريركية في بيروت حيث تلقى العلم على عبد الله البستاني ومحيي الدين الخياط ومصطفى الغلاييني. وشغفته العربية ، وكأن البستاني اورثه حبه الأدب القديم وبغضه اساليب المحدثين . عمل في تحرير بعض المجلات في القدس كما عمل معلماً في الكلية الصلاحية بالقدس، وصار المفتش الاول للغة العربية في فلسطين سنة ١٩٢٩ . تميز اسلوبه بالقوة حتى نعت بأديب العربية. يعتبر ناثرا اقوى منه شاعرا. توفي بالقاهرة سنة ١٩٤٧.

** ولد في نابلس سنة ١٨٨٣ ودرس فيها وفي بيروت وفي جامعة الآستانة. شارك في الحركة العربية منذ بداية اليقظة، وانضم الى «المنتدى العربي»، وهرب من الجيش التركي عام ١٩١٦، وانضم الى جيش الامير فيصل. ثم عمل سكرتيرا لوزارة العدل في دمشق وفي محاكم عمان فيما بعد . واشترك في تأسيس جمعية ام القرى السياسية سنة ١٩٢٣ ، وشارك في معارضة المعاهدة الاردنية ـ البريطانية . اصدر جريدة «**صدى العرب**» في ١٢/١٠/١٩٢٧. اغتيل في شتاء ١٩٣٣ . ليس له ديوان مطبوع ، وشعره موزع في الصحف، وله شعر قومي رائع نظمه في سجنه في الاناضول .

ما راعني انني اغدو صريع اذى ... وسط السجون ومصلوبا على النصب
لم يلهني عن بني قومي وعن وطني ... وعد الطغاة وبذل المال والرتب
ان يقبض الحر او يبقى فان له ... ذكرا يخلد في الاسفار والكتب

وله من قصيدة اخرى :

قد اوجس الاتراك منا خيفة ... فاستحسنوا اطفاء كل منار
فزججت في قعر السجون وما دروا ... ان المحابس جنة الاحرار
ان كان ذنبي ان اعلم امتي ... فاستكثروا من هذه الاوزار
ان يصلب الاعداء جسما فانيا ... فالروح تأوي مسكن الابرار
تبقى البلاد اذا تعهد امرها ... عدل ، ولا تبقى مع الاشرار (١٣)

وهذه التضحية وهذا التفاني اللذان يعبر عنهما الشاعر في سبيل امته ووطنه ، انعكسا في تجربته الشعرية صدق عاطفة وحرارة حياة تحسهما في بعض تعبيراته البيانية الجميلة ؛ كما في البيت الاول في مطلع قصيدته الاولى ، وكما في قوله « فاستحسنوا اطفاء كل منار » و« ان المحابس جنة الاحرار » . وقد قادت الشاعر المستنير شجاعته وجرأته النبيلة الى تخوم التفاؤل بحتمية خلاص الشعوب من الحكام الاشرار يوما ما . ومن هنا اغتنى نبع التفاني والنضال القومي في نفسه . ولم يقتصر هذا النضال على الشعراء الشباب وحسب ، وانما نرى الشيوخ منهم ايضا يبارون الشباب في كفاحهم القومي وكشف مظالم الاتراك أمام امتهم . فهذا الشيخ سعيد الكرمي يحكم الاتراك عليه بالاعدام خلال الحرب العالمية الاولى ، ثم يبدل به السجن المؤبد لشيخوخته (١٤) . وهذا الشيخ سليمان التاجي الفاروقي يقول فيه عيسى المعلوف « ولمعري فلسطين الشيخ سليمان التاجي الفاروقي اشعار رائعة قبل نفيه وبعد نفيه الى بر الاناضول » (١٥) .

وللشيخ الفاروقي *، (١٦) الملقب ببدوي فلسطين ، شعر سياسي قوي ينبه على حقوق العرب ، ويلتمس من السلطان محمد رشاد النظر في هذه الحقوق وعدم غمطها ، وينتقد عدم ادخال احد من العرب في الوزارة . ومن امثلة ذلك قصيدة له تزيد على السبعين بيتا ، يعدد فيها مناقب العرب وفضلهم على الدولة العثمانية ، ليقول بعد هذا :

بضع وعشرون مليونا لهم لغة ... تموت ما بينهم ياشد ما غلبوا
سياسة العنف لا تجدي وان نفعت ... فالحبل ان شد يوما سوف ينقضب
والعرب اكرم شعب انت تحكمه ... ولن تضيع في ايامك العرب

ويشير فيها الى خيبة آمال العرب في الدستور الذي لم يكن غاية في ذاته ويقول :

كنا نعلل بالدستور انفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب

* ولد في الرملة سنة ١٨٨٢ وفقد بصره في التاسعة . حفظ القرآن قبل السنة العاشرة . درس في الازهر تسع سنوات، واعجب به الشيخ محمد عبده وقربه منه . التحق بمدارس الآستانة واتقن التركية والفرنسية والانجليزية. ولقب (معري فلسطين). اصدر (الجامعة الاسلامية) عام ١٩٣٢ ، ثم عطلتها السلطات. استقر بعد النكبة في اريحا . ثم اصدر في عمان (الجامعة الاسلامية) عام ١٩٤٩ . توفي عام ١٩٥٨ . فمتاز شعره بالقوة والجزالة وليس له شعر مجموع .

حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثا ... ولا استجيب لنا في مطلب طلب *

وبتضح لنا في هذه القصيدة ان الشاعر ، برغم افتخاره بأمته وامجادها وإبائها ، ومطالبته باحياء لغتها ، ما يزال يدور في الفلك العثماني ، ويقع ضمن تأثير العلاقة التقليدية بين الشاعر العربي والحاكم في الازمان الماضية ، فيتقرب منه ويقرب اليه قومه طالبا رعاية ملايينهم كرعايا من غير الدرجة الثانية . ولا غرو في ذلك ، فالقصيدة قيلت كما يبدو في فترة اقتصار العرب على المطالبة بالحكم اللامركزي مع بقاء التبعية للخليفة وللسلطنة . ولكن الشاعر يعنف في قصيدة اخرى يستفز فيها النواب العرب ، ويدعوهم الى النهوض بامتهم واحتضان حقوقها في الحياة العزيزة واعادة امجادها السالفة بزلزلة المجتمع العثماني المتحجر وتقويض اركانه الراسية في تراب التخلف والفساد والتمييز العنصري والطبقي والطائفي ، وقد نشرت في جريدة « المفيد » بلسان الامة العربية تخاطب ابناءها ، وبتوقيع « بدوي فلسطين » ، ومطلعها :

بيمن نواصيكم عقدت الأمانيا ... ورجيت ان اعلو لكم من علانيا

ومنها :

بني انهضوا واحيوا حياة عزيزة ... حياة تعيد المجد للعرب ثانيا

وبعد ان يحدثنا عن امجاد العرب ، يلتفت مرة ثانية الى النواب ، فيقول :

الا نهضة شرقية عربية ... تزلزل اقواما وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتياز واثره ... ويصبح كل الناس فيها سواسيا
يقولون أن العرب مات رجالها ... يقولون ان الجو اصبح خاليا
يرون سقوط العرب ضربة لازب ... وامرا اراد الله لا شك ماضيا
ابغيا علينا وافتئاتا واثره ... ويرجون منا بعد هذا تغاضيا
الا ليت شعري هل ارى العرب امة ... يساند بعض بعضها لا تجافيا
اذا صاح في وادي الكنانة صائح ... يبيت له الربع الشأمي داويا
وان انَّ في الصقع اليماني مثقل ... اهاب له القطر الحجازي باكيا

---

* حاولنا ان نختار من ابيات هذه القصيدة مما نشر منها في اكثر من مرجع، لعدم وجود ديوان مجموع للشاعر. انظر من هذه المراجع :
- انيس المقدسي « **العوامل الفعالة في الادب الحديث** » ص ٧٤ .
ويشير المؤلف في هامش الصفحة الى ان ما نشره الفاروقي (اعلاه) هو من بعض (كذا) ما تكرم به علينا صديقنا الاستاذ ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف .
- امجد الطرابلسي - شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام (معهد الدراسات العالية ١٩٥٦/ ١٩٥٧) ص ٣٦
ويقول المؤلف في هامش صفحة ٣٩ : عثرنا على هذه القصيدة في قصاصة من جريدة «**ابا بيل**» الدمشقية التي كانت تصدر إذ ذاك والعدد الذي نشرت فيه القصيدة من الاعداد الصادرة في اوائل عام ١٩١٠ على ابعد تقدير .
- محاضرات الموسم الثقافي الثاني في الكويت ، ١٣٧٥/ ١٩٥٦ ، دار المعارف بمصر ، المحاضرة الثانية لامجد الطرابلسي ، ص ١٤٩ .
- يعقوب العودات (البدوي الملثم)، مجله «**الاديب**»، جزء ٥ ، السنة ٢٥ ، أيار (مايو)، ١٩٦٦، ص ٢٦ . يقول العودات في صفحة ٢٥ «ان للشاعر قصائد نارية قل ان تجد لها صنوا في شعرنا السياسي المعاصر ... وقد فقدت في فلسطين » .

الا رجلا ذا مرة فيلعكم — ويرأب صدعا فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتد او يبلغ المنى — ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا (١٧)

ويبدو ان القصيدة تيلت في الفترة اللاحقة لعام ١٩١٢ التي راجت فيها الدعوة لاستقلال العرب ، وتأسست في سبيل ذلك بعض النوادي والجمعيات العربية السرية والعلنية لتنظيم تلك الدعوة والعمل على تحقيقها بعد ان تمادى الاتحاديون في نزعتهم الطورانية ، وتجبروا في اضطهاد العنصر العربي . فالامة في مثل هذه الفترة ، القلقة من حياتها ، تروح تبحث بين ابنائها عن البطل المنذور للقيام بدور القيادة الى عهد النهضة الذي تستشرفه على آفاق آمالها .

وجدير بالملاحظة هذه الروح القومية الشاملة التي ينادي بها الشاعر ويعليها من خلال صوت الامة العربية لتجميع اطرافها واقطارها في وحدة الألم والأمل والمصير على صعيد قومي . وهذا النفس القومي هو الجديد حقا في هذه الفترة ، فقد اجتمعت شعوب هذه الاقطار مع غيرها من الشعوب الاسلامية في الامبراطورية على شعور الجامعة الاسلامية والوحدة الدينية ، خصوصاً امام الاطماع الاوروبية والتسلط الاستعماري . ولكن هذا الجامع الديني الذي كان الخليفة يقيد به رعيته من شعوب المسلمين بدأ يضعف ويتراخى ، وتتفكك خيوطه في النفوس مع ازدياد مظالم السلطة التي تصبها على الرعايا تحت خيمة هذا الجامع وفي ظله . وهذه المظالم التي كان الشعراء يتسترون عليها نفاقاوخوفا تحت هذا الظل وباسم الدين ، بدأت تتكشف وتبرز آثارها وردودها في نفوس العرب مع اطراد نمو الوعي القومي لديهم ، وبازدياد الاضطهاد القومي من الجانب الآخر . ولم يعد الجامع الديني عذرا كافيا للتستر على ما لحق بالسلطنة من خلل وما يستشري فيها من جور وفساد ، فأخذ الاحساس بالكيان العربي ينمو ويزدهر. وكان اسعاف النشاشيبي من اوائل الذين استجاب احساسهم لما رجوه من منح الدستور ، فقال قصيدته (ذكرى فتاة مكدونيا) ، وهي قصيدة في الحرية ، ومطلعها :

اخطري اليوم في الربوع اختيالا — لا تخافي من العدو اغتيالا
لا تخافي من كيده لا تخافي — ان كيد العدو ولى وزالا

فقد كان الخوف والقلق والكيد والاغتيال يملأ نفوس الناس ، فيقول :

قد ابدناه بالسيوف المواضي — وتركناه عبرة ومثالا
وازلنا في الملك كل فساد — وشفينا ما كان داء عضالا
وحمينا حماك من كل باغ — رام منا ومنك ما لن ينالا

وفيها ينظر الى مكدونيا نظرة العطف لوقوعها في الظروف نفسها التي وقع فيها وطنه الصغير . وهو يدرك اهمية الظروف الواحدة ؛ تلك الرابطة القومية ، فيدعو الى التخلص من آثار عبد الحميد . ولانه يدرك كيف كان الدين يتخذ اداة تفرقة وتضليل ، راح يحذر الناس من ذلك ويفضح تبرير محاربة البلقان باسم الدين ، يقول :

ايها الشرق طال نومك فانهض — للمعالي وصافح الاقبالا
اترك الدين في المعابد يبكي — واحتفل بالفتاة شرق احتفالا *
تخذوه يا شرق للظلم سبلا — واضلوا وحرفوا الاقوالا (١٨)

* هكذا في الاصل .

فهذا الشعر ، وان كان اسعاف ينظمه بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، الا اننا لا نستطيع ان نسقط دلالته الواضحة على تقلص شعور الرابطة الدينية وانكماشه بين العرب وسدة الخلافة .

وقد رافق الوعي على ضعف السلطنة ووهن اركانها ، واليقظة العربية والشعور بكيانها تنبه مبكر على خطط الاستعمار الاوروبي ، ويقظة على اهدافه واطماعه ، (وكان اسعاف ايضا من اوائل الذين احسوا بالخطر المحدق بفلسطين وتنبأوا به ، فهو يقول قصيدة فلسطين والاستعمار الاجنبي في ستة وعشرين بيتا ، تناول فيها الاستعمار الاجنبي وحذر من امواله ومن نتائج الوقوع في حبائله ، ومنها :

يا فتاة الحي جودي بالدماء ... بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولت (فلسطين) ولم ... يبق يا اخت العلى غير ذماء
نكبت اقدامها سبل الهدى ... فشرتها للعدى شر شراء
سوف تشكين وتبكين دما ... يوم لا يجدي ولا يغني البكاء
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء ... وانبذوا البغضاء نبذا والعداء
ان الاستعمار قد جاز المدى ... دون ان يعدوه عن سير عداء
ان هذا الداء قد امسى عياء ... فتلافوه سريعا بالدواء
انها اوطانكم فاستيقظوا ... لا تبيعوها لقوم دخلاء
فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا ... ان عقباكم هلاك وفناء
اذكروا ان غركم مالهم ... عزة النفس دوما والاباء (١٩)

وسواء كان هذا الاستعمار الذي يحذر اسعاف من خطره هو محاولات الدول الغربية شراء بعض الاراضي في فلسطين لاقامة المؤسسات الدينية وسواها ، ام انه خطر الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الذي كان قد ظهرت بوادره ودس يده مبكرا في ارض فلسطين ومنذ ايام السلطنة العثمانية ، وهو ما نرجحه . ام انه كلاهما ، فان هذه القصيدة برغم ما هي عليه من تقريرية ومباشرة ، بيان في الناس جاء مبكرا ليصب الماء البارد على وجوه الغافلين ، وليذكرهم بعزة النفس وبالإباء ويعقبى الهلاك والفناء ان هم لم يدعوا شحناءهم ، وينبذوا بغضاءهم وعدواتهم .

وفي هذه الفترة التي بدأت فيها النفس العربية تتململ تحت كلكل الطورانية وتتفتح زهور كيانها في كهف الدولة العلية الرطبة ، بدأت اطماع الاستعمار الغربي تدهم الشرق ، وتطل عليه برأسها وتذر قرنها ، فزحفت عليه من شمالي افريقيا تريد انتهاش بعض اجزاء الامبراطورية ، وكانت حرب طرابلس بين تركيا وايطاليا سنة ١٩١١ تمثل حربا استعمارية قومية بين الشرق والغرب . ولا شك ان بعض الشعراء العرب من ذوي الاتجاه الديني نظروا اليها من وجهة نظر دينية واعتبروها حربا صليبية من دولة مسيحية تغزو اراضي المسلمين . ولكننا نرى شاعرا مسيحيا من شعرائنا في فلسطين يقول في هذه الحرب ، ناعيا على شعوب الغرب اطماعها وخروجها عن الدين المسيحي بسبب وحشيتها وجشعها ؛ يقول اسكندر الخوري البيتجالي :* (٢٠)

* ولد في بيت جالا بجوار بيت لحم عام ١٨٩٠ ، ودرس في المدارس الطائفية في بلده وفي الناصرة وبيت لحم ، وانهى

ان في الغرب شعوبا لم تزل هي نصرانية ، لكنها
تشبه الذئب وترعى الغنما
تمسك الانجيل في كف وفي
تعبد الكسب وتهوى الدرهما
صنم الغاية قد اعماهم
كفها الآخر شدت صنما
عن هدى عيسى وما قد علما (٢١)

فالأقرب الى الصواب ان نعتبر حافز الشاعر على هذا الاتجاه هو الاحساس القومي او بدء وجود هذا الاحساس وظهوره ، فهو ، النصراني يرى ان دولة نصرانية تغزو ارضا عربية ظلما وعدوانا ، فيتهجم عليها هذا التهجم المرير من خلال احساسه بالكيان العربي الصاعد . واذا كان سهلا علينا ان نوجه شعر هذا الشاعر المسيحي هذا التوجيه ، فان لدينا نموذجا شعريا لشاعر مسلم كان يعتبر من كبار المتفقهين في الدين في فلسطين ، وهو شيخ معمم تعلم في الازهر وتعرف على كبار شيوخه في ايامه ، حتى ان محمد عبده كان يحبه ويقربه اليه ، ولا يمكن توجيه هذا الشعر للشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، وهو ايضا في الحرب الطرابلسية تلك ، والخلافة العثمانية ما تزال قائمة ، الا على اساس الشعور بالكيان العربي والعزة العربية ، او بالدلائل العامة للقومية العربية ، حتى اننا لنقف في هذا الشعر على عصبية عربية جاهلية تتحكم به ، وتطغي على عقله وقلبه ، فيقول مستثيراً نخوة العرب ضد الغزاة ، ومحرضا على عدم الصلح معهم :

انسام الخسف والعرب الالى
هم سياج الملك ما هزوا الشفارا
وسيوف ويحها لو جردت
اطلعت من حندس الشك النهارا
ليس بين الملك واستعلائه
غير ان تُنضى فيفتر افترارا
ان دون الصلح لو ابصرتم
فتنا تغشى واحداثا كبارا
لا تسيغوها ولا ترضوا بها
خطة تكسوكم الدهر شنارا (٢٢)

وكما كان الشاعر العربي في فلسطين واعيا على الحركات السياسية في الداخل وفي الخارج ، فانه كان يقظا ايضا على ما تبيته وتخطط له الصهيونية العالمية من اطماع وجشع في ارض فلسطين وسواها من البلاد العربية . فها هو ذا الشيخ الفاروقي صريح كل الصراحة في تخميس يحذر به العرب وينبههم على هذه الاطماع ، وذلك بمناسبة انعقاد احد المؤتمرات الصهيونية في مدينة (بال) بسويسرا عام ١٩١٢ . وهو بصدق حدسه يجعلنا نشك في ان هذا الشعر انما قيل في فترة لاحقة كان انكشاف الاطماع الصهيونية فيها اكثر افتضاحا وعلانية ومن قصيدته قوله :

ايها الشعب نهضة وبدارا
ايها الشعب اوسعوك احتقارا
هب يا شعب واصلهم منك نارا
هب وانفض من مقلتيك الغبارا

دراسته في الكلية البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت سنة ١٩٠٦، وفيها درس العربية على الشيخ عبد الله البستاني، ثم درس القانون في معهد الحقوق بالقدس، وتقلب في عدة وظائف حكومية. ونشر في الصحف كثيرا من المقالات والقصص ، واصدر دواوين عديدة وكتبا مؤلفة ومترجمة . نظم كثيرا من الموضوعات الاجتماعية، ويشيع في نظمه الاسلوب القصصي والحوار .

وار القوم نهضة عربية

قم قياما يا شعب لا تتوانى ... لا تهن لا تهن كفاك هوانا
ان هذا السكوت اصل بلانا ... ان هذا الونى وذاك الكيانا

هاج تلك المطامع الوحشية

غرهم صبرنا عليهم زمانا ... حاولوا سلبنا البلاد امتهانا
فاذا لم نمت ولم نتفانى ... واذا لم نقم لهم برهانا

سلبوا والله تلك البقية

نمت يا شعب واستطبت المناما ... ورضيت الحياة ذلا وذاما
رحم الله في التراب عظاما ... عشن ما عشن وارتحلن كراما

اتراها هانت على الذرية ؟

يا فلسطين طال هذا المطال ... ويح قومي اليس فيهم رجال ؟
طال ظلما اعداؤنا واستطالوا ... ورأونا نغضي الجفون فصالوا

واستهانوا بنا وبالوطنية

يا فلسطين عقك الابناء ... يا فلسطين ذم فيك البقاء
اترى الارض اعقمت والسماء ... ام لماذا لا تنبت العظماء ؟

رب رحماك بالبلاد الشقية (٢٣)

هذه النماذج من الشعر تدل بوضوح على التيار الجديد الذي بدأ يشغل جزءا كبيرا من بال الشعراء العرب في فلسطين اثناء الفترة الاخيرة من حكم الاتراك وقبيل الاحتلال البريطاني لبلادهم ، فبعد ان كانت موضوعات اشعارهم السابقة على نمط موضوعات الشعر في عصور التخلف والانحطاط المتأخرة ، مدائح نبوية وفي ذوي الحكم والسلطان ، ومباسطات اخوانية وفي المناسبات الاجتماعية ، فرضت الحياة نفسها عليهم واصبحوا اقوى صلة باحداثها وتياراتها ، فجاء شعرهم في هذه الفترة يمتاز عن شعرهم السابق بسلامة الالفاظ وجزالتها ، وبلاغة التعبير واشراقه ، واحكام نسجه وتماسكه . ويبدو ذلك اوضح ما يكون فيما مثلنا به من شعر الصمادي والفاروقي ، اذ جاءت نماذج شعرهما واضحة العبارة متينة البناء ، يمتزج فيها العقل بالعاطفة الصادقة وقد استقام اسلوبها مع البيان العربي الرصين . وتفسير ذلك في رأينا ان موضوع الوطنية والحرية كان منفذا لخروج الشاعر على نمط الشعر البالي والتقليد البارد ، اذ ان الشاعر في هذا الموضوع الحياتي يخضع ، ان طوعا وان كرها ، لضغط الواقع ولتأثير محسوس يستثير عواطفه ويعمق احساسه ويضعه في موقف التجربة النفسية والانفعال الوجداني الذي يحرر ذاته من قيود التقليد ، وفنه من أوضار التبعية . ونحن لا ندعي ان الشعر في هذه الفترة كان جميعه في مستوى ما مثلنا به من الناحية الفنية ، او انه هجر موضوعاته القديمة وعاج على موضوع الوطنية والحرية ليستأثر به ، فذلك ما لن نقوله ولن يكون ، ولكن ما نريد ان نقوله ان هذه الفترة باحداثها المتلاحقة والمتغيرة ، وبتأثيراتها العميقة ، قد دقت للناس أجراس الخطر وفتحت عيونهم على واقعهم السيء وعلى سكين المطامع الاجنبية النازل فوق رقبة الوطن ، ووضعتهم امام مسؤولياتهم فتصدى الشعراء لتحمل دور المعلمين الهداة ، فكان شعرهم خير منبه ، واقوى صوت يحذر الناس ويوقظهم ، ويفضح امامهم المؤامرات الشريرة على وطنهم الجميل . وبذلك غدا معلما من معالم الوعي العربي في فلسطين ، ومظهرا من مظاهر يقظة أهلها . وتعقدت قضية

هذا الوطن الجميل ، ومرت بمراحل عديدة ظل الشعر خلالها ، وما يزال ، يقوم بدوره في ظروف قاسية ومتغيرة ، فيتحمل ، بشرف ، عبءالمسؤولية الوطنية والانسانية ، ويقاوم ببسالة ، اعداء الوطن في الداخل وفي الخارج ، والاخطار التي احاطوه بها دأبا على خنقه واماتته . وبهذا الدور الذي اداه الشعر الفلسطيني ، وما يزال ، يعد ابرز ملامح الاحساس بالوحدة القومية ، وانقى مظاهر اليقظة العربية .

(١) غالي شكري ، « **ادب المقاومة** » ، لقاهرة،دار المعارف ، سلسلة الدراسات الادبية رقم ٥٢ ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٧ .

(٢) د . عبد المحسن طه بدر ، « **الاداب** » ، بيروت ، عدد ١ كانون الثاني ١٩٦٨ ، ص ١٥ .

(٣) انظر : ساطع الحصري ، « **حولية الثقافة العربية** » ، السنة الثانية ، ص ٦ ـ ٨ ؛ د . ناصر الدين الاسد ، « **الشعر الحديث في فلسطين والاردن** » ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠/١٩٦١ ، ص ١٠ ـ ١١ : « **الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن** » ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ، ص ٢٤ ؛ « **محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين** » ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٧٠ ، ص ١٠ .

(٤) محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك ، « **ولاية بيروت ـ ١ ـ القسم الجنوبي** » ، بيروت ١٣٣٥ هـ مطبعة الاقبال ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .

(٥) د . ناصر الدين الاسد ، « **الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن** » ، ص ٢٧ .

(٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٧) انيس المقدسي ، « **العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث** » ، الحلقة الاولى، منشورات كلية العلوم والاداب ، الجامعة الاميركية في بيروت ، سلسلة العلوم الشرقية : الحلقة ١٥ ، مجلة المقتطف ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٠٨ .

(٨) انظر ترجمته في : « **الاعلام للزركلي** » ، ٩ (ط ٢) ص ٢٨٩ . الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص ١٢ . مجلة الاديب ـ ١١ تشهرين الثاني ، (نوفمبر) ١٩٦٥ ـ بيروت ص ١٢ .

(٩) انظر مقدمة كتاب « **النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي** » ، تأليف محمد احمد الغمراوي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ١٣٤٧ ، ص أ .

(١٠) عن مجلة « **الاديب** » ، جزء ١١ ، السنه ٢٤ (تشرين الثاني ـ ١٩٦٥) ، من مقالة للبدوي الملثم حول الشاعر ، ص ١٢ .

(١١) أنظر : الاعلام للزركلي ، ٦ ، ص ٢٥٥ . الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(١٢) انظر **مجلة الاديب** ، العدد ٥ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٢ .
١٢ شعبان ١٣٣٨ هـ ، ص ٢٠٠ .

(١٣) مجلة « **الهلال** » ، جزء ٨ أيار (مايو) ، ١٩٢٨ م ،

(١٤) **المصدر نفسه** ، ص ٧٠١ ـ ٧٠٣ .

(١٥) **المصدر نفسه** ، ص ٧٠١ ـ ٧٠٣ .

(١٦) انظر مجلة « **الاديب** » ، ٥ أيار (مايو) ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥ .

(١٧) انظر انيس المقدسي « **العوامل الفعالة في الادب الحديث** » والبدوي الملثم « **الاديب** » الجزء الخامس ، السنة الخامسة والعشرون ، ايار (مايو) ١٩٦٦ .

(١٨) انظر د . عبد الرحمن ياغي ، « **حياة الادب الفلسطيني الحديث** » ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، عن مجلة النفائس العصرية ، جزء ١ ، تشرين الثاني ١٩٠٩ ، المجلد الاول ، ص ٥٠ ـ ٥٢

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ١٦٧ ، عن مجلة « **النفائس العصرية** » ، الجزء ١٢ ، تشرين الاول ١٩١٠ ، المجلد الثاني ، ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ .

(٢٠) انظر : كتاب الشعر الحديث في فلسطين والاردن ، ص ٥٠ ، مجلة « **الاديب** » ، ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ ، ص ٣٥ . حياة الادب الفلسطيني الحديث ، ص ١٨٩ .

(٢١) انظر أمجد الطرابلسي ، « **شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام** » ، ص ٤٨ .

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤٧ .

(٢٣) انظر مجلة « **الاديب** » ، السنة الخامسة ٢٥ أيار (مايو ، ١٩٦٦ ص ٢٦ من مقالة للبدوي الملثم حول الشاعر .

المؤتمر الرابع لحركة فتح
٢٢ أيار - ١ حزيران ١٩٨٠

الذين يزعمون انهم ، بشكل أو بآخر ، كانوا على معرفة بما يمكن أن يتمخض عنه المؤتمر العام لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، الذي انعقد بين الثاني والعشرين من الشهر الماضي ومطلع الشهر الحالي ، هم إما واهمـون أو مُدَّعون يحاولون خداع أنفسهم قبل خداع الآخرين . وهذا القول ، بكل أبعاده ، ينطبق ، ليس على الذين هم خارج « فتح » ، وإنما على الذين هم داخلها ، بل وعلى أعضاء المؤتمر أنفسهم أيضاً ، وحتى على الذين، قد يكونون ، في أعلى الهرم منهم ، فهم لم يصلوا ، بتوقعاتهم ، إلى ما تمخض عنه هذا المؤتمر العتيد ، حقاً ، والذي يعبر ، بكل الأبعاد ، عن أرقى أشكال الوعي والمسؤولية ، وإن كان في بعض الأحيان القليلة ، كما سنوضح فيما بعد ، قد وقع في الذهن أنه ربما تجاوز ، حدود العملية - ولا أقول اللعبة - الديمقراطية ، وصولاً إلى حدود التسيب والانفلاش . على أن هذا الذي بدا إنما كان مرتبطاً ، أو متعلقاً بالخوف على المؤتمر ، أكثر مما كان حقيقة واقعية فرضت هذا التصور أو ذاك الانطباع .

وكي لا يكون الكلام ضبابياً وعائماً ، أسارع إلى القول : إن معظم الانطباعات والتصورات التي استطعت استقراءها قبل المؤتمر ، بما فيها انطباعاتي الخاصة ، كانت تشير إلى أنه لن يتجاوز ، في امتداده ، أيامه الثلاثة في أحسن التقديرات ، وأيامه الخمسة في أسوئها ؛ وقد فرضت هذه الانطباعات ، أو التصورات نفسها انطلاقاً من الاعتقاد بتقلص الخلاف السياسي بين أعضاء الحركة الواحدة ، إلى أقل مدى ممكن ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية انطلاقاً من القول الذي شاع ، طويلاً وكثيراً ، في حركة « فتح » والذي يتلخص بأن اللجنة المركزية للحركة لن تأتي إلى المؤتمر إلا بعد أن تكون قد رتبت أوضاعها ، واتفقت فيما بينها على التفاصيل الصغيرة قبل الخطوط العريضة ، فهي بهذا تفوت الفرصة على كل توسع يمكن أن ينشأ في حدود العملية الديمقراطية ، وان هذه العملية تصبح ، بهذا المفهوم ومن هذا المنطلق ، هي اللعبة الديمقراطية التي ، بشكل أو بآخر ، ترسم اللجنة المركزية حدودها وأبعادها .

لقد عزز هذا التصور ذلك الرأي الذي شاع داخل حركة « فتح » ، والذي كان يعتقد أن المؤتمر هو ، بشكل أو بآخر ، لعبة اللجنة المركزية التي تطرحها لامتصاص تراكمات السنوات الماضية التسع ، التي فصلت بين مؤتمري « فتح » الثالث والرابع ، والتي كانت، بكل الأشكال ، كما سنرى فيما بعد ، سبب الأسباب في ما يمكن تسميته مفاجأة حركة « فتح » متمثلة في مؤتمرها العام الرابع العتيد .

وإذا كان هذا الرأي ، الذي يرى في المؤتمر لعبة هدفها امتصاص التراكمات ، معتقد معظم أعضاء حركة « فتح » ، فانه قد ساد كافة التنظيمات الفلسطينية واللبنانية ، وكذلك الأحزاب والقوى الوطنية الأخرى .

ما الذي جرى إذن ؟ هل كان في الأمر سوء تقدير بالغ الفداحة إلى هذه الدرجة ، مما يمكن معه القول ان ثمة

خللاً لا يمكن غفرانه قد حدث ، وأدى إلى مثل هذا الحجم من سوء التقدير ، على صعيد الصف الأول والثاني في حركة « فتح » ، من جهة ، وعلى صعيد القيادات الفلسطينية الأخرى والأحزاب اللبنانية ، من جهة أخرى ؟ . قد يكون الأمر كذلك لو أن المسألة تتعلق بتقديرات ايجابية سقطت ، بسبب سوء التقدير ، في هوة السلبية الفاحشة . أما وان التقييمات كانت في أحسن أحوالها سلبية ، على هذا النحو أو ذاك ، ثم ما لبث الأمر أن تمخض عن كل هذه الايجابيات ، التي تمخض عنها مؤتمر « فتح » الرابع العتيد ، فان هذا لا يقود إلى السقوط في خطر المبالغة ، وإنما هو ، على نحو ما ، إغفال تقدير مكامن القوة ، والقدرة التي تمتلكها حركة الشعب الفلسطيني ، ممثلة في حركة « فتح » ، على النماء والعطاء والتطور الطبيعي الذي غاب عن الرؤية الحسية وعن التتبع الذهني ، بسبب غياب مؤتمرات « فتح » وتراخي انعقادها .

هل كانت هذه الاطلالة ضرورية ، وكافية ، قبل الحديث عن انجازات المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » ؟

أسارع إلى القول ان مثل هذه الاطلالة كانت أكثر من ضرورية ، ولكنها غير كافية . وإنه ، لمن الضروري جداً ، أن يبادر العديد ممن يمتلكون المعلومات ، أولاً ، والتحليل ، ثانياً ، إلى الادلاء بدلوهم . فهذا مؤتمر حركة « فتح » الرابع ، يعبر عن حجم « فتح » الذي نما وتعاظم ، ويمثل تراكم الخبرات وتنامي الوعي السياسي والنضالي لدى أعضاء هذه الحركة الأم ، مما يضع أمام البعض مسؤوليات جادة في مجال التقييم والدرس والتحليل ، من أجل وضع هذا كله في تناول كل المناضلين والأحرار ، ليس في منطقتنا العربية فحسب ، وإنما في العالم أجمع .

في الساعات الأولى لمؤتمر حركة « فتح » ، برزت مشكلة يمكن وصفها بأنها كانت عاصفة ، سببت هياجاً وتوتراً شديدين ، بحق ، داخل المؤتمر . هذه المشكلة هي أن أكثر من مائة وخمسين عضواً من أعضاء حركة « فتح » القدامى ، والذين كان ينبغي ، طبقاً لكل المقاييس ، أن يكونوا أعضاء طبيعيين في المؤتمر ، لم ترد أسماؤهم كأعضاء طبيعيين ، وانما وردت على لائحة تنتظر التصديق عليها ، من أعضاء أتى بهم النظام الداخلي ، كان بعضهم ، وربما الكثير منهم ، من حيث القدم أو المرتبة التنظيمية السابقة ، أقل أحقية وتأهيلاً .

وفي تقديري ان تخلف النظام الداخلي ، الذي حكم المؤتمر ، وقصوره عن استيعاب المستجدات والتطورات في الحركة ، على صعيد نموها الذاتي من جهة ، وعلى صعيد نموها وتغلغلها داخل الساحة الفلسطينية ، وداخل منظمة التحرير الفلسطينية على وجه الخصوص ، من جهة أخرى : كل هذا قد خلق مثل هذا الوضع الشاذ والغريب .

وفي تقديري أيضاً ، انه كان ينبغي على اللجنة التحضيرية للمؤتمر أن تتنبه إلى مثل هذا الأمر ، ثم كان على الذين أشرفوا على آخر الترتيبات للمؤتمر أن لا يغفلوا هذه المسألة الهامة . ومن ثم كان عليهم ألّا يقفوا عاجزين أمام جمود النصوص .

لقد كان الأولى ، والأصح ، أن يتم تلافي هذه المسألة الجوهرية ، وأن يجري حلها على قاعدة ترى أن النصوص وضعت لخدمة الانسان ، ولم يوضع الانسان لخدمتها ؛ وأن النصوص ينبغي تطويرها لتوصل إلى ما يخدم الحق والعدالة ، وأنه لا ينبغي تسخير الحق والعدالة لخدمتها . أما القول بأن الخروج على النصوص يخلق سابقة يمكن القياس عليها ، فهو قول نردّ عليه بأن القياس ينبغي أن يكون قائماً لدى كل مسألة بمثل هذا الحجم من العدالة والأحقية . وقد كان يجب على الذين أجروا ترتيبات المؤتمر النهائية أن يتجاوزوا في هذه المسألة ، فالنظام الداخلي ، بعد تسع سنوات ، هو بالتأكيد نظام بحاجة إلى تغيير شامل ، وإلى تطوير يتلاءم والمرحلة الراهنة ، مع اطلالة على المستقبل تلبي حاجات المدى المنظور منه .

على كل حال، ما حدث قد حدث ، وواجه المؤتمر أزمته بشجاعة ، وأعاد الأمور إلى نصابها ، بعد أزمة استمرت يوماً واحداً ، بدأ المؤتمر بعدها ، وعلى الفور ، أعماله . وكان في مقدمة تلك الأعمال التقرير السياسي الذي تقدمت به اللجنة المركزية بلسان أمين سرها ، ورئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الأخ فاروق القدومي .

وقد كان التقرير السياسي نقطة جديدة توقف عندها وأمامها المؤتمر . وما إن انتهى الأخ أبو اللطف من تلاوة تقريره - تقرير اللجنة المركزية - حتى كان حوالى تسعين عضواً، من أعضاء المؤتمر، قد تقدموا بأسمائهم طالبين الكلام لمناقشة التقرير السياسي .

وهنا ، أود أن أشير إلى أن المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » قد ناقش بمسؤولية عالية تقرير اللجنة المركزية السياسي ، وان الجو الذي جرى فيه النقاش كان جواً ديمقراطياً عكس نفسه بشكل واسع على كافة أعضاء المؤتمر .

وأريد أن أسجل ، هنا ، أن النقد الذي ووجه به التقرير السياسي قد كشف ، أمام قادة حركة « فتح » ، بشكل خاص ، وأمام أعضاء الحركة ، بشكل عام ، عن حقيقة لم يكن يعرفها سوى القليلين ، وهي أن تراكماً ، في الوعي السياسي « القاعدي » ، قد نما في غياب مؤتمرات الحركة ، وان هذا الوعي قد عُبِّر عنه ، بشكل صارخ ومبدع وخلاق ، أثناء المؤتمر الرابع .

فالنقاشات التي جرت في المؤتمر ، كانت خلاقة وواعية ومسؤولة ، وحريصة على مستقبل الحركة ، وعلى استمرارها ونموها بشكل رائع . وباستثناء بعض التخطيات لبعض القواعد الأصولية ، وهي تخطيات قليلة ومسموح بها،كاستثناءات ، فانه يمكن القول بأن ثلاثة أيام من النقاش الدائر حول المسألة السياسية في المؤتمر كانت تعبر عن طليعية الأفكار التي حفل بها النقاش ، وعن مدى ما يتمتع به أعضاء الحركة من تنام في الوعي السياسي .

وإن جاز لي التعبير ، بانطباعي المتواضع ، عن هذه الأيام الثلاثة الأولى، من الأيام العتيدة للمؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » ، فانني لن أتردد في القول ان مؤتمر « فتح » هو مأثرة تعكس الوجه الأكثر اشراقاً في وطننا العربي . تعكس تعطش الانسان العربي المضطهد المقهور من كل الأنظمة ، ونزعته إلى الحرية والديمقراطية .

إن ما ظهر من ممارسة مسؤولة للديمقراطية، في المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » يفضح ، بالدليل الملموس ، مزاعم الذين يتصرفون على أساس أن الانسان العربي ليس أهلاً للحرية ، ويؤكد أن الذين يصادرون حرية المواطنين هم أعداء لهم . وانني لأتوقع تنامي حجم حركة « فتح » ، وأتوقع صلابة متزايدة في النضال ، واصراراً عنيداً ، أكثر من أي وقت مضى ، على مواصلة التصدي للعدوين : الامبريالي والصهيوني ، ولحلفائهما وعملائهما من الرجعيين في منطقتنا . ففي مناخ الحرية يتنفس النضال ، وفي جو الديمقراطية تنمو الارادة وتتصلب ، ويتفجر رحم الأرض بالعطاء الأعظم الذي يقود إلى النصر .

وفي اليومين ، الرابع والخامس ، لمؤتمر حركة « فتح » تمت مناقشة التقارير الأخرى : التقرير العسكري وتقرير الأرض المحتلة ، والتقرير المالي . وجرت خلال مناقشة هذه التقارير مداخلات ، جادة ومسؤولة ، عكست حرص كل عضو من أعضاء المؤتمر على التصدي بمسؤولية للايجابيات والسلبيات ، وعلى طرح كافة المشكلات السلبية بروح بناءة ، بغرض الوصول إلى تصحيح المسار ، ولوضع الأمور في نصابها .

وإذا كان هناك من نقطة لا بدّ من اثارتها ، في هذا السياق ، فهي أن توجه المؤتمر ، لدى مناقشة التقرير المالي ، قد انصبّ بشكل أساسي على تحقيق الاعتماد ، من الناحية المالية ، على الجماهير : الفلسطينية في الدرجة الأولى ، والعربية في الدرجة الثانية ، لأن هذا ، كما ورد في الحيثيات ، يؤكد استقلال الارادة الفلسطينية ، ويحرر القرار الفلسطيني من أي قيد قد يقع عليه ، من هذا النظام أو ذاك .

أما بالنسبة للتقرير العسكري وتقرير الأرض المحتلة ، فان المؤتمر كان مطلق التوجه فيما يتعلق بتطوير العمل العسكري ضد الاحتلال ، وضد الامبريالية وعملائهما في المنطقة العربية . كما كان مطلق التوجه أيضاً فيما يتعلق بزيادة دعم المناضلين الصامدين داخل الوطن المحتل ، وتطوير العلاقة بين الداخل والخارج بما يخدم أهداف النضال الوطني الفلسطيني في مواجهة الاحتلال الصهيوني ، الاستيطاني العنصري .

وقد توقف المؤتمر ، بعد ذلك ، ليشكل لجانه التي بلغت ثماني لجان هي ، السياسية ، والتنظيمية ، والمالية ، والعسكرية ، والاعلامية ، والأمنية ، ولجنتا الأرض المحتلة والشؤون الإجتماعية .

سأختصر الحديث، هنا ، عن النتائج التي توصلت إليها اللجان ، والتي أقرها المؤتمر ، مختاراً ثلاث لجان هي : اللجنة السياسية ، واللجنة التنظيمية ، واللجنة الاعلامية ، فأتكلم عن نتائجها ، وذلك :

أولاً لأن المؤتمر قد أقر توصيات هذه اللجان بعد تعديلها .

وثانياً لأن جميع اللجان الأخرى ، باستثناء الشؤون الاجتماعية ، تعتبر توصياتها ، ومقررات المؤتمر بالنسبة لها ، توصيات ومقررات سرية لا يجوز نشرها .

وفيما يتعلق بالتقرير الذي قدمته اللجنة السياسية ، فان هذا التقرير الذي أصبح ، فيما بعد ، البرنامج السياسي ، سوف استثني منه مقدمته ، التي سوف يتم نشرها عقب اجتماع اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، وذلك لاعتبارات صياغية فحسب .

البرنامج السياسي

يعد صدور هذا البرنامج (تجد نصه كاملاً في « وفا » ١ / ٨ / ١٩٨٠) ، عن المؤتمر الرابع ، أهم انجازاته ؛ لأنه يحدد الأطر الكاملة لسياسات « فتح » ، وممارساتها على الأصعدة كافة .

وفيما يتصل بالساحة الفلسطينية ، يؤكد البرنامج مواصلته العمل لتعزيز الوحدة الفلسطينية ، على المستويات كافة : داخل الوطن المحتل وخارجه . كما يؤكد دور الحركة القيادي ، على هذه الساحة ، في إطار منظمة التحرير الفلسطينية . ويبرز البرنامج ضرورة استقلال القرار الفلسطيني ، وأهميته : كما يدعو للعمل على تطوير قدرة فصائل الثورة الفلسطينية على الالتزام بالقرار الفلسطيني المستقل . ويحث البرنامج الحركة على المشاركة بثقل أساسي في منظمة التحرير ، معتبراً قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية جزءاً مكملاً لبرنامج « فتح » السياسي .

والبرنامج يقيّم ، بتقدير رفيع ، الانتفاضة الشعبية داخل الأرض المحتلة ، وصمود الجماهير في مواجهة مؤامرة الحكم الذاتي . وينص على ضرورة تصعيد الكفاح المسلح داخل الأرض المحتلة ، وعبر خطوط المواجهة مع العدو الصهيوني . كما أنه يدعو إلى مضاعفة الاهتمام بتنظيم الشعب الفلسطيني ، ودعم صموده ، على كافة الأصعدة ، وتطوير مؤسساته الوطنية ، والعمل ، بشكل خاص ، على تعزيز الصلات مع الجماهير الفلسطينية في الأرض المحتلة ، منذ عام ١٩٤٨ ، لمساعدتها على التصدي لمخططات تمزيق وحدتها الوطنية ، وطمس شخصيتها العربية .

أما على الساحة العربية ، فان البرنامج يميز بين مستويين للعمل فيها :

أ ـ مستوى الجماهير ، حيث العلاقة معها استراتيجية ، فقد شدد البرنامج على أهمية العلاقة مع الحركة الوطنية ، والقومية اللبنانية ، وحث على تطويرها لتصبح مثالاً للعلاقة مع الجماهير على امتداد الوطن العربي . كما شدد على أهمية الساحة الاردنية ، مبرزاً ضرورة اعادتها قاعدة ارتكازية من قواعد النضال ضد العدو الصهيوني . كما أكد ، أيضاً ، على أهمية تعزيز النضال مع الشعب المصري ، ممثلاً بقواه الوطنية والتقدمية ، لأجل اسقاط مؤامرة كامب ديفيد .

ب ـ مستوى الأنظمة العربية : صاغ البرنامج ، هنا ، الأسس التي تحكم علاقة الحركة بالأنظمة ، فأوجب أن تكون هذه العلاقة محكومة باستقلالية القرار الفلسطيني ، وبمبادىء الحركة وأهدافها ، بحيث لا تتعارض هذه العلاقة مع العلاقة الاستراتيجية بالجماهير . وأكد البرنامج المبدأ الذي تعتمده حركة « فتح » لتحديد الموقف الفلسطيني ، من كل نظام ، على أساس موقف هذا النظام من قضية الشعب الفلسطيني ، وثورته المسلحة . ويبرز البرنامج في هذا السياق ضرورة التصدي لأية محاولة لمنع الثورة الفلسطينية من العمل بحرية بين صفوف الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده . ويدعو إلى العمل لتجنيد طاقات الأمة العربية ، البشرية والمادية ، خصوصاً ، الثروة النفطية . أما عن جبهة الصمود والتصدي فالبرنامج يحث على العمل لتطويرها ، لتصبح أداة

فعل رئيسية ، على قاعدة دعم منظمة التحرير ، ومواصلة الصراع مع العدو ، ومواجهة الحلول التصفوية كافة ، واسقاطها .

أما عن الساحة الدولية ، فقد انطلق البرنامج من اعتبار حركة « فتح » جزءاً من حركة التحرر العالمي المناضلة ، ضد الامبريالية ، والصهيونية ، والعنصرية وعملائها . ومن هذا المنطلق تتحدد التحالفات والممارسات ، على الساحة الدولية ، بما يتفق مع مبادىء الحركة ، ومع الميثاق الوطني الفلسطيني .

فالبرنامج يؤكد أهمية العمل ، من خلال منظمة التحرير ، لتطوير قرارات مختلف المنظمات الدولية ، خصوصاً ، قرارات الأمم المتحدة ؛ ولاحكام عزلة العدو الصهيوني والاميركي في هذه المنظمات . كما أنه يدعو أيضاً للعمل من أجل الحفاظ على موقف أغلبية أعضاء الأمم المتحدة الرافض لاتفاقات كامب ديفيد .

ويحدد البرنامج معسكر الأصدقاء ، بالدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، وحركات التحرر في العالم ، والقوى السياسية التقدمية والديمقراطية في البلدان الغربية .

ويدعو البرنامج إلى تعزيز العلاقات مع الثورة الايرانية التي أطاحت بأعتى قلاع الامبريالية في المنطقة ، كما يدعو لتدعيم العلاقة مع الشعوب والدول الاسلامية والافريقية ، وبقية دول عدم الانحياز ، من أجل تطوير مواقفها في دعم القضية الفلسطينية .

أما معسكر الاعداء ، فالبرنامج يبرز بوضوح أن الولايات المتحدة الاميركية تقف على رأس أعداء الشعب الفلسطيني ، والأمة العربية ، وتهدد أمن شعوب المنطقة ، وثرواتها ، مثلما تهدد السلام العالمي . ويحث على العمل لتعزيز الجبهة العالمية المعادية للسياسة الأميركية ، كما يحث على خوض المعارك ضد هذه السياسة لاسقاطها ، وضرب المصالح الأميركية في المنطقة .

أما بالنسبة لدول اوروبا الغربية ، وكذلك لليابان وكندا ، فان البرنامج يؤكد على أهمية تكثيف العمل السياسي فيها ، وذلك للاستفادة من تأييد القوى السياسية الديمقراطية والتقدمية فيها ، من أجل تقليص دعم هذه الدول للكيان الصهيوني ، ومن ثم ايقافه ، ومن أجل حملها على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني . ويسجل البرنامج أن العديد من دول اوروبا الغربية ما زالت تتبع سياسة منسجمة مع سياسة الولايات المتحدة ، ومخططاتها في المنطقة : كما أن اليابان ليست بعيدة عن هذه السياسة . ويدعو البرنامج إلى تكثيف الجهود لمقاومة أي مشروع ، أو أية مبادرة ، تقدم عليها هذه الدول ، وتتعارض مع حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية ، لاسقاطها .

أما البرنامج التنظيمي ، الذي صار اسمه النظام الأساسي لحركة التحرير الوطني الفلسطيني : « فتح » ، فيتضمن ما يلي :

١ ـ المقدمة .
٢ ـ الباب الأول : المبادىء والأهداف والأسلوب .
٣ ـ الباب الثاني : القواعد والأسس التنظيمية ـ الالتزام ـ الانضباط ـ المركزية الديمقراطية .
٤ ـ الباب الثالث : العضوية : أنواعها ـ شروطها ـ اكتسابها ـ حقوقها ـ واجباتها ـ استمرارها .
٥ ـ الباب الرابع : المنظمات القيادية في الحركة ـ القسم الأول .
المؤتمر العام ـ المجلس الثوري ـ اللجنة المركزية .
٦ ـ الباب الخامس : المنظمات القيادية في الحركة . القسم الثاني : مؤتمر الاقليم ـ لجنة الاقليم ـ مؤتمر المنطقة ـ لجنة المنطقة .
٧ ـ الباب السادس : منظمات القاعدة : الخلية ـ الحلقة ـ الجناح ـ الشعبة ـ المنطقة .
٨ ـ الباب السابع : العقوبات .
٩ ـ الباب الثامن : أحكام عامة .

وهذا البرنامج التنظيمي ـ النظام الأساسي ـ لن يجري نشره إلا بعد أن تجتمع اللجنة المركزية ، المنتخبة

من المؤتمر ، لتتخذ قراراتها بصدد النشر والتوزيع .

غير أن ثمة ملاحظات أساسية وهامة ينبغي إيرادها ، خصوصاً ، بعد تلك الأزمة ، وقد تحدثنا عنها في البداية ، التي عاشها مؤتمر « فتح » ، حوالي اليوم الواحد ، والتي ، بسبب عجز النظام الداخلي القديم عن مسايرة تطور الحركة ، ونموها ، واتساع نشاطها ، شكلت مأزقاً عاصفاً اقتضى الخروج منه الكثير من الجهد والاجتهاد ، والتوتر

أولاً ـ وضع النظام الأساسي قواعد محددة لاختيار أعضاء المؤتمر العام تتناسب ونمو الحركة ، من حيث التنظيم والأجهزة ، وعلى صعيد القوات العسكرية (المقاتلين) .

ـ وحدد بدقة اختيار المراتب التي يحق لها الوصول إلى المؤتمر العام ، من هؤلاء ، مما يضمن عدم تكرار المأزق الذي حدث أثناء بداية المؤتمر العام الرابع ، بالنسبة لعدد كبير من الأعضاء .

ـ وقد تناول النظام الأساسي بالتحديد الدقيق صلاحيات المؤتمر العام ، باعتباره أعلى سلطة في الحركة ، والتي تتمثل فيما يلي

أ ـ مناقشة تقارير اللجنة المركزية ، وقراراتها وأعمالها ، ومحاسبتها : وكذلك مناقشة أعمال الأجهزة والمؤسسات الحركية .

ب ـ اقرار النظام الأساسي .

جـ ـ اقرار اللوائح والأنظمة الحركية

د ـ انتخاب أعضاء اللجنة المركزية

هـ ـ طرح الثقة ببعض ، أو كل أعضاء اللجنة المركزية

و ـ انتخاب العدد المطلوب للمجلس الثوري

ثانياً ـ وقد حدد النظام الأساسي صلاحيات المجلس الثوري وسلطاته ، التي هي سلطات مراقبة مباشرة على كافة شؤون الحركة، وبهذا يصبح دور هذا المجلس دوراً فاعلاً وليس دوراً استشارياً شكلياً .

ولكي يضمن النظام الأساسي للمجلس الثوري هذا الدور نصّ على دوره كأعلى سلطة في الحركة ، في حال انعقاده بين دورتي المؤتمر ، أي أن المؤتمر خوّل المجلس الثوري سلطاته كاملة .

ولكي تترجم هذه الصلاحيات ، بشكل عملي ، نص النظام الأساسي على أن يختار المجلس من بين أعضائه أمانة سر متفرغة ، هي عبارة عن أمين سر ، ونائب له ، ومقرر

ثالثاً ـ وقد كرس النظام الأساسي مبدأ الانتخاب في كافة مراتب الحركة ، وأهمها ، انتخاب المجلس الثوري ، حيث أنه في ظل النظام الجديد أصبح عدد الذين ينتخبون في المجلس الثوري يتراوح بين ٥٠ و٥٢ بالمئة من مجموع أعضائه ، بينما كانت هذه النسبة لا تتجاوز ٢٢ بالمئة في ظل النظام القديم

رابعاً ـ وقد عمد النظام الأساسي إلى زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية ، مؤكداً التوجه نحو جماعية القيادة ، وإلى تقسيم أعضاء اللجنة المركزية إلى مجموعات عمل متخصصة ، بهدف تطوير العمل النضالي ، بما يتلاءم والمرحلة القادمة ، سياسياً وتنظيمياً ، ولمنع الازدواجية في العمل

يبقى البرنامج الاعلامي ، الذي أقره المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » ، والذي تقرر خلاله تشكيل مجلس مركزي حركي للثقافة والاعلام ، يقوم على مبدأ تقسيم العمل ، نوعياً واختصاصاً ، ويتولى الاشراف على كافة النشاطات الاعلامية والثقافية ، في الحركة ، على صعيد المركز والاقاليم

وبعد ، فانني أعتقد أن هذا التقرير الذي وضعته في فترة ضيّقة زمنياً ، لن يعطي المؤتمر العام الرابع لحركة

التحرير الوطني الفلسطيني : « فتح » ، حقه من التقييم الموضوعي والعلمي

ولعلني استعرضت عدداً من الملاحظات والانطباعات والأفكار أكثر مما تفرغت لدرس المقدمات والنتائج ، وما بينهما .

فالمؤتمر كان ، فوق هذا كله ، صفعة قوية وجهتها حركة « فتح » للاعداء المحليين ، وللمتربعين من الرجعيين العتاة في منطقتنا ، ثم ، وفي الأساس ، صفعة أشد للامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية .

وليس صدفة أن تكون التعليقات الأولى التي خرجت من واشنطن وتل أبيب ، على هذا المؤتمر ، تعليقات محمومة .

فبينما صوّر العملاء والمتربصون ، لأسيادهم في واشنطن وتل أبيب ، ان الثورة الفلسطينية ، وعمودها الفقري : حركة فتح ـ حركة الشعب الفلسطيني ـ ، توشك على التمزق والتشرذم ، خرجت « فتح » من مؤتمرها واحدة موحدة ، أصلب ما تكون وأقوى ما تكون ، لتشق طريقها في درب الكفاح المسلح مع كافة فصائل الثورة الفلسطينية ، جنباً إلى جنب ، وكتفاً إلى كتف ، مواصلة مسيرتها العظيمة على طريق الانتصار .

زياد عبد الفتاح

مراجعات

سميح سمارة ، **العمل الشيوعي في فلسطين**
الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية
بيروت ، دار الفارابي ١٩٧٩

مراجعة سهيل عامر

لما كانت الساحة الفلسطينية تعيش اليوم مرحلة هي في غاية التشابك والتعقيد والمصيرية ، فمن الصعب فهم هذا الحاضر بكل ملامحه وإبعاده ، بكل نجاحاته وانتكاساته ما لم نرجع الى التاريخ لنسلط الأضواء على تجاربه ولنستخلص منه الدروس علها تساهم بشكل افضل في تـ..يد أسباب الانتكاسات وتوضيح أبعاد النجاحات وتصبح بالتالي جهداً يساهم في دفع حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية الى الأمام .

والمحاولة التي بذلها الباحث التقدمي الفلسطيني سميح سمارة في كتابه الصادر عن دار الفارابي والحامل عنوان « العمل الشيوعي في فلسطين . الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية » هي بمثابة اسهام جدي في هذا الاطار وفي هذه المعركة .

ان الكتابة عن الحركة الشيوعية في فلسطين تكتنفها مخاطر شتى ، وتتطلب من صاحبها التسلح بالرؤية الموضوعية المتأنية والمنحازة لمصلحة القضية والشعب ، وعدم التسرع في استخلاص الاستنتاجات السياسية التي قد تترك في الحصيلة العامة انعكاساتها السلبية التي لا يتوخاها هذا الباحث أو ذاك . كما تتطلب منه الشجاعة والجهد والسعي الدائب للوصول الى الحقيقة . فالكتابة في هذا الموضوع هي بحد ذاتها مخاطرة ، كون تاريخ هذه الحركة يتميز بخصائص وتعقيدات كثيرة ما زالت تعيشها الساحة الفلسطينية حتى الآن . والمراجع حول تاريخ هذه الحركة ، عدا كونها قليلة جداً ، فإن معظمها موجود في حوزة ايد معادية غير أمينة « انكليزية وصهيونية » هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ما زال يدور حول تاريخ الحركة الشيوعية الفلسطينية نقاط اختلاف كثيرة ، فهناك مداخل متنوعة ومختلفة لعدد من الباحثين يحاول تناول تاريخ هذه الحركة كل من زاويته وفي ضوء مصلحته .

فهناك من انطلق من ان الحركة الشيوعية في فلسطين تكونت في اطار الاستراتيجية العامة للمشروع الصهيوني ، ولم تستطع بعد ذلك خرق الجدار الصهيوني الذي طوق تحركاتها وجعلها هامشية وغير مؤثرة في الجماهير اليهودية . وهناك من رأى فيها امتداداً للحركة الاشتراكية العمالية اليهودية وللجناح اليساري في حزب بوعالي تسيون وقيمها على اساس ذلك بوصفها الحركة الأكثر جذرية في التعبير عن مطامح العمال اليهود والعرب ، كما فعل مثلاً ماير فلنر وماهر الشريف . في حين حاول آخرون ان يسودوا تاريخ هذه الحركة وتعمدوا ان يضخموا سلبياتها معتبرين اياها كياناً غريباً على الساحة وهؤلاء الاخيرون هم منظرو الفكر القومي الشوفيني من عرب وصهيونيين ومستشرقين غربيين برجوازيين .

وثمة باحثون يشكلون تيارا لم يستكمل كافة معالمه بعد ، يبدأون من حيث ابتدأ فلنر والشريف وامثالهما ، محاولين تناول تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين بموضوعية ، بحيث تتجنب تقييماتهم لها عنصري الدعاية التبريرية او التشهير المعادي . ومن هؤلاء الاستاذ سمارة

فكتابه الذي يقع في ٣٦٧ صفحة والذي يحوي سبعة فصول ، يتناول تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين ، التي هي جزء لا يتجزأ من تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية . لقد قام المؤلف بجهد كبير واعتمد على عدد ضخم من الوثائق والوقائع محللاً في بحثه ، نشأة الخلايا الشيوعية الفلسطينية وتطورها وفترات صعودها وانتكاساتها .

في الفصل الأول يتناول الكتاب المرحلة التاريخية التي بدأ فيها تشكل الوعي القومي عند العرب واطره التنظيمية . ويتوقف بايجاز شديد معالجاً الأرضية الاقتصادية والفكرية للبرجوازيات العربية في المشرق العربي . وينتقل بعدها الى الساحة الفلسطينية ليستعرض دور البرجوازية الفلسطينية . فكلامه عن البرجوازية الفلسطينية في الثلث الأول من هذا القرن ودورها القيادي يتكرر أكثر من مرة (ص ٣١ - ٣٢) .

ان استعمال مفهوم البرجوازية الكومبرادورية برأينا هو تعبير أدق في المعنى الاقتصادي لهذه الكلمة . ذلك لأن « البرجوازية » التي يتكلم عنها الأستاذ سمارة لم تصل في تلك الفترة ولا حتى بعدها الى مرحلة تكامل كافة معالمها كالبرجوازية التي نشأت في ظل التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية، حيث لعلاقات الانتاج الرأسمالية العنصر الحاسم في التشكيلة . فـ « البرجوازية » الفلسطينية كانت في طور التكوين ، ودورها منذ بداية نشوئها ، في ظل المعادلة الاقتصادية - السياسية العالمية ، وفي ظل وصول الرأسمالية الاحتكارية الى مرحلة الامبريالية ، كان دوراً تبعياً ؛ اذ انها شكلت مع الاقطاع تحالفاً طبقياً قاد - لسوء الحظ - الحركة الوطنية الفلسطينية حتى اواخر النصف الأول من الثلاثينات . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ان بداية تكونها جاءت مع بداية تركيز وتثبيت المشروع الصهيوني الاستيطاني على الساحة الفلسطينية مما وضعها في موقع المدافع عن النفس والبقاء أمام الخطر الذي بدأ يهددها .

كما يتناول أيضاً في الفصل الاول مع شيء من الاسهاب ، موقف الحركة الوطنية الفلسطينية في بداية العشرينات من الانتداب البريطاني ومن المشروع الصهيوني ، مستهدفاً من وراء ذلك وضعنا في الجو التاريخي للأحداث التي رافقت نشوء الحركة الشيوعية في فلسطين .

جذور الحركة الشيوعية في فلسطين النشوء والمواجهة

هذا هو عنوان الفصل الثاني الذي يعالج فيه المؤلف مخاطر المشروع الامبريالي الصهيوني فيقول : « اذا كان مشروع السيطرة الامبريالية على المنطقة العربية قد فرض ضرورة تحطيم اسس النهوض القومي لهذه المنطقة واعاقة النمو الطبيعي لتشكيلاتها الاجتماعية ، فإن هذا المشروع قد اضاف الى هذه المهمات ، مهمة اخرى خاصة بفلسطين ، تقوم على ضرورة إلغاء الكيان القومي بهذا الجزء من المنطقة العربية ، وفي ضوء ذلك ، لا يكون المطلوب اعاقة النمو الطبيعي للتشكيل الاجتماعي الفلسطيني كما حدث في سائر الأقطار العربية ، بل تدمير التشكيل نفسه » (ص ٤٣) .

اذن ، فالمشروع الصهيوني الذي جاء على اساس الشعار التالي « أرض بلا شعب لشعب بلا وطن » ، يستهدف استيطان الارض الفلسطينية بمساعدة الدول الامبريالية لخلق دولة تكون بمثابة الأداة الضاربة المدافعة عن مصالحها . ولكي يكون حجر عثرة اساسي في قلب العالم العربي الطامح الى الوحدة والتقدم الاجتماعي . في ظل هذا الواقع ، نشأت كافة الأحزاب السياسية في فلسطين ، التي كان لكل منها برنامجه السياسي الخاص به . فالأحزاب الصهيونية كانت تعمل من اجل ترجمة قرارات المنظمة الصهيونية العالمية ووعد بلفور الى حيز الواقع العملي . والاحزاب التقليدية القومية العربية كانت تجابه مشروع برامج الاحزاب الصهيونية ليس حباً أو التزاماً بمطامح ومصالح الجماهير العريضة العربية - اليهودية ، بل انطلاقاً عن حرصها على مصالحها هي بالذات ، لذا ، كانت في صراعها ضد المشروع الصهيوني تستهدف ضرب المزاحم الاساسي على املاكها وسوقها، وكانت تتبع منذ البداية سياسة مهادنة الامبريالية الانكليزية طالبة منها المساندة والدعم . ولقد تمكنت في الواقع من تأطير الجماهير الفلسطينية العريضة حول برامجها عقدين من الزمن . فهي بحكم الحفاظ على مصالحها ، وبحكم تخلفها الفكري والسياسي ، احدثت ثغرات ومداخل عديدة تمكنت بواسطتها الاحزاب الصهيونية بمساندة الانتداب البريطا[illegible] من الزيادة التدريجية لرقعة نفوذها عل[illegible] والاقتصاد الفلسطيني بشكل عام . و[illegible] مساعداً للأحزاب الصهيونيه هو غياب[illegible]

التقدمية الثورية المنظمة الفلسطينية . ففي ظل هذا الواقع المعقد وفي ظل الهجرة اليهودية المكثفة الى فلسطين كانت الولادة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين . فكما يقول الاستاذ سمارة : « لم تنشأ الحركة الشيوعية في فلسطين نتيجة انشقاق عن حزب اشتراكي ، وذلك انسجاماً مع الانشقاق الذي شهدته الحركة الشيوعية العالمية بعد التدهور الذي أصاب « الأممية الثانية » ، وبعد نجاح ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ كما هي حال الاحزاب الشيوعية في فرنسا وفي ايطاليا مثلاً . ولم تنشأ هذه الحركة نتيجة تجمع عدد من الاحزاب الشيوعية في الولايات المتحدة وبريطانيا والصين . كما لم تنشأ عن تطور شرائح معينة في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية يؤدي بها الى الاستقلال فالإنفصال . كذلك من غير الممكن مقارنتها مع الحركات الشيوعية التي ظهرت في اطار مشاريع كولونيالية مشابهة كما في الجزائر وجنوب افريقيا . ففي فلسطين لم يقف المشروع الكولونيالي عند حدود استغلال موارد البلاد وقواها العاملة . ولا عند محاولة تغيير الانتماء القومي للسكان الاصليين ، بل تعدى ذلك الى تفريغ الارض من سكانها لاقامة كيان بديل ، له دور رئيسي في عملية السيطرة العامة على المنطقة (ص ٤٤) .

ويتوقف المؤلف قليلاً عند هذه النقطة محللاً خصائص تكون الحركة الشيوعية في فلسطين ومشيراً الى « أن نشأة الحركة الوطنية في فلسطين لم تأت عبر تطور حدث في اطار الحركة القومية العربية كي تكون ولادتها طبيعية مع شروط الصراع ، بل جاءت عبر تطور حدث في اطار التجمع اليهودي ، نقل بعض الشرائح فيه من موضوعة « الوطن القومي اليهودي » الى موضوعة « الصهيونية البروليتارية » التي تأسست على ارضية المشروع الكولونيالي نفسه . ان اليسار الصهيوني الذي جاء كنتيجة لهذا التطور لم يهدف الى حل المسألة اليهودية حلاً « قومياً » فقط ، بل اضاف اليه حله « الاشتراكي » دون ان يضع في حسابه أي دور للجماهير العربية ، مما جعله في موقع التناقض المباشر مع مصالح هذه الجماهير » (ص ٤٤ ـ ٤٥) .

ويتناول الكاتب مسألة نشوء الحركة العمالية اليهودية والمستجدات والتغيرات التي طرأت على اليسار الصهيوني في اوائل القرن العشرين ، اذ يقترب من حقيقة الامور عندما يخلص الى استنتاجه حول التمايز بين الحركة الاشتراكية اليهودية وبين اليسار الصهيوني « ان يسار الحركة الصهيونية أو الصهيونية العمالية لم ينشأ من المجموعات الاشتراكية التي ادى بها تطورها الذاتي الى تأكيد تناقضها مع الحل الصهيوني . بل ان هذا اليسار قد نشأ من هذا التناقض ، الذي عكس نفسه داخل الحركة الصهيونية فخلق تياراً اشتراكياً وآخر صهيونياً تمايزا على ارضية واحدة هي الحل الصهيوني (ص ٤٦) .

في الواقع ان ما يسمى بيسار الحركة الصهيونية نشأ من داخل الفكرة الصهيونية . فالصهيونية منذ نشأتها وضعت نفسها في موقع النقيض للاشتراكية . فقد صدر عن المنظمة الصهيونية في روسيا القيصرية قبل ثورة اكتوبر بيان جاء فيه : « الاشتراكية هي الدمار والانحلال والعداوة ، والصهيونية هي السلام ان الاشتراكية وضعت الصهيونية على مفترق طرق... فالاشتراكية والصهيونية لا يعتبران قطبان متنافران وحسب ، بل عنصران كل منهما ينفي الاخر تماماً »* . فالمضمون الاساسي للصهيونية يتمثل في عدائها للاشتراكية العلمية كايديولوجية وممارسة .

بيد انها عندما رأت في اوائل هذا القرن ان القسم الأكبر من البروليتاريا اليهودية بدأ ينخرط ويساهم بنشاط في الاحزاب الاشتراكية وبالذات في روسيا وبولونيا وفرنسا وسواهم ، قامت بتغيير تكتيكها فاعتمدت اسلوب « البلوراليزم » التعددية التنظيمية والسياسية واستحدثت بعض الاحزاب العمالية الصهيونية متسترة بعبارات اشتراكية . وكان أهم الاحزاب الذي تمكن من استقطاب قسم من العمال اليهود هو حزب « بوعالي تسيون » (عمال صهيون) الذي تأسس في مدينة مينسك عام ١٩٠٥ ، وتمكن عبر اتصاله بكافة التجمعات اليهودية الاساسية في اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ان يحمل صفة دولية اذ ضم تحت لوائه العديد من التنظيمات العمالية الصهيونية في العالم وكان يشترط على الراغب في الانضمام اليه دفع « الشاكل » والتقيد بالبرنامج الداخلي للمنظمة الصهيونية العالمية

اما المجموعات العمالية اليهودية الاشتراكية الاخرى ، فكانت تتخبط بين الحل الاشتراكي

* راجع يفسييف، « **الفاشية تحت النجمة الزرقاء** » . موسكو ١٩١٧٠ ـ ص ١٢٦ بالروسية

الجذري والحل الصهيوني . فالحزب الاشتراكي العمالي اليهـودي وحزب « البوند » اللذان نشطا في روسيا القيصرية ، كانا في تأكيدهما على وجود « شعب يهودي » وعلى ضرورة احياء « الثقافة اليهودية » والحفاظ على « استقلاليتها » ، يلتقيان مع بعض طروحات الصهاينة . ولقد تم قبيل العشرينات من هذا القرن تقارب فكري بين الجناح الانتهازي اليميني من حزب « البوند » مثلاً وبين اليسار الصهيوني وحتى خط الحركة الصهيونية بشكل عام . ففكر هؤلاء جميعاً كان يقوم على ارضية القومية البرجوازية اليهودية . على عكس البروليتاريا اليهودية الثورية التي تبنت منهجاً متمايزاً فانضمت الى الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية، كل منها في بلدها . وساهمت بنشاط بحكم موقعها الطبقي وانتمائها الى تلك الاحزاب التي مثلت وتمثل مصالحها فعلاً لا قولاً ، في نشر الفكر الاشتراكي العلمي وبالتالي في بناء الاشتراكية . فهذه البروليتاريا الاممية وجدت نفسها منذ البداية على نقيض مع الصهيونية بيمينها ويسارها .

في اواخر الفصل الثاني يسلط الاستاذ سمارة الاضواء ، اعتماداً على مصادر عبرية ، على عملية الفرز والتمايز التي جرت داخل اليسار الصهيوني في فلسطين والتي ادت في بداية العشرينات الى تشكيل فصيل تقدمي منه اطلق على نفسه اسم « حزب العمال الاشتراكي » . ولقد لعب احد رموزه القيادية ما يرسون دوراً هاماً في دفع الحزب خطوات جدية إلى الامام . فهذا الحزب في مجمل طروحاته وممارساته كان اقرب الى الاشتراكية الطوباوية منه الى الاشتراكية العلمية . بيد ان الشيء الواضح في طروحات الحزب الجديدة ، هو الوقوف « بحياء » في البداية وفيما بعد بشيء من الوضوح ضد الايديولوجية الصهيونية الا ان هذا الحزب ـ على حد قول الاستاذ سمارة ـ كان يعتقد بأن الهجرة اليهودية الى فلسطين لا تتعارض مع مصالح العمال والفلاحين ، بل على العكس ، فهي تتوافق مع مصالحهم (ص ٦١)

فتركيز الحزب على الهجرة اليهودية الى فلسطين يكون قد غيب عن الساحة عنصراً اساسياً هاماً وخطيراً لعب دوراً اكبر في الثغرات الديمقراطية والسياسية التي ادت فيما بعد الى خلق القاعدة البشرية للمشروع الصهيوني

بعدها يتناول المؤلف الجو العام الذي جرت فيه المواجهة العربية الأولى مع المهاجرين الصهاينة ، ويبين دور الجماهير العريضة العربية المناهضة للمشروع الصهيوني . كما يبدأ بتسليط الأضواء على الدور الممالىء لبريطانيا الذي لعبه الوجهاء العرب . ويوجه نقده اللاذع الى مجمل ممارساتهم وادعاءاتهم ، فيقول بأن العادة عند « الافندية » العرب تدفعهم في أية أزمة يمرون فيها ، أو أية انتفاضات جماهيرية تعيشها جماهيرهم ، إلى إلصاق التهم جزافاً وتوجيه كافة الشتائم الى الشيوعيين بحجة انهم ينشرون رسالة البولشفية المعادية لتقاليدنا واعرافنا الدينية والاجتماعية .

في معرض تقييمه لدور حزب العمال الاشتراكي ، يحاول المؤلف في الفصل الثالث ان يستشف التغيرات التي طرأت عليه . ففي بداية العشرينات وتحديداً بين ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ ، جرى في الحزب صراع عميق بين تيارين : الاول كان لا يخرج عن اطار الخط اليساري من حزب « البوعالي تسيون » والثاني كان يدعو باخلاص لتبني الفكر الماركسي اللينيني حيال كافة القضايا ولقد ظهر الاختلاف والتمايز داخل الحزب من جهة وبين العناصر المحسوبة على الجناح اليساري من « البوعالي تسيون » في صدد الانضمام الى الاممية الثالثة من جهة اخرى ، وتحديداً بعد اعلان الاخيرة موقفها بشكل واضح من الحزبين ومن المشروع الصهيوني في فلسطين . فقد جاء في قرار صدر عن المؤتمر الثالث للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية بعنوان « الحركة العمالية اليهودية » : « ان شيوعيي « بوعالي تسيون » توجهوا بطلب انتساب الى الأممية الشيوعية ، وكان جواب اللجنة التنفيذية ان اشترطت على الاتحاد العالمي للعمال اليهود (بوعالي تسيون) القيام بحل نفسه وذلك في مؤتمر يدعو لعقده من اجل تلك الغاية في مدة لا تزيد على خمسة أشهر . ويتوجب على الاتحاد حل نفسه في مدة لا تزيد على شهرين من انتهاء ذلك المؤتمر والتوجه الى اعضائه بالانتساب الى الفروع المختلفة للأممية الشيوعية . أما شروط الانتساب الأخرى فهي : المصادقة الفورية على اطروحات المؤتمرين الثاني والثالث للأممية الشيوعية ، وقطع العلاقة بالميول والنظريات الصهيونية بشكل نهائي . وعلى الرفاق اليهود ان يعلنوا أيضاً انهم يعارضون النشاط الكولونيالي (الاستيطاني) اليهودي في فلسطين الذي يساعد على المحافظة على مصالح الامبريالية

البريطانية . (ص ٨٥) .

ومن الأهمية بمكان التنويه بالقرار التاريخي الذي صدر عن المؤتمر الثاني للكومنترن الذي أضيف الى الموضوعات اللينينية المتعلقة بالمسألة القومية ومسألة المستعمرات ، حيث جاء في البند الحادي عشر منه ما يلي :

« من الضروري الفضح الدائب أمام الجماهير الكادحة في جميع البلدان ، وخاصة المتخلفة ، لعملية الخداع المنظم الذي تمارسه الدول الامبريالية بمساعدة الطبقات السائدة في البلدان المضطهدة ، التي تتظاهر بالدعوة لاقامة دول مستقلة سياسياً ، فيما تقيم في الواقع دولاً تابعة لها كلياً من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية . والمثال صارخ على الخداع الذي يمارس على طبقة الكادحين في البلدان المضطهدة ، الذي يتمثل بالجهود المشتركة لامبريالية دول الوفاق وبرجوازية هذا البلد أو ذاك . وهنا نستطيع ان نشير الى مشروع الصهاينة في فلسطين . ان الصهيونية وبحجة اقامة دولة يهودية في هذا البلد ، الذي يشكل اليهود فيه قلة ضئيلة ، قد قدمت السكان الاصليين من الكادحين العرب ، قربانا للاستغلال الانكليزي*

وبهذا يكون الكومنترن قد أعلن عن موقفه الواضح من المشروع الصهيوني . ويكون قد وضع حزب العمال الاشتراكي والجناح اليساري من « بوعالي تسيون » امام خيارين اثنين لا ثالث لهما . إما تبني المشروع الصهيوني على صعيد النظرية والممارسة ، أو الوقوف ضده جملة وتفصيلاً ، الامر الذي يقتضي الاتجاه بالضرورة الى الالتصاق بالواقع الفلسطيني والالتقاء مع حركة التحرر الوطني الفلسطينية والمشاركة معها في ممارسة كافة انواع النضال ضد المشروع الامبريالي ـ الصهيوني .

بيد ان الفترة اللاحقة لم تحسم الامور لمصلحة الخيار الثاني ؛ إذ احدثت توصيات وقرارات الكومنترن بشأن المشروع الصهيوني وضغوطات التيار المهيمن السائد داخل «البوعالي تسيون» الذي تبنى كلياً المشروع الصهيوني ، بلبلة فكرية وسياسية بين الحزبيين . ولم يتمكن عدد من قادة حزب العمال الاشتراكي التخلص من شعار « الصهيونية الاشتراكية » الا بعد الانضمام الى الكومنترن عام ١٩٢٤ .

وباعلان الحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٢٢ ، الذي جاء كامتداد للخط اليساري لحزب العمال الاشتراكي ، يكون الحزب الشيوعي قد بدأ يخطو خطوات ملموسة باتجاه الفكر الماركسي ـ اللينيني حيال المشروع الصهيوني وحيال المسألة القومية بشكل عام . بيد ان هذا الفكر ، وهذا الخط بشكل عام ، لم يستطيعا الوصول الى مرحلة التبلور السياسي والتنظيمي . فقد شهدت مجمل طروحاته وممارساته في العشرينات وبعدها عدداً من الشوائب التي حالت دون وصوله الى الجماهير العريضة العربية واليهودية . ولعل احد اهم الاسباب التي حالت دون ذلك في العشرينات بالتحديد ، هو انحصار نشاطه داخل الأقلية اليهودية وبعده عن العمال والفلاحين العرب ، مما حدا بالكومنترن التأكيد على ضرور وأهمية تعريب الحزب .

الحزب الشيوعي الفلسطيني ومسألة التعريب

في الفصل الرابع الذي حمل عنوان ب. ك. ب بين النهوض والمطاردة ، يركز الاستاذ سمارة على اهمية تعريب الحزب من القمة إلى القاعدة، ويستعرض موقف الكومنترن من هذه القضية ، وهو موقف يتلخص بأربعة خطوط يجب على الحزب اقتحامها كي يتمكن من ترجمة هدف التعريب الى الواقع العملي :

الأول : خلق قناة اتصال بينه وبين الجماهير الفلاحية والبدوية انطلاقاً من عداء الطرفين المشترك لشراء واستيطان الأراضي .

الثاني : الدفاع عن مصالح العمال العرب وحقهم بالتصدي لمبدأ « احتلال العمل » الصهيوني والنضال من اجل نقابة عمالية أممية .

الثالث : العمل على اختراق الأحزاب الصهيونية والمؤسسات التابعة لها كالهستدروت ومحاولة ضربها من داخلها وضم العناصر المتقدمة فيها الى الحزب .

الرابع : المساهمة في بناء حركة شيوعية في المشرق العربي تسمح للحزب بأن يعتبر نفسه جزءاً من حركة التحرر العربية (ص ١٠٧)

* راجع التقرير التحضيري المختزل للمؤتمر الثاني للاممية الشيوعية موسكو ١٩٢١ ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤ ، بالروسية .

وبناء على ذلك كان على الحزب ان يناضل على صعيد بنائه الذاتي للتخلص من التأثيرات الصهيونية . لكنه سرعان ما اكتشف ان النضال على هذا الصعيد ليس سوى نتيجة الترابط الجدلي بين ذلك وبين المحاور الأربعة السابقة . وعلى اساس ذلك - والكلام للاستاذ سمارة - خاض معركة فاصلة مع القوى الصهيونية . ورغم الشك في كون هذه المعركة قد ادت الى نتائج هامة على مستوى هذا الهدف ، الا انها افادت في ابراز ضلال وهبوط موضوعية « الصهيونية البروليتارية » هبوطاً كاملاً وذلك حين عمدت القوى الصهيونية الى طرد الحزب من مؤسساتها فأنهت بذلك أية محاولة توفيقية بينهما موضوعياً .

هناك هاجس اساسي يدور في ذهن الباحث الفلسطيني سمارة منذ بداية كتابه وحتى آخره ، حول طبيعة كافة المؤسسات اليهودية التي جاءت في اطار المشروع الكولونيالي الصهيوني . لذا نراه ضد النظرة اليها كمؤسسات برجوازية أو عمالية في ظل مجتمع متكامل المعالم كما هو الامر في اي بلد رأسمالي كفرنسا أو بريطانيا أو بلجيكا . فهذه المؤسسات تم تركيبها على أرض هي أصل لقومية وشعب آخر .

ومن هنا يخلص المؤلف الى الاستنتاج التالي : « ان مصدر الخطأ هو اعتبار الحزب التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين يتمتع بنفس السمات والمميزات التي يتمتع بها أي مجتمع آخر ، وان تشكيله الطبقي والسياسي مماثل لاي تشكيل آخر » (ص ١١٢) .

غير أنه يتناول فيما بعد التحولات الفكرية والممارسة التي طرأت على حياة الحزب ، ويحاول حسم القضية في ذهنه اثناء تناوله تقرب الحزب من الجماهير العربية واليهودية ، واثناء اتجاه قيادته لمد الجسور مع الرفاق العرب وارسالهم في دورات حزبية الى معهد كادحي الشرق في موسكو ، واعطائهم فيما بعد مراكز قيادية في الجهاز التنظيمي والاعلامي للحزب . ويولي هنا الاستاذ سمارة أهمية خاصة لمجلة « حيفا » ولرئيس تحريرها « ايليا زكا » في تعريف خط الحزب للجماهير العربية من خلال نشره الافكار الاشتراكية ومن خلال تركيزه على طبقية الصراع ضد الامبريالية والصهيونية ومن خلال تشجيعه المهاجرين اليهود للعودة الى اوطانهم الاصلية .

ولعل احد الاسباب التي دفعت بخط الحزب قدما صوب الجماهير العربية ، اقالة ممثليه من الهستدروت . وحول هذا الموضوع يقول المؤلف : « ان الضربة [من الهستدروت - س.ع] قد وضعت الحزب امام الطريق المسدود من حيث دوره في التجمع اليهودي ومنذ تلك اللحظة اصبح على الحزب ان يعرف بوضوح تكتيكه أو خطه القديم الذي يجعله يضع قدماً في ارض التجمع اليهودي ، اي في أرض المشروع الصهيوني ، والقدم الاخرى في ارض الجماهير العربية . ان هذا التكتيك لم يعد مجدياً وبات على الحزب ان يحزم موقفه بوضوح كامل من مسألة انتسابه الى قضية الجماهير العربية التي تحتل الموقع المركزي في الصراع الدائر » (ص ١٣٥) .

انتفاضة آب ، الحزب والانزلاق

هذا هو عنوان الفصل الخامس ، حيث يتناول الكاتب طابع الانتفاضة . لقد دخل في صلب هذا الحدث التاريخي بدون ان يتوقف عند اسبابها ومضمونها والقوى القائدة والمحركة لها ، ويستعرض موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هذا الحدث الهام الذي زلزل المشروع الصهيوني . كما يُستنتج من تحليل المؤلف ان الحزب كان غائباً عن مجريات الاحداث . فالانتفاضة ساهمت في تبلور اتجاهين كانا يعيشان داخل الحزب . الاول ، الذي كان يدعو للتعاون والتحالف مع الحركة القومية العربية وكان هذا الاتجاه يلاقي التأييد المطلق من الكومنترن والاتجاه الثاني ، الذي اطلق على نفسه اسم « مجلس العمال اليهود » الذي بقي أسيرا للطروحات الأولى للحزب في بداية العشرينات .

وظهر نقاش حاد داخل الحزب في معرض تقييم أحد اهم الانتفاضات التي عاشها الشعب العربي الفلسطيني في تلك الفترة . فمنهم من وصفها بانها « مذبحة » ، وهذا هو تقييم لجنة حيفا الحزبية المتأثرة بخط « مجلس العمال اليهود » . اما اللجنة المركزية فقد وصفتها بانها مذبحة + حركة تحرر للجماهير العربية (ص ١٦٩ - ١٧٠) .

في الواقع ان هذه الانتفاضة احدثت فعلاً بلبلة داخل الحزب ، تركت ذيولها وانعكاساتها على صفحات مجلات الاممية الشيوعية في اعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣١ . وبالتحديد مجلة المراسلات الاممية التي كانت تصدر بالفرنسية والانكليزية

والالمانية والاسبانية والروسية . ودار نقاش طويل في الاعداد ٨ و٩ و١٠ من مجلة « الشرق الثوري » عام ١٩٢٠، هذه المجلة التي كانت تغطي نشاط حركات التحرر الوطني والاحزاب الشيوعية في الشرق .

ولقد ادانت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من انتفاضة آب وبالذات لجنة حيفا الحزبية ، التي بقيت على مواقفها السابقة ، وكان هذا الحدث مناسبة لان يجدد الكومنترن دعوته الى الحزب للعمل بالفعل لا بالكلام باتجاه تعريب الحزب .

ولعل تركيز الكومنترن على مسألة التعريب ، ينم عن رؤية واضحة وصحيحة لضرورة وأهمية القيادة العربية الشيوعية للحزب التي تتمكن في حال طرحها لبرنامج سياسي سليم من تأطير الجماهير العريضة في المدينة والريف حولها . وكانت اللجنة التنفيذية لا ترى في طروحات وممارسات الشيوعيين اليهود الاداة القيادية الملائمة للوصول الى الجماهير العربية واليهودية ، لا سيما وبعض القادة لم يتخل بشكل نهائي حتى بداية الثلاثينات عن التأثر بـ (الصهيونية الاشتراكية) . من هنا كان التركيز على التعريب . فالقيادة الشيوعية اليهودية كانت عاجزة بحكم رؤيتها الوحيدة الجانب الى طبيعة الصراع فلقد كانت ترى في الانتداب البريطاني العدو الاساسي والاوحد ، بخلاف القيادة التقليدية القومية العربية التي كانت تتبع سياسة المهادنة مع الامبريالية الانكليزية والتي كانت لا ترى من الصراع الدائر الا العدو الصهيوني .

في الفصل السادس الذي يحمل عنوان الانقسام الوطني والتعريب ، يتوقف المؤلف عند التغير الذي طرأ على ميزان القوى بين الدول الامبريالية ودخول الولايات المتحدة كعنصر فاعل ومقرر في السياسة العامة لهذه الدول ، والذي لم يؤد فقط الى الالغاء الاوتوماتيكي لموضوع الحركة الوطنية ، لكنه أضاف أيضا إلى قوة الحركة الصهيونية ثقلاً مقرراً مما جعلها تقترب من هدفها المستحيل بشكل ملموس

في بداية هذا الفصل يتناول الكاتب ايضا التغيرات التي طرأت على ميزان القوى على الساحة الفلسطينية ، وعلى عملية الفرز الطبقية والسياسية التي جرت في هيكلية قيادة حركة التحرر الوطني الفلسطيني وفيها يتوقف قليلاً عند مضمون حركة عز الدين القسام الذي تمكن من اعطاء النضال الطبقي والوطني والقومي شكلاً جديداً تجسد في تأطير جماهير واسعة من الفلاحين حول حركته . ولقد شكل في قيادته تحدياً جدياً للقيادة التقليدية القومية ، المعادية للجماهير الفلسطينية العربية كمعادتها للصهيونية ، والتي كانت لا تفرق بين كلمة يهودي وصهيوني ، اضافة الى اتصاف سياستها دائماً حيال الامبريالية الانكليزية ليس فقط بالمساومة والمهادنة ، بل حتى بالتعاون احياناً .

إن نضال حركة التحرر الوطني الفلسطيني الذي أخذ بعداً قومياً وطبقياً ملموساً ، قد ترك تأثيره أيضاً في خط الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الامر الذي حدا بالكومنترن أن يحث قيادة الحزب على التعريب وعلى ضرورة تركيز النشاط السياسي في الريف الفلاحي الفلسطيني وتصفية ما تبقى من عناصر متأثرة بما يسمى بـ « الصهيونية الاشتراكية » . كل هذه المعطيات ساهمت في التأثير في قيادة الحزب وفي تسريع عقد المؤتمر السابع الذي خرج بقرارات هامة ، تعتبر بالفعل تاريخية ونقطة مضيئة جدا ، كونها حددت بموضوعية الموقف من الصهيونية كايديولوجية وممارسة . « فحركة التحرر الوطني العربية والمشروع الصهيوني لا يمكن ان يلتقيا على ارض واحدة، فكل منهما ينفي الآخر تماماً» (ص ١٩٨) .

اما بشأن المسألة الزراعية فيعلن المؤتمر برؤية علمية صحيحة أن « حل المسألة الزراعية في فلسطين والأقطار العربية الأخرى لا يمكن تحقيقه الا بطريقة واحدة ، هي الثورة الزراعية بقيادة البروليتاريا التي تؤدي الى اسقاط السيطرة الامبريالية » (ص ١٩٨ ـ ١٩٩) . لذا ، فعلى الحزب توجيه القوى الفلاحية الحية الى خط النضال الحاسم ضد الامبريالية بما يتضمن ذلك من اسقاط هيمنة البرجوازية

ان هذا الموقف الى جانب تقييمه ونقده الذاتي لمجمل ممارسات القيادة السابقة أوصل على حد قول الاستاذ سمارة الى عملية تشبه انتاج حزب جديد اثار غيظ اعدائه من شوفينيين صهاينة وعرب وانكليز ، فشنت الاحزاب العمالية الصهيونية هجوماً واسعاً على الحزب ، وبالذات اثناء المعارك الانتخابية النقابية وسواها . فعلى الرغم من ان هذا الموقف الجديد انعكس على وضعه الانتخابي بين السكان

اليهود ، الا انه بدا اكثر قرباً والتصاقاً من حقيقة الاوضاع ومن طموحات الجماهير العريضة العربية ومن المهمات العامة المطروحة امام النضال الوحدوي العربي العام .

هذا التحول قـرب خط الحزب من الحـزبين الشيوعيين الشقيقين في كل من مصر وسوريا ـ لبنان حول القضايا المختلفة بما فيها القضية القومية .

وانعكس هذا بشكل جلي في الكونفرانس المشترك للحزب الشيوعي الفلسطيني والحـزب الشيوعي السوري ـ اللبناني في عام ١٩٣١ ، اذ اصدر المؤتمر قراراً حمل عنوان (واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية) جاء فيه « ان جوهر القضية القومية العربية يتحدد في اطار ان الامبرياليين الانكليز والفرنسيين والايطاليين والاسبان قد خرقوا الجسد الحي للشعوب العربية . هذا التمزيق الذي حرمها من مقومات التقدم الاقتصادي والسياسي المستقل ، وحوّل الأقطار العربية الى ملحقات زراعية ومنتجة للمواد الخام ، بما يتضمن ذلك من تشويه واعاقة لنمو القوى المنتجة ولجمل التطور في هذه الأقطار ... ان الامبرياليين يعتمدون على الزمر الملكية والرجعية ، وعلى ملاك الأرض والشيوخ الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ، وعلى البوجوازيين والكمبورادور وعلى الفئة العليا من رجال الدين ... لذا ، فان النضال من أجل الاستقلال الوطني والوحدة القومية للشعوب العربية يتقاطع بالضرورة مع النضال من أجل ثورة فلاحية ضد المغتصبين الامبرياليين وعملائهم (الصهيونيين في فلسطين) وفي الوقت نفسه ضد ملاكي الاراضي الاقطاعيين » (ص ٢٠٩) .

هذه المواقف كانت بمثابة محطة جديدة انطلق منها الحزب الشيوعي الفلسطيني لتمتين صلاته بالاحزاب الوطنية والقومية في فلسطين وخارجها .

ففي تشرين الاول ١٩٣٥ اشار البيان الذي صدر عن الحزب الشيوعي الفلسطيني بعنوان « من اجل تحالف كل العرب واصدقائهم ضد الامبريالية » الى ضرورة توسيع الرقعة الطبقية من اجل التصدي للمؤامرة الامبريالية : « على كل عربي أكان تاجراً ، حرفياً ، صاحب دكان ، مصرفياً ، صاحب مصنع ، مهنياً ، أو من الصناعيين يعاني من نتائج السياسية الامبريالية والبريطانية ، ان يعمل على تدعيم وحدة المجتمع لاننا لا نستطيع النضال من أجل الوطن بينما نقاتل بعضنا بعضاً باستمرار » (ص ٢١٣) .

غـير ان هذا التقـرب من الحركـة الوطنيـة الفلسطينية والعربية الذي أكسب الحزب تأييد الجماهير العربية افرز تياراً مرتداً داخل صفوفه كان يدعو الى تمحور وتركز النشاط السياسي داخل التجمع اليهودي . وهذا ما حصل بعد خمود ثورة ١٩٣٦ . ويعزو الاستاذ سمارة هذه التقلبات والتحولات الى انه منذ البداية [بداية نشوء الحزب] كان واضحاً ان الشيوعي الذي ينتسب بحكم عوامل خارجة عن ارادته الى التجمع اليهودي الكولونيالي يقف امام اختيارين حاسمين : فاما الهجرة عن فلسطين او اعلان الانتساب الكامل الى قضية الجماهير العربية ، واذا كان الاختيار الاول ممكنا ، فلا شك ان عقبة مهمة تقف امام الاختيار الثاني بحيث يصعب جعله اختياراً جماعياً . فحالة العداء القائمة في المجتمع تجاه المشروع الكولونيالي ومادته البشرية تشكل حاجزاً موضوعياً ثانياً امام انخراط الشيوعيين اليهود في الاطار الاجتماعي الذي ناضلوا من خلاله ، ولو من منطلقات معادية لمشروعه ومستقبله السياسي (ص ٢١٥) .

امام هذا التردد وعدم الحسم في التوجه نحو الجماهير العربية وامام اجتياح المشروع الكولونيالي للساحة الفلسطينية ، وبالـذات امام التغـيرات الديموغرافية وكافة المستجدات التي كانت تعيشها الساحة الفلسطينية ، امام كل هذا ، وجدت عناصر من الحزب الحل بتأسيس تنظيم خاص للشيوعيين اليهود . وكان الانقسام في عام ١٩٣٧ ، حيث تم انتخاب جانوخ بساسا اميناً عاماً للحزب .

عصبة التحرر الوطني في فلسطين
حيثيات الرضوخ والنشوء والنهاية

في الفصل الاخير يستعرض المؤلف بداية تبلور ثلاثة تيارات داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني

الاول : الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي كانت رموزه القيادية ممثلة في كل من ميكونيس ، فلنر ، فيلنسكا وسواهم وكلهم من الشيوعيين اليهود .

الثاني : حمل اسم عصبة التحرر الوطني في فلسطين، الذي لم يضم في صفوفه سوى العرب، واهم قياداته اميل توما ، بولس فرح ، موسى الدجاني ، أميـل حبيبي ، فؤاد نصـار ، توفيق طوبى .

الثالث : حمل اسم الاتحاد التربوي الشيوعي ومن ثم الحزب الشيوعي العربي ، واهم رموزه سيمحا تساباراي ، واليعازار بريمنجير ، وهذا التيار لم يخف تعاطفه مع المشروع الصهيوني ، واعلن علانية عن ضرورة انشاء وطن قومي للشعب اليهودي .

في معرض تقييمه للأسباب التي ادت الى نشوء عصبة التحرر الوطني في فلسطين ، يشير المؤلف الى « ان السمة الرئيسية لكيفية نشوء عصبة التحرر الوطني ، لم تأت من داخل بنية القيادة التاريخية للحركة الشيوعية في فلسطين وان كانت على صلة اساسية بها ... ان ذلك يعكس في حد ذاته حالة التطور السياسي والاجتماعي التي وصل اليها المجتمع العربي في تلك الفترة ، كما يعكس حجم تطور القوى المنتجة وتزايد دور الطبقة العاملة العربية » (ص ٢٤٦) .

اما بشأن المستقبل السياسي لجماهير اليهود ، فقد تناوله برنامج عصبة التحرر الوطني : « انه النضال الديموقراطي ضد الامبريالية في فلسطين من اجل التحرر .وهنا تتقدم العصبة بالحل الديموقراطي الوحيد عندما تنادي بجلاء القوات الاجنبية وبانشاء دولة فلسطينية مستقلة حرة ديموقراطية ، تستطيع ان تضمن الحقوق المدنية والديموقراطية لمواطنيها على السواء . وتعترف العصبة لدى تقديمها هذا الحل بالحاجة الى حماية حقوق اليهود الموجودين حالياً في فلسطين ، وتعترف كذلك بان هذه الحقوق لا يمكن حمايتها الا في دولة فلسطينية حرة مستقلة (ص ٢٥٤) .

وفي بيان آخر ، دعت فيه العصبة الجماهير الفلسطينية الى اليقظة والحذر من مخاطر الصهيونية التي تستهدف انشاء دولة يهودية في فلسطين ، إذ يؤكد البيان « ان دولة كهذه لن تكون الا قاعدة للاستعمار الانكلو ـ اميركي الذي يستعد في الوقت الحاضر للقضاء على نضال الأقطار العربية ، ولكي يفرض عليها مخططات رجعية كمشروع سوريا الكبرى ومشروع الكتلة الشرقية ، بهدف التشجيع على الحرب ضد الديموقراطية الجديدة والاتحاد السوفياتي » (ص ٢٥٥) .

من خلال تركيز العصبة على التصدي للمشروع الامبريالي الصهيوني الهادف الى اقامة دولة يهودية ومن خلال طموحها الى تعميق الوحدة العمالية ـ الفلاحية ، ومن خلال تأكيدها على ترابط النضال الوطني والقومي والاممي ، اذ انها اولت اهمية كبرى لتعميق الصلات بالحركة الثورية العالمية ومع احد اهم فصائلها الحركة الشيوعية ، من خلال كل هذا ، نتلمس قرب خطها السياسي من الجماهير العربية ، والتفاف هذه الجماهير حول برنامجها . والذي ساهم في ازدياد هذا الالتفاف هو توجهها نحو تمتين علاقاتها وصلاتها بالحزب الشيوعي اللبناني الشقيق وبالحركة الديموقراطية للتحرر الوطني في مصر (حدتو) .

غير ان ميزان القوى الذي استجد على الصعيدين العالمي والعربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وزيادة شراسة المؤامرة الامبريالية ـ الاميركية ـ الانكليزية ـ الصهيونية ـ الرجعية المحلية ، وتمكن الاحزاب الصهيونية من السيطرة على المفاصل الاساسية في الحياة الاقتصادية والسياسية للسكان اليهود ، وعلى الرغم من التمايز الذي حصل بين موقف العصبة وموقف « الحزب الشيوعي الفلسطيني ، حول وضع فلسطين وخارجها ، وفي ظروف ضعف الحركة التقدمية الوطنية الفلسطينية والعربية ، جميع هذه العوامل الموضوعية حالت دون وصول عصبة التحرر الوطني الى اهدافها المنشودة . في نهاية الكتاب ، وبعد ان يعكس الاستاذ سمارة ، كل مشاعره وبحزن عميق ازاء فشل العصبة في التصدي لمؤامرة احتلال بلاده ، يخلص الى القول « اذا كان نجاح المؤامرة واعلان قيام الدولة الصهيونية قد ادى الى تدمير وتمزيق التشكيل الاقتصادي ـ الاجتماعي لفلسطين ، واذا كان قد ادى الى تمزيق وتشتيت الحركة الشيوعية في فلسطين ، بحيث لم يعد الامر مقتصراً على انقسام معين في صفوف هذه الحركة ، الا ان الهدف المركزي والاستراتيجي القائم على الدعوة والنضال من اجل اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، ظل واستمر قاسماً مشتركاً بين مجموع الاطر الشيوعية الفلسطينية المستقلة التي ظهرت بعد الكارثة ، ورغم انشغال كل حزب من الاحزاب الثلاثة (الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، الحزب الشيوعي الاردني ، الحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة) بقضاياه الراهنة التي تقتضي التركيز عليها، الا ان هذا الانشغال كان مرتبطا ارتباطا وثيقا في الهدف المركزي المشار اليه » (ص ٣٠٤) .

هذا التقديم ، هو دون شك ابعد من ان يكون متكاملاً . فلقد تناولنا اهم النقاط التي اثارها الكاتب ، وما يهمنا في نهاية هذا التقديم هو التأكيد على الاستنتاجات التالية :

اولا : كان الهدف من وراء هذا البحث هو تقييم نشاط الحزب الشيوعي الفلسطيني من كافة جوانبه ، علّ هذا يساهم في الكشف عن مسببات الانتكاسات وتسليط الاضواء على الجوانب المضيئة في تاريخه ، لتوظيف هذه التجربة في المعركة الآتية . ان بحث الاستاذ سمارة هو اضافة جديدة اوضحت الرؤية حول قضايا كثيرة كانت مجهولة لدى الكثير من الباحثين والقراء .

ثانياً : لم يتمكن الحزب الشيوعي الفلسطيني منذ نشوئه وحتى اوائل الثلاثينات من استيعاب القوانين العامة للصراع الاجتماعي والوطني والقومي في ضوء الفكر المادي الجدلي ، فجاء تفكيره اقرب الى الاشتراكية الطوباوية منه الى الاشتراكية العلمية لذا ، لم يستطع ان يعي خصوصيات الساحة الفلسطينية والعربية . وقد فهم الشعارات المركزية التي طرحتها مؤتمرات الاممية الشيوعية بشكل ميكانيكي مما اوقعه في مجموعة من الانحرافات « العمالية » و« القومية » .

وبتركيزه على مسألة اقامة « ديكتاتورية البروليتاريا » و« حكومة للعمال والفلاحين » يكون قد غيب عن ساحة الصراع عملاً اساسياً ، وهو المشاركة الفعالة والمؤثرة من اجل التحرر القومي والوطني هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فقد شهد خطه السياسي انحرافا قوميا كان يظهر بين هذه الفترة التاريخية او تلك . فتارة كان يغلب على هذه الفترة التركيز على العمل داخل التجمع اليهودي ، وتارة اخرى وكردة فعل على التيار الاول ، كان يتم التركيز على العمل داخل السكان العرب . والتياران ولفترة طويلة كانا موجودين في حزب واحد .

ثالثا : بعد تخلص الحزب من التأثيرات « البوعالي تسونيه » وبعد انضمامه الى الكومنترن في عام ١٩٢٤ ، كان يطمح الى ان يؤطر البروليتاريا اليهودية الموجودة داخل التجمع الكولونيالي ، حول خطه السياسي ناظراً اليها كطبقة متكاملة المعالم ، مغيباً عن الواقع الاطار العام الذي كان يحيط بها وتحديداً المشروع الصهيوني ، وغائباً عن الجماهير العمالية ـ الفلاحية العربية . من هنا كان نشاطه يتمحور داخل الاقلية اليهودية ،ومن هنا ايضاً تركيزه حتى المؤتمر السابع عام ١٩٣٠ على ان يستلم الشيوعيون اليهود المفاصل الاساسية للحياة الحزبية ـ مما جعله يتأرجح بين انتمائه الى التجمع اليهودي وانتمائه الى السكان العرب . الامر الذي ادى في النتيجة الى الانقسام عام ١٩٤٣ .

رابعا : في البرنامج السياسي لعصبة التحرر الوطني في فلسطين نستشف فهماً صحيحاً لخصوصيات الساحة الفلسطينية ، وتقرباً والتصاقاً واضحاً بالجماهير العربية التي بدأت تفقد الثقة بالقيادة القومية التقليدية . كما أننا نرى في برنامج العصبة تجسيداً لمجمل الطروحات الصحيحة التي طلع بها المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٣٠ .

خامسا : ان هذا البحث الذي اعتمد على مراجع ضخمة جدا من مصادر مختلفة ، اوقع صاحبه بعدد من الاخطاء والمغالطات تذكر منها : ان اسم اول امين عام للحزب الشيوعي الفلسطيني هو وولف اورباخ وليس حاييم اورباخ . رغم انه لدى الحديث عن بيوغرافيا زعماء الحركة الشيوعية الفلسطينية ، تنبغي الاشارة الى المصدر وبأية لغة . واذا كان الكاتب قد اقتبسها من بحث عربي ، فعليه انطلاقا من الامانة العلمية ان يذكر من اين . ففي صفحة ١٧٥ يقول ان ليشينسكي واورباخ سقطا، فهما في الحقيقة لم يسقطا بل تابعا نشاطهما الصحفي والسياسي في قسم الدعاية والاعلام التابع لجامعة كادحي الشرق واستمرت كتاباتهما في اواخر النصف الاول من الثلاثينات على صفحات مجلة الشرق الثوري التي كانت تصدر في روسيا . وفي صفحة ٣١٦ يشير المؤلف الى ان المؤتمر الاول للعمال العرب انعقد في عام ١٩٢٠ . والحقيقة ان المؤتمر انعقد في حيفا عام ١٩٣٠ ... والخ .

واخيرا فنحن قد نختلف ونتفق مع المؤلف حول نقاط كثيرة، وهذا من بديهيات النقاش الديموقراطي، انما على العموم ، يجيء هذا الكتاب مع الكتب القليلة الجادة في هذا العام ، إذ يتضمن مادة وثائقية غنية جدا ، وبذا يضيف الى المكتبة العربية السياسية عملا هاما يساعد كل المناضلين الفلسطينيين والعرب في التعرف على حقبة تاريخية كانت مجهولة للكثير من قرائنا وباحثينا .

مراجعة اخرى لكتاب عيسى الشعيبي
« الكيانية الفلسطينية ـ الوعي الذاتي والتطور المؤسساتي ١٩٤٧ ـ ١٩٧٧ »

مراجعة مؤنس الرزاز

لا شك في أن كتاب عيسى الشعيبي قد نجح في التطرق الى مسألة بالغة الحساسية والتعقيد ، طارحاً بين السطور (التأريخية) كثيراً من التساؤلات دون أن ينجح نجاحاً مماثلاً في الرد عليها .. ولعل هذه الغاية لم تكن ضمن مخططه اصلاً .

ولقد سبق لسمير أيوب أن قدم موجزاً عن هذا الكتاب في «**شؤون فلسطينية**»* فأجاد في العرض ووفره عليّ، واضطرني الى الولوج في مناقشة المحتوى دون مقدمات

يطرح الكتاب بين سطوره وخلفها مجموعة من الاسئلة . ولا شك في ان افكارا وخواطر كثيرة تراود ذهن القارىء وهو يطالعه . ولعل اهم التساؤلات التي تطرح نفسها على القارىء تتلخص في الاسئلة التالية :

١ ـ ما هي العلاقة بين هزيمة الحركة القومية العربية ، برموزها المعروفة في حرب حزيران ، وبين الوعي الكياني لدى الشعب الفلسطيني ؟

٢ ـ ما هو الفارق بين الوعي الذاتي للشخصية الفلسطينية كوجود وهوية وبين الحركة التي تمثل هذه الشخصية ؟

٣ ـ حين طرح رموز الحركة القومية ـ ولا أقول حركة التحرر العربي ـ مثل عبد الناصر ، ورموز من خارجها ، مثل عبد الكريم قاسم ، مشاريع من مثل فوج التحرير الفلسطيني والاتحاد القومي ؛ هل كانت هذه المشاريع جادة وبعيدة عن الرغبة في الوصاية والاحتواء والهيمنة ؟ أم جاءت هياكل تخرج من المتاحف للعرض في الاعياد والمناسبات ؛ أم انها كانت فاعلة حقاً كما يرى سمير ايوب بقوله ـ ناقداً الشعيبي ـ أن محاولة الكاتب تفسير „ البطء الشديد في نمو حركة « فتح » وفي عزلتها التامة عن الشعب الفلسطيني ، بكونها كانت تسبح ضد التيار عندما بشرت (!) بافكارها حول الكيان الفلسطيني . نحن نرى أن هذا التفسير مجاف للحقيقة فـ « فتح » في تلك الفترة (أواخر الخمسينات واوائل الستينات) بطرحها الكياني كانت تسبح في صلب التيار الرسمي العربي والجماهيري ، فالظروف كانت مواتية ؛ لأن اروقة الجامعة العربية كانت تعج بالفكرة الكيانية التي اطلقها عبد الناصر ضمن التوجه القومي له ، والتي دعا لمثلها عبد الكريم قاسم في العراق وحزب البعث العربي في سوريا وحركة القوميين العرب في تزامن ملفت للانتباه »

وسنكتفي هنا بسؤال سمير أيوب عما كان عليه مصير المؤسسات الكيانية التي دعا اليها هؤلاء ، وبالتالي : هل كانت هذه المؤسسات بعيدة عن الورق والحبر ، اي في الواقع ، حية وجدية ومستقلة ؟ الجواب الذي يدلي به الشعيبي في كتابه حاسم ، وهو النفي القاطع . واذا كانت الظروف مواتية ، كما يقول ايوب ، واذا كانت الفكرة الكيانية ناضجة فعلاً ، فلماذا يلجأ الفلسطيني الى عبد الناصر ويعرض عن

* انظر : « شؤون فلسطينية » ، العدد ١٠٢ ، أيار (مايو) ١٩٨٠ ، ص ١٣٨ .

« فتح » وهي التي تمثل مؤسسة نضالية فلسطينية ؟ أيكمن السبب في « توهج عبد الناصر » وعلاقة « فتح » « بحركة الاخوان المسلمين » كما يزعم ايوب ؟

ألا يناقض هذا التعليل الجزء الاول منه الذي اشرنا اليه قبل قليل ؟

إذا كان ايوب في الشق الثاني من ملاحظته الثانية قد اصاب الحقيقة ، فهو قد جانبها في الشق الاول من الملاحظة نفسها .

واذا انتقلنا من حيز التساؤلات السلبية الى حيز النقاش ، فان أول ما يخطر على بال القارىء حين يبدأ في مطالعة هذا الكتاب الجاد هو التساؤل التالي :

ـ ما هي الكيانية الفلسطينية ، وما هو الوعي الذاتي لها ؟ اذ أن الشعيبي يحذر ، منذ البداية ، من أنه « ليس لمفهوم [الكيان الفلسطيني] معنى متفق عليه بين سائر المتعاطين به » . ويحاول الشعيبي أن يعطي بعض التعاريف له مباشرة او مداورة عبر صفحات الكتاب كلها . ولا شك في انه اضطر الى ذلك لأن مفهوم الكيان الفلسطيني « لم يحمل المضمون ذاته في مختلف المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية ، منذ أن بدأ شعاراً مبهماً في اواخر الخمسينات وتحول الى تعبير سياسي اكثر وضوحاً في اواسط الستينات وانتهى موازياً لتعبيرات الاستقلال الوطني في السبعينات » ، كما قال الشعيبي في مطلع كتابه .

ملاحظات واستنتاجات

الملاحظة الاولى : لا أعتقد أن الكيان كوجود ووعيه هما شيء واحد : اذ أن الشعور « بالفلسطنة » ـ كما ردد الشعيبي أكثر من مرة ـ كان موجوداً منذ زمن بعيد . لكن وعي هذه « الفلسطنة » وضرورة اقامة كيان خاص بها وحركة تمثلها وترفع البندقية وتطرح الكفاح المسلح من اجل نقل هذه الهوية من حيز الكمون الى حيز الفعل ، اي من حيز الوجود بالقوة الى حيز الوجود بالفعل : هذا الوعي هو الذي انبثق بشكل ساطع بعد هزيمة التيار القومي في حزيران ، تلك الهزيمة التي وفرت للفلسطينيين ظروفاً موضوعية ملائمة ليميزوا أنفسهم ، لا بواسطة الاقليمية الضيقة ، بل باسم الخصوصية المشروعة . وهذا ما مر عليه الشعيبي مروراً عابراً للأسف . فعلاقة التوازن بين القطري ، أو بكلمة أخرى الخصوصية القطرية ، وبين العروبة والقومية العربية ، هي علاقة معقدة ودقيقة جداً في آن .

فالتيار القومي كان يغالي احياناً ، فيعتبر أن الحديث عن خصوصية سورية او خصوصية عراقية مثلاً ضمن الرؤية القومية الشاملة ، انما هو من قبيل تغييب العروبة والقومية . واذا كان هذا المنطق قابلاً للنقاش واختلاف وجهات النظر ، فان الخصوصية الفلسطينية كانت ضرورة بالغة الاهمية . الا أن لجوء الفلسطينيين الى العروبة والانخراط في مؤسساتها وفصائلها و« عمق الاتجاهات العروبية التي شدت الفلسطينيين بعد التشريد مباشرة الى اشقائهم في حركة التحرر الوطني العربية » جعل نشوء حركة فلسطينية مستقلة مقاتلة امراً اشبه بالمستحيل .

انطلاقاً من هذه الحقيقة فان اجتهاد الشعيبي حول « فتح » وانها كانت ضد التيار في طروحاتها الكيانية ، في وقت كان فيه الحديث عن الوحدة العربية قد بلغ ذروته ، وارجاعه البطء الشديد في نمو الحركة الى هذا السبب ، هو اجتهاد صائب ودقيق .

الملاحظة الثانية : هي أن الشعيبي أرجع أسباب عدم نشوء مجابهة شعبية فلسطينية تعارض الضم الى الاردن الى علل عديدة ، أغفل منها عاملاً اساسياً هو ايمان القوميين العرب الفلسطينيين بضرورة الوحدة العربية بأي ثمن . وموقف كمال ناصر ، في حينه ، وكذلك موقف عبد الله الريماوي ، خير دليل على ذلك . وبالتالي فان ارجاع هذا الضم الى انصراف الاهتمام الفلسطيني الى العمل على وقف التقدم الاسرائيلي ، اكثر منه على مستقبل الاوضاع القانونية للفلسطينيين ، كما يقول الشعيبي في الصفحة ٣٤ ، او لأن الفلسطينيين في ذلك الوقت لم يجابهوا خطوات الضم الاردنية بسبب عدم تجذر الوعي الكياني لديهم ، ولنقص في التجربة السياسية ؛ كل هذه الاسباب تبقى ناقصة اذا لم تقترن بالنزوع العروبي نحو الوحدة

الملاحظة الثالثة : تتلخص في أن فشل وحدة مصر وسوريا وروح الاحباط والخيبة التي انتشرت في صفوف الجماهير العربية عموماً والفلسطينيين خصوصاً ـ وهم الذين كانوا يراهنون على عبد الناصر والحركة القومية العربية ـ سجلت منعطفاً اساسياً في ارتداد الوعي الفلسطيني على ذاته ، حيث أن صدمة الانفصال ، بما نتج عنها من يأس ، حملت المناضلين الفلسطينيين الموزعين في كافة الفصائل

والتيارات القومية ، على البحث عن طريق آخر .

ثم جاءت هزيمة حزيران لتقضي نهائياً على مقولة الذوبان الفلسطيني الكامل في العروبة واغفال الخصوصية الفلسطينية . وكان على الشعيبي ، الذي لم تفته هذه الملاحظة ، أن يعمقها اكثر ، وأن يتوقف عندها بدل ان يمر بها مروراً عابراً.

الملاحظة الرابعة : ويستنتج القارىء العادي من هذا الكتاب الغني بالمعلومات ، أن الانظمة العربية الاقليمية لم تكن تتذكر القومية العربية والوحدة إلا حين يختص الامر بالمسألة الفلسطينية . فقد جاء في قرارات مؤتمر اريحا ما يلي : « لا يمكن للبلاد العربية أن تقاوم الاخطار التي تجابهها فلسطين الا بالوحدة القومية الشاملة . ويجب البدء بتوحيد فلسطين مع شرق الاردن مقدمة لوحدة عربية حقيقية » (!) وقد رصد الشعيبي هذه المسألة دون تعمق كاف ؛ ففي الصفحة ٢٥ ، وفي الصفحة ١٢١ ، نقرأ شرح حازم نسيبة ، وزير الخارجية الاردني عام ١٩٦٥ ، حين يرفض اياً من مطالب منظمة التحرير، مبرراً ذلك بضرورة « الانصهار البشري والقومي » (لاحظ كلمة القومي) . ولا يتذكر وصفي التل الوحدة العربية الا حين يهاجم الدعوة الى دولة فلسطينية كان يتم الترويج لها في الضفة الغربية . فنراه يؤكد في البيان الذي القاه امام مجلس النواب الاردني ، بعد ثلاثة اشهر من احداث ايلول ، على رفض الاردن لمشروع الدولة الفلسطينية ، لأنه ضربة لمعنى الوحدة المقدسة (ص ١٦٥) . ويأتي التلهوني ليدلي بدلوه ويبين حرصه على وحدة فلسطين والاردن (!؟) ، فيعتبر في مؤتمر قمة الجزائر أن الامة العربية بأسرها مسؤولة عن تمثيل الشعب الفلسطيني . ونحن لا نعترض هنا على المضمون ، وانما على المصدر والغاية .

الملاحظة الخامسة : ان السؤال البالغ الاهمية الذي طرحه الفلسطينيون في حركة القوميين العرب هو مفتاح اساسي لهذه المسألة ، وهو : ما هو الدور الخاص بالفلسطينيين في نطاق التزامهم بالعمل القومي الشامل ؟

ويذكر الشعيبي أن هذا السؤال طرح نفسه بحدة بعد قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا

إن أهمية الدور الذي لعبه فشل الوحدة بين مصر وسوريا ، ثم هزيمة الحركة القومية العربية بقيادة عبد الناصر في العام ١٩٦٧ ، يشكلان محطتين تاريخيتين اساسيتين في فهم تحول الوعي الكياني الفلسطيني من مجرد ارهاصات تتراكم الى ماهية وكيف واضحين ان رصد هذه الظاهرة لم يغب عن صفحات كتاب الشعيبي الذي وصفها قائلاً : « وقد جاء تخلي الفلسطينيين عن حركتهم الوطنية الخاصة ، ومؤسساتهم السياسية ، متزامناً مع الصعود العارم الذي شهدته الحركة القومية » (ص ٤٣) ليشير بعد ذلك الى الشعار الذي ساد تلك المرحلة : « الوحدة طريق العودة » . لكن الشعيبي لا يذهب الى آخر المطاف ليقول ان تراجع الحركة القومية العربية عبر الانفصال ، ثم عبر هزيمة حزيران ، ادى بطريقة او بأخرى الى انبعاث الشعور « بالفلسطنة » ووعي الخصوصية والهوية الفلسطينية وترسيخ فكرة الكيان . فاذا كان الفلسطينيون قد انصرفوا عن هويتهم ليغرقوا في المد العروبي ، فان انحسار هذا المد قد أنضج الظروف الموضوعية للارتداد نحو الذات .

وهنا نلاحظ مسألة غامضة جاءت عبر قول الشعيبي : ان الشعور بالكيانية الفلسطينية قد خفت في تلك الفترة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠)، ولكن الحقائق تدلنا على أن رفع شعار « الدولة الفلسطينية الديموقراطية » واللغط والجدل والنقاش الحاد الذي تعرض له ، دليل على ان هذا الوعي بالكيانية غير المغلقة لم يخب ولم يتقهقر . بل ان طرح شعار : « تحرير فلسطين من النهر الى البحر » في تلك الفترة نفسها ، التي اعتبر الشعيبي ان الحس الكياني قد ضمر فيها، انما هو دليل آخر على عدم تقلص وتقهقر الوعي الكياني . فالشعار الاول واضح ، والشعار الثاني بلغ درجة تحديد حدود وموقع هذه الدولة : « من النهر الى البحر » .

والدليل على خطورة وأهمية طرح الدولة الديموقراطية كحل في تلك الفترة التي اطلق عليها الشعيبي اسم « غيبة الوعي الكياني » ، هو ذلك الجدل الذي اثاره هذا الشعار بين فصائل المقاومة نفسها . فها هي جبهة التحرير العربية تنتقد هذا الشعار عام ١٩٦٩ ، قائلة في كتاب بعنوان « الطريق القومي لتحرير فلسطين» الصادر عن دار الطليعة في نيسان ١٩٧٠ : «... كلما تقدمت الجهود الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية على طريق تنفيذ قرار مجلس الامن ، ارتفع الحديث بين اوساط رجعية واستعمارية عن ضرورة تطبيق شعار الدولة

الفلسطينية الديمقراطية، مستغلة بذلك الشعار الذي طرحته بعض منظمات المقاومة الفلسطينية لتحاول الايحاء بالتشابه بين الشعارين ». وبعد ان يفرق الكتاب بين مجموعة رجعية عميلة تطرح هذا الشعار لتصفية القضية الفلسطينية وبين «مجموعة تضم بعض منظمات المقاومة وعدداً من الكتاب والمفكرين »، وبعد أن يصف المجموعة الاولى بانها عميلة ساذجة وذات نية حسنة ولكنها تطرح شعاراً لا يستفيد منه الا العدو والرجعية للمحافظة على التجزئة تخلص المناقشة الى القول بأنها انما استهدفت مشروع الدولة الفلسطينية وهي لم تزل بحاجة الى توضيح الجانب الاخر من الموضوع: كيف يجب ان نفهم مستقبل فلسطين ما بعد التحرير، وكيف يجب أن ننظر اليه، من ضمن تصور علمي عميق ، وثوري واضح ؟

هذا الموقف هو اجتهاد لأحد فصائل المقاومة يعارض فيه مشروعاً كيانياً محدداً جغرافياً « من النهر الى البحر » ومحدداً العلاقات بالتعايش بين جميع الطوائف دون نزعات شوفينية او طائفية متعصبة تحت مظلة العلمانية والديموقراطية . فكيف يرى الشعيبي اذن ضموراً بل غياباً للوعي الكياني في تلك المرحلة (١٩٦٧ ـ ١٩٨٠) ، بل كيف يشير الى شعار الجبهة الديموقراطية « كل السلطة للمقاومة » ويبقى مصراً على غياب الوعي الكياني ؟

نقطة اخرى نأخذها على الشعيبي . فهو في الصفحة ١٢٧ يرى أن منظمة التحرير الفلسطينية « وجدت نفسها في تصادم حتمي ، لم تسع اليه وجهدت لتجنبه ، مع الحكم الاردني ، لسبب اساسي هو ان اي بعث للفلسطينيين في الاردن ، لن يتم الا على حساب الكيان الاردني ذاته » .

يتحدث الشعيبي هنا وكأنه يشير الى بديهية ومسلمة لا تقبل النقاش . قد نتفق معه لو قال ان بعث الكيان الفلسطيني لن يتم الا على حساب النظام الاردني وليس الكيان الاردني .

وهنا نجد أن من حق القارىء أن يتساءل: هل أن وجود الثورة الفلسطينية على الارض اللبنانية يتم على حساب الكيان اللبناني ؟ فاذا كان الجواب ايجابياً ، هل يعني ذلك ان الحركة الوطنية اللبنانية المقاتلة مع المقاومة تهدف الى قيام كيان فلسطيني على حسابها ؟ ومن جهة اخرى ترد مقررات المجلس الوطني الفلسطيني التي اشار اليها الشعيبي في الصفحة ١٦٠ ، على « مسلمته » هذه ، حيث يقول ان مقررات الدورة التاسعة للمجلس في القاهرة اقرت سياسة تنادي باقامة « الجبهة الوطنية الاردنية » التي ستعمل من اجل « اقامة حكم وطني ديموقراطي » ، كما تحدثت المقررات عن « تدعيم وحدة الضفتين » وعن « أن تدعيم هذه الوحدة لا يتم عن طريق ممارسات السلطة الاردنية التي تغذي النزعات الاقليمية والانفصالية ، بل على اسس وطنية ديموقراطية تعزز التلاحم بين ابناء الشعب وتوحيد جهودهم من اجل التحرير » .

اذن ، فالمشكلة ليست مشكلة كيان بل مشكلة نظام . كما أن البيان الختامي للمؤتمر الشعبي الفلسطيني الذي اشار اليه الشعيبي في الصفحة ١٦٢ ، يتحدث عن « ان المهمات الراهنة للجماهير الفلسطينية والاردنية في الضفتين تتحدد على اساس اعادة تصحيح وحدة الضفتين ... في اطار حكم وطني ديموقراطي يوفر قاعدة آمنة رئيسية للثورة ... وحصول الجماهير الفلسطينية والاردنية على كامل حرياتها الديموقراطية والاجتماعية والاقتصادية ، وحق الجماهير الاردنية في الانخراط في الكفاح المسلح للشعب الفلسطيني من اجل استعادة حقوقه »

كما يشير الشعيبي ، في الصفحة ١٦٤ ، الى تبني المجلس الوطني الفلسطيني ، رسمياً ، الدعوة الى التكافؤ (لا على حساب الكيان الاردني ذاته) بين الكيانين الاردني والفلسطيني .

اذن كيف يستنتج الشعيبي أن الكيان الفلسطيني لا يتم الا على حساب الكيان الاردني ذاته ؟ ثم كيف يفسر لنا قوله ، في الصفحة ١٣٢ ، « أن التنظيمات الفلسطينية ذات التراث الكياني ، مثل حركة « فتح »، غيبت في المرحلة اللاحقة على حرب حزيران ، وعيها بالكيان الذاتي الخاص ، الذي كانت قد دعت له منذ تأسيسها وطوال الفترة السابقة على تلك الحرب ... » ؟

ثم يرجع الشعيبي هذه الظاهرة ـ غير الدقيقة كما اشرنا سابقاً ـ الى التمسك بحل صحيح لمعادلة العروبة و« الفلسطينية ». فالفلسطينيون لم يلجأوا الى العروبة هذه المرة ، لكنهم ـ حسب قول الشعيبي ـ لم يرتدوا الى «الاقليمية الكيانية » .

فهل يرى الشعيبي أن الارتداد الى « الاقليمية الكيانية » هو تعبير ناضج عن الوعي الكياني ؟ وهل

يجد الشعيبي خطأ في التمسك الذي يصفه بأنه صحيح لمعادلة « العروبة والفلسطينية » ؟ لا نظن ذلك . ولعل الشعيبي هنا قد اتخذ موقفاً صحيحاً ، الا أنه لم يوفق في التعبير عنه .

وحول هذه المسألة يرد الانتقاد الذي يوجهه فصيل قومي مثل جبهة التحرير العربية إلى « الفلسطنة » ويقول هذا الفصيل في كتاب « **الطريق القومي لتحرير فلسطين** » ' الصفحة ٣٩ ، ان ثمة عقلية داخل المقاومة تروج لشعار « الفلسطينيون يحررون انفسهم بل ويحررون العرب أيضاً » ، ويرى أن هذه العقلية السائدة كانت وراء الشعار الذي طرح بعد ١٩٤٨ « العرب يحررون فلسطين » . ويتابع الكتاب نقده لعقلية « الفلسطنة » ويعتبرها مضادة لعروبة الثورة .

فماذا يقصد الشعيبي بغياب الوعي الكياني الفلسطيني في تلك المرحلة ؟ واذا كان هذا الوعي غائباً فعلاً ، فما هي الظاهرة التي كانت جبهة التحرير العربية تنتقدها ؟ لا أعتقد أن الشعيبي يعني بالوعي الكياني الردة الاقليمية المغلقة.

والملاحظة الاخيرة التي اود أن اشير اليها ، هي ان تأكيد سمير ايوب ، في معرض ملاحظاته على الكتاب ، على ان الخلل في كفاية المصادر اللازمة لتتبع الوعي محتوى واتجاهاً وعمقاً يزداد وضوحاً لأن الشعيبي لم يعالج الادب الفلسطيني نثراً وشعراً أو الفن الفلسطيني . فاذا كانت ملاحظة ايوب هذه صائبة تماماً فانها في الوقت نفسه تحتاج الى دراسة توازي حجم الكتاب نفسه مما يثقل على الشعيبي الذي بذل جهداً ريادياً عبر هذا الكتاب .

كما أن ملاحظة ايوب حول « المنهج » في تفسير التاريخ وفهمه ونقده لمنهج الشعيبي تشكل نقطة هامة واساسية ؛ فالتاريخ ليس مجموعة احداث وروايات لا ناظم قانونيا جدليا لها .

إن كتاب الشعيبي ، رغم كل ملاحظاتنا ، يبقى خطوة متقدمة في درب لم تطرقه الا القلة النادرة

المقاومة الفلسطينية عسكرياً

النشاط الفدائي ومقاومة الاحتلال في الداخل والتحركات العسكرية الاسرائيلية والانعزالية في الجنوب .

ظل النشاط الفدائي في داخل الارض المحتلة والنشاط العسكري في الجنوب اللبناني ، على حالهما وفي اطارهما التقليدي ، دون ان تطرأ عليهما احداث دراماتيكية جديدة .

١ ـ النشاطات والتحركات العسكرية في جنوبي لبنان

ففي ١٩٨٠/٥/٩ ، شهدت مدينة النبطية والقرى المحيطة بها قصفا مدفعيا متبادلا بين القوات المشتركة ، المتمركزة في قلعة ارنون والنبطية ، وقوات الشريط الحدودي . وسقطت عدة قذائف في الاحياء السكنية من مدينة النبطية ، مما نجم عنه الحاق الضرر ببعض الابنية العائدة للسكان المدنيين كما تعرضت بلدتا مرجعيون والقليعة لقصف مضاد ، حيث سقطت فيهما بعض القذائف ، فألحقت اضرارا بعدد من البيوت . وفي المساء حلقت في سماء المنطقة طائرات مقاتلة اسرائيلية واخترقت جدار الصوت ، وتلا ذلك قصف مدفعي اسرائيلي استهدف قلعة ارنون ، والنبطية وجوارها . كما حلقت بعد ذلك طائرات هليوكبتر اسرائيلية في سماءالمنطقة والقت قنابل مضيئة (« النهار » ، ١٩٨٠/٥/١٠) ومساء ١٩٨٠/٥/١٣ تصدت مدفعية القوات المشتركة (الساعة ٢٢.٤٥) لطائرات هليوكبتر اسرائيلية حاولت الاقتراب من الشاطىء ، مقابل منطقة الاوزاعي ، واجبرتها على التراجع . وعلى الفور استنفرت القوات المشتركة بين الرملة البيضاء وخلدة ومنعت السيارات من سلوك الطريق الساحلي لفترة من الوقت . وفي الوقت نفسه ظهرت زوارق حربية اسرائيلية مقابل الرشيدية ورأس العين ، جنوبي صور وحاولت طائرة هليوكبتر اسرائيلية الاقتراب من مدينة صيدا ، لكن مدفعية القوات المشتركة صدتها (« السفير » ، ١٩٨٠/٥/١٤). اما في المنطقة الشرقية ، فقد تعرضت مدينة النبطية وجوارها لقصف مدفعي ثقيل مصدره مواقع المليشيات في الشريط الحدودي ، واستمر القصف حتى ساعة متقدمة من الليل . ومن الساعة الثانية والعشرين من الليلة ذاتها بدأ تحليق طائرات الهليوكبتر على فترات متقطعة فوق المناطق الممتدة من النبطية شرقا حتى الدامور قرب بيروت وصور في الطرف الجنوبي ، واستمر ذلك حتى الساعة ٢٣.١٥ ، وقد رافقها ظهور زوارق اسرائيلية مسلحة في الساعة ٢٢,٥٥ مقابل الصرفند والعاقبية (المصدر نفسه) .

وفي تل ـ ابيب افادت التقارير العسكرية ان وزارة الدفاع الاسرائيلية اعتمدت ، على ما يبدو ، اسلوبا جديدا في الرد على العمليات الفدائية التي تنطلق من الجنوب اللبناني منذ عملية مسكاف عام . وذلك بالقيام بسلسلة عمليات ونشاطات عسكرية في العمق اللبناني ضد قواعد الفدائيين لمنعهم من مواصلة استعداداتهم ووضعهم في مركز الدفاع . وكان الجيش الاسرائيلي قد اوقف عملياته العسكرية في العمق ضد القواعد الفلسطينية ، لفترة قبل عملية مسكاف عام ، لكنه نفذ بعدها ثلاث عمليات رئيسية .

كان آخرها تلك التي تم تنفيذها مساء ١٤/٥/١٩٨٠ (ر.إ.إ ، ١٤ و١٥/٥/١٩٨٠) وفي ليلة ١٥/٥/١٩٨٠ ، قصفت الزوارق الحربية الاسرائيلية احياء صور السكنية ومخيماتها وضواحيها بالصواريخ الموجهة ، مما ادى الى سقوط سبعة جرحى والحاق خسائر كبيرة بالممتلكات ورافق الاعتداء على صور قصف مدفعي مركز ، على النبطية وجوارها (« السفير » ، ١٦/٥/١٩٨٠) . وكانت الطائرات الاسرائيلية قد قامت ، طوال يوم ١٥/٥/١٩٨٠، بطلعات استكشافية كثيفة فوق بيروت والشمال والجنوب ، جوبهت خلالها بنيران المدفعية المضادة للطائرات ، في حين اقتربت الزوارق الحربية الاسرائيلية عند فجر اليوم نفسه من شواطىء الشمال ، واطلقت بعض القذائف باتجاه مخيم نهر البارد الا انه لم يبلغ عن وقوع اية خسائر (**المصدر نفسه**)

وفي صور قامت البحرية الاسرائيلية بمحاولات عدة للاقتراب من الشاطىء الممتد من الرشيدية حتى ابو الاسود ، حيث تبادلت معها القوات المشتركة نيران المدفعية والرشاشات ، بينما كانت طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية تحلق على علو منخفض وتطلق ، من وقت لآخر ، قنابل مضيئة لانارة مسرح العمليات . وفي وقت لاحق قصفت الزوارق مخيم البص ، فوقعت نتيجة لذلك بعض الخسائر المادية ، وجرح سبعة اشخاص نقلوا على اثرها الى مستشفى الهلال الاحمر في صور (**المصدر نفسه**) . وفي تل ابيب أعلن ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي ان قواته قامت بتنفيذ عدة عمليات ضد الفدائيين في جنوب لبنان الليلة الماضية ، ولم يدل باية تفصيلات (ر.إ.إ. ، ١٦ و١٧/٥/١٩٨٠) . الا ان مراسل الاذاعة الاسرائيلية افاد ان القوات الاسرائيلية عملت في عدة محاور ، وكان الهدف هو الحاق خسائر بقواعد الفدائيين لشل نشاطاتهم واستعداداتهم العسكرية والتنظيمية . كما كان القصد من هذه العمليات ازعاج معسكرات التدريب الفلسطينية وقواعد التموين ، وذلك لاشغال الفدائيين وارباكهم مما يؤدي الى وقف نشاطاتهم ضد اسرائيل (**المصدر نفسه**) . واضاف المراسل قائلا ان الفدائيين قصفوا ، في ليلة ١٦/٥/١٩٨٠ بمدافع الهاون ، القليعة ومرجعيون من مواقعهم في قلعة الشقيف ، وبعد ذلك وسعوا قصفهم المدفعي ، ووجهوا نيران مدافعهم **الثقيلة** ، في ارنون والعيشية والريحان والنبطية ، الى مواقع قوات الشريط الحدودي وقد ردت المليشيات على النار بالمثل ، ولم يبلغ عن وقوع اصابات في صفوف قوات سعد حداد لكن القصف الحق اضرارا جسيمة بالممتلكات وكانت مدفعية سعد حداد قد ردت بقصف النبطية وجوارها ، وقد اشتد القصف في المساء ودام عدة ساعات (**المصدر نفسه**) . وفي ليلة ١٦/٥/١٩٨٠ ، صعدت اسرائيل عملياتها في الجنوب اللبناني ، وتابعت مدفعيتها قصف النبطية وجوارها وصور وجوارها ، فيما كانت الزوارق تجوب الشاطىء اللبناني من صور حتى الدامور وتطلق نيرانها على الطريق الساحلي وفي هذه الاثناء كانت طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية تحلق فوق مناطق عدة في الجنوب ، وتلقي قنابل مضيئة لتسهيل عملية القصف المدفعي الاسرائيلي .

وقد ردت مدفعية القوات المشتركة بقصف مرجعيون والقليعة . وبعد الساعة الثانية والعشرين ، ظهرت زوارق اسرائيلية مسلحة في عرض البحر قبالة رأس العين والرشيدية تبعها قصف للمنطقة الساحلية في صور . وفي حوالي الساعة الثالثة **والعشرين ابحرت الزوارق في اتجاه صيدا فاطلقت في** اتجاهها نيران الاسلحة المضادة ، وراحت هذه الزوارق تطلق نيران اسلحتها الرشاشة على الطريق الساحلية الممتدة من صيدا حتى السعديات ، فاصابت سيارتين مدنيتين جرح ركابهما الخمسة ، وكانت اصابة احدهم خطرة كما شوهدت قبالة صور بارجة اسرائيلية متوقفة في عرض البحر ، فيما كانت طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية تحلق فوق السكسكية والعاقبية (« **النهار** » ، ١٧/٥/١٩٨٠) . وفي بيروت ، قال مصدر فلسطيني رفيع المستوى ان التحركات الاسرائيلية هي محاولة ارباك خلف الخطوط لجعل المقاومة تتحول الى موقع دفاعي (**المصدر نفسه**) . وفي القدس اعلن التلفزيون الاسرائيلي ان القوات الفلسطينية المتمركزة في قلعة الشقيف قصفت بمئات القذائف بلدتي مرجعيون والقليعة ، وان مدفعية المليشيات ردت على القصف بالمثل ، وساندتها في ذلك المدفعية الاسرائيلية (**المصدر نفسه**) .

وعلى صعيد آخر ، قامت القوات الاسرائيلية بنصب كمين لشاحنة على الطريق العام بين صيدا

والنبطية قرب دير الزهـراني ، حيث اتضح ان مجموعة اسرائيلية انزلت على هذا الطريق قرب مفترق بلدة بقروة ، وكان سبق ذلك قصف مدفعي على النبطية وجوارها . واقدمت المجموعة الاسرائيلية على حرق شاحنة عمومية كانت تنقل الاسمنت بعدما انزلت سائقها وقتلته وسط الطريق العام . وقالت **مصادر القوات المشتركة،** فيما بعد ، ان قواتها اشتبكت مع القوة الاسرائيلية ، وان المعركة استمرت ساعة تركت بعدها القوة المعادية بعض الذخائر والضمادات وجهازا لاسلكيا . وبعد انسحاب القوة الاسرائيلية نقلت مجموعة من منظمة « الصاعقة » الجهاز الذي عثرت عليه في مكان الانزال الى مركزها في صيدا ، وفي التاسعة والربع دوى انفجار قوي في المدينة ، تبين على اثره ان جهاز اللاسلكي كان ملغوما وانه انفجر عندما حاول فدائيو الصاعقة تفكيكه ، مما ادى الى استشهاد عدد منهم واصابة آخرين بجروح (**المصدر نفسه**) . وحول الحادثة ادلى ناطق بلسان منظمة « الصاعقة » ببيان ذكر فيه انه في فجر يوم ١٦/٥/١٩٨٠ تصدت وحداتنا المقاتلة وقوات الميليشيا في منطقة الجنوب اللبناني للقوات الاسرائيلية التي كانت تقوم بعملية غزو للمنطقة بين دير الزهراني وبلدة بفروة ، وقد اشتبكت وحداتنا مع الوحدة الاسرائيلية واوقعت فيها عددا من الاصابات شوهد العدو وهو يخليها من ارض المعركة . وقد تولت قوات الصاعقة ملاحقة العدو حتى اجبرته على الفرار . في حين غنمت قواتنا بعض الاسلحة وغيرها من المعدات . وفيما كانت الغنائم تنقل الى مقر مكتب اعلام الصاعقة في صيدا انفجر احد اجهزة الارسال الاسرائيلية الذي كان ملغما ، فادى الى تدمير المكتب واصابة عدد من الرفاق الموجودين استشهد ٣ منهم وجرح ٣ اخرون ، (**المصدر نفسه**) . كما ادلى مصدر مسؤول في حركة « امل » بتصريح قال فيه ان قوات العدو الاسرائيلي بدأت ، منذ البارحة ، قصف مدن شتى في الجنوب ، وقد فشلت حتى الان كل محاولاتها لانزال عسكري ، وان قوات حركة « امل » تشتبك مع القوات المهاجمة في كل المواقع المستهدفة للتسلل . وناشد بيان « امل » ضمير العالم والامم المتحدة ادانة الاعتداءات المتكررة ، وطالب باتخاذ مواقف رادعة ، مؤكدا ان « امل » متمسكة بكل شبر من الجنوب وبكل حبة تراب ، فارض الجنوب ليست مستباحة وهي ارض الشهادة وطريق الله (**المصدر نفسه**) وفي اسرائيل صرح ناطق عسكري اسرائيلي بأن القوات الاسرائيلية هاجمت مواقع فلسطينية في لبنان ليلة الخميس / الجمعة للمرة الثانية خلال تسعة ايام ، واكد انه يمكن توقع عمليات اخرى (**المصدر نفسه**) . وفي الجنوب قال القادمون الى « الجدار الطيب » ان شاحنات كثيرة معبأة بالذخائر شوهدت وهي تتحرك على الطريق الساحلية باتجاه مواقع الفدائيين ، ويفهم من ذلك ان الفدائيين بدأوا تعزيز مواقعهم بالمدافع والذخائر ، للرد على العمليات الاسرائيلية التي نفذت في العمق . وقد استعدت قوات حداد تحسبا لاحتمال تجدد القصف المدفعي (و.ا.ا. ، ١٨ و١٩/٥/١٩٨٠) وفيما يعتبر الفلسطينيون ان جزءاً رئيسيا من الحرب **الدائرة يتسم بالمواجهة المكشوفة ، حينا ، وبالعمليات** العسكرية **الخاطفة** في العمق احيانا أخرى ، لاشغال والهاء الفدائيين ، واصل الاسرائيليون اعتداءاتهم لليوم الثالث على التوالي بكافة انواع الاسلحة البحرية والبرية **والجويّة** ، من بيروت الى صور ، وقد ادى ذلك الى التخوف من ان يكون هذا تمهيدا لعملية اسرائيلية كبيرة في الجنوب او اي مكان آخر .

على حين واصلت القوات الاسرائيلية قصفها المدفعي لمدن صيدا وصور والنبطية ، حيث ادى هذا القصف الى استشهاد ٤ وجرح ٩ آخرين والحاق الضرر بـ ٢٧ منزلا بالاضافة الى تدمير عدد من السيارات المدنية . وقد تركز القصف على مدينة النبطية و٧ قرى في جوارها . كما سقطت في مدينة صور ٣٥ قذيفة استهدفت مدخلها والطريق العام ومنطقتي المرفأ والآثار . وادى القصف الى مقتل شاب وجرح آخر . اما في صيدا ، فقد سقطت ٤ قذائف جرحت ٥ أشخاص واصابت ٨ منازل باضرار (« **السفير** » ، ١٨/٥/١٩٨٠) وفي المساء ظهرت زوارق حربية اسرائيلية قبالة الرملة البيضاء وخلدة في بيروت ، ففتحت القوات المشتركة نيرانها باتجاهها مما ادى الى ابتعادها . وفي الساعة ٢٠.٤٠ ، قصفت الزوارق الاسرائيلية بمدافعها وصواريخها منطقة وادي علمان ، عند مدخل مدينة صيدا ، فردت القوات المشتركة على نيرانها بالمثل ، وقد سقطت بعض القذائف الاسرائيلية في المنطقة الصناعية (**المصدر نفسه**) .

وقد خيم هدوء حذر ، في الجنوب طوال الفترة الممتدة من ١٩/٥ حتى ٢٢/٥ ، **عكّرتهُ** طلعات

طيران الاستطلاع الاسرائيلي الذي واصل استطلاعه لمناطق بيروت والجبل والشمال والبقاع والجنوب في طلعات جوية شبه متواصلة ، كذلك نشاط الزوارق الحربية الاسرائيلية قبالة الشاطىء اللبناني في المياه الاقليمية والدولية . وقد حذرت الاوساط اللبنانية والفلسطينية من احتمال قيام العدو باستئناف حرب الاستنزاف التي بدأها ضد الفدائيين في الجنوب ، ومن ان يؤدي ذلك الى قيامه بتنفيذ عملية عسكرية واسعة النطاق هناك (« **السفير** » ، ١٩٨٠/٥/١٩)

وفي ١٩٨٠/٥/٢٢ ، جددت اسرائيل قصفها لمنطقة النبطية وجوارها ، وقد نجم عن القصف الحاق اضرار في ١٠ منازل في كفر رمان والدوير ، بالاضافة الى اتلاف المزروعات في القعقعية (**المصدر نفسه** ، ١٩٨٠/٥/٢٢) ، وكانت منطقة صور قد شهدت خلال ليلة امس الاول ، تحركات كثيفة للزوارق الحربية الاسرائيلية ولطائرات الهليوكبتر التي اطلقت قنابل مضيئة فوق المنطقة . وقد استمر ظهور الزوارق المسلحة قبالة الساحل كما حلقت في اليوم التالي الطائرات النفاثة فوق المنطقة . (**المصدر نفسه**)

وفي ساعات بعد ظهر ١٩٨٠/٥/٢٣ قصفت الميليشيات الحدودية مدينة صيدا بقذيفتين ادتا الى مقتل ٧ اشخاص واصابة ١٥ آخرين بجروح . وجاء القصف بعد انذار وجهته الميليشيات صباحا الى اهالي المدينة احتجاجا على ما سمته « بالمضايقات التي يتعرض لها سكان الشريط الحدودي على حواجز القاسمية وابو الاسود والرميلة » (« **النهار** » ، ١٩٨٠/٥/٢٤) . وفي الساعة الثانية من فجر ١٩٨٠/٥/٢٤ ، اطلقت الزوارق الاسرائيلية النار على تلال الصرفند ، فردت عليها القوات المشتركة النار بالمثل ولم يبلغ عن وقوع اصابات (**المصدر نفسه**)

ومن جهة اخرى ، افادت المصادر الاسرائيلية أن الفدائيين بدأوا اتخاذ عدد من الاجراءات الدفاعية والوقائية نتيجة للعمليات التي يشنها الجيش الاسرائيلي ضدهم . واضافت هذه المصادر القول ان الفدائيين كرسوا معظم نشاطهم للاغراض الدفاعية . فالجيش الاسرائيلي يقوم ، من وقت لآخر ، بعمليات مفاجئة في العمق وفي اماكن غير متوقعة من اجل ارغامهم على تكريس جهودهم للدفاع بدلا من الهجوم ، ومن أجل ارباكهم وبلبلة حياتهم الروتينية اليومية ، وبالتالي تقييد تحركاتهم وخطوط مواصلاتهم وزيادة جهودهم في اقامة شبكات دفاعية جوية محلية . **وتأتي هذه الخطوات على حساب نشاطهم** الحربي ضد اسرائيل ، (ر.إ.إ. ، ٢٥ و١٩٨٠/٥/٢٦) . وفي ١٩٨٠/٥/٢٧ ، قصفت المدفعية الاسرائيلية بعد الظهر بلدة القعقعية في قضاء النبطية ، وقد استمر القصف مدة ٤٥ دقيقة ، ولم ترد اية انباء عن وقوع اصابات او اضرار (« **السفير** » ، ١٩٨٠/٥/٢٨) .

وقد صرح ناطق عسكري باسم القيادة العامة المركزية للقوات المشتركة بما يلي : « عند الساعة الحادية عشرة والنصف مساء ١٩٨٠/٦/٤ قامت زوارق العدو الصهيوني بالرماية على مقهى قرب مرفأ صيدا مما ادى الى جرح عدد من المدنيين ، وقد تعاملت كمائننا مع الزوارق المعادية ، واستمر الاشتباك حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل » ، واضاف الناطق يقول انه نتيجة للقصف استشهد واحد واصيب ثلاثة آخرون بجراح . وكانت قد شوهدت قبل ذلك بقليل زوارق حربية معادية قبالة شاطىء صور (**المصدر نفسه** ، ١٩٨٠/٦/٥) .

وقد واصلت مدفعية الميليشيات قصف القطاع الاوسط في ١٩٨٠/٦/٣ من مواقعها في حرج بركات وسهل الدرداره وتلال دبين ، وادى القصف الى استشهاد احد المواطنين واصابة آخرين ، لم يعرف عددهم بجراح ، كما لحقت ببعض المنازل والمزروعات بعض الاضرار (**المصدر نفسه**) كما قصفت مدفعية الميليشيات منطقة النبطية فسقطت القذائف في المدينة وفي كفرتبنيت وقلعة الشقيف ، وادى القصف الى استشهاد مواطن وجرح عدد آخر ووقوع اضرار مادية في منازل عدة . ورافق القصف طلعات جوية شملت صور والعرقوب وصيدا والنبطية وبيروت (**المصدر نفسه**) . وابتداء من الساعة ٢٣,٣٠ من مساء ١٩٨٠/٥/٤ ، سمع اطلاق نار غزير في مدينة صيدا ، رافقه انفجار قذائف صاروخية في اتجاه البحر ، حيث شوهدت زوارق اسرائيلية على مسافة قريبة (« **النهار** » ، ١٩٨٠/٦/٥) .

وعلى صعيد آخر ، اعلن الجيش الاسرائيلي ان

الهجوم الذي شن على ميناء صيدا مساء ٥/٦/١٩٨٠ ، باعتبار أنه يستخدم من قبل جماعات الفدائيين ، قد حقق اغراضه ، وكان الهدف مهاجمة مواقع الفدائيين داخل الميناء . ووفقاً للمصادر الاسرائيلية ، حققت القوة المهاجمة جميع أهدافها . ووصفت المراجع العسكرية هذه العملية بأنها ناجحة جدا . وشدد الناطق باسم الجيش الاسرائيلي على ان هذه العملية هي عملية وقائية تهدف الى اجهاض استعدادات الفدائيين لتنفيذ عمليات داخل اسرائيل (ر.إ.إ. ، ٥ و٦/٦/١٩٨٠) . علماً بأن الجيش الاسرائيلي يعمل منذ مدة في عمق جنوبي لبنان بهدف ايقاع مزيد من الاصابات في صفوف الفدائيين وتأمين الهدوء على الحدود عن طريق اشغال الفدائيين بمشاكلهم ، مما يضطرهم الى بذل جهود اكبر للدفاع عن انفسهم ويقلص من قدرتهم الهجومية . فالفدائيون ينشرون حراساتهم على طول الساحل ويبنون الاستحكامات ويعززون وسائل دفاعهم الجوي . اما الجيش الاسرائيلي فانه لا يتوقف عن الضغط عليهم وهو مستمر في تنفيذ سياسة الدفاع بواسطة الهجوم (**المصدر نفسه**) .

٢ ـ نشاط رجال المقاومة داخل الارض المحتلة

ظهر تطور جديد في الصراع الدائر بين الفدائيين والجيش الاسرائيلي . فقد اعلن ، لاول مرة منذ سنوات ، عن قيام الفدائيين بعملية ضد مواقع اسرائيلية انطلاقا من الاردن . وقد اعتبرت الاوساط الاسرائيلية الحادث من اخطر الحوادث التي تقع على هذه الجبهة منذ عام ١٩٧٠ ، عندما اخرج الاردن قوات الفدائيين الفلسطينيين من اراضيه . وتعليقا على الحادث اعلنت اسرائيل ان قواتها اجتازت الحدود الاردنية لمطاردة الفدائيين ، الذين تسللوا الى منطقة قريبة من احدى المستوطنات شمالي ايلات . وصرح ناطق باسم الجيش الاسرائيلي ان فدائيين فلسطينيين عبروا الحدود من الاردن بالقرب من مستوطنة نيئوت هاكيكار جنوبي البحر الميت في صحراء النقب ، وان دورية اسرائيلية اكتشفت امرهم وطاردتهم الى ما وراء الحدود وقتلت اثنين منهم وانها ربما اصابت ثالثا ورابعا ، وان أية اصابات لم تقع بين الاسرائيليين . واشار الناطق الى ان الفدائيين كانوا يحملون بنادق هجومية وقنابل يدوية ومعدات طبية . ولم يحدد هدف الفدائيين وما اذا كان القيام بعملية في مستوطنة نيئوت هاكيكار (« **النهار** » ، ٨/٦/١٩٨٠) وفي دمشق ، اعلن ناطق عسكري باسم القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية ان مجموعة من الفدائيين تحركت ظهرا نحو هدفها المحدد قرب مستوطنة نيئوت هاكيكار جنوبي البحر الميت ، ونصبت مكمنا لقافلة من السيارات العسكرية الاسرائيلية ، في اثناء مرورها على الطريق الى مدينة ايلات . وقد فاجأ الفدائيون القافلة بنيران رشاشاتهم وقذائفهم الصاروخية وقنابلهم اليدوية ، مما ادى الى قتل وجرح عدد من جنود العدو وتدمير واعطاب عدد من آلياته . واوضح الناطق ان العدو عزز قواته بقوات نجدة تساندها قوة مظليين محمولة بطائرات هليوكبتر ، فتصدى لها ثوارنا ودارت معركة عنيفة استخدمت فيها كل انواع الاسلحة ، واستمرت اكثر من ثلاث ساعات تكبد فيها العدو مزيدا من الخسائر في الارواح والمعدات ، وان شهيدين من قوات الثورة الفلسطينية سقطا بعدما نفذت ذخيرتهما ، في حين تمكن باقي افراد المجموعة من الانسحاب بسلام والعودة الى قاعدتهم حاملين معهم اثنين من الجرحى اصيبا في المعركة (**المصدر نفسه**) . وفي تل ـ ابيب اعلن رئيس الاركان الاسرائيلي ، تعليقاً على الحادثة ، ان الجيش الاسرائيلي احبط محاولات تسلل عدة من الاردن قام بها الفدائيون ، وحذر من ان هذه العمليات ستزداد في المستقبل . كما ذكر ان قوات الحدود الاسرائيلية تصدت في الآونة الاخيرة لخمس محاولات على الاقل قام بها الفدائيون الفلسطينيون عبر الاراضي الاردنية . وقال انه يتوقع المزيد من هذه المحاولات (**المصدر نفسه**) .

وعلى صعيد آخر ، ذكرت صحيفة « هآرتس » ان عدداً من الفدائيين الذين ينتمون لحركة « فتح » تم اعتقالهم في قطاع غزة ، وخلال التحقيق معهم تبين انهم تلقوا تدريبهم في مكتب « فتح » في القاهرة ، بقصد توسيع العمليات الفدائية في قطاع غزة . واضافت الصحيفة قائلة إن حركة « فتح » تسعى الى ادخال عدد من قادتها للقطاع بهدف اعادة تنظيم الخلايا السرية والاشراف على العمليات الفدائية ونقل السلاح الى القطاع (ر.إ.إ. ، ١١ و١٢/٥/١٩٨٠) .

على حين اصدرت المحكمة العسكرية في غزة احكاما بحق عدد من المنتمين الى حركة « فتح »

بتهمة القيام باعمال معادية ، والانتساب الى الحركة ، واعداد مواد ناسفة لوضعها في الاماكن العامة بقصد الحاق الاذى بالاسرائيليين ، كما وجهت اليهم تهمة وضع عبوة ناسفة في أحد الاماكن العامة وتهم اخرى (**المصدر نفسه**) . وفي تل ـ ابيب ، ذكرت صحيفة « هآرتس » ان مكتب « فتح » في القاهرة يعمل بطريقة مكشوفة ، كما تحدثت « الجيروز اليم بوست » ، استنادا الى مصادر اسرائيلية مأذونة ، عن نشاط فدائي ينطلق من القاهرة ، وذكرت، من جهة اخرى ، ان الهجمات الفدائية في الضفة الغربية المحتلة واسرائيل قد تضاعفت عما كانت عليه في العام الماضي ، فيما توقفت العمليات الفدائية ضد الاهداف الاسرائيلية في الخارج (« **النهار** » ، ١٢/٥/١٩٨٠) . وفي غزة ، صرح الحاكم العسكري للقطاع بأن اجهزة الامن قضت على ٦ خلايا فدائية هناك خلال النصف الثاني من السنة الماضية (ر.إ.إ. ، ١٣ و١٤/٥/١٩٨٠) .

وفي شمال فلسطين استشهد ليلة ١٤/٥/١٩٨٠ في حوالى الساعة الحادية والعشرين ثلاثة فدائيين حاولوا ، وفق المصادر الاسرائيلية ، التسلل الى كيبوتس حانيتا من اجل احتجاز رهائن ، فتحرك الجيش الاسرائيلي بصورة فورية لدى تلقيه انذارا بوجود متسللين قرب المستوطنة . وبعد مقتل الفدائيين الثلاثة عثر في حيازتهم على ثلاث بنادق من طراز كلاشينكوف ومواد ناسفة ومناشير ، كما عثر مع احدهم على علم فلسطين الذي ربما كان الفدائيون يزمعون رفعه فوق احد المنازل في المستوطنة ، في حال نجاح عمليتهم . وجدير بالذكر ان كيبوتس حانيتا يعتبر اكثر الكيبوتسات استعدادا وتنظيما من الناحيتين الامنية والعسكرية (ر.إ.إ. ، ١٤ و١٥/٥/١٩٨٠) . وبعد انتهاء الاشتباك قامت قوات الجيش بحملة تمشيط للمنطقة للتأكد من عدم وجود عدد آخر من الفدائيين . وقد افاد مصدر عسكري اسرائيلي ان المجموعة تسللت الى داخل اسرائيل من مواقع الوحدة الهولندية التابعة للقوات الدولية . وتجيء العملية في ذكرى ١٥ أيار (مايو) (**المصدر نفسه**) .

وفي تل ـ ابيب ، حكمت المحكمة المركزية بالسجن المؤبد على ثلاثة مواطنين عرب بتهمة تنفيذ تسع عمليات ادت الى مقتل ٦ اشخاص وجرح ١٣٠ آخرين . كما حكمت على رابعة من اعضاء الخلية بالسجن عشرين سنة (**المصدر نفسه**) .

وفي دمشق ، اعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، في بيان اصدرته ، مسؤوليتها عن عملية حانيتا ، وذكرت ان مجموعة انتحارية تابعة لها ، تحمل اسم الشهيد « محمود ياسين »، اقتحمت في الثامنة والدقيقة الخمسين مساء ، مهاجع الضباط والجنود الاسرائيليين في مستعمرة حانيتا في الجليل ، مستخدمة الرشاشات والقنابل اليدوية والاحزمة الناسفة ، وان المعركة استمرت حتى الساعة الواحدة صباحا ، واستشهد فيها ثلاثة من ابطالها . واضاف البيان ان تنفيذ العملية صادف يوم ١٥ أيار ، وانها جاءت ردا على عمليات الصهاينة في الصرفند والسكسكية والسعديات (« **النهار** » ، ١٥/٥/١٩٨٠) .

وفي وقت لاحق ، اوردت الاذاعة الاسرائيلية ، في نشرتها العبرية ، مزيدا من التفاصيل ، في الرواية الاسرائيلية ، عن عملية حانيتا . فقد ذكرت انه في التاسعة مساء تلقى كيبوتس حانيتا انذارا عن معركة مواجهة مع فدائيين . وعلى الفور حددت دورية عسكرية مكان الفدائيين ، رغم صعوبة المنطقة وتعقيداتها من الناحية الجغرافية ، وان الجيش اتم القضاء على المتسللين بعد فترة قصيرة . وليس مستبعدا ان المجموعة الفدائية كانت تحاول الوصول الى مستوطنة حانيتا لانها طوقت على مسافة قريبة منها ، وان الفدائيين كانوا ينوون احتجاز رهائن ورفع علم فلسطين فوق المنزل الذي كانوا ينوون اعتقال الرهائن فيه (**المصدر نفسه** ، ١٦/٥/١٩٨٠) .

ومن جهة اخرى ، اوردت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ايضا مزيداً من المعلومات عن العملية ، بلسان السيد بسام ابو شريف ، الناطق باسمها . ومما قاله ان العملية نفذت في حانيتا صباح الخامس عشر من ايار ، وهو ذكرى اغتصاب فلسطين ، وردا على اعلان الكيان الصهيوني ان القدس عاصمة لدولته العنصرية ، وردا على استسلام السادات واستعداده لاستئناف ما يسمى بمفاوضات الحكم الذاتي ، ودعما للانتفاضة الشعبية داخل الوطن المحتل ، التي لا تزال مستمرة في تصديها الباسل لقرارات العدو الصهيوني الاستيطانية واجراءاته القمعية الارهابية ، التي تستهدف تمرير مؤامرة الحكم الذاتي ، وفي اطار تصعيد الكفاح المسلح ،

ولافهام العدو الصهيوني ان الثورة الفلسطينية ستستمر في القتال لتحرير التراب الفلسطيني ، وان الجليل العربي هو جزء لا يتجزأ من فلسطين (**المصدر نفسه**) .

وفي القدس المحتلة ، ذكر مراسل رويتر ان سيارة عسكرية اسرائيلية تعرضت لهجوم بالقنابل قرب بيت لحم ، مما ادى لاصابة احد ركابها . واعترفت الاذاعة الاسرائيلية بأن قنبلة مولوتوف القيت على السيارة وتسببت في اصابة احد الجنود . وقد علم ان الشرطة تمكنت من السيطرة على الموقف ، وان قوات الجيش احاطت بالمنطقة وبدأت التحقيق في الحادث (« **السفير** » ، ١٩٨٠/٥/١٨) .

كما ذكرت الاذاعة ايضا ان كابل الضغط العالي الذي يزود مستعمرة كريات اربع بالكهرباء اصيب باضرار نتيجة لعملية فلسطينية لم يعرف منفذوها (**المصدر نفسه**) .

وفي يوم ١٩٨٠/٥/٢٧ ، القت قوات الامن الاسرائيلية في نابلس القبض على ثلاثة شبان حاولوا القاء قنبلة على دورية لقوات الامن بالقرب من رفيديا ، ولم يبلغ عن وقوع اصابات (ر.إ.إ. ، ٢٧ و١٩٨٠/٥/٢٨) .

وعلى صعيد آخر ، اصدرت محكمة عسكرية في غزة حكمها على احد المواطنين بالسجن لمدة ٨ سنوات ، بعد ان ادانته بتهمة الانتماء الى منظمة معادية وحيازة مواد ناسفة . وكان المواطن قد اصيب بجراح اثناء وضعه قنبلة من انتاج محلي في شهر تشرين الاول الماضي . كما حكمت المحكمة ذاتها على مواطن عربي آخر من اهالي رفح بالسجن مدة عام ، لمساعدته الاول في وضع تلك القنبلة (ر.إ.إ. ، ٣ و١٩٨٠/٥/٤) .

المقدم الطيار حسين عويضة

محاولة اغتيال رؤساء البلديات وتشكيل ميليشيات خاصة لحماية المستوطنات

يبدو ان سلطات الاحتلال الاسرائيلي فقدت كل امكانية لإحكام سيطرتها على المناطق المحتلة، وضرب قدرة الشعب الفلسطيني على التصدي لمؤامرات الحكم العسكري المتلاحقة ضد القيادات والشخصيات الوطنية، باتباع اساليب القمع والاضطهاد، التي لم تتوصل اليها حتى اكثر الانظمة فاشية المعروفة عبر التاريخ. وجاءت عملية الخليل، يوم ١٩٨٠/٥/٢، لتؤكد مرة أخرى قدرة الشعب الفلسطيني، رغم كل ظروف الاحتلال، على توجيه الضربات المؤلمة لواقع الوجود العسكري والاستيطاني في الاراضي المحتلة. لذلك لم تجد تلك السلطات بدأ من ابتداع اساليب جديدة، مثل سياسة « اليد القوية » و« العقاب الجماعي »، واخيراً تشجيع الجماعات الاستيطانية، بطريقة أو بأخرى، على الانتقام من العرب، واغتيال الرموز الوطنية، في محاولة لوقف الانتفاضة الشعبية المتواصلة منذ شهور عديدة.

ومهما حاولت السلطات الاسرائيلية تبرئة نفسها من فعلة محاولة الاغتيال، فإن الوقائع العملية المتلاحقة والمتمثلة باتباع سياسة اليد القوية، ورعاية الميليشيات المسلحة الخاصة، والتصريحات التي اطلقها المسؤولون الاسرائيليون عقب عملية الخليل، والتطورات التي رافقتها، تثبت مدى تورط تلك السلطات في التآمر على حياة الشخصيات الوطنية، بتهمة انتمائهم للجنة التوجيه الوطني التي تقود النضال اليومي داخل الاراضي المحتلة.

سياسة « اليد القوية »

« اضربوا كل انسان تصادفونه خارج بيته على جميع انحاء جسمه، ما عدا الرأس. لا ترحموا، حطموا عظامهم. لا تفسروا أي أمر. اضربوهم أولاً وبعد أن تنتهوا، اشرحوا لهم لماذا ضربتموهم » (« **يديعوت احرونوت** »، ١٩٨٠/٥/٢٠): هذه مقاطع من شهادات بعض الجنود الاسرائيليين حول الأوامر التي قالوا انهم تلقوها من ضابط كبير بالحاكمية العسكرية في الضفة الغربية، عند وصولهم الى احدى القرى العربية، لقمع الاضطرابات، والمحافظة على تنفيذ قرار منع التجول في اطار سياسة اليد القوية، التي قرر الحكم العسكري اتباعها في الاراضي المحتلة. واضاف عضو الكنيست افنيري، الذي قدم هذه المعلومات، ان الجنود الذين تقدموا بهذه الشهادات « لا يحملون أية خلفية سياسية محددة. لكنهم تأثروا انسانياً واخلاقيا بما يحدث هذه الايام، في الضفة الغربية » (**المصدر نفسه**).

وحقيقة الامر، ان رفض السكان لوجود الاحتلال، والتطورات المتلاحقة في الاراضي المحتلة، دعت كبار المسؤولين في وزارة الدفاع، والقيادات المسؤولة عن الأمن في المناطق، للاجتماع الى عيزر وايزمن، وزير الدفاع المستقيل وبحثت في الاجتماع الاوضاع الامنية في المناطق، وتقرر اتباع سياسة اليد القوية. ووفق ما صرح به وزير

الدفاع نفسه ، فإن هذه السياسة ستتبع في « أعقاب الاحداث والفوضى الاخيرة ، التي تقف وراءها لجنة التوجيه الوطني » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٥/٢) . ولم يستبعد المجتمعون أن تتخذ خطوات ضد رؤساء البلديات ، الذين تتهمهم السلطات « بالوقوف وراء الاحداث المتطرفة الجديدة » .

وتنفيذا لهذه السياسة المعلنة ، تم ابعاد رئيسي بلديتي الخليل وحلحول ، وقاضي الشرع في الخليل . وتنفيذا لهذه السياسة كذلك ، بدأت سلطات الاحتلال باتخاذ اجراءات مختلفة شديدة ضد المواطنين العرب ؛ فقد استمر حظر التجول مفروضاً على مدينة الخليل اكثر من ثلاثة اسابيع ، قامت خلالها دوريات الجيش والمستوطنين المسلحين بالتجول فيها ، والاعتداء على املاك العرب ، وتخريب ما يمكن تخريبه . وعاشت المدينة حالة حصار كامل ، حيث قطعت المياه والكهرباء وخطوط الهاتف والاتصالات ، ونفقت مئات من الاغنام والابقار . واثناء تجول المستوطنين في المدينة « حطموا حانوتاً لصرف النقود ، وحاولوا نقل الخزنة الحديدية ؛ لكن جنود الجيش حضروا على صراخ الاهالي الذين شاهدوا ذلك » (« **على همشمار** » ، ١٩٨٠/٥/١٥) . وروى احد الفتيان ، بعدما استطاع الخروج من الخليل ، ان الغذاء الذي تجلبه بعض الشاحنات الى المدينة ، يوزع في ساعات رفع حظر التجول ، وانه لا يصل الى كل السكان « وان لا غذاء في منزل والديه سوى الخبز ، وهذا يكفي لوجبات الفطور فقط » (**المصدر نفسه**) . ووصف الفتى تصرفات المستوطنين الاسرائيليين الذين يتجولون في شوارع الخليل بحرية ، فقال « ان هؤلاء ما أن يشاهدوا اياً كان يخرج الى الشارع لاحضار المياه ، أو اية حاجة أخرى ، حتى يتجمعوا حوله ويضربوه . وهذا ما حدث لعمته التي كانت في حديقة المنزل » (**المصدر نفسه**) . وأضاف : « ان المستوطنين يتجولون بالسلاح ، ويحطمون الحوانيت .

وتنفيذا لسياسة « اليد القوية » كذلك ، اتبعت سلطات الاحتلال اسلوب الابعاد الداخلي لعائلة اي فتى يقذف سيارات المستوطنين الصهاينة بالحجارة . وهذا ما حصل مع عائلة الشوملي من بيت ساحور ، وعائلة كعبة من مخيم بلاطة القريب من نابلس ، حيث ابعدت العائلتان الى مخيمات مهجورة بالقرب من اريحا . وتراجعت السلطات بعد ذلك ، خوفاً من تفاعل القضية ، واثارتها على مستوى وسائل الاعلام الاجنبية ، وامام المنظمات الدولية .

ومن الاجراءات التي اتخذت كذلك في اطار سياسة « اليد القوية » ، وقف توزيع صحيفتين عربيتين تصدران في القدس هما « الشعب » و« الفجر » . وقد اتخذ القرار من قبل مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء ، وهو اول قرار يتخذه بعد تسلمه مهام وزارة الدفاع . ويرى ضابط الاركان في قيادة الحكم العسكري ، ان استمرار توزيع الصحف في المنطقة من المحتمل « أن يلحق الضرر بالمحافظة على الأمن في الضفة الغربية ، وتطبيق النظام العام » («**هآرتس**» ، ١٩٨٠/٦/٢) . وقد رد رئيسا تحرير الصحيفتين على ذلك القرار بشدة ؛ فقال اكرم هنية ، رئيس تحرير صحيفة « الشعب » ، ان هذا الامر « استمرار لسياسة « اليد القوية » التي قررت الادارة العسكرية اعتمادها . وقد كنا نتوقع محاولة اسكات كافة الاصوات الوطنية المعارضة لاتفاقية كامب ديفيد ، ومشروع الحكم الذاتي » (ر.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٠ ، ١و١٩٨٠/٦/٢ ، ص ٦) . وزعمت الادارة العسكرية ان الصحيفتين ، تجاهلتا كافة التحذيرات بالتوقف عن التحريض . كما ادعت ، ان منظمة التحرير الفلسطينية هي التي « تمول اصدارهما ، وانها بمثابة اليد النشيطة للجنة التوجيه الوطني » (**المصدر نفسه**) .

وكان اسلوب تحطيم الاضراب التجاري الذي اعلن في كافة أنحاء مدن الضفة الغربية ، بعد محاولة اغتيال الزعماء الثلاثة ، من أقسى الاجراءات المطبقة في اطار سياسة « اليد القوية » . ففي يوم ١٩٨٠/٦/٣ ، اتخذت الشرطة الاسرائيلية اجراءات شديدة ضد تجار القدس الشرقية ، ورغم ذلك لم تتمكن من فتح « اكثر من ٣٠٪ فقط من [حوانيتها] ، اعتماداً على الاوامر الصادرة عن قائد المنطقة ، ولم تعثر الشرطة على معظم التجار في منازلهم » (ر.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٢ ، ٣و١٩٨٠/٦/٤ ، ص ٣) . وقررت قيادة الشرطة ، بعد ذلك ، ان تفتح الحوانيت بالقوة ، وقد تم « جلب التجار في منتصف الليل الى مركز الشرطة القائم في الملعب الروسي ، ودونت اسماؤهم ، وابلغوا وجوب اطاعة الأوامر » (**المصدر نفسه**) . وقال مراسل

اذاعة اسرائيل ، انه عند الساعة الخامسة فجر يوم ١٩٨٠/٦/٤ ، احضر جميع تجار المدينة الى نادي مركز الشرطة، وشرح لهم نائب المفوض حسن ، ان عليهم مساعدة الشرطة كي لا تضطر لاغلاق حوانيتهم لشهور عدة . وعلق احد التجار العرب على هذا بقوله : « لم أشاهد في اي مكان بالعالم اسلوباً كهذا . وما نفذ ليس حسناً على الاطلاق . كيف يحضروننا في منتصف الليل ، ونحن نائمون مع اولادنا وزوجاتنا ؟ لماذا يطرقون ابواب منازلنا في الليل ويخيفوننا ؟ هل نحن لصوص ؟ وماذا لو اغلقنا حوانيتنا ؟ نحن نريد اغلاقها ، وعندما يفتح الآخرون حوانيتهم نفتحها نحن ايضاً ، وانا لا اريد لحانوتي أن يحرق » (**المصدر نفسه**) .

ومع ذلك لم تنجح شرطة العدو في انهاء الاضراب التجاري . ولجأت ، في الليلة اللاحقة ، لجمع اكثر من ٢٠٠ تاجر من مدينة القدس في ساحة قيادة الشرطة ، وتسلموا هناك اوامر موقعة من قائد المنطقة الوسطى اللواء موشي ليفي ، تأمرهم بفتح محلاتهم . « وبعد أن قضوا الليلة كلها في قيادة الشرطة ، نقلوا عند الصباح الى متاجرهم لفتحها » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٧٤ ، ٥و٦/٦/١٩٨٠ ، ص ٤) .

الميليشيات الخاصة وأمن المستوطنات

ترجع فكرة الميليشيات الى رئيس الاركان الحالي رفائيل ايتان ، حيث بدأ العمل فيها عند تسلمه منصبه . وتندرج الفكرة في اطار الدفاع الاقليمي عن المستوطنات ، وبذلك تعتبر كل مستوطنة « مستوطنة مواجهة » . وبناء على تعليمات رئيس الاركان ، فإن كل المسرحين من الجيش ، ممن يقيمون في مستوطنات الضفة الغربية ، يجب أن ينتظموا في اطار الدفاع الاقليمي .

وبعد التطورات الاخيرة ، واثناء زيارته مستوطنة كريات اربع ، وقف اريئيل شارون ، وزير الزراعة الاسرائيلي ، مخاطبا سكان المستوطنة ومدافعا عن مواقف وزير الدفاع ، قائلا : « ليست هذه هي المشكلة اليوم . ويجب عدم القاء التهم على هذا الانسان أو ذاك . فالمشكلة هي الارهاب ، وعلى اسرائيل أن ترد بالاسلوب المناسب قبل أن يتدهورالوضع اكثر . ان هناك مئة طريقة مختلفة للعمل ، واسرائيل تملك تجربة في ذلك » («**معاريف**» ، ١٩٨٠/٥/٧) . واعرب شارون عن اعتقاده بأن تدمير البيوت في الخليل ، وطرد الزعماء الثلاثة من جبل الخليل « كانت خطوات صحيحة ، وان الحكومة ستتخذ خطوات أخرى » (**المصدر نفسه**) . وكانت أولى الخطوات التي بشر بها شارون ، هي عقد مؤتمر طارىء في مستوطنة آلون شافوت الواقعة في غوش عتسيون ، ضم ٢٠٠ شخص يمثلون مختلف مستوطنات الضفة الغربية . وقرر المؤتمر اقامة لجنة أمنية « بهدف خلق قاعدة امنية مستقلة عن الحكم العسكري » («**هآرتس**» ، ١٩٨٠/٥/٩ . وأصدر المجتمعون بيانا وزع على مستوطنات الضفة الغربية ، طالبوا فيه المستوطنين بالابلاغ عن كل اعمال التمرد ، والتحريض ورشق الحجارة ، أو أي عمل يتعلق بالأمن . وهاجم المجتمعون في بيانهم لجنة التوجيه الوطني في الاراضي المحتلة ، لأنها مكونة من « ممثلين لنظمات التخريب وجبهة الرفض » ، وطلبوا من السلطات « طرد كل اعضاء لجنة التوجيه الوطني ، وكل من له علاقة مع م . ت . ف . وطرد ومعاقبة منظمي الاضطرابات والمحرضين ، ومنع تحويل نقود منظمة التحرير الى الضفة الغربية » . كما طلبوا « إغلاق الصحف التي تعمل في خدمة منظمة التحرير ، وتوسيع صلاحيات الجنود ورجال الشرطة لتسهيل عملهم في الضفة الغربية ، والغاء الاوامر التي تمنع دخول رجال الأمن الى مؤسسات التعليم أثناء المظاهرات » (**المصدر نفسه**) .

وكشفت مصادر صحافية اسرائيلية ، عن أن لجان أمن المستوطنات ستنسق عملها مع لجنة امنية مركزية ، وهذه بدورها مع رئاسة الاركان في الجيش الاسرائيلي « وستتلقى كل مستوطنة السلاح ، بما فيه اسلحة متوسطة تشمل مدافع هاون ، ورشاشات ثقيلة » (**المصدر نفسه** ، ١٩٨٠/٥/١٦) .

المستوطنون « يلعبون بالنار »

وجاء اكتشاف مخزن الاسلحة ، على سطح المدرسة الدينية في القدس ، ليكشف اتجاها جديداً لدى المستوطنين الصهاينة . وكان ذلك المخزن يحتوي على ١٢٠ كلغ من المواد المتفجرة ، اضافة الى ١٦ قنبلة يدوية . واعتقل ضابطان في الجيش أحدهما برتبة رائد والاخر برتبة مساعد . وقد نفى المعتقلون أي علاقة تربطهم بجماعة غوش ايمونيم ، إلا أن

النائب يوسي ساريد طالب قوات الامن بفحص المستوى الذي وصلت اليه « القاعدة المسلحة التابعة لغوش ايمونيم ، من ناحية القوى البشرية ، ووسائل القتال ، وخطط التنفيذ [وطالبها] بتفكيك هذه القاعدة ، والعمل لالغائها بكل الوسائل » («**عل همشمار** » ، ١٢/٥/١٩٨٠) . ورأى ساريد ان كشف مخزن الاسلحة في المدرسة الدينية ، يثبت ان الدولة كلها « تجلس على برميل من البارود » ، وان متطرفي غوش ايمونيم « يلعبون بالنار » . كما قال ان الدلائل تشير الى أن الخارجين على القانون يستعدون لحرب خاصة ضد العرب ، « وضد اليهود ايضا ، اذا تطلب الامر ذلك » (**المصدر نفسه**) .وطلبت حركة السلام الآن من رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، احباط محاولات التنظيمات العسكرية الخاصة « لأن ارهاب المخربين ، والعنف ، وتنظيمات المستوطنين الخاصة وسياسات الطرد ، ومنع التجول ، والعقاب في كل اتجاه ، وتسليح هؤلاء وهؤلاء ، تثبت ان سياسة « اليد القوية » لم تعط فوائدها على المدى الطويل ، وأن مصلحة اسرائيل الامنية والاخلاقية هي في الانسحاب من المناطق المأهولة بالسكان العرب ، لقاء اتفاق السلام » (**المصدر نفسه**) .

وكشف النائب ابراهام كاتس عوز (المعراخ) في لقاء مع اعضاء الكيبوتسيم ، عن النوايا المبيتة وراء اخفاء المتفجرات على سطح المدرسة الدينية ، بأنها كانت ستستخدم « ضد احد المراكز الاسلامية » . وأضاف عوز « ان تزويد اعضاء غوش ايمونيم بالسلاح ، وتأييد شارون لجيوش الحاخام كاهانا ، وبورات ، وليفنغر ، وغوش ايمونيم ، كل هذا يطرح التساؤل عما يعدّ وزير الزراعة من وراء تسليح جماعات عسكرية صغيرة .... واذا لم ترد الحكومة بقوة ، ستضطر هيئات شعبية رئيسية في الدولة الى تنظيم الرد المطلوب في مواجهة مثل هذه الجيوش الخاصة » (« **دافار** » ، ٢٦/٥/١٩٨٠) .

وعلق احدهم على تصرفات حكومة الليكود ، وتسليحها للجماعات الاستيطانية وإثارة موجات الانتقام المتبادل ، في الوقت الذي تتحدث فيه عن المفاوضات والسلام ، وقال « ان هذه الحكومة حطمت كل قاعدة للحياة المشتركة . وان الاستيطان في قلب المناطق العربية الكثيفة بالسكان ، وانشاء ميليشيات خاصة لجماعة غوش ايمونيم ، التي تظن انه مسموح لها بكل شيء : تحطيم الزجاج ، وتدمير السيارات؛ان هذه الاعتداءات هي ، في نظر العرب ، شهادات على ان حكومتنا تنظر بعين الرضى الى هذه المليشيات ، أو أنها تخشى من اتخاذ اجراءات ضدها » (موشي كول ، « **دافار** » ، ٢٥/٥/١٩٨٠) . ويتساءل المعلق : في ظل هذا الوضع من سيشارك في مفاوضات الحكم الذاتي الذي تتحدث عنه حكومة بيغن ؟ ويضيف : هل يعقل اننا ، حتى الان ، لم نكتشف المسؤولين عن اخفاء السلاح على سطح المدرسة الدينية ؟ وهل يوجد انسان عاقل يصدق انه يمكن رفع صناديق السلاح على سطح المدرسة دون شركاء في العمل بين طلاب المدرسة ؟ وهل السلطة عاجزة عن كشف القائمين بهذا العمل الخطير ؟ ، ثم يتساءل أخيراً : هل نستطيع ان نضع « قوة من الجيش الى جانب كل بيت عربي في الضفة الغربية وقطاع غزة ؟ هل نستطيع الاستمرار في اتباع سياسة « اليد القوية » ، واليد الطولى في كل مكان وضد أي كان ؟ يجب أن نتعلم من تاريخ الشعوب الأخرى في الحالات المشابهة » (**المصدر نفسه**) .

محاولة اغتيال رؤساء البلديات

وعلى خلفية هذه الاستعدادات من قبل المستوطنين الصهاينة ، وبتأييد واضح من كبار المسؤولين في الحكومة والجيش الاسرائيلي ، وقعت محاولة اغتيال بسام الشكعة ، وكريم خلف ، وابراهيم الطويل ، رؤساء بلديات نابلس ورام الله والبيرة . وبينما اصيب الاولان اصابتين خطرتين ، نجا الثالث في آخر لحظة . ورغم محاولة سلطات الاحتلال إثارة الشكوك والبلبلة بين السكان العرب ، حول الهوية الحقيقية لمنفذي الحادث الاجرامي ، فان معظم الاوساط الاسرائيلية أجمعت على ان العمل هو من النوع المحكم جداً ، وأن خبراء عسكريين هم الذين نفذوه ، وان المواد المستخدمة هي من صنع الجيش الاسرائيلي ، إضافة الى أن المتطرفين الصهاينة أنفسهم ، لم يترددوا في الاعراب عن مدى اغتباطهم لتنفيذ هذا العمل ، وسرورهم لوقوعه .

ردود فعل السكان العرب

بعد وقت قصير من وقوع الانفجار في سيارة كريم خلف ، رئيس بلدية رام الله ، وصلت اعداد كبيرة من سكان المدينة الى المستشفى الذي نقل اليه ، ونظمت فوراً مظاهرة للاحتجاج . كما أضربت

المدينة ، واغلقت المحال التجارية ، وسمعت اصوات طلقات نارية في انحاء المدينة ، وبعد وقت قصير « سمع صوت سيارة اسعاف تقترب من المستشفى . وتبين ان ثلاثة شبان اصيبوا بجراح من جراء اطلاق النار عليهم من قبل قوات الأمن . واجتمع اعضاء بلديتي رام الله والبيرة وقرروا الاضراب لمدة ثلاثة أيام » («هآرتس» ، ١٩٨٠/٦/٣) .

وفي نابلس ، جرى اضراب تجاري شامل ، وجرت مظاهرات صاخبة احتجاجاً على محاولة اغتيال بسام الشكعة وزميليه . وخلال التظاهرة « اطلقت قوات الامن النار لتفريق المتظاهرين ، وتوترت الاجواء » (**المصدر نفسه**) . وكشف الدكتور حاتم ابو غزالة ، عضو مجلس بلدية نابلس ، عن مدى تواطؤ سلطات الاحتلال مع منفذي عملية الاغتيال ، وذكر انه حضر الى بيت بسام الشكعة عند وقوع الانفجار في تمام الساعة الثامنة صباحاً ، وأن « رجال الشرطة والحكم العسكري وصلوا الى المكان الساعة ٨,٣٠ فقط » (**المصدر نفسه**). أما الشكعة نفسه ، فقد كانت روحه المعنوية عالية جداً ، وظهر ذلك من خلال الكلمات التي قالها لمحاميته فيليتسيا لانغر التي زارته في المستشفى بعد الظهر : « ان لي رأساً وقلباً ، وان نضالي عادل . من اجل ماذا احتاج الى رجليّ ؟ سوف اعتاد الحياة بدون رجلين » (**المصدر نفسه**) .

وعقد مجلس بلدية غزة ، المعين تعييناً ، اجتماعاً ناقش فيه تطورات الوضع في المناطق المحتلة ، على ضوء محاولة الاغتيال . وقرر اعضاء المجلس الاستقالة الجماعية احتجاجاً على ذلك . وجاء في بيان الاستقالة الذي سلم الى الحاكم العسكري لقطاع غزة : « منذ ان اتبعت الحكومة سياسة « اليد **القوية** » ، تزايدت مظاهر الاعتداءات ضد سكان الضفة الغربية ورؤساء البلديات . وقد شجعت هذه السياسة العناصر المتطرفة ، كأعضاء غوش ايمونيم وأمثالهم ، على الاستمرار في هجومهم على السكان العرب وان الاحداث التي حصلت أثارتنا ، وهي لا تقرب السلام . وامام الوضع الناتج ، ليس أمامنا اي امكانية للأستمرار في مهامنا ، واننا نتقدم بإستقالتنا الجماعية » (« **عل همشمار** » ، ١٩٨٠/٦/٣) .

كما أن بلدية بيت لحم تقدمت بإستقالة جماعية ايضاً . الا أن البلدتين ، عادتا فتراجعتا عن استقالتيهما بناء على قرار جماعي اتخذه رؤساء البلدية في الضفة الغربية ، وبعد مشاورات جرت بينهم لتفويت الفرصة على سلطات الاحتلال ، وحرمانها من استغلال هذه المناسبة ، وتعيين ضباط عسكريين لادارة شؤون البلديات. وهذا ما أوضحه رشاد الشوا ، رئيس بلدية غزة ، حين قال : « لقد ناشدتنا وفود من اخواننا رؤساء واعضاء مجالس البلديات في الضفة الغربية ، وطلبوا منا العدول عن الاستقالة لمصلحة المواطنين ، كي لا يترك المجال مفتوحاً أمام السلطات الاسرائيلية لتعيين ضباط اسرائيليين يتولون شؤوننا ، أو تعيين لجان يقوم عليها اشخاص غير صالحين لتولي ادارة البلديات ؛ الامر الذي كان سيلحق اضراراً كبيرة جداً بالمواطنين » (ر.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٦ ، ٨ و١٩٨٠/٦/٩ ، ص ٩) . ومن جهة أخرى ، عقد اجتماعٌ في رام الله يوم ١٩٨٠/٦/٢ حضره وجهاء وشخصيات من قرى المنطقة جرى الحديث فيه « عن تشكيل لجنة تتولى مراقبة الوضع . واقترح أن يشارك في اللجنة المعينة ممثلون عن جميع البلديات ومختلف المنظمات ، ولم يعرف بعد ما إذا كانت اللجنة المعنية قد تشكلت فعلا ، وكيف ستكون علاقتها بلجنة الارشاد الوطني » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٧١ ، ٢ و١٩٨٠/٦/٣، ص ٣)

ردود فعل الاوساط الاسرائيلية

وأثارت هذه التطورات بالمقابل ، ردود فعل مختلفة داخل الاوساط الاسرائيلية المعنية بشؤون المناطق . فالمستوطنون المتطرفون اعربوا عن رضاهم واعجابهم « باليهود الجيدين » الذين نفذوا هذا العمل . بينما نظر آخرون الى الموضوع من ناحية مدى الخطورة التي سيعكسها الموقف الناتج على العلاقات بين اليهود والعرب ، وآثار كل ذلك على اسرائيل .

وفي هذا الاطار ، وعندما سئل : على من تقع مسؤولية اعمال العنف الاخيرة؛أجاب المدير العام لحركة كاخ ، يوسي دايان ، لمراسل السي . بي . س : « ليست لدي معلومات عن ذلك ، لكنني استطيع ان اقول الحقائق فقط . فاليوم هو الذكرى الثلاثون لمقتل ستة يهود في الخليل بأيدي العرب . وقلنا ، نحن ، ان اياً كان يجب ان ينتقم لهذا . انني لا أعرف من فعل هذا ، لكنه بالتأكيد من عمل اناس متخصصين قاموا بعمل متقن » (« **عل همشمار** » ، ١٩٨٠/٦/٣) ووصف الحاخام

مئير كهانا الذين نفذوا العملية بأنهم يهود جيدون وموهوبون ، انتقموا لليهود الذين سقطوا قبل شهر . واضاف : « كان هذا الاسبوع عيداً بالنسبة لي ، ويوماً جيداً لابناء شعب اسرائيل . ولا يمكن الوصول الى السلام الا اذا فصل بين الشعبين العربي واليهودي . وما دام الشعبان يعيشان مع بعضهما البعض ، فلن يكون هناك أمل بالسلام ، اذ يجب ان يكون اليهود هم سكان [ارض - صهيون] وان يكون العرب في دولهم ... فاليهود ملزمون بالسكن في الخليل ونابلس ، والعرب في بيوتهم في دمشق وعمان » (ر.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٥ ، ٦ و٧/٦/١٩٨٠ ، ص ٧) .

ومن جهة أخرى ، انتقد البروفسور شيفح فايس ، المحاضر في العلوم السياسية ، وعضو المجلس البلدي لمدينة حيفا ، الاعمال المخزية التي تقترفها السلطات الاسرائيلية ، ووصفها بأنها غير ضرورية « لأننا بذلك نفقد كل الاساس الاخلاقي لوجودنا كشعب ، وكل الاساس العام لادعاءاتنا في اوساط الامم الاخرى ، عندما يجري التعرض لنا . ونفقد تقريباً كل الاساس العام لوجودنا هنا ... وهذا مجرد عمل انتقامي خطر ، يوسع مجال الصدام والاحتكاك » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٦٦ ، ٢٧ و٢٨/٥/١٩٨٠ ، ص ١٣) .

وشبه المستشرق البروفسور يهوشواع بورات الوضع في اعقاب عملية محاولة اغتيال الشخصيات العربية ، بأنه يماثل الى حد بعيد الوضع الذي كان قائماً قبل حرب عام ١٩٤٨ ؛ أي الصراع بين السكان العرب واليهود . وهذا من شأنه ، حسب رأي البروفسور بورات ، أن يسلب اسرائيل ما تبقى لديها من ادعاءات بأنها « دولة يسود فيها القانون ، وتصرفاتها انسانية ، وتعمل ضد الارهاب وضد المنظمات الارهابية . ان هذه الاعمال ، تضعنا في مستوى الارهابيين ومنظمات الارهاب » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٧٢ ، ٣ و٤/٦/١٩٨٠ ، ص ١١) . وحول محاولة السلطات الاسرائيلية ، اتهام بعض اطراف المنظمات الفلسطينية بعلاقاتها بمحاولة الاغتيال ، لإبعاد الشبهات عنها ، كذب بورات هذه الادعاءات ، ورأى « انه عندما تريد احدى المنظمات الفدائية قتل شخص غير وطني وخائن ، من وجهة نظرها ، فإنها أولاً تشن ضده حملة اعلامية وتحذره عبر الاثير ، وبعد ذلك تنفذ عملية القتل أو الاغتيال . كما أنها تأخذ على عاتقها مسؤولية القتل لردع الآخرين ، مثلما حصل بالنسبة لجنحو ، والخزنذار ؛ اذ أن الكل كان متأكداً في حينه ، من ان م . ت . ف . هي التي نفذت هذه الاعمال ، وقد اعلنت مسؤوليتها بالفعل . أما هذه المرة فلم يتهم أحد بالخيانة ، ولم يهاجم أحد أو يتهم بالخيانة . وانا بنفسي أقول ان يهوداً متطرفين هم الذين نفذوا هذه العملية » (**المصدر نفسه**) .

آراء شخصيات اسرائيلية بارزة

وعلى ضوء تدهور الاوضاع في الضفة الغربية ، اجرت صحيفة « معاريف » مقابلات مع عدد من كبار الشخصيات الاسرائيلية ، تحملوا مسؤوليات امنية سابقة ، لسؤالهم عن أفضل الوسائل التي كان يمكن ان يتبعوها لو أنهم يشغلون الآن منصب وزير الدفاع .

فرأى موشي ارنس ، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست ، ان عرب الضفة الغربية ينظرون الى السلطة الاسرائيلية على أنها سلطة مؤقتة « وعلينا ان نثبت العكس ، بواسطة تعزيز تفسير الحكم الذاتي الاداري كاستمرار للسلطة الاسرائيلية في كل مناطق الضفة الغربية . وبأعمال العقاب ، والاستمرار بالاستيطان وعلى نطاق واسع » («**معاريف**» ، ٩/٥/١٩٨٠) . ودعا أرنس الى اخراج كل « هؤلاء الذين يتلقون توجيهات منظمة التحرير ، والمعروفين [بتبعيتهم لها] في المناطق ... ويجب عدم ترك اي شك في قلب كل عربي ، حول ان السلطة الاسرائيلية ستتبدل ، أو أن دولة فلسطينية ستقوم في الضفة الغربية ... ومثلما كانت حوادث ١٩٢٩ في الخليل جزءاً من معركة شاملة على أرض - اسرائيل ، تشكل اعمال الخليل اليوم جزءاً من المعركة على الضفة الغربية ، وهي معركة على أرض - اسرائيل . لذلك يجب ضمان السلطة اليهودية في الضفة الغربية الى الابد » (**المصدر نفسه**) .

أما حاييم بار - ليف ، أحد رؤساء الاركان السابقين ، فرأى انه لو كان وزيراً للدفاع ، لأوقف اعمال بناء المستوطنات في المواقع التي تكون اهدافاً سهلة للاعمال المعادية « وكنت اركز المستوطنات في وادي الاردن . وعلينا أن نتمسك بتلك الاشياء الحيوية لنا ، والتي يمكن الدفاع عنها بسهولة

وتطويرها » (**المصدر نفسه**) .

ويضيف بار ـ ليف ، انه لو كان وزيرا للدفاع ، لأوقف الاعمال التي تؤدي الى الاحتكاك بين اليهود والعرب ، مثل الاسكان في بيوت الخليل ، واسكان بيت هاداسا ، الخ .. ولو أن الحكومة اخلت نساء هاداسا مثلما قال رئيس الوزراء ووزير الدفاع منذ البداية ، وكذلك الامتناع عن بناء مستوطنات هناك « لما حدثت هذه المصيبة ... وكنت ادافع الى الحد الممكن عن الاشياء القائمة والثابتة ، وهذا رأس الحكمة » (**المصدر نفسه**) .

ويتلخص رأي موشي دايان ، بوجوب معاقبة الكبار بدلاً من اولادهم راشقي الحجارة على سيارات الاسرائيليين ، لان هؤلاء يتمتعون بتأيد آبائهم وتشجيعهم . وهو يؤيد كذلك ، « عقوبات من انواع مختلفة ، مثل فرض حظر التجول ، وتدمير البيوت ، والتهجير ، الخ .. » (**المصدر نفسه**) . ويدعو دايان الى تطبيق الحكم الذاتي من جانب واحد ، حسب اتفاقيات كامب ديفيد « والغاء الحكم العسكري من المدن العربية » ، بشرط ان يتحمل رؤساء البلديات مسؤولية حفظ الأمن والهدوء ، وعدم تحويل مدنهم الى « قواعد للتخريب ضد اسرائيل » .

واعاد شمعون بيرس ، زعيم حزب العمل المعارض ، الى الاذهان ، الافكار الاساسية التي ينادي بها حزبه لحل مسألة الضفة الغربية ، ضمن اطار الحل الاقليمي الوسط مع الاردن ، من خلال ما يسميه بـ «بالتعايش المشترك » . وهو يرى وجوب بناء المستوطنات « حسب نظرة شاملة لمستقبل الضفة الغربية ، وحسب اعتبارات امنية فقط . ويجب ازالة الاعتبارات التاريخية في الضفة الغربية . وعليه ، يجب عدم الاستيطان داخل الخليل . ولقد اتخذت الحكومة قرارا بشأن بيت هاداسا ولم تنفذه . ويجب عدم الخضوع للجماعات المتطرفة » (**المصدر نفسه**) .

وعالج اسحاق رابين ، رئيس الاركان السابق ، الموضوع ، من خلال عجز الحكومة مسبقاً عن معالجة الامور بشكل صحيح . « فمنذ البداية كان يجب وقف نشاط لجنة التوجيه الوطني ، لأنها تؤيد م . ت . ف . كما يجب منع نشاط المتطرفين الاسرائيليين من جماعات مئير كهانا » . ودعا رابين كذلك ، الى ازالة الوهم لدى السكان العرب للتأكيد على ان الحكم الذاتي لن « يقود الى دولة فلسطينية » . وانتقد سياسة غرس المستوطنات في المناطق المأهولة بالعرب « لأن الاحتكاك العربي ـ اليهودي سيزداد ، والتوتر سيتضاعف . وبناء على ذلك ، وحيث ان الحكومة ترسم السياسات ، يجب ان توضح كل مفاهيمها بخصوص الوضع في المناطق . ونظراً لأنني أؤيد سياسات مختلفة ـ لا حكم ذاتيا ولا استيطان في اماكن مأهولة ـ يبدو لي ، انه يجب ان يكون الأمن متمشياً مع السياسات التي كانت متبعة من قبل الحكومات السابقة » (**المصدر نفسه**) .

النشاط الاستيطاني

على قاعدة استمرار الوجود الاستيطاني الاسرائيلي ، وضمان تقويته وتعزيزه في الاراضي العربية المحتلة ، حتى في حال قيام الحكم الذاتي ، كما تقول الاوساط الاسرائيلية الحاكمة ، شهدت الاراضي العربية المحتلة نشاطاً استيطانياً متزايداً في الفترة الاخيرة يهدف بالأساس الى إقامة حاجز من المستوطنات بين قطاع غزة وسيناء من جهة ، واغلاق ممر اريحا ـ القدس من جهة أخرى ، تأكيداً على رفض مشروع آلون ، من جانب حكومة مناحيم بيغن .

وفي هذا الاطار ، تقوم شعبة الاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية ، حاليا ، ببناء مستوطنة جديدة في منطقة اريحا ، تدعى فيرد يريحو (وردة اريحا) . ويخطط لأن تكون سوقاً قروية في اطار حركة الاتحاد الزراعي . ويعتمد اقتصادها على الصناعة الخفيفة والسياحة، وربما على الزراعة أيضاً . وذكر ان هذه المستوطنة هي من أصل ست مستوطنات يخطط لبنائها في المنطقة . ووفقاً للمشروع نفسه « ستقام مستوطنات : بيت هعرفاه جنوب ـ شرق اريحا ، والموغ ـ ب ، ونعيمة ـ ج شرقي اريحا ، ونعيمة أشمال ـ شرق اريحا ، ونعيمة ـ ب شمال غرب أريحا » (ر.إ.إ . ، العدد ٢٠٥٩ ، ١٨ و ١٩/٥/١٩٨٠ ، ص ٨) . وبذلك تصبح اريحا محاصرة من جميع الجهات بالمستوطنات الاسرائيلية . وهذا يضع نهاية لمشروع آلون الذي يقوم على اساس الابقاء على ممر في منطقة أريحا خال من المستوطنات اليهودية ، يربط الاردن بالضفة الغربية .

وتقع مستوطنة فيرد يريحو المذكورة فوق تلة مشرفة على مخيم اللاجئين المهجور بالقرب من اريحا ، وتبلغ مساحتها حوالي ٥٠٠٠ دونم . ورغم ان الحكومة صادقت لثلاث مستوطنات ، فإن مراسل الاذاعة الاسرائيلية يقول ان الاستعدادات قائمة للعمل « لتنفيذ كل المشروع القاضي ببناء ست مستوطنات ... ورغم عدم توفر الميزانيات لإقامتها دفعة واحدة ، فإن مشروع اغلاق اريحا من جميع الاتجاهات قد بدأ تنفيذه . واليوم بدأ بناء أقرب مستوطنة يهودية الى اريحا » (**المصدر نفسه**) .

وفي منطقة القدس ، اقامت جماعة غوش ايمونيم مستوطنة بالقرب من جبعون شمالي ـ غربي القدس ، سميت جبعات حاداشا « واقيمت المستوطنة الجديدة على اراض تبلغ مساحتها ٨٠ دونماً يملكها يهود منذ سنة ١٩٤٠ » («**هآرتس**» ، ١٢/٥/١٩٨٠) . وسوف يقيم في المستوطنة اشخاص علمانيون في غالبيتهم ، وستعتمد في اقتصادها على الصناعات الخفيفة بصورة اساسية .

ونشر قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية اعلانا عن عزمه « اقامة ٢٩ نقطة استيطانية جديدة في الضفة الغربية حتى شهر تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٨٣ » (ر.إ.إ. ، العدد ٢٠٥٧ ، ١٥ و١٦/٥/١٩٨٠ ، ص ١١) . وأشار رئيس قسم الاستيطان الى ان كل نقطة استيطان ستضم ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ عائلة .

ويبدو أن المرحلة الأولى من خطط الاستيطان التي وضعتها حكومة الليكود ستنتهي قريباً ، فقد اعلن مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء الاسرائيلي ، ان اسرائيل ستقيم ١٠ مستوطنات جديدة في الضفة الغربية ، وبذلك تكون قد انهت المرحلة الأولى لمشاريع الاستيطان في المنطقة . وستبنى هذه المستوطنات في عدة مناطق داخل الضفة الغربية . وأوضح اريئيل شارون ، وزير الزراعة ، في هذه المناسبة ، انه منذ تسلمه مسؤولية الاستيطان في شهر تموز (يوليو) ١٩٧٧ ، وضع خطط « لإقامة ٨٥ مستوطنة متنوعة بدءا بالمدن وانتهاء بالمستوطنات الزراعية . وعندما شكل الليكود الحكومة عام ١٩٧٧ ، كان في هذه المناطق ٢٥ مستوطنة تقريباً . بينما يوجد اليوم حوالى ٧٥ مستوطنة . وطرحت خطة إقامة ٨٥ مستوطنة : لذلك فإن ما تبقى من الخطة هي المستوطنات العشر التي تحدث عنها رئيس الحكومة مؤخراً » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٧٨ ، ١٠ و١١/٦/١٩٨٠ ، ص ١٧) .

وعلى ضوء اخلاء قطاع يميت في سيناء ، وفق اتفاقيات كامب ديفيد ، بدىء بإقامة مزرعة ناحال وهي قطين ـ د في قطاع غزة ، وتشكل هذه المستوطنة جزءاً من مشروع يستهدف اقامة سلسلة مستوطنات يهودية تفصل بين سيناء وقطاع غزة . وحسب المشاريع المعدة لهذه المنطقة ، ستقام تسع مستوطنات جديدة « خصصت لتطويق منطقة خان يونس من جميع الاتجاهات ، وتشكيل فاصل بين مشارف رفح وقطاع غزة ... اما معظم الاراضي المخصصة للمستوطنات ، فهي أراض تابعة للدولة ، ولكن يوجد في المنطقة قطعة ارض مساحتها حوالى ١٢,٠٠٠ دونم ما زال وضعها غير واضح » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٦٢ ، ٢٢ و٢٣/٥/١٩٨٠ ، ص ٣) . ويبدو أن الحديث عن تطبيق مشروع الادارة الذاتية في قطاع غزة ، ربما كان السبب وراء تنفيذ هذه المشاريع .

محمد عبد الرحمن

١ - استقالة وايزمن اسبابها وتبعاتها

شهدت حكومة بيغن منذ تشكيلها هزات عدة نجم عنها انسحاب عدد من اعضائها . وكانت كتلة الحركة الديمقراطية للتغيير اول من دشن عملية الانسحاب حين انقسمت على نفسها وانسحب فريق « شينوي » برئاسة روبنشتاين من الحكومة ، وفي ايلول ١٩٧٨ استقال مئير عميت (الحركة الديمقراطية) من وزارة المواصلات ، وتبعه بعد مدة بسيطة يغئال هوروفيتس (لعام) فاستقال من وزارة التجارة والصناعة احتجاجاً على اتفاقية كامب ديفيد ، وتلاه في كانون الثاني ١٩٧٩ موشي دايان الذي استقال من وزارة الخارجية .

حدثت هذه الاستقالات في صفوف بعض الاجنحة المتحالفة مع الليكود ، ولم يتأتَّ عنها سوى إحداث خضات للحكومة الائتلافية ، وانعكست خطورتها الأساسية في تمزق وتشرذم الاحزاب التي ينتمي اليها المستقيلون ، فقد انقسمت الحركة الديمقراطية للتغيير على نفسها ، وحدث نفس الشيء بالنسبة لكتلة لعام . وعلى الرغم من « الخدوش » البسيطة التي الحقتها هذه الاستقالات بالحكومة الائتلافية ، فانها حملت بين طياتها عوامل ضعف لبعض الكتل المشاركة في الائتلاف مما عزز من هيمنة الليكود في قيادة الحكومة ، الى ان جاءت استقالة عيزر وايزمن من وزارة الدفاع ،من وسط الليكود ومن حركة حيروت بالذات الامر الذي حمل معه الى جانب الضربة المؤلة لحكومة الائتلاف احتمال خطر انشقاق داخل الحزب الحاكم، في وقت هو احوج ما يكون فيه الى تجميع قواه لمواجهة التجمع العمالي في المعركة الانتخابية ، في العام القادم . ومع ان هذا الخطر ما زال عائماً؛ فإن واقع تفجر الخلاف بين الشخصين المركزيين لحركة حيروت، والذي اتسم بمنافسة شديدة بينهما حول قيادة الحكم، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الصراع على الحكم في اسرائيل ، من ناحية تبادل التهم والتشنيعات الشخصية ، هو اقرب ما يكون الى واقع تفجر الخلاف بين ركني حزب العمل ، عشية الانتخابات السابقة ، الذي كان من بين الاسباب التي ساعدت على خسارته المعركة الانتخابية .

قبل استعراض مراحل الاستقالة وتبعاتها على الخريطة ، يجدر تسجيل ملاحظتين :

١ - غياب التحديد الواضح لنقاط الخلاف حول الموضوعات السياسية الاساسية ، على الرغم من كثرة الحديث عنها، لدرجة بلغت حدَّ الاسفاف . ومرد ذلك الى التقارب في وجهات نظر الطرفين حول الموضوعات الاساسية ، خصوصاً تلك المتعلقة بالصراع العربي - الصهيوني ، الامر الذي يجعل الخلاف يتمحور حول معالجة هذه القضايا وادارة المباحثات حولها ، دون تحديد جوهر الخلاف من القضية مثار البحث ، ويتم عدم التحديد هذا بحرص شديد ، وهذا ما يبدو جلياً واضحاً في استقالة وايزمن .

٢ - أن اضفاء صفة الاعتدال او « الحمائمية » على وايزمن مسألة نسبية تتعلق بموضوع واحد فقط هو : رعاية وتطوير العلاقة مع مصر ، والاستمرار في التفاوض معها حول تطبيق معاهدة كامب ديفيد . أما بالنسبة لسياسته تجاه المناطق المحتلة فلا يختلف في « صقريته » عن مجموع صقور الليكود ، فقد كان هو المسؤول الاول عن انتهاج سياسة « اليد القوية » ضد سكان المناطق المحتلة ، والمتمثلة في هدم البيوت ونفي العائلات من مخيماتها الى مخيمات أخرى

داخل الضفة الغربية ، وابعاد رئيسي بلديتي الخليل وحلحول وقاضي الخليل الى لبنان ، وتهديد رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة بـ « التصفية الجسدية » ، قبيل جريمة الاعتداء عليه وعلى رئيس بلدية رام الله ، كريم خلف .

عشية الاستقالة

لم تات استقالة وايزمن مفاجأة لاحد ، فقد درج خلال فترة طويلة على التهديد بها . ففي اواسط اذار الماضي أماط اللثام امام المقربين منه عن اعتزامه تقديم استقالته ، بعد استكمال بناء بيت له في قيساريا ، وحدد شهر أيار تاريخاً للقيام بذلك ، وقد فاته تحديد اليوم ، لكنه أشار الى انه يعتزم اعداد كتاب دون ان يخفي استياءه من ادارة بيغن للحكم ، وارجع سبب بقائه في منصبه الى رغبته في استكمال بعض الشؤون الامنية . وقد شكك بعض المعلقين الاسرائيليين في تنفيذ وايزمن لتهديداته متسائلين عما اذا كان يحدد مواعيد **وفق** « الطريقة المصرية » ، مشيرين بذلك الى اسلوب السادات المعتمد على التهديد بتحديد تواريخ معينة للمفاوضات . ولم يبد بيغن اكتراثا في ذلك الحين بتهديدات وزير دفاعه مشيراً الى ان وزيراً كان قد استقال ، ويعني به دايان، دون ان يترك اثراً على حكومته (يوسف حريف ، « **معاريف** » ٨ /٣/ ٨٠). وفي اواسط نيسان، وفي غمرة الحديث عن اشتداد وطأة المنافسة بين بيغن ووايزمن ، اعرب الأخير ، في مقابلة تلفزيونية ، عن استعداده لتسلم حقيبة وزارة الدفاع في حكومة يرأسها شمعون بيرس ، وعن موافقته على تقديم موعد انتخابات الكنيست . وكان هذا التصريح بمثابة ضربة مزدوجة مؤلمة لبيغن ، خصوصاً وانه صدر في ضوء اللقاءات بين شمعون بيرس وقادة الحزب الوطني الديني (يشارك في الائتلاف الحكومي) التي اسفرت ، على حد ادعاء « **هعولام هزيه** » ،(١٩/ ٣/ ٨٠) ، عن « اتفاق سري » بين الطرفين بشأن تقديم موعد الانتخابات .

ترك هذا التصريح أثراً عميقاً في نفس بيغن الذي اشتكى وتذمر منه اثناء زيارته لواشنطن فصرح : « انني اسمع اليوم من اصدقاء ، واقرأ غداة اليوم التالي في صحف واشنطن ان عيزر على استعداد لاستبدالي ، وانه مستعد لشغل حقيبة وزارة الدفاع في حكومة بيرس ، وانه يرغب في تقديم موعد الانتخابات . هل من المريح في شيء قراءة امر كهذا صادر عن وزير خارجيتك عندما تكون موجوداً في بلد آخر !؟ » (انظر : شلومو نكديمون، « **يديعوت احرونوت** » ، ٢٥/ ٤/ ٨٠) . ويبدو ان تأثر بيغن كان من الشدة ، لدرجة أنه افضى الى المقربين منه بأنه يفكر بتقديم استقالة حكومته ليعيد تشكيلها دون وزير دفاعه .

وبمقدار ما اغضب التصريح المذكور رئيس الحكومة، فقد اثلج صدر زعيم المعارضة شمعون بيرس الذي اخذ يمتدح وايزمن ومواقفه ، ويرحب به ، ولكن دون ان يتعهد له بشيء محدد خشية ان يجلب له مشاكل مع بعض عناصر حزبه ، ومع حزب مبام ، شريك العمل في التجمع العمالي . وقد ابدت اوساط حزب **مبام** الى جانب عدد من اعضاء حزب العمل تخوفاً من احتمال تسلم وايزمن وانصاره مناصب وزارية ، في حال نجاح التجمع ، على حسابهم . وعبر المعلق ابشلوم جينات عن هذا التخوف فحبذ ترحيب بيرس بوايزمن ، شرط ألا يتعدى هذا الترحيب جانب التكتيك ، الذي يستهدف تسريع اغراق سفينة الليكود عن طريق ضمان سلامة من يترك السفينة الغارقة . وركز على خطورة تبعات التحالف مع الناجين من الغرق على حكومة التجمع ، اعتقاداً منه ان قيام حكومة ائتلافية واسعة من شأنه ، ليس فقط تفجير التناقضات داخل الحكومة ، وانما أيضا تغييب لونها ، ذلك ان « عجز حزب العمل عن اظهار لون قد الحق به ، في السابق وهو في السلطة ، ضرراً لا يقدر . ويمكن تحميل « ظاهرة تحييد » حزب العمل المسؤولية عن بروز وتنامي غوش ايمونيم . ان شرط التحييد السياسي من الداخل كان بمثابة بيت كبير ومستنبت لرعاية عصابة رفض قومية على شاكلة غوش ايمونيم » (« **عل همشمار** » ، ٢٤/ ٤/ ١٩٨٠) .

مع اقتراب الموعد الذي حدده وايزمن لاستقالته ، وتفاقم خلافه مع بيغن ، ووسط تبادل التهم ، برزت داخل الحكومة قضيه أثارت سخطه ، تمثلت في مشروع وزير المالية يغئال هوروفيتس الخاص باجراء تخفيضات في ميزانيات الوزارات المختلفة ومنها وزارة الدفاع . وبدا ان الاكثرية تقف الى جانب هوروفيتس ، الا ان وايزمن اعلن انه لن يخضع لقرار الطاقم الوزاري ، واشيع انه سيستقيل في حال اجراء تخفيضات على اجهزة الأمن ، في الوقت الذي كان فيه من الصعب على الحكومة عدم اقرار المشروع ،

خشية سقوطها بسبب فشلها في المجال الاقتصادي (« **دافار** » ، ٢٢/٥/٨٠) . ومن الجدير بالذكر ان مشادة كلامية كانت قد حدثت خلال جلسة الحكومة ، في الثامن عشر من ايار ، بين وايزمن وهوروفيتس على اثر عرض الأخير لمشروعه ومطالبته بتخفيض ميزانية وزارة الدفاع ، مع ابداء ملاحظة بان الوزارة « مبذرة » ، فرد عليه وايزمن بقوله : **«انك أنت المبذر الاكبر... لقد عذبت الشعب** بالسياط ، وتعذبه الان بالعقارب . انك تتحدث عن حرائق اقتصادية في الوقت الذي تشعل فيه حرائق اجتماعية بسبب النقص في المعرفة » (« **هآرتس** » ، ٩/٥/٨٠) . وفي غضون ذلك ، وفي غمرة الحديث عن الصراع الجديد ، اصدرت « محكمة العدل العليا » أمراً احترازياً ضد وزير الدفاع ، بناء على طلب قدمته عقيلات كل من فهد القواسمة ومحمد ملحم ورجب التميمي ، تطلب فيه من الوزير تقديم اسباب ابعاد الثلاثة خلال ٤٥ يوماً . ولم يول وايزمن اهتماماً بالرد عليها ، فقد كان مشغولاً برد آخر .

تقديم الاستقالة

في السادس والعشرين من أيار بعث وايزمن بمذكرة استقالته الى بيغن ، ذكر فيها ان سبب الاستقالة يعود الى الخلافات « الآخذة بالاتساع والعمق » بينهما ، حول عدد من الموضوعات ، ولكنه تحاشى توضيح الخلافات مكتفياً بالاشارة اليها ، ثم وجه انتقادات شديدة ضد بيغن . اكد وايزمن: « ان الكثير من الامور اصبحت موضوع خلاف بيننا ، كما وان تحفظاتي قد ازدادت من سياسة الحكومة في موضوع السلام ، ومن خطتها الاقتصادية وطريقها الاجتماعي ، وطريقة ادائها لعملها . وقد أحسست انه اخذ يتبلور في باطني ادراك بأن طريقنا لم يعد واحداً ، وانني لن استطيع الاستمرار في حكومتك » . اما الخلاف الوحيد الذي اوضحه ، وهو السبب المباشر للاستقالة ، فهو اعتزام الحكومة تقليص ميزانية وزارة الدفاع ، فقد اوضح في مذكرة الاستقالة انه يرفض مقترحات الطاقم الوزاري لان « الجيش الاسرائيلي لا يمكن ان يدار وفقاً لمتغيرات مؤشر الاسعار الشهري ، ووفقاً للتغييرات في مزاج اعضاء الطاقم الوزاري للشؤون الاقتصادية . ان معالجة ميزانية الدفاع تعكس جيداً طريقة اداء الحكومة لمهامها في جميع المجالات » . اما موضوع الخلاف حول السلام مع مصر ، فقد اشار اليه متهماً الحكومة بعدم السير في طريق السلام ، دون ان يحدد معالم الطريق : « كذلك فيما يتعلق بالسلام مع مصر لم اكن متفقاً مع سياسة الحكومة ، فالطريق نحو تقوية السلام وترسيخه مفتوحة وواسعة حقاً ، لكن ليس هناك من يسير فيها . وبدلاً من خطو خطوات محسوبة وحاسمة نحو السلام الشامل والوطيد ظللنا نراوح مكاننا » . ثم يوجه بعد ذلك اصبع الاتهام الى بيغن ، ويحمل حكومته مسؤولية فشل تحقيق السلام مع مصر ، فقد انهى المذكرة بقوله : « لقد عرف شعب اسرائيل ، في سني استقلاله ، الكثير من حالات الصعود والانحدار ، لكنه لم يكن في اي وقت ، كما يبدو ، كئيباً وخنوعاً كما هو الحال في السنوات الأخيرة . ولم تتدهور معنوياته بسبب الصعوبات والضيق ، بل بسبب الزعامة التي زرعت خيبة الامل ، ومن يزرع خيبة الامل يحصد اليأس . كان للشعب في اسرائيل ايام من السعادة والآمال في فترة من ولايتك ، كانت ايام السلام الذي وقعنا عليه تقترب ، وقد آمن هذا الشعب بالسلام ، كما آمن بالحكومة ، وليس الشعب هو من لم يعد يؤمن بالسلام . وكان ممكنا بوجود زعامة حقيقية ، **فعلاً**، نشر رياح اخرى ، واطلاق القوى العظيمة الكامنة فينا بدءاً من خيرة الشباب الذين يخدمون في الجيش ، الى آلاف المواطنين الجيدين والمخلصين المشبعين بحب الوطن والصهيونية الحقيقية ، وحب الانسان. **كانت امامك سيدي رئيس الحكومة فرصة** نادرة ، لكنك فوتها » (« ر.أ.أ. » ، ٢٦/٥/٨٠) .

جاء رد بيغن سريعاً ، قبل استقالة وزير دفاعه ، ودافع عن سياسة حكومته تجاه موضوع السلام مع مصر ، وعن نفسه بتوجيه انتقادات شخصية لاذعة ضد وايزمن . بالنسبة لموضوع السلام ركز بيغن على ان حجر العثرة امام السلام - وليس بوسع وايزمن مخالفة ذلك - **يتمثل في «المقترحات المصرية بصدد:** القدس ، ومسألة الأمن ، وجوهر الحكم الذاتي ، التي تتعارض بشكل مطلق مع اتفاقيتي كامب ديفيد ، وتهدد أمن ومستقبل دولة اسرائيل ، هي التي عرقلت حتى الآن المفاوضات التي اوقفها المصريون مرتين ... » اما بالنسبة لتسديد سهام النقد الشخصي فقد افاض في هذا المجال **بمخاطبة** وايزمن : « شخصيتك غير مسؤولة لدرجة غير معقولة ، فمن خلال حبك للظهور لدى دول اجنبية

معينة ، أوحيت كأنك الوحيد الذي يجري وراء السلام في حكومة مشكلة ممن يسعون لافشاله ... » . وانهى رده بقوله : « اتيحت لك الفرصة . ربما كنت من بين الذين منحوك اياها بجعلك تشغل منصب وزير الدفاع ، الهام في حكومة اسرائيل ، وفي فترة بالغة الاهمية . لكنك بسبب قصر نظرك وطيشك ... حاولت ابعادي عن منصبي علناً ، وعن طريق التلفزيون ، اثناء وجودي في الولايات المتحدة ، في مهمة قومية هامة... وحصدت في مسعاك هذا فشلاً ذريعاً. لقد اعطيتك يا سيدي وزير الدفاع فرصة نادرة ، لكنك اضعتها بسبب طموحاتك التي تتجاوز حدود المعقول » . («ر.إ.إ. » ، ٢٧/٥/١٩٨٠ و« **على همشمار** » ، ٢٧/٥/٨٠) .

وفي التاسع والعشرين من أيار عقدت ادارة حركة حيروت اجتماعاً في تل - ابيب تدارست فيه الوضع الحكومي ، واستقالة عيزر وايزمن الذي لم يحضر الاجتماع . وقد شن رئيس الحكومة حملة شعواء ضد وزير دفاعه المستقيل استخدم فيها تعابير الدناءة والكذب ، وربط تصريحات وايزمن بالتصريحات المصرية ، قائلاً : « يتهم كل من وزير الدفاع المستقيل ووزير الخارجية المصرية اسرائيل بافشال التوصل الى اتفاق في موضوع الحكم الذاتي ... سيكون صعباً جداً ان نغفر ، هذه المرة ، لوايزمن خطأه . لقد سبق أن غفرنا له ، وغفرت له شخصياً اخطاءه الكثيرة في الماضي » . ثم تطرق الى توجه وايزمن نحو حزب العمل ، واستعداده لشغل منصب وزير الدفاع في حكومة يتزعمها بيرس ، على الرغم من كونه في الليكود ، فاتهمه بالسعي للحصول على منصب ، قائلاً عن تكتيك بيرس المتمثل بالترحيب بوايزمن ، دون التعهد بالمنصب : « ان بيرس ذكي وخبيث ، فقد قبل فوراً عرض وايزمن ، معلناً انه سيدرس الموضوع ، اذا انسحب هذا من الحكومة ، لكنه سرعان ما واجه الصعوبات داخل حزبه ، لأن الكثيرين هناك ينتظرون تسلم هذا المنصب ، فدفعه ذلك الى القول ، مؤخراً ، انه لا يستطيع التعهد لوايزمن بتسليمه منصب وزير الدفاع لأن وايزمن من الليكود » (« ر.إ.إ.» ، ٣٠/٥/٨٠) .

لم يرد وايزمن على خطاب بيغن وترك مهمة الرّد للفريق الذي اخذ يلتف حوله من وسط الليكود ، وكان رد هؤلاء قاسياً : اذ اكدوا على ان « الخطاب أثار الخوف والاشمئزاز إن مثل هذا «البيغن» لم يأخذ ولن يأخذ الحكم، كما وانه لا يملك غطاء جماهيريا ... انه خطاب ادعاء ، ولم يبق امامه سوى تشكيل محكمة واعداد حبل المشنقة » (« **معاريف** » ، ١٠/٦/٨٠) ، وأشاع أعضاء هذا الفريق ، الآخذ بالتبلور ، ان اعداداً كبيرة داخل حركة حيروت ، من بينهم وزراء ، على اعتقاد بأن الوقت قد حان لذهاب بيغن وتسليم قيادة الحركة الى عيزر وايزمن .

وفي غضون ذلك لم يخف وايزمن سعيه لتسلم رئاسة الحكومة ، فقد عاد ودعا بيغن الى تقديم استقالته لانه « لم يول محادثات الحكم الذاتي مع مصر الجدية اللازمة ، مفوتاً بذلك فرصة تاريخية » ، موضحاً ان من شأن الاستقالة « الحفاظ على المكانة المحترمة لهذا الرجل في التاريخ ، وهي المكانة التي فقدها خلال المماطلة في محادثات الحكم الذاتي » ، واكد انه لا يرغب في انشاء حزب سياسي جديد ، وأعرب عن اعتقاده بأن شخصيات سياسية عديدة ستنضم اليه في معارضة بيغن قبيل الانتخابات المقبلة . («ر.إ.إ. » ، ١١/٦/٨٠) .

أثر الاستقالة على الائتلاف الحكومي

كان الشغل الشاغل لبيغن وكذلك لاطراف كتل الائتلاف الحكومي شغل منصب وزير الدفاع . فقد احدثت الترشيحات العديدة لهذا المنصب « زوبعة » بين اطراف الائتلاف كادت تودي به : ففي اعقاب الاستقالة رشح بيغن يتسحاق شمير وزير الخارجية لشغل منصب وزير الدفاع ، ورشح يتسحاق موداعي (الاحرار) ، وزير الطاقة ، لشغل منصب وزير الخارجية . ولم يرق هذا الترشيح لاوساط من الائتلاف ، فقد عارضت الكتلة الديمقراطية ترشيح موداعي وزيراً للخارجية ، وهددت بالانسحاب من الحكومة في حال تثبيت الترشح . في حين ألم السخط بأرئيل شارون لعدم ترشيحه لمنصب وزير الدفاع ، وهدد هو الآخر بالاستقالة ، في الوقت الذي اتخذ فيه حزب المفدال موقفاً متحفظاً من الترشيح . وقد تمسك حزب الاحرار ، شريك حيروت في الليكود ، بشدة بترشيح موداعي وزيراً للخارجية . واعلن موداعي انه لن يسحب ترشيحه للمنصب الجديد حتى ولو ادى ذلك الى استقالة الحكومة ، محتجاً بان « الموضوع ليس شخصياً ، بل هو موضوع حزب الاحرار الذي هُضم حقه منذ تشكيل الحكومة » (« ر.إ.إ. » ، ٣١/٥/٨٠) .

وازاء اصرار اطراف الائتلاف كلٌ على موقفه ،

وحيال التخوف من احتمال سقوط حكومته ، ومن اجل ربح مزيد من الوقت اعلن بيغن انه لن يحدث تغييرات في المناصب الحكومية ، وانـه سيشغل بنفسه ، مؤقتاً ، منصب وزير الدفاع . وبذلك ازال بسرعة آثار « الزوبعة » التي هبت على حكومته .

ردود الفعل على الاستقالة

في الوقت الذي لم تخف فيه اوساط المعارضة اغتباطها بالاستقالة ، على امل ان تؤدي الى تقديم موعد الانتخابات ، فتجري في ظل ازمة الليكود ، استقبلت الاوساط الائتلافيـة القرار بشيء من التحفظ وابداء الاسف . وكانت الكتلة الديمقراطية **برئاسة يغئال يادين اشدها في الاعلان عن الاسف** تخوفاً منها من اشتداد وطأة هيمنة تيار الصقور ، ويبدو ذلك من تعليق يادين القائل أن « حقيبة الدفاع هي بيد حزب حيروت ، ولا اعرف في هذا الحزب رجلاً قد يعين وزيراً للدفاع اقل « حمائمية » من وايزمن » (**« على همشمار** » ، ٢٦/٥/٨٠) .

عكست الصحف الاسرائيلية في افتتاحياتهـا موقف التيارات المختلفة من الاستقالة ، فقد عالجتها (« **دافار** » ، ٢٧/٥/٨٠) بابـرازها الفقـرات الاساسية الواردة في كتاب الاستقالة وتبنيها لها . ووقفت عند ثلاث مسائل : الجيش الاسرائيلي لا يدار وفق لائحة الاسعار الشهرية ، والطريق الى السلام مفتوحة ، ومن يزرع الكآبة يحصد اليأس . ومع ان الصحيفة اكدت على وجود نقاط خلاف بينها وبين وايزمن ، الا انها ذكرت بانه من الصعب عدم تبني الموضوعـات التي طرحهـا . وأعربت « **على همشمار** » ، ٢٦/٥/٨٠) في افتتاحية لها عن اعتقادها بان السبب الحقيقي وراء الاستقالة ابعد ما يكون عن الخلاف حول ميزانية وزارة الدفاع ، وإنما يكمن في عدم موافقة وايزمن على النهج الذي تسير عليه الحكومة في سياستها الخارجية « التي تقود شعب اسرائيل » ، حسب رأيهـا ، « الى طريق مسـدود ، وتعرقـل خطوات السـلام الى درجـة المخاطرة » . ورأت الصحيفة في استقالة وايزمن تعزيزاً للتوجه «**الصقري**» داخل الحكومة « فعندما استقال دايان حل محله يتسحاق شمير المعروف بمواقفه « الصقرية » ، وحملت استقالة سيمحا ارليخ من منصب وزير المالية ، معها صقراً آخر على شكل وزير المالية الجديد يغئال هورفيتس . والآن يذهب ايضاً وزير الدفاع ... الذي ابدى اعتدالاً سياسياً بالمقارنة مع زملائه ... ويحتمل ان يشغل رئيس الحكومة منصبه ...» وخلصت من ذلك الى أن **الاستقالة تعجل بنهاية الحكومة. اما «معاريف»** (٢٩/٥/٨٠) **فقد ركزت في افتتاحيتها على** الضبابية التي تتسم بها تصريحات وايزمن ، وطالبته باخراج آرائه من اسر الغموض والضبابية وتوضيح « الخطوات التي كان على الحكومة خطوها في الطريق **الى السلام، ولم تخطها ...». وقالت إن ما ذكره حول** ضرورة الاسراع في عملية السلام « بقي غامضا كغمـوض الصيغة التي استخـدمها في رسـالـة استقالته » ، وخلصت الى القول : « اذا ما كان وايزمن يعتزم الاستمرار في النشاط السياسي ... وضمان مكانة تقربه من تحقيق طموحاته ، فإنه يحسن صنعاً اذا لم يكتف بابراز التناقضـات الشخصية بينه وبين رئيس الحكومة . بل يعمل ايضاً على ايجاد صيغة واضحة للفوارق الجوهرية بين الطريق التي يطالب **بسلوكها** ، وبين طريق الحكومة التي استقال منها » . اما صحيفة « **هارتس** » (٢٦/٥/٨٠) فقد عالجت الاستقالة مشيرة الى ان وايزمن كان يقف على راس التيار الدافع لعملية السلام مع مصر . ورأت أنه بافتقاد الحكومة له ، بعد ان فقدت **موشي** دايان ، أصيب هذا التيار بضربة موجعة ، واصبح التيار المناقض له السيد بدون منازع ، وخلصت الى القول . ان « الحكومة بالشكل الذي تأخذه الآن تختلف ، في الجوهر ، عن تلك التي حظيت مرة بثقة الكنيست . ان السيد بيغن الذي ارتكب خطأ كبيراً في افتراضه ان السلام مع مصر يضمن لنا سيطرة دائمة في الضفة الغربية وفي غزة يعرض الآن مسار السلام للخطر . ويجب على **الاحزاب** وقادتها الذين لا يضربون على وتر غوش ايمونيم **التساؤل** كم من الوقت سيدعون التعصب الشوفيني الديني يجر الدولة نحو طريق **مسدود**

أمـا تعليق الاوساط الـوطنية فـي المنـاطق المحتلة على الاستقالة ، فقد تركز ، وفق ما ذكره مراسل اذاعة اسرائيل ، على دحض « حمائمية » وايزمن الذي شكل « الستارة الاخيرة التي تغطت خلفها سياسة بيغن ... ان وايزمن كان من بين اولئك الذين بلوروا سياسة اليد الحازمة وسياسة الطرد ... اذا كان وايزمن حمامة ، أليس من السخرية ان تستقيل الحمامة لانها تطالب بمزيد من تخصيص الاموال للحرب ؟ » أما **رئيسا** بلديتي بيت لحم وغزة فقد أسفا للاستقالة لانها حسب رأي الياس فريج : « خسارة كبيرة للتفاهم اليهودي العربي » ، ووفق

رأي رشاد الشوا ، تحمل بين طياتها « تأثيرات سيئة على المفاوضات مع مصر « ر.إ.إ. » ، ٨٠/٥/٢٥) . ومن الجدير بالذكر ان بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس اتهم وايزمن اثناء تلقيه العلاج في الاردن بأنه « هددني شخصياً بالتصفية الجسدية اذا استمريت في التعاون مع رؤساء البلديات الآخرين لمواجهة مشروع الحكم الذاتي » (« النهار » ، ٨٠/٦/٧)

وجهات نظر المعلقين الاسرائيليين في الاستقالة :

شغلت استقالة وايزمن عدداً من المعلقين الاسرائيليين على اختلاف مشاربهم واهوائهم ، وقد عالج هؤلاء الاستقالة ، الحدث ، من زوايا مختلفة ، تقدم بمجملها صورة أوضح لاسبابها وتبعاتها على الخريطة السياسية الاسرائيلية . فقد رأى فيها حجاي ايشد (« دافار » ، ٨٠/٥/٢٧) ان البيت الذي بناه بيغن قد تهدم مع استقالة وايزمن من جوانبه الثلاثة ، بعد ان افتقد ثلاثة من مهندسيه الاساسيين : دايان كوزير للخارجية ، وسيمحا أرليخ كوزير للمالية ، ووايزمن كوزير للدفاع . وذكر ان الثلاثة هؤلاء كانوا متناقضين ، فوزير المالية اراد إحداث « ليبرالية » في الاقتصاد على حساب ميزانية الجيش ، الامر الذي لم يرض وزير الدفاع، ووزير الخارجية ، موشيه دايان ، وجد نفسه عقب اتفاقية كامب ديفد في تناقض مع سياسته المعتمدة على الحفاظ على « الوضع الراهن » ، اي لا حرب ولا سلم . ووصل الى القول ان صاحب البيت بيغن يقف الآن على الانقاض ، ويحتاج الى برهة زمنية لاعادة البناء الى ما بعد الانتهاء من الانتخابات الاميركية . وذكر ان الرئيس الاميركي معني بمنح هذه البرهة الزمنية ، كما وأن « الرئيس السادات ادرك بحسّه التجاري المتطور ان بوسعه جني ارباح كبيرة من هذا التأجيل : اذ بوسعه تلقي مبالغ كبيرة من الاميركيين مقابل موافقته على تأجيل التاريخ المحدد ... وبوسعه أيضاً جني ارباح اخرى : اذ سيحاول تأسيس وتحصين مكانته كحليف استراتيجي وحيد للولايات المتحدة في الشرق الاوسط » . وازاء ذلك يعتقد حجاي ان بيغن يراهن في ترميم بيته على انتصار ريغان مرشح الحزب الجمهوري ، لبدء صفحة جديدة مع الادارة الاميركية . كما ويراهن ايضا على تفاقم الصراع الداخلي في حزب العمل بين جناحي بيرس ورابين في المؤتمر الذي سيعقده في تشرين الثاني القادم . واعتبر المعلق العسكري زئيف شيف (« هآرتس » ، ٨٠/٥/٢٦) ان مسألة ميزانية الدفاع لم تكن سوى ذريعة لقرار الاستقالة، واعاد سببها لكون صاحبها « تعب من الحكومة ومن زملائه الوزراء ، ومن شركائه في الطريق السياسي ، ويبدو لي ، من مسار السلام كما يجري » . ورجح ان يدفع واقع غياب وايزمن نحو مزيد من التطرف ، اعتقاداً منه بأنه صاحب مفاهيم معتدلة .« صحيح ان كل شيء نسبي ، ولكن اولئك الذين اشتكوا من «صقرية» وايزمن، ولا سيما تجاه المناطق، سيكتشفون ، الان ، انه قام بدور رادع لمنع مواقف اكثر تعنتاً . ومن المرجح ان يتغير وجه الحكومة مع ذهاب وايزمن ، انها تتحرك ثانية نحو اليمين ، ونحو مواقف اكثر تعنتاً » . اما فيما يتعلق بتبعات « شغل » رئيس الحكومة لوزارة الدفاع فقد تكهن شيف بانها ستحفر بصماتها في مجالات عدة ، من بينها العلاقة مع المؤسسة العسكرية والسلطات المدنية . واعرب عن اعتقاده بعلو شأن نائب وزير الدفاع مردخاي تسيبوري ورئيس هيئة الاركان رفائيل ايتان . ومن ثمّ علو شأن المؤسسة العسكرية في اتخاذ القرارات ، وسيلحظ ذلك بشكل خاص في المناطق المحتلة « سواء بالنسبة للمستوطنات ام بالنسبة لوسائل الرد ضد اولئك العرب الذين يخلّون بالنظام ، اي ، ضد العرب، سكان المناطق : فمنذ مدة والجيش الاسرائيلي يطالب بانتهاج مواقف اشد تجاه المخلين بالنظام، والوسائل التي اتخذت هي نتيجة حل وسط ساهم فيه وايزمن بدور هام » . وبالنسبة لموضوع الحكم الذاتي ، والعلاقة مع مصر يرى شيف ان الاقتراح الداعي الى تطبيق الحكم الذاتي ، في القطاع أولا ، قد اصيب بضربة مميتة : الامر الذي يؤثر بدوره على العلاقة مع مصر « ففي ذهابه تفقد الحكومة ، وجهاز الأمن بالذات ، افضل موفد ، كان لديها ، عند الرئيس السادات . ويكفي ان نذكر هنا ايفاده من قبل بيغن الى السادات للبحث في موضوع اسعار الوقود ... » . وفيما يتعلق بالعلاقة مع الاميركيين اكد شيف ان الاميركيين وجدوا في وايزمن افضل من شغل منصب وزارة الدفاع في تاريخ اسرائيل ، ففي عهده « كان للاميركيين باب مفتوح لم يسبق لهم ان حظوا بمثله أبداً . وليس من المستغرب اطلاقاً ان يكون وزير الدفاع الاميركي ، هارولد براون ، هو الذي بذل جهوداً لمنعه من تقديم استقالته» . اما المعلق السياسي أ . شفيتسر (« هآرتس » ، ٨٠/٥/٢٨) فقد اعاد الاستقالة

الى الخلاف في وجهات النظر السياسية بين الشخصيتين المركزيتين في الحكومة . وخاصة إلى اتجاه كل منهما للاستفادة من زيارة السادات للقدس . ففي الوقت الذي اعتبر فيه بيغن الحدث بمثابة « ثغرة لتحقيق افكاره بخصوص ضم جميع ارض اسرائيل الغربية الى اسرائيل بواسطة صفقة تبادلية مع مصر ، رأى وايزمن في زيارة السادات فرصة لتثبيت قيام اسرائيل في المنطقة عن طريق الاعتراف العربي . ولم يكن من المستطاع ايجاد حل وسط بين وجهتي النظر . وكان لا بد للتعايش الواهي بين رئيس حيروت وبين الرجل الثاني في الحركة ان يصل الى نهايته ».

واختلف زميله عوزي بنزيمان معه في هذا التقييم ، (« **هآرتس** » ، ٢٨/٥/٨٠) فركز على ضبابية وغموض مواقف الوزير المستقيل . ولاحظ ان السمة الطاغية على مواقفه اثناء وجوده في الحكومة هي غموض هذه المواقف وتناقضها » فمن ناحية ، ناضل ضد اقامة مستوطنات جديدة ، ومن ناحية اخرى ، **اقترح وخطط اقامة مستوطنات مدنية في الضفة** الغربية والقطاع . وفي بعض المناسبات ، طرح نفسه كمن يتحفظ على مواقف البعثة الاسرائيلية للحكم الذاتي . ولكنه في المقابل عارض وجهة النظر المصرية فيما يتعلق بالترتيبات الأمنية في يهودا والسامرة وغزة . لقد تحدث عن عدم الضرورة الامنية للمستوطنات في الضفة الغربية . ومع ذلك فقد أشاد باهميتها على الصعيد القومي الصهيوني ».

في مقابل هذه التحليلات العامة اتسمت تحليلات الفريق العمالي بالتنبؤ بالسقوط السريع لحكومة بيغن . فقد رأى حاييم شور (« **عل همشمار** » ، ٢٦/٥/٨٠) في الاستقالة مساً بهيبة الحكومة : اذ « لا شك » ، حسب رأيه ، بأن الحكومة آخذة بالتآكل وان « مكانتها بين صفوف الشعب وصلت الى الدرك الاسفل . واذا كان هنالك من انقذ ، بشكل ما ، مكانة الحكومة الحالية فهو عيزر وايزمن » . بينما استخلص ي . رونكين (« **عل همشمار** » ، ٢٧/٥/٨٠) ، بعد تأكيده ان الاستقالة تعود الى التناقض بين المرونة والتعنت ، بين ركني الحكومة ، ان استقالة وايزمن « الرجل الذي احبه الكثيرون ، حتى ولو اختلفوا معه ومع تصريحاته ، تنهي مرحلة في تاريخ هذه الحكومة وتقرب نهايتها ، كما تقرب ساعة الانتخابات للكنيست الجديدة واقامة حكومة جديدة ... » . وخلافاً لزميليه شكك أريه بلجي (« **عل همشمار** » ، ٢٧/٥/٨٠) ، في أن تكون الاستقالة قد قصرت عمر الحكومة . « يتنبأون بقصر أيام الحكومة ، الا انها ، ليس لم تسقط فحسب،بل تتحول ، باستمرار ، اكثر « صقرية »... » .

كتلخيص لما سبق يمكن القول . ان استقالة وايزمن كشفت عن حدة المنافسة بين زعيم الليكود مناحيم بيغن ، وبين عيزر وايزمن ، الرجل الثاني في الحزب الذي يسعى لوراثة زعامته . وتعيد هذه المنافسة ، من حيث خطورتها على وحدة الحزب وتبعاتها على خريطة القوى السياسية الاسرائيلية ، الى الاذهان خطورة المنافسة بين شمعون بيرس ويتسحاق رابين عشية هزيمة التجمع العمالي . ومهما يكن من أمر ، فإن وايزمن ، في حال انضمامه لحكومة بقيادة التجمع العمالي ، فيما اذا نجح التجمع في الانتخابات ، سيجد نفسه في وضع شبيه بوضع دايان في حكومة الليكود . وسيلعب دوراً شبيها ، وربما يكون مصيره شبيهاً ايضاً بمصير زميله .

عبد الحفيظ محارب

٢ ـ مفاوضات الحكم الذاتي والمبادرة الاوروبية

تصدرت ازمة الحكم الذاتي ، والمبادرة الاوروبية بشأن قضية الشرق الاوسط ، الوضع السياسي في اسرائيل ، خصوصاً بعد قرار الرئيس السادات تعليق المفاوضات بسبب وجهات النظر المتباعدة بين الاطراف المتفاوضة .

فمنذ سنة ونيف لم تحرز مفاوضات الحكم الذاتي اي تقدم او اي انجاز جوهري . ويمكن القول ، بحذر ، ان اهم ما ابرزته هذه المفاوضات هو نقاط الخلاف ، بين الطرفين الأساسيين ، المصري والاسرائيلي ، والتي تتلخص بالتالي :

الموقف الاسرائيلي

أ ـ يرى الاسرائيليون : أن مدينة القدس يجب ان تبقى موحدة ، وعاصمة لاسرائيل الى الابد .

ب ـ وأن من حق اسرائيل الاستيطان في جميع ما يسمى بارض اسرائيل .

ج ـ وأن مسؤولية الأمن الخارجي والداخلي من اختصاص اسرائيل .

د ـ وأن الحكم الذاتي ، يعني إعطاء صلاحيات بمستوى صلاحيات المجالس البلدية والمحلية : وتشكيل مجلس اداري مكون من ١٢ إلى ١٤ عضواً ، دون صلاحيات تشريعية . (**معاريف** » ، ١٢/٥/١٩٨٠).

الموقف المصري

اما الموقف المصري فانه يطرح بالمقابل طروحات تتعارض مع طروحات الجانب الاسرائيلي ، يرى المصريون :

أ ـ أن مدينة القدس يجب ان تبقى مفتوحة للمفاوضات ، فهي جزء من الضفة الغربية ، وان اجراءات الضم التي اتخذتها اسرائيل لاغية وملغية .

ب ـ وانه من الضروري وقف الاستيطان في الضفة والقطاع ، واعتبار المستوطنات القائمة غير شرعية .

ج ـ وأن الامن الداخلي من مسؤولية الحكم الذاتي .

د ـ وأن الحكم الذاتي يجب ان يكون كاملاً ، له صلاحيات تشريعية ، غير منقوصة ، واعتبار السنوات الخمس الاولى فترة انتقالية .

هـ ـ تشكيل مجلس اداري مكون من ٨٠ إلى ١٠٠ عضواً مع صلاحيات تشريعية . (**المصدر نفسه**) .

وفي الجولة الاخيرة من المفاوضات التي عقدت في هرتسليا على مستوى الوفود الثلاثة ، الاسرائيلي ، والمصري والاميركي ، طرحت هذه النقاط بحدة ، وكاد موضوع الامن بالذات ان ينسف المفاوضات . « فبعد ٢٤ ساعة فقط من انتهاء هذه الجولة ، اتخذ السادات قراراً بتعليق المفاوضات ، الامر الذي خلق توقفاً دراماتيكياً في مسيرتها ، خصوصاً قبل فترة وجيزة من حلول الموعد المقرر لانتهائها في ٢٦ / ٥ / ١٩٨٠ » (« **معاريف** » ، ١٢/٥/١٩٨٠) .

وعلى الرغم من البيان الذي صدر في اعقاب جولة المفاوضات في هرتسليا ، والذي نص « على ضرورة مواصلة المفاوضات بشكل مكثف ونشط ، وتشكيل لجنة فرعية للتفاوض حول موضوع الامن ، واحراز اتفاق قبل الموعد النهائي ، جاء قرار السادات مفاجأة غير متوقعة » (« **عل همشمار** » ١٢/٥/١٩٨٠) .

فقرار التعليق هذا يشبه الى حد كبير ، خطوة مصر في تعليق مفاوضات السلام ، وسحب الوفد المصري برئاسة وزير الخارجية ابراهيم كامل من القدس ، في كانون الثاني ١٩٧٨ . اما قرار التعليق الجديد ، فقد جاء ، هذه المرة ، في اليوم الذي يفترض أن تجتمع فيه الوفود الثلاثة في فندق « ميناهاوس » بالقاهرة ، الامر الذي حمل اسرائيل والولايات المتحدة على الغاء الاستعدادات لسفر الوفود الى القاهرة .

دوافع القرار مصرياً

لقرار تعليق مفاوضات الحكم الذاتي اسباب عديدة منها ما هو معلن وما هو طي الكتمان ، اما دوافع الرئيس السادات ، كما اوردتها وسائل الاعلام الاسرائيلية ، فهي :

اولاً : تذمر السادات من التقدم الضئيل ، والذي لا يكاد يكون محسوساً حتى الآن ، طوال فترة المفاوضات .

ثانياً : رغبة السادات في الرد على التصلب الذي ابدته اسرائيل ، خلال جولات المفاوضات وبخاصة على اعلان رئيس الحكومة بيغن ، الذي جاء فيه : «أن الامن الداخلي والخارجي في مناطق الحكم الذاتي يجب ان يكون بيد اسرائيل وتحت مسؤوليتها » (« **معاريف** » ١٢/٥/١٩٨٠) .

دوافع القرار اسرائيلياً واميركياً

من خلال المشاورات الداخلية في اسرائيل ، والاتصالات مع واشنطن ، للوقوف على الدوافع الحقيقية لقرار السادات ، بتعليق مفاوضات الحكم الذاتي ، تبين التالي :

١ ـ « تسعى مصر من وراء هذا القرار الى تجنيد ضغط على اسرائيل ، من جانب الادارة الاميركية ، بهدف تغيير موقفها في المفاوضات .

٢ ـ « كان تقدير القاهرة أنه من غير المتوقع احراز انجازات جوهرية في مفاوضات الحكم الذاتي حتى تاريخ ٢٦/٥/١٩٨٠ ، لذا كان السادات مضطراً لخلق ازمة قبل هذا الموعد ، من أجل أن يبرر ، بعد ذلك ، تجديد هذه المفاوضات ، بعد هذا التاريخ ، في ظروف جديدة ومختلفة تماماً .

٣ ـ « رغبة السادات في الحؤول دون تواجد الوفد الاسرائيلي في القاهرة ، اثناء القائه خطابه ، يوم ١٤

ايار ، فهو مهتم بابعاد الوفد الاسرائيلي الذي قد يسرق منه الاضواء .

٤ ـ « رغبة السادات في اتباع طريقة المماطلة ، الى ما بعد موعد انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة ، وذلك لافتراضه ، أن الرئيس الاميركي المنتخب يستطيع ممارسة ضغوط كبيرة على اسرائيل ، فترضى بتحقيق الحكم الذاتي كاملاً » . (**المصدر نفسه**) .

وهذه التبريرات والدوافع أوردتها مصادر اسرائيلية ، ايضاحاً للحقيقة ، وهي التالية : « انه خلال المفاوضات في هرتسليا لم يظهران المصريين يتعجلون استكمال المفاوضات في تاريخها المحدد » (**المصدر نفسه**) .

وأياً كانت الدوافع والاتجاهات ، فإنه من الصعب ان نجد اتجاهاً ، لدى السلطات المصرية ، للتملص من اطار اتفاقيتي كمب ديفيد ، والبحث عن حلول بديلة ، مثل العودة الى مؤتمر جنيف ، أو مجلس الدول الاوروبية . ومع هذا ، فإن جهات سياسية في القدس تعتقد : « انه اذا كان قد قدر للمفاوضات ان تنفجر ، فمن الافضل ان تكون مصر هي الجهة المفجرة ، والسبب في وقف المفاوضات ؛ ومن الافضل ان تكون « نقطة التفجير » موضوع الامن ، خصوصاً انه ذو قيمة من الدرجة الاولى بالنسبة لاسرائيل » (« **عل همشمار** » ٢٠/٥/١٩٨٠) .

لذا ، فان التجارب ، خصوصاً من خلال مفاوضات الحكم الذاتي ، علمت الجميع ان المختلفين ، على غرار الخلاف بين اميركا ومصر واسرائيل ، ليسوا مختلفين كثيراً ؛ اذ ان اختلافاتهم هي نتيجة طبيعية يتوقعها كل منهم ؛ ولكن ليس من شأنها حمل أي منهم على الخروج من السياسة الاساسية .

ثبات الموقف الاسرائيلي

وعلى الرغم من الصيغ الغامضة التي كانت تصدر في اعقاب كل جولة مفاوضات ، بقي الموقف الاسرائيلي ـ منذ اول جولة في بئر السبع وحتى آخر جولة في هرتسليا ـ واضحاً وثابتاً ، تقريباً ، باستثناء بعض التكتيكات التي لا تمس جوهر الموقف .

وهذا الموقف ، اضافة الى نقاط الخلاف التي أشرنا اليها ، يتمثل ايضاً ، في ان اسرائيل تريد تطبيق حكم ذاتيٍّ للسكان وليس للارض ، كما تريد السيطرة على مصادر المياه ، وعلى الامن ، وترفض ان تكون للحكم الذاتي صلاحيات تشريعية ، وتتمسك بتطبيقه على النمط الذي تريده . على هذا الاساس كان وقف المفاوضات ، وتعليقها من جانب مصر ، مصدر ازعاج لاسرائيل .

أما الرأي الذي اخذ يتبلور في القدس فهو : « ليس لاسرائيل مصلحة في المماطلة بالمفاوضات ، فالعكس هو الصحيح ، ان إسرائيل معنية بأن تبحث في اسرع وقت ممكن ، إن كان ذلك ممكناً ، ردم الهوة بين الموقفين . وكلما طرحت مواضيع الخلاف بحدة ووضوح ، على مائدة المفاوضات ، أمكن لنا أن نقرر ، ما اذا كان بالامكان التوصل الى صيغة لردم الهوة وتقريب وجهات النظر ، ام ان هناك حاجة لعقد مؤتمر آخر في كمب ديفيد ، بحضور الرئيس كارتر » (« **معاريف** » ، ١٢/٥/١٩٨٠) . وبهذا الصدد يعتقد عدد كبير من الاسرائيليين والمصريين « أن مؤتمر كمب ديفيد ـ « ب » فقط ، قد يحول دون حدوث ازمة من شأنها أن تعصف باتفاقيتي كمب ديفيد الاولى » (**المصدر نفسه**) . وهنا يبقى السؤال ، هل الادارة الاميركية مؤهلة لهذا في الوقت الحاضر ، اي قبل شهور معدودة من انتخابات الرئاسة الاميركية ؟ .

وأياً كان استعداد الولايات المتحدة ، « فإن اسرائيل تشترط ، لاستئناف مفاوضات الحكم الذاتي ، تحديداً مسبقاً لاهداف هذه المفاوضات من جانب الولايات المتحدة » (ر . إ . إ ، ٥ ـ ٦/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٤ ، ص ١١) وهذا يعني العودة من جديد لمراجعة كل ما بحث وكل ما تم التوصل اليه بعد اكثر من سنة من بدء المفاوضات .

ردود الفعل الاسرائيلية على قرار التعليق

بعد قرار السادات بتعليق المفاوضات ، صدرت تصريحات وردود فعل اسرائيلية عديدة ، توضح موقف اسرائيل ، ليس من الحكم الذاتي فحسب ، بل من اتفاقيتي كمب ديفيد ككل . ففي مذكرة بعث بها مناحيم بيغن الى السادات ، حول قرار التعليق ، جاء : « انني احمِّل مصر مسؤولية وقف المفاوضات ، واتوقع أن تبادر الى تجديدها » (« **هآرتس** » ، ٢٠/٥/١٩٨٠) . وأشار بيغن ألى ان المصريين قد بدلوا مواقفهم اربع مرات ، خلال ثمانية ايام ، بالنسبة لاستمرار المفاوضات . ومن ناحية أخرى « أوصى رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض ، دكتور بورغ ، اعضاء الحكومة بعدم الانفعال من قرار السادات ، حيث ان هذا القرار

ليس نهاية المطاف » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٥/١٢) . واضاف بورغ بان الادارة الاميركية ومؤسساتها المختلفة تبذل في الايام الاخيرة جهداً كبيراً للايحاء بان شيئاً ما سيحدث في هذا المجال .

وبعد مشاورات اجراها رئيس الحكومة بيغن مع وزير الخارجية شامير ووزير الداخلية بورغ ، « اكد على رغبة اسرائيل في انجاز الحكم الذاتي وتطبيقه ، وتنفيذ اتفاقيتي كمب ديفيد ، اضافة الى تمسكه بالسلام » (**هآرتس** » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) . الا ان بيغن عاد وتراجع عن هذا الكلام مهدداً « بان اسرائيل لن تنفذ المرحلة الاخيرة ، بالنسبة للانسحاب من سيناء ، بعد سنتين ، قبل ان يتم التوصل الى اتفاق حول اقامة قوة رقابة دولية تضمن تجريد شبه جزيرة سيناء من السلاح » (**يديعوت احرونوت** » ، ١٩٨٠/٦/١) . وقد خلق هذا التصريح الذي ألقاه بيغن امام لجنة الخارجية والأمن ، في الكنيست ، ازمة في العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية ، سوّيت بعد ايضاحات قدمها السفير الاسرائيلي في مصر ، الياهو بن اليسار ، الى الرئيس السادات الذي اعتبر الموضوع منتهياً .

وكانت هناك مواقف غير رسمية صادرة عن المعارضة في اسرائيل ، حيث ابدت هذه المصادر وجهات نظر متعددة ومختلفة بالنسبة للحكم الذاتي ، وبالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط ككل . فقد قال شمعون بيرس ، امين عام حزب العمل ، وصاحب الحظ الأوفر في تولي رئاسة الحكومة القادمة : « انه لا يؤمن باحتمال تحقيق الحكم الذاتي ، وبناء عليه يجب العودة الى الخيار الاردني من اجل الوصول الى الاتفاق ... ليست هناك ضمانة بان نصل الى اتفاق مع الاردن ، ولكن هناك احتمال كبير في ان ندخل في مفاوضات معها » (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) .

وخلال حديثه عن التسوية ، اقترح بيرس ، ان تكون الضفة الغربية منطقة مجردة من السلاح ، في حالة الاتفاق مع الاردن . ومن الأفضل ،ان نصل الى تسوية جزئية مع الملك حسين ، وان نقدم تنازلات اقليمية له ، بدلاً من ان نتركه يعمل وفقاً لشروط منظمة التحرير الفلسطينية » (**المصدر نفسه**) .

من جهة اخرى ، لخص موشي دايان ، وزير الخارجية السابق ، الوضع في الضفة الغربية وقطاع غزة بالمثل الاسباني القائل : « عندما تنبت الاشواك في الربيع يمكن سحقها بقدم حافية ، أما اذا تركتها حتى الصيف فان قطيعاً من الفيلة لا يستطيع المرور عبرها » .

وقال : « ان استعدادنا لمنح سكان الضفة الغربية وقطاع غزة حكماً ذاتياً ، زاد من اصرارهم على المطالبة باكثر من هذا » (« **يديعوت احرونوت** » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) . ثم عاد دايان وطالب بفرض الحكم الذاتي من جانب واحد ، وقال : « اذا رغب سكان الضفة بادارة وتصريف شؤونهم بانفسهم ، بناء على اسس الحكم الذاتي المقترح ، فإننا نرحب بهم ، وإذا رفضوا ، ينبغي علينا تعيين ادارة ذاتية من ضباط الجيش الاسرائيلي لتدير شؤونهم؛ اي ينبغي علينا فرض الحكم الذاتي من جانب واحد » (**المصدر نفسه**) . ثم اعترض دايان على طريقة الحكومة ، في اجراء المفاوضات ، من الناحية التقنية ، وقال : « لا أعتقد ان الطريقة الحالية ، التي تسير بها الحكومة ، ستؤدي الى خلق حكم ذاتي » . وطالب دايان بتقليص اللجنة الوزارية المفاوضة واتباع طريقة كيسنجر في التفاوض . اما الحقيقة الجوهرية التي تحول دون تحقيق الحكم الذاتي ـ كما يرى دايان ـ فهي : « اننا نتفاوض مع المصريين وليس مع اصحاب الشأن ، الأردنيين والفلسطينيين ، الذين يرفضون الاشتراك : فالسادات لا يملك تفويضاً من هذه الجهات ، وإن أي اتفاق قد نصل اليه لا يمكن ان يلزم الاردنيين ولا الفلسطينيين » (**يديعوت احرونوت** » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) .

اما رئيس الحكومة السابق ، يتسحاق رابين ، فقد رفض انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ، وإقامة دولة فلسطينية وذلك بسبب المخاطر الامنية ، خصوصاً ان الضفة الغربية يمكن ان تكون « خشبة قفز » لهجوم مدرع في اتجاه مراكز التجمعات السكانية الحيوية لاسرائيل : حتى ان تجريد الضفة من السلاح ، ووضعها تحت سيطرة عربية ، امر خطير جداً ، والحل الانسب هو : « حكم ذاتي له صلاحيات اوسع على رقعة صغيرة ، على اساس مشروع آلون ، أي نظام وصاية اسرائيلي ـ اردني على الضفة الغربية لفترة خمس سنوات ، على اساس اتفاقيتي كمب ديفيد » (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٥/٣٠) .

ويبدو ان حزب العمل الذي يستعد لاستعادة السلطة في اسرائيل لا يدخر جهداً في سبيل افشال الحكم الذاتي ، بالطريقة التي تعتمدها الحكومة

الحالية ، فقد قال البروفسور رعنان فايتس (من حزب العمل والذي يشغل رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية) : « ان السياسة التي تتجاهل المشكلة الفلسطينية : مثل سياسة الحكم الذاتي والاستيطان ، هي التي ستؤدي بالذات الى قيام دولة فلسطينية ، في ظل اسوأ ظروف تمر على إسرائيل » ، وأضاف : « انا مع حق تقرير المصير للفلسطينيين ، وكلما اسرعنا في فهم هذا الموضوع ، أمكننا ان نبلور سياسة تقود الى اتفاق سلام » (**عل همشمار** » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) .

من ناحية اخرى دعا بيرس الى القيام بمبادرة جديدة ذات ثلاثة جوانب :

١ ـ تنفيذ الحكم الذاتي في قطاع غزة .

٢ ـ دعوة الملك حسين للتفاوض بشأن مستقبل الضفة الغربية .

٣ ـ تحقيق الاستيطان في الضفة من اجل الامن والسلام .

وقال بيرس : « ان تنفيذ سياسة كهذه يمكن ان تعيد المبادرة الى اسرائيل ، وان تثير اصداء طيبة لدى الدول العربية الاخرى ، خصوصاً الاردن والسعودية ، وان رفض الملك حسين اجراء مفاوضات مع اسرائيل ، ليس هو نهاية المطاف ، فالملك سيرد بالايجاب على دعوة جديدة ، لانه يسير في اتجاه اقامة ائتلاف فلسطيني يؤدي الى تقرير المصير في اطار اردني ـ فلسطيني » (**دافار** » ، ١٩٨٠/٥/٥) .

الاتصالات مع الاردن

في مجال مفاوضات الحكم الذاتي ، كشف مناحيم بيغن ، في مقابلة صحفية نشرت في الولايات المتحدة : « ان الحكومة الاسرائيلية اجرت محادثات مع الملك حسين ، بشأن التسوية في الضفة الغربية ، وان هذه المحادثات والاتصالات لم تسفر عن اي اتفاق » واضاف : « ان هذه الاتصالات بدأتها حكومة « المعراخ » واستأنفها وزير الخارجية موشي دايان في حكومة الليكود »(« ر . إ . إ . » ، ٤ ، ١٩٨٠/٦/٥ ، ٢٠٧٣ ص ١٦) . وكانت اسرائيل قد عرضت على الملك حسين في هذه الاتصالات السرية ، « مواصلة سيطرتها على القدس ، والاحتفاظ بقوات اسرائيلية في نقاط استراتيجية في الضفة ، مقابل سيطرة الاردن على بعض المناطق ، بما في ذلك غور الاردن وحرية الوصول الى ميناء حيفا » (**المصدر نفسه**) . وقد رفض الاردن هذا العرض مطالباً بالسيطرة الكاملة على الضفة الغربية والقدس الشرقية . واضاف بيغن : « ان هذه الاتصالات اوقفت ، عندما تبين ان الملك حسين غير مستعد لأي حل وسط » (**المصدر نفسه**) .

من جهة اخرى ، وجه بيرس ورابين نقداً شديداً لرئيس الحكومة ، بسبب كشفه عن هذه الاتصالات ، الامر الذي قد يحول دون قيام حكام عرب آخرين باجراء اتصالات مشابهة . وقال بيرس : « ان للمفاوضات مع الملك حسين ، بشأن تسوية اقليمية ، اساساً اكثر صلابة من المفاوضات مع العرب الاخرين ، حول مشروع الحكم الذاتي ، أو أية تسوية اخرى » (« ر . إ . إ . » ، ٥ ، ١٩٨٠/٦/٦ ، ٢٠٧٤ ص ١٢) أما رئيس الحكومة مناحيم بيغن فقد تحدث عن اتصالاته ولقاءاته بالملك حسين قائلاً : « انها لم تكن اكثر من سر مكشوف ، وان حسين رفض في جميع المناسبات الاقتراح المعروف « بالتسوية الاقليمية » ، وان مكان هذه التسوية كان احد الكواب السيارة وليس الارض » !

موقف مصر والولايات المتحدة من الحكم الذاتي

لقد سبق واشرنا في فقرة سابقة من هذا التقرير الى ان الخلاف بين ثالوث كمب ديفيد ليس كبيراً ، فهو نتيجة طبيعية يتوقعها كل منهم ، وليس من شأنها حمل اي منهم على الخروج من السياسة الاساسية . فقد افادت مصادر مصرية في القاهرة « بان مصر مستعدة لتجديد المفاوضات ، والاستمرار فيها حتى نيسان ١٩٨١ ، شريطة ان تحصل على ضمانات من الولايات المتحدة ، بشأن سياسة اسرائيلية تجاه القدس والمستوطنات » (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٥/٢٨) .

اضافة الى كل هذا ، ذكرت « هآرتس » (١ ـ ٦ ـ ١٩٨٠) « ان الرئيس السادات ينتظر مبادرة اميركية لتجديد المفاوضات ، حول الحكم الذاتي . ويشاركه في هذا الانتظار ، رئيس تحرير مجلة « اكتوبر » انيس منصور ، الذي توقع تجدد المفاوضات في الايام القليلة المقبلة .

من جهة اخرى علق السكرتير الاول في السفارة المصرية ، في اسرائيل ، على قرار السادات ، بتعليق المفاوضات قائلاً : « هذا تراجع مؤقت فقط ، ولا اعتبر هذا القرار فشلاً لمسيرة السلام ، كما ان قرار الحكومة الاسرائيلية الاخير بشأن القدس ، لم يكن السبب الوحيد المباشر في تعليق المفاوضات ، فقد سبقت هذا القرار سلسلة طويلة من التصريحات

والاحداث والتطورات ، في اسرائيل ، لم تساعد في خلق جو مريح لاستمرارها ، وان القرار الخاص بالقدس كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير » (« دافار » ، ٢٢/٥/١٩٨٠)

وبرزت المصلحة الاميركية والاسرائيلية ، بشكل واضح ، في تجدد واستمرار مفاوضات الحكم الذاتي ، لكونها تشكل الغطاء الذي يخفي ، عن انظار العالم والدول العربية ، اخطار هذه السياسة وعيوبها ؛ كما ان هذه المصلحة ازدادت بعد نية الدول الاوروبية تقديم مبادرة خاصة بها ، من شأنها تقويض اتفاقيتي كمب ديفيد ، ولهذا السبب « تشترط الولايات المتحدة لتجديد المفاوضات ، تعهد اسرائيل بعدم تغيير الوضع الحالي لمدينة القدس ، فإن وافقت اسرائيل على هذه الصيغة الاميركية ، فإن المفاوضات قد تتجدد خلال اسبوع » (« هآرتس » ، ١/٦/١٩٨٠) . ومن اجل الخروج من هذه الازمة ، وتبرير تجديد المفاوضات ذكرت شبكة التلفزيون الاميركية ، (ان - بي - سي) ، نقلاً عن كبار الموظفين في الادارة الاميركية ، قولهم « انه من غير الممكن انهاء مفاوضات الحكم الذاتي قبل الخريف القادم ، اي بتأخير اربعة شهور على اقل تعديل ، بعد الموعد المحدد لها » (« معاريف » ، ١٢/٥/١٩٨٠) .

بعد ذلك اقترح السفير الاميركي ، في اسرائيل ، على الدكتور بورغ ، رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض ، استئناف المفاوضات في واشنطن على مستوى رؤساء الوفود دون طرح شروط مسبقة . لكن اسرائيل ابدت استعدادها الدائم لتجديد المفاوضات شريطة ان يتم تحديد المسائل التي سيتطرق الحديث اليها قبل بدء المفاوضات (« ر . إ . إ . » ، ٥ ، ٦/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٤ ، ص ١١) .

ففي مذكرة بعث بها الرئيس كارتر الى رئيس الحكومة مناحم بيغن ، محاولاً التلويح بمبادرات بديلة لاتفاقيتي كمب ديفيد ، - الامر الذي ترفضه اسرائيل - قال : « اذا لم تقم اطراف مفاوضات الحكم الذاتي ببذل جهد لتذليل الصعاب ، فان المبادرة السياسية في المنطقة قد تنتقل الى الامم المتحدة والى الدول الاوروبية ... فالسادات لا يطرح شروطاً جديدة ، بل يطالب بتحسين الجو العام والثقة المتبادلة » (« دافار » ، ١٩/٥/١٩٨٠) .

وبعد اتصالات ومشاورات جرت بين اطراف كمب ديفيد ، اعلن البيت الابيض ، ان مصر واسرائيل وافقتا على ايفاد مسؤولين كبار الى واشنطن ، من اجل الاعداد لاستئناف محادثات الحكم الذاتي ، وان موعد اجتماع هؤلاء المندوبين مع السفير سول لينوفيتس سيعلن في المستقبل القريب ، وسيمثل اسرائيل يوسف بورغ ، ومصر كمال حسن علي . (« ر . إ . إ . » ، ١١ ، ١٢/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٩ ، ص ٧) .

المبادرة الاوروبية

على ضوء فشل مفاوضات الحكم الذاتي - على الاقل حتى الآن - وعدم ايجاد حل عادل يرضي الفلسطينيين اقدمت الدول الاوروبية ، المتمثلة بالسوق الاوروبية المشتركة ، على طرح مشاريع وافكار لدفع قضية الشرق الاوسط نحو الحل الذي يضمن لاوروبا مصالحها في هذه المنطقة ، وخصوصاً مصالحها النفطية .

فقد طلب وزراء خارجية كل من فرنسا والمانيا الغربية وبريطانيا من وزير الخارجية الاميركية ماسكي « فرض ضغوط على اسرائيل ، بهدف دفع مفاوضات الحكم الذاتي الى الامام ، وهددوا بأنه اذا لم يحدث تقدم ، فإن هذه الدول ستقدم ، قريباً ، اقتراحاً لتغيير قرار مجلس الامن (٢٤٢) ، بصيغة مقبولة لدى العرب » (« هآرتس » ، ٢٠/٥/١٩٨٠) . حيال هذا الموقف اعلن الرئيس الاميركي انه قلق من التدخل الاوروبي في مفاوضات الحكم الذاتي ، وانه سيستعمل حق الفيتو في الامم المتحدة ، بهدف الحؤول دون الاخلال بمسيرة كمب ديفيد ، حتى لو غضب الاوروبيون ، « فإننا لن نسمح بأي نشاط في الامم المتحدة من شأنه الاخلال بالصيغة الحالية للقرار ٢٤٢ » (« هآرتس » ، ١/٦/١٩٨٠) . وفي هذا الصدد أشار بورغ ، رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض ، إلى المبادرة الاوروبية بقوله : « انها احد الاخطار التي تهددنا في حالة انهيار مفاوضات الحكم الذاتي ... وعلى ضوء هذه المبادرة الاوروبية فمن الحكمة الاستمرار في طريق المفاوضات مع مصر والولايات المتحدة » (« هآرتس » ، ٣٠/٥/١٩٨٠) .

ولم تكن اسرائيل المتخوف الوحيد ، من المبادرة الاوروبية ، فقد رفضتها مصر ، واشترطت ان تكون مكملة لاتفاقيتي كمب ديفيد ؛ فقد اعلن وزير الخارجية المصرية بطرس غالي : « ان مبادرة اوروبية تتعارض واتفاقيتي كمب ديفيد ، يمكن ان تشكل خطراً على مسيرة التقارب بين مصر والدول العربية

المعتدلـة » ، واضاف « بإن هذه المبادرة يمكن ان تزيد من الخلاف بين اميركا واوروبا . لذا فإن الوقت غير مناسب لادخال تغييرات على القرار ٢٤٢ » . وأنحى باللائمة على اسرائيل لانها لم تنجح في خلق الجو المناسب لاشراك الفلسطينيين في المفاوضات (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٦/١) .

من جهة اخرى ، تقوم عواصم دول السوق الاوروبية المشتركة باجراء مشاورات مع واشنطن حول مبادرتها لحل قضية الشرق الاوسط ، « هذه المشـاورات تستمد ضـرورتهـا من كـون بعض السيـاسيين الاميـركيين ، اشـاروا الى احتمـال استعمال حق الفيتو ضد اي مشروع اوروبي من شأنه تغيير القرار ٢٤٢ ، او الحلول مكان مبادرة السلام بين مصر واسرائيل » . (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) . غير ان بعض الاوسط تعتقد ، بان دول السوق تدرس الآن ، امكانية بلورة مبادرة بهذا الشأن ، رغم معارضة الـولايات المتحـدة والرئيس كارتر . فقد قال بعض المراقبين السياسيين عن تحذير كارتر للدول الاوروبية : « اننا نشك في جـدوى هـذا التحـذيـر » (« **هـآرتس** » ، ١٩٨٠/٦/٢) . ونوه المراقبون بموقف معظم الدول الاوروبية من الولايات المتحدة ، حين دعت الى مقاطعة دورة الالعاب الاولمبية في موسكو .

وترافقت الجهود الاميركية والاسرائيلية لمنع مثل هذه المبادرة ، من جانب الدول الاوروبية ، فقد دعا رئيس الحكومة منـاحيم بيغن الدول الاوروبيـة وبرلماناتها وشعوبها ، الى « العمل للحيلولة ، دون اعتـراف الـدول الاوروبيـة بمنظمـة التحـريـر الفلسطينية ، كشريك في المفاوضات ، وبحق العرب في [الضفة الغربية] وقطاع غزة ، في تقرير المصير ، الذي يعني اقامة دولة فلسطينية تشكل خطراً على وجـود اسرائيـل » (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٦/٣) .

واضاف بيغن : « ليس من حق الدول الاوروبية الاعتراف بالمنظمة ، وبالتحديد ، ليس من حق المانيا التي قتلت ستة ملايين يهودي ، ان تقول لنا ، اعترفوا بمنظمة التحرير الفلسطينية التي تسعى لتدمير اسرائيل » (**المصدر نفسه**) ومن جهته ، اعرب وزير الدفاع السابق ، عيزر وأيزمن ، عن معارضته للمبادرة الاوروبية ، فهـو يعتقد « ان باستطاعة اسرائيل ومصر ، التوصل الى اتفاق ، بواسطة المفاوضات المباشرة ، وعندها لن تكون هناك حـاجـة للمبـادرة » (« ر . إ . إ » ، ١٠ ، ١٩٨٠/٦/٢ ، ٢٠٧٠ ص ١١) .

وكانت اسرائيل قد اوفدت وزير خارجيتها اسحاق شامير للقيام بجولة في عواصم بعض الدول الاوروبية لاقناعها بالعدول عن هذه المبادرة . وفي ختام هذه الجولة قال شامير : « هناك خلافات في الرأي ، وسوء تفاهم ؛ ويجب مواصلة الحوار والاقناع ، وقد حظينا بالتأييد ، بشكل او بآخر » . (« ر . إ . إ . » ، ٩ ، ١٩٨٠/٦/١٠ ، ٢٠٧٧ ، ص ٨) .

موقف بعض الدول الاوروبية

قبل انعقاد المؤتمر ، أعلنت بعض الدول الاوروبية مواقفها من المبادرة واحتمالات ادخال تعديل على القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن . فقد قال وزير خارجية هولندا : « أشك ، من حيث التوقيت ، والواقع العملي ، في جدوى خطوة اوروبية لتغيير قرار مجلس الامن ٢٤٢ » (**هـآرتس** ، ١٩٨٠/٦/٢) .

اما موقف الدانمارك من تغيير القرار ، فقد عبر عنه وزير خارجيتها ، كيالد اولسون بقوله : « لقد بحثنا هذا الموضوع في الاسبوع الماضي في مؤتمر القمة للسوق في لكسمبورغ ، وقررنا ان يقدم وزراء خارجية السوق اقتراحاً بهذا الشأن في مؤتمـر البندقية ، وبالضرورة يمكن ايجاد ربط بين القرار ٢٤٢ ومطالب دول السوق » (**معاريف**، ١٩٨٠/د/١٢) .

واضاف وزير الخارجية ، إن بلاده لن تتدخل في قضية من يمثل الفلسطينيين ، إذ أنه من الصعب الآن ايجاد تنظيم يمكنه ان يمثل الفلسطينيين مثل م . ت . ف ، وليست هناك جدوى من استمرار البحث في ماضي هذه المنظمة (**المصدر نفسه**) .

اما الموقف الفرنسي فقد تجسد في سعي الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان للحصول على مساعدة البابا لتوجيه نداء يدعو الى رفض القانون الذي اقره الكنيست بالقراءة الاولى حول وضع القـدس (« **هآرتس** » ، ١٩٨٠/٦/١) . وذلك تمهيداً لاتخاذ قرارات تتجاوز اتفاقيتي كمب ديفيد في مؤتمر البندقية . ففي اليوم الاول لمؤتمر البندقية « تسربت شائعات تتحدث عن ضغط فرنسي للاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للفلسطينيين ، بل ان فرنسا اعلنت انها تنوي الاعتراف بالمنظمة ، دون موافقة بقيـة الدول » (« ر . إ . إ » ، ١٢ ، ١٩٨٠/٦/١٣ ، ٢٠٨٠ ، ص ٣) .

ثم صدر عن القمة بيان ختامي اثار ردود فعل واسعة في اسرائيل سنتناولها في العدد القادم .

مكرم يونس

Palestine Affairs

No. 104, July 1980

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

الثمن : ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الإمارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل
٧٥٠ درهماً في المغرب